
روائع
من كتابات
الشيخ العلامة
حاتم بن عارف العوني
الجزء الثاني
جمع وإعداد
عمر بن عبد المجيد البيانوني

حقُّ الطبعِ مباحٌ لكلِّ مَنْ أراد بشرط المحافظة على الأصل

جزى اللهُ خيراً كلَّ مَنْ أعان على نشر هذا الكتاب وتوزيعه

للتواصل مع عمر البيانوني

https://omarbianony.wordpress.com/

البريد الالكتروني:

xOMAR88x@gmail.com

بالفيس بوك:

facebook.com/OMARBIANONY





روابط لتحميل الجزء الأول من هذا الكتاب:

http://s.v22v.net/qezh

http://saaid.net/book/open.php?cat=8&book=12336

http://www.awda-dawa.com/Pages/SubmitArticle/View.aspx?id=23474

http://www.dr-alawni.com/books.php?show=13

http://vb.tafsir.net/tafsir39044/#.VLKudHs2jmY

http://www.gulfup.com/?oHOoG1





مُقَدِّمَة

الحمدُ لله الذي علَّمَ بالقَلَم، علَّمَ الإنسانَ ما لم يَعلَم، والصلاةُ والسلامُ على النبيِّ المصطفى هادي الأُمَم، وعلى آله وصحبه مَنْ أناروا الدَّيَاجي والظُّلَم، أمَّا بعد:

كأنِّي بكَ ـ متَّعَكَ اللهُ بنُورِ الإنصاف، وحَماكَ ومنعَكَ ظَلامَ الإجحاف ـ قد قرأتَ الجزءَ الأولَ من هذا الكتاب، فأعجبَكَ ما وجدتَ فيه مِنْ بدائعِ الفوائد، ودُرَرِ اللطائفِ والشَّوَارِد، مما كَتَبهُ فضيلةُ الشيخِ العالِمِ الشريف حاتم بن عارف العوني ـ وفقه الله ونفع به ـ، وكأنَّكَ تنتظر مِنْ فوائدِه المزيد، ممَّا يَطرب له ذو العقلِ السَّدِيد، والفهمِ الرَّشيد.

وإنِّي مِنْ خلال قراءتي لكتاباته وجَمْعِها قد اجتمع لديَّ ما يزيد على الكتاب الذي نشرتُه في الجزء الأول، فرأيتُ أن أقومَ بترتيبها والانتقاء منها ونشرها، عَسَى أنْ يَعُمَّ خيرُهَا ونفعُهَا.

وها هو الجزء الثاني من:

(روائع مِنْ كتاباتِ الشيخِ العلَّامةِ الشريف حاتم بن عارف العوني)

وقد رتَّبتُ هذه الروائع على عشرة أقسام، ووضعتُ تحت كل قسم: عناوين فرعية جعلتُها بين (قوسين)، وما كان بدون (قوسين) فهو من عناوينه.

١ـ في الإيمانِ وتَزكيةِ النَّفْس.

٢ـ في الأخلاقِ والسُّلُوك.

٣ـ تأملاتٌ قُرآنيَّة.

٤ـ قُطُوفٌ لُغَويَّة وأدبيَّة.

٥ـ نُورُ الحقِّ وظُلُمَاتُ الطُّغيَان.

٦ـ العقلُ في الإسلام.

٧ـ مَعَالِـم في المنهجِ العِلميِّ وأدَبِ الخِلاف.

٨ـ في التقليدِ والاجتهَاد.

٩ـ تصحيحُ بعضِ المفاهيمِ المغلوطة.

١٠ـ في أُصُولِ الفِقْه.

وأسأل الله أنْ يرزقَني وإياك مِنَ الإخلاص أكملَـه، ومـن التوفيـق أشـملَه، ومـن الرحمـة أوسعَها.. إنه سميعٌ مجيبٌ والحمدُ لله ربِّ العَالمين.

١٥/ ٤/ ١٤٣٦هـ

عمر بن عبد المجيد البيانوني







في الإيمانِ وتزكيةِ النَّفْس

(اللهُ خَلَقَنَا لِيُسْعِدَنَا بِطَاعَتِهِ)

عندما نقرر أن الغاية من خلقنا هي تحقيق العبودية لله تعالى، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ الذاريات: ٥٦، يجب أن نكمل هذا التقرير!

فإذا إذا تذكرنا أن تحقيق هذه العبودية إنما يتم بالتمسك بشرع الله تعالى، وأن شرع الله تعالى إنما جاء لجلب المصالح وتكثيرها ولدفع المفاسد وتقليلها.

وإذا تذكرنا أن طاعتنا لربنا وعبادتنا له لا ينتفع بها إلا نحن، وأنها لا تنفعه تعالى طاعة ولا تضره سبحانه معصية. فالمنتفع الوحيد من العبادة هو العبد نفسه، بالشعور بالطمأنينة والسعادة.

والمتضرر الوحيد من المعصية هو العبد نفسه، بالاضطراب النفسي والتعاسة، ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ النحل: ٣٣.

يتضح من ذلك أن الغرض من تحقيق العبودية لله تعالى هو نفع البشر وإسعادهم!

وبذلك يتضح: أنه إن كان تحقيق العبودية هو المقصود من إيجادنا، وتحقيق السعادة لنا هو المقصود من تحقيق العبودية؛ فتحقيق سعادتنا هو الهدف الأسمى من إيجادنا.

فلماذا لا نذكر أنفسنا دائماً بهذه الحقيقة الجميلة: وهو أن الله خلقنا ليسعدنا بطاعته والتعبد له!!

* * * * *

(حُبُّكَ لله لا يَنتَهِي عِنْدَ غَايَةٍ فلا ترضَ بالدُّونِ)

إذا أحببت اللهَ تعالى، واستشعرتَ هذا الحُبَّ، برؤية حكمة الله تعالى وجمالها حتى في الابتلاء بالمصائب، فهي منزلة عالية من الحب ولا شك، لكن إياك والاغترار بهذا الحب، فلا تقل: ما دمت قد رأيت محابَّ الله تعالى حتى في ابتلائه، فلا أخشى على إيماني!!

لأن هذا إفسادٌ للحُبِّ بالمَنِّ، وكأنَّك تمنُّ على ربك بحبِّه، وهو مَنْ حَبَّبك فيه، وأكرمك برؤية جمال حكمته وأنوار كماله؛ ولأنك أضعف من أن تثق بحبك أمام قوة الله تعالى وشدة امتحانه.

ثم لا تطمع أن تصل في حب الله تعالى لغاية، فليس لحب الرب عز وجل غاية، فحبُّه تعالى لا غاية له، كما كان كماله سبحانه لا حد له.

ومن رضي بغاية فيما لا غاية له، فقد رضي بالدون، وتوقف في منتصف الطريق. ومن تابع المسير، شُكرت خُطاه، وحُمد إدلاجه، ولو لم يصل؛ فإن غاية ما لا غاية له: هو متابعة السير.

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

(السَّمَواتُ والأرضُ تَفْسُدُ إذا كانَ لها غيرُ اللهِ فكيفَ بِقَلبِكَ لو كانَ فيه آلهةٌ غيرُ الله)؟!

يقول تعالى عن السموات والأرض: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتَا﴾ الأنبياء: ٢٢، فإذا كانت السموات والأرض تفسد وتخرب لو كان لهما إله غير الله تعالى، على عظمهما وجلالة خلقهما، فكيف بقلبك الضعيف يا مسكين؟! لو كان فيه آلهة غير الله؟! لو جعلت لله شريكاً في قصدك، وفي توكلك، وفي اعتمادك!!

فمَنْ أراد نجاة قلبه من الهلاك وصلاحه: وحَّدَ القصدَ وقطع العلائق بغير الله تعالى.

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

(عَجْزُكَ عَنْ حَمْدِ اللهِ بِمَا يَلِيقُ بِهِ، لا يَعنِي أنْ تَترُكَ الحَمْدَ)

عجزك عن أن يكون حمدك موازياً لنعم مولاك، لا يعني أن تترك الحمد يأساً من أن تؤدي واجب الإنعام، بل يعني أن يلهج لسانك بالحمد، منطلقاً من حب هذا الرب الذي غمرك بعطاياه.

ومن جليل عطاياه: أنه رضي منك بقليل الحمد الذي يخرج من قلب مغمور بحب ربك، مستحضر عجزه عن استيعاب شكره.

وقولك: (سبحانك ما عبدناك حق عبادك)، لا تعني الاعتذار لتقصيرك، وإنما تعني الاعتذار لكثيرك، وأنك مهما عبدته، ولو بدأت حياتك بسجدة حتى تموت، ما أديت حق ربك تعالى.

فهي تسبيحة: تحميك من الإعجاب بالعمل، وتحميك من أن تكتفي بشيء منه.

كما أنها تسبيحة الاعتراف بعبوديتك؛ لأن إقرارك بعبوديتك لله تعالى تعني (فيما تعني) أنك أعجز من أن تحيط بعظمة ربك، وهو تعالى الذي لا يحيط بعظمة نفسه غير نفسه، فكيف يمكنك أن تعظمه تعظيمه الذي تستحقه عظمته التي لا يمكنك أن تدركها.

واستحضارك بأنه تعالى قد رضي منك بالاعتراف بعجزك عن عبادته حق عبادته، لأنك تعترف بعجزك عن إدراك حقيقة عظمته عز وجل؛ يزيدك حباً لربك؛ فما أرحم ربك! وما أشد لطفه ورأفته بعباده!! فقد رضي منهم بالعجز عن القيام بحقه، فكيف نقصر في القيام بحق عجزنا عن القيام بحقه؟!

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

(حَمْدُ اللهِ لا يكونُ إلَّا مِنْ صَاحِبِ الأمَلِ)

الحمد لله تعالى لا يمكن أن يصدر من قلب إلا إن كان فيه للأمل متسع كبير؛ لأن الحمد لا يصدر من قلب إلا وقد أدرك نعماً من نعم الله عليه، ولا يدرك القلب نعماً من نعم الله عليه إلا وقد رأى فيها أبواباً للخير ومواعيد للفرج وطرقاً للنجاح وآفاقاً للسعادة تنتظره من خلالها؛ وهذا هو الأمل.

فالحمد لله على كل نعمة أنعمها علينا في قديم أو حديث.

اللهم ما أصبح بنا من نعمة فمنك وحدك لا شريك لك، فلك الحمد، ولك الشكر.

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

(لَذَّةُ المُنَاجَاةِ تَفُوقُ كُلَّ مَا تَتَمَنَّى تَحقِيقَهُ)

ترك الدعاء أو الملل من استحضار اللجوء فيه، يتم بوساوس عدة، منها:

- اليأس من الإجابة (وهو شر وسواس).

- أو لاعتقاد أنك قد دعوت بإخلاص، وبقي عليك فقط انتظار الإجابة.

وتنسى أن دعاءك نفسه هو مناجاتك لله، وهو حديثك إلى مولاك، وهو عبادة تزيدك قُرْباً من سيدك، وهو صوت يحب ربك سماعه منك.

فليست الإجابة حتى لو تحققت ستغنيك عن منازل الشرف هذه، ولن تكفيك عن لذة المناجاة وإكرام الاستماع إلى حديثك استماع المحبة والرضا.

فوالله لو تحقق لك كل دعاء دعوت به، أو لم يتحقق لك منه شيء، فلا تتأخر ولا تمل عن أن تناجي إلهك، فهو مجلس لا ينيله الله إلا من يحب منه مثله!!

* * * * *

دُعَاءُ المُضطَرِ

هو دعاء من لا يدعو احتياطاً!! إن أجيب دعاؤه فبها ونعمت، وإن لم يجب فله باب يطرقه غير باب ربه تعالى! فدعاء المحتاط هذا: هو دعاء من يرجو به الإجابة ويتمناها، ولكنه لا يعتمد على الإجابة!

ادع ربك وأنت موقن أنه لا باب لك إلا بابه، ولا خير ترجوه إلا وبيده مفاتحه، ولا شر تخشاه إلا وعنده مقادره.

ادعه دعاء مضطر إليه! لأنك مضطر إليه!!

* * * * *

(مِنْ حِيَلِ الشَّيْطَانِ لِتَزْهِيدِكَ فِي الدُّعَاءِ)

يأتيك الشيطان من جهة ذنوبك، ليؤيسك من استجابة دعائك، فيقول لك: يا كاذب! ما أنت والدعاء، ألا تخجل من ربك؟! تسأله وتعصيه!!

ويأتيك من جهة الصالحات، فيقول لك: يا أيها المعجب بعملك، رُبَّ عُجبٍ بعمل صالح أشد إثماً من معصية كبيرة! بماذا تتوجه لربك؟! بعمل هو الذي وفقك إليه، ثم أنت تمن على ربك به!!

فقل له: إن الله تعالى قد قبل دعاء الكفار لما أخلصوا، ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ العنكبوت: ٦٥، ولا أتوجه إليه إلا بالإخلاص، فلا الذنب يحجب عني فضل إجابته، بعد أن قبل تعالى دعاء المشركين لما أخلصوا..

ولا العُجب هو ما أتوثق به، فلا أتوثق إلا بإخلاصي وتوحيد توجهي، وتمام ثقتي بسعة رحمته، وكمال كرمه، وتمام إنعامه سبحانه وتعالى.

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

(نَعبُدُ اللهَ حُباً لَهُ سُبْحَانَه)

يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ. الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشاً وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَكُمْ﴾ البقرة: ٢١ـ٢٢.

عندما يأمر الله تعالى الناس بعبادته مذكراً بنعمه علينا فإنه يريد منا أن يكون الداعي للعبادة هو الحب والشكر، والحياء من أن نقابل إنعامه بعصيانه.

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

(عَلَى قَدْرِ القُرْبِ يَكُونُ الطَّلَب)

على قدر المنزلة والقرب تستحق السؤال والطلب، فابن الملك يحق له أن يطلب التقرب من مجلس الملك، حتى يجلس في حجره، وللوزير أن يسأل الملك الدخول عليه بغير حجاب.

ولو طلب شخص آخر التقرب ذلك القرب ولو سأل نحو ذلك السؤال، لربما ما استحق الرفض فقط، بل استحق الرفض والعقوبة!

تأملت قول الخليل إبراهيم عليه الصلاة والسلام في قربه من ربه وخلة الله تعالى، كيف صح له أنه يقول: ﴿رَبِّ أَرِنِي كيف تُحْيِي المَوْتى﴾ البقرة: ٢٦٠، وكيف لم يصح لنا أن نطلب مثل طلبه؟!

اللهم قربنا إليك، حتى نكون أهلا لفيوضات المقربين!

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

مَفْهُومُ المُخَالَفَةِ حتى عِندَ العُبَّاد!

فقد قالت رابعة العدوية: أشد آية رجاء في كتاب الله عندي: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُواً﴾ فاطر: ٦، فكأنه تعالى يقول: وأنا حبيبكم، فاتخذوني حبيباً!!

ما ألطفَ القواعد العلمية الجافة إذا انتقلت إلى رياض القلوب!

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

(أنْ يُحِبَّ الكاملُ الناقصين)!

كلما قرأت قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقاً قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ آل عمران: ٣٧، أذهلني سؤال لا جواب له: أي حب هذا كان لمريم عليها السلام عند ربها عز وجل؟! حتى يدللها كل هذا الدلال!!

يرسل لها الطعام! يقدم لها طيباته! وهي التي زهدت في ملذات الدنيا!! أين شفقة الأم التي تقدم الطعام لولدها وتخشى عليه من نقص غذائه من هذه الرحمة الربانية والمحبة الإلهية؟! فالله تعالى يتحبب إلى أمته مريم بطيبات الطعام، لكي يزيدها فيه حباً، ومنه قرباً، وتستمتع هي بلذة هذا القرب ومتعة ذلك الوصال!!

وأن يحب البشري الناقص غيره، ويتعلق بشخص يرى فيه جوانب كمال وجمال: هذا أمر مفهوم، وربما صعب على الفهم عندما يصبح ذلك الحب عشقاً وكلفاً، رغم أن أصله مفهوم؛ فهو حب ناشئ عن نقص، ولذلك فقد فُطر الناقصون عليه.

أما أن يحب الكاملُ الناقصين! فهذا حب لا نفهمه، ولا يمكن أن نفهمه، إنه حب الله تعالى لعباده المخلصين!!

اللهم اجعلنا منهم!

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

(فَخْرِي بِمَنْ سَوَّدَنِي)

علق أحد الزهاد على قول النبي صلَّى اللهُ عَلَيه وسَلَّم: (أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ وَلَا فَخْرَ)، بقوله: لا فخر في سيادتي ولد آدم، وانما فخري بمن سودني.

أي إنما كان فرحه صلَّى اللهُ عَلَيه وسَلَّم بفناء نفسه في كمال عبوديته لربه عز وجل، إذ كمال العبودية هو كمال البعد عن رؤية النفس، فكيف تفتخر بعد ذلك نفسه صلَّى اللهُ عَلَيه وسَلَّم إلا بفخر عدم استحقاقها للفخر؛ وانحصار اعتزازها وفرحها فيما أفاض الله تعالى عليها من القرب والحب.

فأنى لهذه النفس بعد ذلك أن تفتخر بغير عبوديتها لله عز وجل.

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

(مِنْ خدَاعِ النَّفْسِ)

مخادعة النفس سهلة، ولكن التجرد والصدق في محاسبتها يفضح خداعها هذا، وقد جربت أنواعاً من خداع النفس هذا:

أحدهم يكاد ينفجر تعاظماً في نفسه، ثم يتواضع لمسكين، ليضيف إلى قائمة مناقبه: أنه متواضع.

وآخر يكاد ينشق تحزباً لطائفته، ثم ينطق بكلمة ثناء في أحد مخالفي تحزبه، وهو ينتظر أن يقيدها مترجموه في أدلة إنصافه.

وآخر يتآكل في عنصريته، ويقطر قلبه من سواد الحقد على غير منطقته أو قبيلته أوعرقه، ثم تراه يعانق شخصاً من غيرهم؛ ليقول لنفسه، هذا دليل أني ما احتقرت هؤلاء إلا لأنه ليس فيهم صاحب خير؛ إلا هذا.

فلئن قيل: لا تأمن من لم يكن خُلُقه إلا تكلُّفاً، فلا تأمن ألف مرة من كانت أخلاقياته فلتة خدعة نفسية.

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

(الشَّيْطَانُ لا يُغَرِّرُ بِالْمُحَرَّمَاتِ فقط)

قد نظن أن الشيطان لا يغرر إلا بالشهوات المحرمة والشبهات المضللة، وأنه لا يضل بنصوص من الوحي! وأنه لا يوسوس بكلمات الله تعالى!! وهذا غير صحيح!!

فما ضلَّ الخوارج وكثير ممن ضلَّ من أهل البدع إلا بنصوص من الوحي، فهموها خطأ، وبها ضلوا وخالفوا الوحي!!

وقد نغفل عن أن للشيطان عمله في هذا الإضلال، وأنه لا يهم الشيطان بم يُضِل بني آدم: بالمعاصي أم بالطاعات!! وأنه كما يضلهم بالعجب بالطاعة والاغترار بالعبادة، فقد يضلهم أيضاً بكلمات من كلمات الله، يحملونها على غير مراد الله.

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

(لَحَظَاتُ القُرْبِ ومَا قَدْ يَقَعُ لِلعَبْدِ مِنْ فِخَاخ)

كل مؤمن تمر به لحظات من القرب من ربه، يجد فيها من برد اليقين ولذة المناجاة ونفحات الأنس بربه عز وجل ما لا تذهب ذكراها مع تطاول فترات الغفلات عليه بعد ذلك، وتبقى تلك اللحظات تشوقه إلى بلوغها، ويحن أشد الحنين في الزيادة منها. وهنا قد يقع العبد في فخين من فخاخ النفس والشيطان:

الأول: أن يطلبها للذتها، ويسعى إلى بلوغها ليصل إلى نعيم جنتها. وهنا ينحرف به الطريق، ولا يبلغها أبداً؛ لأنه عندما بلغها أول مرة، بلغها يوم لم تكن هي مطلوبه، ولا خطرت لذتها على باله، بل كان الله تعالى وحده هو المطلوب، وكان تعالى هو مقصده الوحيد.

الثاني: أن يتوسل بها في دعائه على وجه التمنن بها، فهماً خاطئاً لحديث الذين آواهم الغار، فتوسلوا إلى الله في دعائهم بأفضل أعمالهم. فيظن أنهم توسلوا بها على وجه الافتخار بها، أو المقايضة والمبايعة بينهم وبين ربهم، فكأنه يقول: فعلنا وقدمنا، فجازنا بما فعلنا وأحسن إلينا بما قدمنا!!

وهذا خطأ، فالتوسل بالعمل الصالح، يكون بمعنى استحضار حالته الإيمانية في قلب الداعي، فهو يريد من ذكره ذلك العمل الصالح الجليل أن يستحضر إخلاصه في الدعاء ولجوءه الكامل إلى مولاه، يريد أن يبلغ من اليقين بقرب ربه ما كان قد بلغه عندما قدم ذلك العمل، وأن يمنع صوارف قلبه عن غير وجهة واحدة كانت قد نقلته (وهو في الدنيا) إلى نعيم لا يشبه نعيم الدنيا! فهذا الاستحضار هو أهم أسباب الإجابة، لأنه يحقق اليقين بالإجابة!!

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

(أَسْوَأُ مَا فِي الذَّنْبِ)

إن أشأم ما في الذنب لا كونه معصية، ولا استحقاقك العقوبة بسببه، بل أشأم ما فيه أنه يبعدك عن الله تعالى، بدعوى الخجل من الله تعالى، إلى أن يصل بك إلى اليأس من روح الله. ثم تخيل لك الوساوس أن رحمة الله عنك بعيدة، وأن بينك وبين دعاء الله حجاب يمنع الإجابة.

وهذا كله من تلبيس الشيطان، بل هذه هي سنة إبليس، الذي يئس من الرحمة، فبارز الله بالكفر والعصيان.

أشأم ما في المعصية أنها تجعلك تشك في حبك لله!! وحبك لله لا يجتمع واليأس من رحمته، ذلك أن الذي يمنعك من اليأس من رحمة الله هو حبك له تعالى، بل حبك الصادق لله يبغض إليك المعصية، فإن وقعت فيها لا يسمح للمعصية بأن تشككك في حبك لربك.

فإن وصلت بك المعصية إلى تشويش يقينك بحبك لله، فوالله لقد آن لك أن تبغض المعصية بغضها الأكبر، فتبغضها أشد ما تبغض ألد الأعداء وأشدهم بغيا عليك وظلما لك؛ لأنها أصبحت هي ألد أعدائك.

* * * * *

(مَظَاهِرُ الزُّهْدِ وحَقِيقَةُ الزُّهْد)

هناك فرق بين كل من مظاهر الزهد وأعماله وأحكامها، وكل من حقيقة الزهد وفقهه.

وفقه الزهد: هو علم السلوك.

فكتب الزهد: «كزهد الإمام أحمد وابن المبارك ووكيع وغيرها» تذكر أعمال الزهد.

و«الحكم العطائية» تذكر خلاصة فقهه، لكنها منثورة بغير ترتيب.

و«إحياء علوم الدين» للغزالي، وملخصاته لابن الجوزي وابن قدامة، و«مدارج السالكين» لابن قيم الجوزية، تذكر فقهه مرتباً.

ولكن تبقى «الحكم العطائية» على عدم ترتيبها متناً عميقاً في فقه الزهد!!

* * * * *

(نَمَاذِج وَاقِعِيَّة عَجِيبَة لِبَعضِ المُحسِنِين)

لقيت لليلتين متواليتين تجاراً كباراً في تركيا، ممن يدعمون العمل الإسلامي الخيري، وتعلمت منهم معاني في التواضع وفي البذل وحب الخير للناس، ما لا أكاد أعرف بعضه إلا في قصص السابقين!

١ـ أحدهم مع بذله الشديد، والذي يبلغ عشرات الملايين سنوياً. فقد أقسم أن لا يقضي العيد في بلده، وأن يقضيه في زيارة الفقراء وتفقد أحواله في تركيا وخارجها.

٢ـ أحدهم يبكي حتى تبكي لبكائه إذا أثنى عليه أحد لعطائه؛ ويقول: أنا أخدم نفسي بهذا العطاء، فكيف تثنون على من يحب نفسه؟! أنا أتاجر، لكن مع الله!!

٣ـ وآخر بنى مسجداً ضخماً في دولة جنوب أفريقيا، بتكلفة مائة وخمسين مليون دولار. ووقف على بنائه بنفسه، وشارك العمال في بنائه، حتى تم.

٤ ـ وآخر يتبرع بتسع فلل في أجمل منطقة في إسطنبول، كان ينوي أن يسكن في إحداها، ويعطي ابنه واحدة وبنته أخرى، وهي تساوي مئات الملايين.

وخلال جلسة مع شيخ فاضل، قال له الشيخ: ألا تبيعها لله؟ فقال مباشرة: بعتها. وكانوا في المساء، وبعد أن رجع إلى بيته: اتصل بالشيخ وطالبه بأن يعجل بكاتب عدل، وإلا سيرجع في عطائه. وكانوا في منتصف الليل، فظنوا أنه يريد التراجع. لكنهم بحثوا عن صديق وكاتب عدل، فذهبوا به إليه، وتمم نقل الملكية إلى تلك الجهة الخيرية، لتكون تلك الفلل مدارس.

فلما تم البيع سألوه: لماذا فعلت ذلك؟! فقال: خشيت أن أموت قبل أن أتمم بيعتي مع الله! فينكر البيع أبنائي، فيفوتني شرف وربح بيع مع الله!!

هذه قصص حقيقية، وليست من نسج الخيال. والتقيت بهؤلاء التجار، وكانوا في غاية التواضع والانضباط. يجلس بعضهم على الأرض، ولا يستقبلون اتصالات هاتف احتراماً لنا، بل لا نسمع رنين هواتفهم. يستبشرون بدعائنا، وتتهلل وجوههم إن ذكرنا لهم نجاحات مشروعاتهم الخيرية.

ملحوظة: هؤلاء ليسوا ملتحين ومسبلين، وليسوا سلفيين، ويسألون الله بجاه النبي صلَّى اللهُ عَلَيه وسَلَّم، ويذكرون الله ذكراً جماعياً؛ فهل هم الأقرب للسلف ولحقيقة الإيمان وروح الإسلام، أم الآخرون؟!

* * * * *

(هُنَاكَ فَرقٌ بَينَ اعتِمَادِكَ عَلَى الله واعتِمَادِكَ عَلَى دُعَائِك)

هناك فرق بين أن تعتمد على الله تعالى؛ وأن تعتمد على دعائك لله تعالى: فالأول: هو التوكل، والثاني: إعجابٌ وغرورٌ بالعمل.

وهناك فرق بين الثقة بإجابة الدعاء تفضُّلاً من الله تعالى وكرماً؛ والثقة بالإجابة لاعتقادك استحقاق الإجابة بالإخلاص. فالأول: حسن ظن بالله تعالى، والثاني: حسن ظن بنفسك!!

* * * * *

(الغيرَةُ لا تَكُونُ بَينَ الأقْرَانِ فَقَط)

مرت علي فترة كنت أظن المنافسة التي تخرج عن حدها، والتي تبلغ درجة الغيرة والحسد لا تقع إلا بين الأقران فقط، لما بينهم من التقارب والتنافس في إثبات الذات والوجود.

ثم اكتشفت أن الشيخ قد يغار من تلميذه أيضاً، والكبير قد يغار من الصغير، إذا وجده متميزاً عليه، حتى رُبَّما كان أسدَّ منه رأياً وأكثر اطلاعاً وأدق فهماً!

ثم اكتشفت أيضاً أن التلميذ قد يحسد شيخه، والصغير قد يحسد الكبير، إذا شعر أنه لن يصل إلى علمه وقوة نظره وجلال قدره، مهما بذل، ومهما مرت سنوات الفرق بين عمرهما!!

ولذلك صرت لا أسمح لنفسي أن تقبل قبولاً مطلقاً من أحد (مهما كان) تقويمه ورأيه في شخص آخر، حتى لو لم تلح بينهما أسباب المنافسة الظاهرة: كتقارب السن والبلدية ونحوها.

بل أصبحت لا أقبل قبولاً مطلقاً تقويم طلابي ولا نقدهم لمن يكون في سن طلابهم هم أو في سن شيوخهم، إلا ببيِّنة، وبمقياس حذر من أن يكون نقداً له أسبابه من المنافسة الخارجة عن حدودها.

وأصعب شيء على نفس: أن لا تقبل النقد ممن تثق به، إذا كان نقداً موجهاً إلى من لا يؤمن عليك الشعور تجاهه بالغيرة؛ لأنك في هذه الحالة قد تجد نفسك مدفوعاً إلى أن تقبل النقد فيه، وتختلط عليك مشاعر الغيرة بمشاعر التقويم العادل، وكأنك تقول لنفسك: هذا يدل على أني لا أحسد فلاناً، وهذا يدل على أن نقدي له كان في محله، بدليل أن من لا يُظن به الغيرة منه قد رأى عيوبه، وكره أخطاءه، وانزعج من تصرفاته مثلي، وربما أكثر مني!! والواقع أن هذا الشخص رُبَّما كانت له أسبابه الخاصة للحسد، غير كونه قريناً أو بلدياً، كما سبق!!

ومن لم يحاسب نفسه: حرصاً عليها من غوائلها، وخوفاً عليها من فساد طبعها وضعف أخلاقها، تهلهلت أخلاقه بالتدريج، وفسدت طبائعه وهو غافل عنها، حتى إذا احتاج طهر النفس وصلاح الطبع وكرم الأخلاق، خانته قواه النفسية ودوافعه الأخلاقية؛ لأنه كان قد أهمل تزكيتها، وترك الحرص الشديد على التدقيق عليها في المحاسبة!

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

(أزكَى لِنَفْسِك، وأطيَبُ لمشَاعِرِك)

أهمل الذين يحسدونك ويحقدون عليك، لا تكلف نفسك مخاصمتهم، وأطل إهمالهم، فستجد أنهم قد انشغلوا عنك بغيرك، وأشغلهم غيرك بخصومته معهم!

فمن كان الحسد والحقد من خلائقه، سيكثر خصومه بالتدريج، ويكفيك الآخرون الانشغال ببغيه وعدوانه!

أحدهم كان لي كذلك، وكان في غاية اللؤم معي. فتجاهلته تماماً، وحاول الإساءة بكل طريقة، فما زدته إلا صمتاً. فانشغل بغيري، وتفلَّت بأحقاده على الآخرين، فتكاثر عليه خصومه، وانفضح بنفسيته المريضة المتقلبة.

ولئن كان قد اقتص لي من نفسه بذلك، فلقد أكد لي أنه بالشفقة عليه أولى منه بالتشفي به.

هذه تجربة شخصية، أحببت أن أعمم فائدتها بذكرها؛ لأنها أتقى لربك، وأزكى لنفسك، وأطيب لمشاعرك، وأدعى لنصرك على خصمك.

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

وجهةُ نَظَرٍ في طَرِيقِ مَحَبةِ الآخرين

البُقَعُ التي على ثوب غيرك ليست على ثوبك، وعيوب الآخرين ليست عيوبك.

فلا تَقُدْكَ كراهية الخطأ والعيب إلى كراهية كل صاحب خطأ وعيب، فلا تفرط في الانفعال إذا رأيت مخطئاً، فتصبح وكأن كل خطأ يقع في الدنيا يضرك، وكأن كل عيب في شخص يلحقك عاره.

فالذي يفعل ذلك سيكره كل أحدٍ.. حتى نفسَه؛ لأنه هو أيضاً في النهاية: صاحب خطأ وعيب!

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

(الاعتِدَالُ في الموقفِ مِنَ الدُّنيَا)

تبغيضُ الدنيا مطلقاً إلى الناس، وادِّعاءُ أنَّ هذا هو الدين وأنه هو مقتضى الزهد في الدنيا؛ خطأٌ قديم، وقد يُؤدِّي إلى زهدٍ في الدنيا.

لكنَّه زهدٌ لا يعمُرُ القلبَ بحبِّ المنعِم بها، ولا يعمر الدنيا بالإبداع والاكتشاف، ولا يعمر الآخرة؛ لأنه معصيةٌ أدَّت إلى معصية!!

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

(لَولا حُبُّ اللهِ لَنا)

بحب الله استغفرناه، ولولا حبه لنا لما تجرأنا بعد معصيته بنعمته في نعمته، بعد قيام حجة نعمته في عينه وعناية نعمته؛ أن نطلب عفوه ومغفرته!

فلولا حبه لنا لما وفقنا لاستغفاره بعد عصيانه! فبحبه استغفرنا، وبحبه غفر لنا ما وفقنا إليه!

ومَنْ أحبَّك وأنت عاصٍ، استحقَّ أن لا تحب أحداً غيره وأنت طائع، وأن لا تتأخر عن بابه مهمها عصيته! فمَنْ فتح لك باب التوبة والاستغفار مهما أجرمت، فقد فتح لك باباً من الحب، لا يُعرِض عنه إلا هالك (ولو بغير عصيان) وفاجر (ولو بغير ذنب)؛ لأنه رفض حُبَّ ربِّه ومولاه!!

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

(أُوتِينَا الإِيمَانَ قَبْلَ أَنْ نُؤْتَى الْقُرْآنَ)

صح عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه، أنه قال: (إِنَّا قَوْمٌ أُوتِينَا الإِيمَانَ قَبْلَ أَنْ نُؤْتَى القُرْآنَ، وَإِنَّكُمْ أُوتِيتُمُ الْقُرْآنَ قَبْلَ أَنْ تُؤْتَوا الإِيمَانَ).

فيه فوائد:

الأولى: أن تزكية النفس يجب أن تسبق تحليتها بالعلم، لأن التزكية تخلية، والعلم تحلية، والتخلية قبل التحلية، والتطهير قبل الزينة.

الثانية: أن تزكية النفس لا تحتاج كثير علم، بل تحتاج طويل تفكر في محكمات العلم.

الثالثة: هناك فرق بين الإيمان وتعلم القرآن! وليس تعلم القرآن هو نفسه الإيمان! بل ربما أدى تعلم القرآن قبل تعلم الإيمان إلى خلل، كما في الفائدة التالية.

الرابعة: أن تحصيل القرآن قبل تحصيل الإيمان خلل، يخالف منهج النبي صلَّى اللهُ عَلَيه وسَلَّم في تربية أصحابه رضوان الله عليهم.

الخامسة: علينا بالرجوع إلى منهج النبي صلَّى اللهُ عَلَيه وسَلَّم في تعليم الإيمان قبل القرآن.

السادسة: إذا كان القرآن وهو القرآن يجب تأخيره عن تعلم الإيمان، فكل ما سواه من العلوم أولى بالتأخير عن تعلم الإيمان.

* * * * *

(مَنْ تَنَبَّهَ لِفَسَادِ نِيَّتِهِ)

من تنبه لنية فاسدة لديه قبل العمل، فهذا فضل كبير عليه من ربه عز وجل، فكم من عامل انقضى عمله (وربما أجله)، وما صفي له من عمله إلا أقل القليل، وذهب بعامة عمله شقاوة عدم الإخلاص أو نقصه.

ومن نبهه ربه عز وجل إلى نية فاسدة لديه قبل العمل، فقد أصبح واجب الإخلاص عليه أوجب، ونقصه منه أقبح، وتيسر الإخلاص عليه، وأفاد ثغرة على نيته كان غافلاً عنها، فليسدها، وليراع حصن قلبه بتعهد ثغرته هذه، لا يلجنَّ منها سوء المقصد وفساد النية.

وعليه أن يفرح غاية الفرح بعد أن تنبه لنية يمكنه تداركها: فما زالت نظرة العناية تحفظه، وما زالت محبة الله تعالى له ورحمته به تكلؤه. ولولا ذلك لتركه الله تعالى يهلك، فمن فسدت نيته فقد غفل عما لا تصح عنه الغفلة، وكان يجب أن يستحيل عنه الذهول: وهو ربه ومولاه تبارك وتعالى. فما فسدت نية أو نقصت؛ إلا بقدر نسيان العبد لربه وغفلته عن مولاه.

* * * * *

(أَعمَالُ القَلْبِ هِيَ الأَسَاسُ لأَعمَالِ الجَوارِحِ)

من أعظم الاغترار أن يظن العبد أن أعمال الجوارح تساوي عمل القلب (من حب وخوف ورجاء لله تعالى: وهي أركان تعظيم الرب عز وجل)، فكيف إذا ظن العبد أن أعمال الجوارح مقدمة ومستغنية عن عمل القلب؛ حتى تراه يعتني بالأذكار وطاعات الجوارح، ولكن قلبه خرب من تطهير القلب من أدرانه.

وهو لا يدرك أن أعمال الجوارح إن لم يكن باعثَها عملٌ صالح من أعمال القلب، فستكون معصيةً، لكنها معصية في ظاهر طاعة، فهي لذلك أضر من المعصية الصريحة؛ لاغترار صاحبها بها!

وما أكثر المغترين بطاعات الظاهر، وقلوبهم في مسارح المعاصي راتعة: تعالياً وتكبراً، وحسداً وحقداً.

* * * * *

(المَعَاصِي تُزِيلُ حَقِيقَةَ الإِيمَانِ لا اسمَه)

يعجبني من كلام بعض أئمة السلف تعبيرهم عن أثر المعاصي على الإيمان: بأن المعاصي تزيل حقيقة الإيمان لا اسمه، كما قال أبو عبيد القاسم بن سلام (٢٢٤هـ)، في كتاب (الإيمان) له.

ومع أن هذا التعبير (زوال حقيقة الإيمان) قد يوهم بالكفر، لكن تتميمه بعبارة (لا يزيل اسمه) يمنع هذا التوهم، كما أن في بقية كلام الأئمة (كأبي عبيد) ما يقطع بالفهم الصحيح الذي ينفي هذا التوهم تماماً.

لكن لماذا يعجبني هذا التعبير؟!

يعجبني لأنه يبين:

١ـ أن حقيقة الإيمان هي أثره الكبير على أعمال الجوارح.

٢ـ أن حقيقة الإيمان التزام حقيقي لا مجرد دعاوى.

٣ـ أن حقيقة الإيمان لا بد أن تكون أخلاقاً وحسن تعامل؛ لأن من أعظم الذنوب سوء الأخلاق وسوء التعامل.

٤ـ أن حقيقة الإيمان ليست أعمال جوارح فقط ولا التزاماً بالظواهر فحسب، بل هو عمل ينبع من عمل القلب ومن قناعات راسخة وعقائد ثابتة. فهي حقيقة عقائدية قلبية: تثمر ثماراً طيبة في الخارج. فالأصل عمل القلب، والفرع عمل الجوارح.

وهذا التعبير في بيان علاقة ارتكاب الذنوب بالإيمان هو عندي أكثر تنبيهاً إلى تلك الحقائق من التعبير القائل: إن الذنوب تُذهب الإيمان ولا تذهب الإسلام. مع صحة هذا التعبير أيضاً، وأكثرية فائدته في وجه آخر.

وهذا التعبير في بيان علاقة ارتكاب الذنوب بالإيمان هو عندي أفضل أيضاً من التعبير القائل بأن الذنوب تُنقص كمال الإيمان؛ لأن كمال الإيمان الذي لا يطمع فيه العبد العاصي غير المعصوم ليس هو ما يسعى إليه، ولا هو ما ينقصه بالعصيان؛ إنما الذي ينقص بالمعاصي الأثر الحقيقي للإيمان: حقيقة الإيمان.

تنبهوا: إن التعبير عن الحقيقة الواحدة بأكثر من تعبير، مما يبينها أكثر وينبه على عدد من جوانبها.

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

(إدرَاكُ حَقِيقَةِ العَظَمَة)

فرق بين إدراك حقيقة عظمة العظماء، وتعظيمهم التعظيم الواجب لهم.

فمَنْ مِنَ البشر يمكنه أن يعرف حقيقة عظمة النبي صلى عليه وسلم؟! ومن يمكنه أن يتصور حقيقة خشوعه؟! ولا أن يحدد مقدار العلوم التي كانت تزخر بها جوانحه بالله تعالى وبأوامره؟!

ومن يمكنه أن يدعي أنه يفهم الأنوار الإيمانية التي في قلب سيد البشر صلَّى اللهُ عَلَيه وسَلَّم؟!

فهذه لا يمكن أن يصل الناقصون عنها إلى إدراكها، وكل البشر ناقصون عنها، لكن هؤلاء الناقصين عنها يمكنهم تعظيم صاحبها التعظيم الواجب لمثله.

فما كان الصحابة رضي الله عنهم والأئمة بعدهم يقدرون على إدراك حقيقة عظمة النبي صلَّى اللهُ عَلَيه وسَلَّم، لكنهم كانوا يعظمونه صلَّى اللهُ عَلَيه وسَلَّم التعظيم الواجب، وإنما يتفاوت تعظيمهم بقدر ما يتفاوت مقدار ما استطاعوا أن يدركوه من جوانب عظمته.

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

(بَرَكَاتُ الصَّالِحِينَ إِذَا غَضِبُوا)!

غضب أحد الصالحين من إشغال أحد الناس له، فدعا قائلاً: اللهم من شغلني عنك فاشغله بك عني!!

وهكذا تكون صحبة الصالحين: بركاتهم لا تنقطع إذا غضبوا، فكيف إذا رضوا؟!

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

(الذُّلُّ لَهَا عِزٌّ)

أم ممدوح: هذه هي أمي، أمي التي غذتني بدمها وبروحها، وبنور عينيها فتحت عيني على الوجود.

أم ممدوح: هي أجمل ما في طفولتي، وأمتع ما في شبابي، وأقوى ما في رجولتي.

أم ممدوح: هي التي لا أرتفع بتقبيل قدم؛ إلا بتقبيل قدميها! والله لو كانت ترضى، لما خرجت من عندها ولا دخلت إلا نلت هذا الشرف: شرف تقبيل قدميها الطاهرتين. وأي ارتفاع أعلى من قدم تأتي الجنة تحتها!!

أم ممدوح: الذل لها عز، والعز بها مجد وافتخار، ورضاها رضى الله، فيا لله! ما أكرم رضاها على الله!!

أم ممدوح: دعواتها أعظم أسباب النجاة والنجاح، ويداها مفتاح مغاليق السماء، وتمتماتها في جوف الليل تستمد سرها من اسم الله الأعظم، ودمعتها طوفان مشاعر تفور له الأرض وتنشق له مجاديح السماء.

أمي: أعلنها على الملأ: أنت أمي!

أفخر بك، وبندائي لك، أكثر من أي فخر أو اعتزاز!

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

عَلَى قَدْرِ حُبِّكَ لله تَعَالَى تُحِبُّ خَلْقَه!

فإذا رأيت من تظنه يحب الله تعالى، وهو ينظر للخلق نظرة نفور أو يظن حبه للخلق مضاداً حبه للخالق؛ فلا بد أن يكون في حبه نقص كبير، وهو نقص بقدر ذلك الخلل في حبه للخلق.

وحب الخلق درجات وأنواع:

- حب كماله الأخلاقي أو جماله الصوري.
- حب نفعه المباشر، وغير المباشر.
- حب حكمة خلقه التي لا تبلغ كنه عظمتها أحكم العقول.
- حب صدوره من المحبوب الأعظم، ولو كان هذا المخلوق مبغوضاً إليك من وجوه أخرى.

* * * * *

(التَّفَاؤُلُ هُوَ الذِي يَدعُوكَ إلى العَمَل)

التفاؤل ليس هو مجرد توقع الخير: بل هو التوقع الذي يدعوك إلى العمل. فهو أن لا تترك العمل للوصول إلى الغاية، وأيضاً أن يكون عملك هذا سبيلاً صحيحاً ومتقناً للوصول إليها!

وأما أن تترك العمل، بحجة التفاؤل: فهذا هو الشؤم عينه، وهو شؤم لم ينفه الشرع، فمن أساء لنفسه بنفسه فقد أشأمها: ﴿قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ يس: ١٩!

وكذلك أن تطلب الوصول إلى الهدف بطريقة خاطئة أو غير متقنة: فأنت بذلك تقتل فيك التفاؤل.. بحجة التفاؤل!

* * * * *

(لَوْلا جهلُنَا لَخَشَعنَا للهِ فِي الدُّنيَا كَمَا نَخشَعُ لَهُ يوم القِيَامة)

سوف تصمت الخلائق يوم القيامة حتى لا تسمع إلا وطء أقدامهم في المحشر، وسوف تذل الوجوه وتنخفض لله تعالى يومها: ﴿وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْساً﴾ طه: ١٠٨، ﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ﴾ طه: ١١١.

فوالله لولا جهلنا وظلمنا لخشعت له تعالى الأصوات في الدنيا، ولم تسمع لنا فيها إلا وطء الأقدام، ولانخفضت له رقابنا في الحياة فلم نعرف للسماء صورة، فما سوف يوجبه محضرنا منه تعالى يوم القيامة يوجبه مغيبنا عن محضره اليوم؛ لأننا في حضرته تعالى وتحت نظره في الدنيا كما في الآخرة.

* * * * *

(كَيفَ نَدفَعُ الوَسْوَاسَ فِي استِجَابَةِ الدُّعَاء)؟

قال التلميذ: شيخي، عرفت أن من شروط استجابة الدعاء اليقين بالإجابة، لكن يخطر لي وسواسٌ أخشى أنه يُفقدني اليقين!

قال الشيخ: هاتِ يا بني، فرب وسواس أصاب الإيمان في مقتل، بغير وقايةٍ من توفيق وعلم!

قال التلميذ: أقول في نفسي: لا يوجد مسلم إلا وهو يسأل الله في الدنيا حسنة، يسأله رزقاً وعافية، وهاهم الأغنياء هم أقل الناس، والمرضى تمتلئ بهم المشافي وتُزار بموتاهم المقابر! فما الذي يجعلني أولى بالإجابة من هؤلاء جميعاً؟!

يقول لي هذا الوسواس: أنا أسأل كما يسأل غيري، فما الذي يجعلني أحظى بالإجابة من الأكثرين ممن لم يُستجب لهم؟!!

فقال الشيخ: يا بني، ما أسهل دفع الوسواس!

أولاً: تذكَّر ما صح عن نبيك صلَّى اللهُ عَلَيه وسَلَّم أنه قال: (مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَدْعُو بِدَعْوَةٍ لَيْسَ فِيهَا إِثْمٌ، وَلَا قَطِيعَةُ رَحِمٍ؛ إِلَّا أَعْطَاهُ اللهُ بِهَا إِحْدَى ثَلَاثٍ: إِمَّا أَنْ تُعَجَّلَ لَهُ دَعْوَتُهُ، وَإِمَّا أَنْ يَدَّخِرَهَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ، وَإِمَّا أَنْ يَصْرِفَ عَنْهُ مِنَ السُّوءِ مِثْلَهَا). قَالُوا: إِذن نُكْثِرُ، قَالَ: (اللهُ أَكْثَرُ).

فما أدراك أن الله تعالى قد استجاب لجميعهم، وهذا هو الظن في الكريم سبحانه، بإحدى هذه الثلاث التي لا يعلم خيرها إلا الله تعالى.

ثانياً: يا بني، رُبَّ داع له من ربه باب لا يعرفه إلا هو، ورب دعوة لا تخطئ أبواب السماء، فأحسن الظن بربك، واستشعر حبه لك، تجد لك في دعائك معنى، لا يهمك معه ماذا يجد الناس له من المعاني، وماذا أجيبوا، وماذا أُجبتَ: ﴿قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ النمل: ٤٠.

ثالثاً: يا بني، رأيت جلساء الملوك والأمراء، يجلسون معهم الأزمنة الطويلة، ينافقون، ويتزلفون، ويصبرون على ذل الحجب والوقوف على الباب مرات كثيرة، وعلى الدفع في الصدر والمزاحمة بالأكتاف، ويتعرضون لخطر البطش لأي سبب، ولألم الترفُّع والتعالي، بل السخرية والإهانة ولا يستطيع الرد ولا الانتصاف لنفسه، كل ذلك على أمل تحقيق المطلوب، وانتفاعاً منه باسم أنه جليس السلطان أو الأمير، وانتفاخاً أمام الناس بكونه قال كذا للملك، وقال له الملك كذا!!

أفلا يكون أجرك من الدعاء في مناجاة ملك الملوك (وهي أشرف وأعز مناجاة)، وفي مخاطبة الرب عز وجل (وهو أكرم خطاب)، وفي التعرض لنفحات أكرم الأكرمين (وهي النفحات التي تفوق ملك الدنيا بحذافيرها)؛ كافياً لك في مداومة الدعاء والحرص عليه غاية الحرص:

ـ تخيل بدعائك أنك في حضرته تعالى وتقدس!

بل والله لو تخيلت أنك فقط في حضرة عرش الله، وأنك تقف على بساط القرب؛ لكفاك لذة وأنسا يغنيك عن كل طلب!

وأنت في الحقيقة في دعائك كذلك: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ البقرة: ١٨٦؛ ألا ترى قوله ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾، كررها يا بني مرات: ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾، ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾، ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾. تجد أنها أعظم وأجل مما تأخر عنها ذِكراً ورُتبة ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾.

ـ بل تمثَّل أن الله تعالى في حال الدعاء يخصك بالإقبال عليك بوجهه!

ألم يقل النبي صلَّى اللهُ عَلَيه وسَلَّم: (إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يَنْصِبُ وَجْهَهُ لِوَجْهِ عَبْدِهِ، مَا لَمْ يَلْتَفِتْ، فَإِذَا صَلَّيْتُمْ فَلَا تَلْتَفِتُوا). وقال صلَّى اللهُ عَلَيه وسَلَّم: (لَا يَزَالُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ مُقْبِلاً عَلَى الْعَبْدِ فِي صَلَاتِهِ، مَا لَمْ يَلْتَفِتْ، فَإِذَا صَرَفَ وَجْهَهُ، انْصَرَفَ عَنْهُ). والمقصود بالتفات العبد التفات القلب منه، وما يُوصل إليه ويدل عليه من التفات الوجه والبصر.

ولذلك فتذكر يا بني أن هذا المجلس من ربك هو أغيظ ما يغيظ عدوك (الشيطان)، قالت أم المؤمنين عَائِشَة رضي الله عنها: سَأَلْتُ رَسُولَ الله صلَّى اللهُ عَلَيه وسَلَّم عَنِ الِالْتِفَاتِ فِي الصَّلَاةِ؟ فَقَالَ: (هُوَ اخْتِلَاسٌ يَخْتَلِسُهُ الشَّيْطَانُ مِنْ صَلَاةِ العَبْدِ).

ـ استحضر أنك في دعائك مسموع الصوت من الخلاق العليم سبحانه! قال تعالى: ﴿إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾ سبأ: ٥٠.

ولذلك لما سمع النبي صلَّى اللهُ عَلَيه وسَلَّم أصحابه يرفعون أصواتهم بالدعاء، أراد تذكيرهم بهذه الحقيقة، فقال صلَّى اللهُ عَلَيه وسَلَّم: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ ارْبَعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ، فَإِنَّكُمْ لا تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلا غَائِباً، إِنَّهُ مَعَكُمْ إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ، [إِنَّ الَّذِي تَدْعُونَ أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِكُمْ مِنْ عُنُقِ رَاحِلَتِهِ]). [اربَعوا، أي: ارفقوا].

ـ بل استحضر أن الله تعالى يجيبك بكل كلمة: فإذا قلت: ﴿الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ فأحضر في قلبك الله تعالى الآن يقول لك: حَمدني عبدي، فإذا قلت: ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، فالله عز وجل يجيبك بقوله: أثنى على عبَدي،فإذا قلت: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾، فإن ربك يقول للملأ الأعلى عنك: مجدني عبدي، فإذا قلت: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، خاطبك الله عز وجل بقوله: هذه بَيْني وبينَ عَبْدي، ولعَبْدِي ما سألَ!!

والله لو استحضرنا ذلك كما يجب، لما تركنا هذا المجلس حتى نلقاه!

يا بني، لا تسمح للوساوس أن تكدِّر عليك هذا المجلس، لا تمكِّن الشيطان أن يخطفك من هذا الأنس.

فقال التلميذ: ما أتعسني إن فعلت!!

* * * * *

(استِشعَارُ يَقِينِ القُرْبِ)

قال التلميذ: شيخي، عرفت أن الركون إلى القرب بُعد، وأن استشعار التقريب هو بداية الإبعاد، وأن الذي فُتح له الباب، وخطا على بساط القرب، يجب أن يبقى راغباً في مزيد من التقرب، وأنه من حين الفرح باقترابه، سيجد نفسه خارج باب القرب (وليس باب الإيمان والإسلام)، وسيجد نفسه (كما كان) يقرع الباب من جديد! يسأل الدخول والقرب!! وكأنه ما فُتح له الباب يوماً، ولا شَرُفَ بالمشي على بساط القُرب لحظة!!

فهمت يا شيخي معنى قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ المؤمنون: ٦٠، كما فهمه بعض السلف (ويُروى مرفوعاً، على خلاف في صحته): أن هؤلاء الذين ذكرتهم الآية ليسوا هم الذين يعصون، فيخافون عقوبة عصيانهم، وإنما هم الذين يعملون الطاعات، ويتقربون بأنواع القربات، ولكنهم مع ذلك ما يزالون خائفين من الطرد والإبعاد، فقلوبهم وجلة من يوم اللقاء ﴿وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾، حيث سيعلمون يومها علم اليقين، ويومها فقط: هل اقتربوا؟ أم ابتعدوا؟!

وفهمت أخيراً يا شيخي أن هذا الخوف هو نفسه طاعة وقُربى، تزيد من القُرب والحب!!

لكن الذي أفزعني يا شيخي: هو كيف أفرِّق بين خوف الطائعين وخوف العاصين؟ كيف أفرق بين خوفي من عدم اقترابي وخوفي من ابتعادي؟ كيف أعرف أني على درجات الصعود أعلو أم إلى دركات الهبوط أهوي؟!!

فقال الشيخ (وقد علاه الكرب): يا بني، لو عرفتَ ما سألت!!

هذا محط الابتلاء، وحقيقة التمحيص، وهو ما سقط فيه إبليس، وسما فيه محمد صلَّى اللهُ عَلَيه وسَلَّم، فكان سيدَ الخلق وأفضلَ الأولين والآخرين!

يا بني: عِ عنِّي ما أقول! لو عرف المتقربون أنهم قريبون لكان هذا نعيماً لا يسألون عليه نعيماً، لكان نعيماً يقطع التكليف، وينقلهم من دار الاختبار إلى دار الجزاء، فلا يبقى ليوم الحساب والثواب والعقاب حكمة! فماذا يريد العبد أكثر من الجلوس على بساط الرضوان!!

تذكَّر يا بنيّ أن بساط الرضوان أعظم من نعيم الجنة، قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الفَوْزُ العَظِيمُ﴾ التوبة: ٧٢. وفي الصحيحين عن النبي صلَّى اللهُ عَلَيه وسَلَّم أنه قال: (إنَّ الله يقول لأَهْلِ الجَنَّةِ: يا أَهلَ الجَنَّةِ. فَيقولُونَ: لبيك ربَّنَا وَسَعدَيْكَ، وَالخَيْرُ في يَدَيكَ! فيقول: هل رَضِيتمْ؟ فَيَقولُونَ: وما لنا لا نَرضَى يا ربِّ؟! وقد أَعطَيْتَنَا ما لم تعْطِ أحَداً من خَلْقكَ!! فيقول: ألا أُعْطيكُمْ أفْضَلَ من ذلك؟ فيَقُولُونَ: يا ربِّ، وأَيُّ شيْءٍ أفْضَلُ من ذلك؟! فيقول: أُحلُّ علَيْكُمْ رضْوَانِي، فلا أسْخَطُ علَيْكُمْ بعْدَهُ أبداً).

فقاطع التلميذ الشيخ قائلاً: فكيف النجاة يا شيخ؟! كيف أعرف أني لست مطروداً؟ فقد يئست من أن أعرف أني لست قريباً!! بعد أن فقدت الطمع في معرفة القُرب!!

فقال الشيخ: لو صبرتَ، لأخبرتك. وتمام الأدب شرطُ تمام الفهم، فالمعاني العالية لا تثبت إلا في النفوس الزاكية، كالشجرة الطيبة، لا تنمو إلا في الأرض الطيبة!!

فبكى التلميذ، وهم بالخروج من مجلس الشيخ، يشعر بالحرمان والطرد!!

فنظر إليه الشيخ وقال: امكُثْ بني، فإنما أردت نفعَك، وما أردت إيلامك إلا بقصد الإحسان إليك.

فعاد التلميذ، وجلس، يُـكَفْكِفُ دمعته، في أدبٍ تامّ، وإنصاتٍ كامل، لا تطرف عينه، ولا يلفت قلبُه.

فعرف الشيخ أنه أصبح مستعداً لفهم الجواب!

فقال الشيخ: يا بُني، هناك ثلاث علامات أعرفها، وقد يعرف غيري غيرها، تعينك على النجاح في الاختبار، بعد أن عرفتَ أنه لا سبيل إلى معرفة النجاح إلا بالانتقال إلى الدار الآخرة، ولا طمع لنا باستشعار يقين القرب إلا برفع الحجاب يوم القيامة!

فارتجف التلميذ، ووضع الشيخ يده على قلبه، وقال:

العلامة الأولى: ازدياد الحب في القلب، انشغالُ القلب بواجبات التعظيم، فلا يرى في طاعته إلا نعمة الله عليه، ولا يرى في غفلته إلا حلم الله عنه، ولا يرى في معصيته له إلا تدارك رحمته وإسبال ستره وحبه، فهو في ازدياد من الحب.

ولا تقل لي: كيف أعرف الحب وازدياده؟ فما عرف شيئاً مَن لم يتيقن من الحب! وأي يقين أقوى من يقينك بحب من تحب؟! فكل مسلم حقيقي هو مُـحِبٌّ حقيقي؛ لكنَّ الشيطانَ (وما أعظم كيده)، وتخليطَ التعليم، وإساءةَ جهلةِ الوعاظ، كلَّ ذاك هو الذي يكاد يُفقد المسلمين شعورَهم بيقين حبهم لله تعالى!

بُني، لا تتعجَّل، فأنا أعلم أنك لا تسأل عن حبٍّ وتعظيمِ أوَّلِ درجات الإسلام، وهو الذي يستقر في قلب كل مسلم. ولكنك تسأل عن حب المتقرِّبين، وعن تعظيم الذين فُتح لهم باب القُرْب وقبَّلوا على ذلك البساط تلك العَتَبات.

فإنك إذا استطعت أن تشعر بحب أول درجات الإسلام، وتغلب كيدَ الشيطان الذي يُريد إخفاء شعورك به وتشكيكَك فيه، وأن تتجاوز إساءة من أساؤوا تعليمك وتخليطَ من خلَّطوا في وعظك، فستعرف أن شعورك بالحب مما لا يمكن أن تشك في تفاوت مراتبه في قلبك!

ألا تذكر لحظة شعرت فيها بجمال الله تعالى، فتمنيت نعيم النظر إليه؟!

ألا تذكر لحظة تلبَّستَ برحمته عليك، فاشتقت إلى لقائه؟!

ألا تذكر لذة مناجاته في بعض سجداتك، في التزامك بباب الكعبة وعلى جدرانها؟!

ألا تذكر فرحة دمعة سفحتها في محراب الصلاة بينك وبين ربك؟!

هذه هي ساعات القرب ولحظات الأنس!!

لا تَنْسَها! فهي عيانُ الحب الذي يغنيك عن كل أخباره، وليس الخبر كالمعاينة!!

الخلاصة: هذه العلامة هي أعمال القلوب، لا أعمال الجوارح، وهي أقوى العلامات!! لأنها لا يمكن أن تتخلف!! وعليها تنبني بقية العلامات!!

العلامة الثانية: كثرة اللجوء إلى الله في سؤال الهداية والثبات.

ألا ترى أن أكثر وأجل ما يدعو به المؤمن هو طلب الهداية، فطلبها هو الطلب الوحيد الوارد في أعظم سور القرآن وفاتحة القرآن التي تُقرأ في كل ركعة فريضة أو نافلة!! فبعد أن يحمد العبد ربه تعالى: ﴿الْحَمْدُ لله رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، وبعد ثنائه عليه سبحانه: ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، وبعد تمجيده عز وجل: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾، وبعد إعلان إفراده بالعبادة وتوحيده بالاستعانة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، لا يرد إلا سؤالٌ واحد، هو: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾.

وعَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه قَالَ: كَانَ رَسُولُ الله صلَّى اللهُ عَلَيه وسَلَّم يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ: (يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ)، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، آمَنَّا بِكَ وَبِمَا جِئْتَ بِهِ، فَهَلْ تَخَافُ عَلَيْنَا؟ قَالَ: (نَعَمْ، إِنَّ الْقُلُوبَ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الله، يُقَلِّبُهَا كَيْفَ يَشَاءُ). وما أكثر ما كان رسول الله صلَّى اللهُ عَلَيه وسَلَّم يذكرهم بذلك حتى في يمينه، يقول عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: أَكْثَرُ مَا كَانَ النَّبِيُّ صلَّى اللهُ عَلَيه وسَلَّم يَحْلِفُ: (لا، وَمُقَلِّبِ الْقُلُوبِ)!

ومن أسرار هذا السؤال: أن الصدق فيه ينافي التبجح بالقرب كل المنافاة، فكيف يتبجح ويمتنُّ بالقرب من يخشى الطرد كل الخشية؟!

العلامة الثالثة: جاءت في كتاب الله تعالى عقب آية الخوف لصيقةً بها، مجيبةً لسؤال الخائفين عن علامة القرب وتمييزها عن علامة البُعد.

يقول تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ. أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾ المؤمنون: ٦٠-٦١.

ألا ترى قوله تعالى ﴿أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾؟

إذن فالازدياد من عمل الطاعات: من علامات الاقتراب، والمسارعة إليها: من دلائل ولوج الباب، والمسابقة إليها: من إشارات التسامي في منازل الأحباب!

يا بني، ستقول: لماذا لا تكون هذه هي الدليل؟ وليست مجرد علامة؟! ستقول: لماذا وهي صريحة في كتاب الله تعالى تذكر سمات الرفيق الأعلى من الصّدّيقين والشهداء والصاحين؟!

يا بُني: تذكَّرْ:

أولاً: أن الآية لم تذكر أعمال الجوارح فقط، فالمسارعة للخيرات تكون بأعمال القلوب والجوارح معاً، وقد ذكرت لك أعمال القلب في أول علامة، وقلت لك: إنها أقوى العلامات.

ثانياً: هل نسيتَ (الخوارج) وهم من أكثر الناس أعمالَ جوارح، حتى فاقوا بذلك من كانوا أكثر أعمال قلوب منهم، وهم الصحابة رضوان الله عليهم.

فكثرة أعمال الجوارح ليست وحدها هي العلامة، ولا هي أقواها! لكنها من العلامات، مع بقية العلامات.

يا بني، وكلها مجردُ علاماتٍ، كافيةٍ لعدم اليأس، مانعةٍ من القنوط؛ لكنها لا تريك القرب، ولا يمكن أن تُشعرك بتجاوز الاختبار، ولا يصح أن تطلب ذلك أصلاً، وأنت في قاعة الامتحان (الدنيا).

فقام التلميذ يريد تقبيل رأس شيخه، وقد قبَّله من قبلُ بفؤاده: حباً وإجلالاً! فمنعه الشيخ، وقال له: يا بني، رب متحدث عن ذوقٍ، كان قد ذاق.. ثم حُرم، فصار يحسن الوصف، لكنه فاقد الذوق!

اللهم أسألك عفوك وسترك الجميل!!

* * * * *

(غَداً لِبَالِغِهِ قَرِيب)

يقول عبدالله بن المبارك: (قول الناس: غداً لناظره قريب: خطأ، وإنما هو: غداً لبالغه قريب).

وفيه لفتة ذكية وتصحيح لخطأ ينشأ عن الإلف وعن تعاقب الأيام على ابن آدم، فينسى أن الحاضر وحده هو الهبة الإلهية التي ما زالت في يده، وأما الماضي فهبة قد نفقت.

وأما المستقبل فمهما كان قريباً، ولو كان لا يحول بينكما إلا إشراقة شمس أو دون ذلك، فإنه لن يكون هبة إلا إذا بلغك الله تعالى إياه، في حين أن الآتي البعيد لن يكون بعيداً، ما دمت ستدركه.

* * * * *

(لَنْ تَعرِفَ قُوَّتَكَ إلَّا بَعدَ الابتِلاء)

قرأت كلمة لأحد الناجحين العالميين المعاصرين يقول فيها، وهو يحكي قصة نجاحه: (إنك لن تعرف قوتك، ولن تثق بنفسك؛ إلا بعد أن تبتلى بالمحن!).

فقلت في نفسي: سبحان الله! كنا نقول هذا للناس، أخذاً من كتاب الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ العنكبوت: ٣، وقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَـمَّا يَعْلَمِ اللهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ آل عمران: ١٤٢، والمعنى لتقوم الحجة على الناس بعلمهم من أنفسهم صدقهم أو كذبهم، وإلا فعلم الله تعالى سابق للعمل.

ولكن قد يفوتنا عند تذكيرهم بذلك أن نذكرهم بالنفع الدنيوي لهذه الابتلاءات، وأنها تقوي ثقة المؤمن بإيمانه، وتخفف من تخوفه على نفسه من الشك والنفاق، كلما حاولت وطأةُ الشكوك والوساوس أن تشتدَّ عليه.

كما أننا لما كنا نذكر الثواب الأخروي للابتلاءات يستولي الجزع وانعدام الصبر على بعض النفوس الضعيفة، سائلة سؤال نفاد للصبر: ولماذا هذا العذاب؟! وتنسى هذه النفوس أن ثواب بلائها معجل في الدنيا، بتلك الثقة فيها والشعور بالقوة، مع ما يُدخر للمؤمن من الثواب الأخروي.

* * * * *

(كُلُّ تَعظِيمٍ لِلنبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ مع معرفة أنه عبدُ اللهِ ورسولُه هو تعظيمٌ للهِ سبحَانَه)

بإدراك المعنى الأولي لعلاقة رسول الله صلَّى اللهُ عَلَيه وسَلَّم بربه، وهو أنه عبد الله ورسوله، وهو المعنى المفهوم من الشهادتين؛ يكون كل اعتقاد رفعة له صلَّى اللهُ عَلَيه وسَلَّم مما يزيد تعظيم ربه عزوجل، وكل مزيد محبة له صلَّى اللهُ عَلَيه وسَلَّم تزيد من محبة ربه عز وجل.

فحقاً لا يُذكر الله تعالى إلا وذكر الذاكرون رسول الله صلَّى اللهُ عَلَيه وسَلَّم، ولا يذكر الذاكرون رسول الله صلَّى اللهُ عَلَيه وسَلَّم إلا وذكروا مولاه سبحانه وتعالى.

فلا تخشوا من غلو الشرك في رسول الله صلَّى اللهُ عَلَيه وسَلَّم، لمن عرف أنه عبد الله ورسوله.

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

(لِـمَاذَا أجِدُ قَلْبِي أكثرَ حُضُوراً في الرُّكوعِ)؟

قال التلميذ: شيخي، لماذا أجد قلبي أكثر حضوراً في الركوع منه في السجود والقيام، وأجد له لذة لا أجدها في غيره، مع أن السجود أفضل من الركوع، وأقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد؟!

فقال الشيخ: يا بني، أنت شخص سريع الغفلات، والغافل يذكر عند اختلاف الحال، ثم يعود إلى غفلته. فعندما تبدأ الصلاة تذكر قليلا، ثم تسرقك الغفلة، فإذا انتقلت إلى حركة الركوع شعرت بالغفلة، فتيقظت، والركوع قصير، ولا يتكرر في الركعة الواحدة، فيسهل عليك حضور قلبك فيه. فإذا رفعت منه عدت إلى غفلتك، وقد اعتدت بعده على حركة الانتقال، فلا يوقظك بعدها هويك إلى السجود، وتَـكرُّر السجود يغويك بتسويف اليقظة من سجدة إلى التي تليها، والتسويف بلاء الغافلين وداء الساهين!!

يا بني: أنت على خير، تلذذ بالركوع، أطله، وأكثر فيه من التسبيح والحمد والتمجيد للربك، فهو موطن إعلان الشوق لله تعالى! ففي الركوع لا أنت جاث على ركبتيك، لا تستطيع

المشي، ولا أنت قائم، تخجل من النظر للحبيب، فكيف بالمشي إليه. أنت في الركوع قد أخذتك غشية اللقاء ولذة مناجاة الحبيب، فتجرؤ على مناجاته، ومع ذلك فأنت تشعر أنك لم تعجز عن المشي إليه، بقيامك على قدمي قلبك!

يا بني: رب قلب أصلحه الركوع أكثر من السجود، فلا يزهدك الشيطان في هذا الخير. ولكن اجعل هذا الخير داعيا لك إلى خير أجل منه، وهو أن تجمع إلى حضور القلب في الركوع حضورَه في السجود والقيام والجلوس وجميع حالك!!

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

(أقربُ ما يَكُونُ العَبدُ مِنْ رَبِّهِ وهو سَاجِدٌ)!

قال التلميذ: شيخي، لماذا كان العبد أقرب ما يكون من ربه وهو ساجد؟ وإني لأسأل لكي أستشعر هذا القرب الشديد!

فقال الشيخ: يا بني، أشد قرب للعبد من ربه هو عندما يحقق العبد أقوى معاني عبوديته، عندها يكون قد اقترب، ودخل من الباب، حتى بلغ الحجاب، وانحنى يُقبّل الأعتاب!

يا بني: كلما غفل العبد عن تحقيق عبوديته، كلما ابتعد عن ربه، وكلما حققها اقترب. وحالة السجود هي أوضح صورة للإنسان ترسم صورة عبوديته، ولذلك فهي تعين على تحقيق معناها. فالسجود صورة، لا تكون حية بغير روحها، وروحها هو استشعار هذه العبودية.

يا بني: في السجود معانٍ:

- غاية الذل الذي لا يُصرف إلا للرب، ولذلك حُرم السجود في ملتنا لغير الله تعالى.

- غاية الاعتزاز بهذه العبودية، بإعلانه ذله أمام الخلق كلهم. ومن أعلن ذله للحبيب، استحق من محبوبه نظرة، وما أحلاها من نظرة: ترفع ذكرك حول العرش وعند سدرة المنتهى!

- غاية الانفصال عن الدنيا وملذاتها وهمومها، فمن وحد ربه بالسجود، سيكون من لحظة هويه قد قال للدنيا وما فيها: (ليس فيك ما يستحق استعبادي، أنت ومن فيك الآن خلف ظهري، أنا الآن مع خالقي وخالقك).

يا بني: دمعة الساجد سرعان ما تروي الأرض، فكيف لا تروي القلب.

يا بني: مناجاة الساجد بصوته الخفيض، حتى لا يسمعه من بجواره: هي مناجاة من وصل حد الإسرار لمن يناجيه، ولا يسر إلى غيره إلا من اقترب جدا، حتى وجد أنفاسه ترتد إليه من شدة قرب الحبيب، لكنها ترتد إليه بشيء من طيوب ذلك الاقتراب.

يا بني: ومن رحمة الله أن جعل السجود سجدتين؛ لأن من ذاق تلك اللذة، ما استطاع أن لا يكررها. ومن فوت تلك اللذة في السجدة الأولى، لم يُعاقَب بحرمانه من استشعارها في فرصة السجدة الثانية؛ فتلك عقوبة شديدة، ومعاجلة بالطرد، والرحيم لا تشتد عقوبته بمن رحم، ويمهل قبل المعاجلة!

يا بني: عندما تسجد ينقطع بصرك عن منتهاه الدنيوي، فترى الدنيا على حقيقتها: قصيرة، ضيقة الأفق، وكأنها قبر؛ فتشتاق للنشر من قبرها إلى سعة الآخرة، وجنة عرضها السموات والأرض.

يا بني: أنت في سجودك كأنك مغمض عينيك، وأنت تفتحهما: لكي لا ترى غير مقصود واحد، وهذا هو التوحيد. وليس التوحيد أن لا ترى غيره، ولكن التوحيد أن لا ترى في غيره إلا هو!

يا بني.....

قال التلميذ: شيخي! كفاك، فلو كان لي قلب، لسجدت حتى ألقاه!

* * * * *

(ذُنُوبُ الشَّهَوَاتِ لا تُدرِكُ مَنْ فَرَّ مِنْهَا إلى رَبِّهِ)

ذنوب الشهوات هي وحوش الخلوات، لكنها لا تدرك كل من فر منها إلى ربه، مهما تكاثرت، ومهما تكرر تكاثرها. وأما من فر من وحوش الخلوات إلى يأسه، فقد هلك.

سمع التلميذُ الشيخَ يقول ذلك، فقال: شيخي، أخجل من كثرة العصيان، وأصعب من ذلك أني أشعر بالطرد والإبعاد، وإلا لما أسرفت بتكرار المعصية؟!!

فقال الشيخ: ابني:

ـ خجلك من ربك بعد الذنب توبة.

ـ وأما خجلك منه قبل الذنب فعصمة.

ـ وأما خجلك بعد الذنب من الطمع في رحمته، فهو الاستكبار، وليس خجلاً؛ لأنه قد أخبرك بأنه لا يمنعك من بابه إذا أقبلت عليه، مهما عصيته، فلماذا تخجل من الوقوف ببابه، وهو مفتوح لك؟! هذا (لو صَدَقتَ نفسَك) ليس فِعْلَ المستحين، وإنما هو فعل المستكبرين.

يا بني: لا تجعل الشيطان يدخل عليك من باب الحياء، ليخرجك منه إلى انعدام الحياء، وهو الاستكبار والمبارزة بالعصيان على وجه العناد!

يا بني: ما طردك من جعل بابه مفتوحاً لك حتى تغرغر، أنت من توصد الباب دونه، بيأسك من رحمته.

يا بني: رُبَّ عبدٍ أدخله الجنة مكابدة الطاعات، ورُبَّ عبدٍ أدخله الجنة مكابدة المعاصي: كلما عصى ندم واستغفر، وذل وتواضع، وأحب الصالحين، ورحم إخوانه العصاة.

يا بني: المهم أن لا تجعل لليأس إليك سبيلاً، وأن تتبع السيئة الحسنة، وأن تكثر من الاستغفار، واجعل عُظْمَ رجائك توبةً نصوحاً، تغسل حوبتك، وتطهر قلبك، وتزكي نفسك!

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

(فَسُدْتُ غَيرَ مُسَوَّدِ)

عندما أذكر أن فقيه مكة في زمن أتباع التابعين وحافظ السنة الشهير الإمام سفيان بن عيينة كان يقول عند الحفاوة بعلمه:

خَلَتِ الدِّيَارُ فَسُدْتُ غَيْرَ مُسَوَّدِ ... وَمِنَ الشَّقَاءِ تَفَرُّدِي بِالسُّؤْدَدِ

وعندما أرى بعض المعاصرين يذكرون هذا البيت عند الحفاوة بهم، وأستحضر الفرق الكبير بينهم وبين العلماء الحقيقيين، فضلاً عن الفرق بينهم وبين أئمة الإسلام (كسفيان بن

عيينة)، وهو الفرق الذي لا يُجيز الحديث عن بيان الفرق؛ لا أكاد أفهم كيف وصلنا إلى هذا الحدِّ من البلاء من نقص العلم!!

وربما احتفى بي بعض من يحسنون الظن، ويجهلون حقيقتي، فلم أجرؤ يوماً على أن أستشهد بهذا البيت، وتتصاغر نفسي دون خطوره على بالي، بعد أن استشهد به سفيان بن عيينة!!

لقد أفسد علينا هذا الإمام بتواضعه الاستشهاد بهذا البيت، وصرنا نحتاج أن نقول: فسد الزمان، ومن فساده أن يُظن بنا التواضع عندما نستشهد بهذا البيت!!

ملحوظة: هذا شعور داخلي، لا أحاكم به غيري، ولا ألزمهم به! لكني ألزمهم بمعرفة حدودهم، وعدم التطاول على قامات أهل العلم، دون غلو إفراط يمنع من النقد والتمحيص، ودون غلو تفريط يسمح بالتجاهل وعدم محاولة فهم كلامهم.

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ رَضِيِ اللهُ عَنه في المَجَاعَة:

ـ أخَّر الصدقة عام الرمادة عاماً، فلما ذهبت المجاعة، استرد منهم الصدقة عن عامهم وعام الرمادة.

ـ منع النكاح في المجاعة، خشية أن يكون الإنكاح طلباً للمال أو الطعام، لا طلباً لما فيه صالح البنت.

ـ أسقط حد السرقة، لطروء شبهة الاضطرار، وهو حكم اتفق عليه الأئمة الأربعة، ونصَّ عليه الإمام أحمد موافقاً للمروي عن عمر رضي الله عنه. (والراجح عندي ثبوت هذا الفقه عن عمر رضي الله عنه).

ـ كتب إلى عماله في الأمصار بنجدة عرب الجزيرة.

ـ استضاف آلاف الأسر في المدينة، يطعمهم بنفسه ومن معه من الصحابة.

ـ حرم على نفسه اللحم والسمن ولين الطعام، حتى يطعمه المسلمون، وكان طعامه القليل من الشعير فقط، حتى اسود لونه وظنه من رآه أسمر، وكان أبيض اللون مشرباً بحمرة. وحتى قيل إن بعض أصحابه قالوا: لو زادت المجاعة عن تلك السنة لمات عمر؛ هماً بأمر المسلمين.

ـ وامتنع عن ركوب دابته؛ لكي لا يضطرها إلى أكل الشعير، الذي أصبح من طعام الناس!

* * * * *

(الجوابُ الشافي لكُلِّ ريبةٍ في أحكامِ الله)

أذكر أني في مراهقتي وجدت في قوله تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ الملك: ١٤ جواباً شافياً لكل ريبة في حكم شرعي؛ لأنها تبين أن التشكيك في حكمة الحكم الشرعي تشكيك في حكمة خالقنا سبحانه.

والتشكيك في حكمة الخالق تشكيك في عقلي وأحكامه وفي قدرته على التمييز بين الحق والباطل؛ إذ لا يمكن أن أكون أحكم من حكمة خالقي؛ لأن حكمتي فيض من عطاء حكمته تعالى.

* * * * *

(لِـمَاذَا كانت الخشيةُ هي ثمرةَ العِلْم)؟

﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ فاطر: ٢٨. لكن لماذا كانت الخشية هي ثمرة العلم دون غيرها من أعمال القلب كالحب والرجاء؟!

لأن الخشية هي التي تميز العبودية الحقة عن غيرها من أنواع التعظيم التي قد تحصل من دون حصول تعظيم العبد لسيده؛ فقد يحبه لجماله لكنه لا يعظمه، وقد يرجوه طمعاً لكنه لا يعظمه، لكنه إذا خشيه فقد خضع لعظمته، والخضوع هو الإقرار بحقيقتنا الكبرى، وهي أننا عبيد لله تعالى.

* * * * *

(قَدْ تَجِدُ عاصياً أشد حُباً لله مِنَ الطَّائِع)

أتعجب لعاصٍ يحب الله تعالى؟! لأن الطائع قد وجد في لذة المناجاة ما يملأ قلبه حُباً، وأما العاصي فتحجب معاصيه وغفلاته عنه قدراً كبيراً من أنفاس تلك المناجاة وأنوار تلك المكاشفات.

لكن تذكر أن الله تعالى قد جعل للعاصي باباً للأنس به، وهو: شعوره بقرب رحمة الله منه، وبانفتاح باب التوبة له كل وقت، وبإسبال جميل الستر عليه، وبتوالي نعم الله إليه. فلا تعجب أن ترى عاصياً أشد حباً لله من طائع، ولا طائعاً غافلاً عن أبواب الحب المفتوحة له..

* * * * *

(مَتَى تَكُونُ الذُّنوبُ مقياساً لِعَمَلِ القَلب)

الذنوب ليست هي مقياس عمل القلب، إذا كانت زلات تدعو إليها الغفلات والشهوات، وتعقبها الحسنات والندم. بدليل الرجل الذي قال عنه بعض الصحابة: (ما أكثر ما يؤتى به في شرب الخمر)، ومع ذلك شهد له النبي صلَّى اللهُ عَلَيه وسَلَّم بعمل عظيم من أعمال القلب، وهو حب الله ورسوله.

وإنما تكون الذنوب مقياساً لنقص عمل القلب إذا لَـمْ تَعْقُبْهَا حَسَنَةٌ ماحية، وعينٌ باكية.

* * * * *

(إذا جَعَلُوا الإلحادَ علماً فقد خسروا أكبرَ أبوابِ المعرفة)!

عندما يصبح الإلحاد هو منطلق التحليل العلمي تخسر البشرية أحد أكبر أبواب المعرفة، وهو باب المعرفة بالله تعالى، ولا تستطيع أن ترى دلائل العظمة الربانية حتى في أجل وأوضح تجلياتها.

وعندها يصبح الاكتشاف العلمي سبباً لجهلٍ علمي، وبقدر كبر الاكتشاف يكبر الجهل، حتى يصبح التحليل العلمي حينها لذلك الاكتشاف ضرباً من الغباء أو الجنون، ولا بأس أن نسميه: غباء علمياً، أو جنوناً علمياً!!

* * * * *

(التَّفَاؤُلُ لا يَعنِي أَنْ تَترُكَ الأَسبَابَ)

جميل أن تثق بنصر الله، وجميل أن تكون متفائلا بالمستقبل المشرق.

لكن ليس جميلاً أن تجعل خططك تعتمد على أن يخرق الله لك العادات وأن تجري على يديك الكرامات بحجة الثقة بنصر الله.

وليس جميلاً أن يكون تفاؤلك على حساب تقدير الواقع ورؤية جوانب قوتك وضعفك.

والأقبح من ذلك أن تنظر لمن خطط للمستقبل بتقديره لجوانب القوة والضعف على أنه متشائم ضعيف الإيمان بنصر الله.

* * * * *

(الرَّقَابَةُ الذَّاتِيَّةُ)

من المهم تنمية الرقابة الذاتية عند المسلمين، وتجب العناية بتنميتها فيما لا يمكن ضبطه ولا حماية الناس منه إلا بوجود هذه الرقابة.

فمثلاً: الرقابة على الأبناء بخصوص مواقع النت مستحيلة؛ ولا حل فيها: إلا توعيتهم بأخطارها وأضرارها، وزيادة شعورهم باطلاع الله تعالى عليهم، وببيان سعة باب التوبة عند وقوعهم في الخطيئة. ولا ينافي ذلك محاولة منعها، ولو كان أثر المنع ضئيلاً، ما دام له أثر نافع ولو كان ضعيفاً.

* * * * *

(قَهرُ النَّفْسِ عَنْ مَسَاوِئها)

من لم يقهر نفسه عن مساوئها، فكان حقوداً حسوداً (يفري الأعراض بالغيبة، ويستطيل بلسانه في العورات)، فهو عن قهرها عن ملذاتها أقهر؛ لأن الحقد والحسد لا لذة فيهما، وقد عجز عن إنجاء نفسه منهما؛ فأنَّى له أن يُنجي نفسه مما لها فيه لذه ومطلب، وتدفعه إليه غريزة وشهوة؟!

فإذا رأيته بعد ذلك يُظهر التخشع والخضوع والعبادة، ويبالغ في التورع والزهادة، وهو حقود حسود؛ فاعلم أنه كذاب، يصطاد الدنيا بالدين كل ما عجز أن يصطاده منها بالدنيا!! فهو ذئب خوان، في ثياب عابد صوان!!

تراه يكثر التأوه من مواعظ القرآن، وهو يتلمظ سموم الحقد على الإخوان!

تراه واعظاً في الحرص على صيانة ثياب التقوى، وهو يتعرى منها ويكشف سوءاته في مسلخ الغيبة والنميمة.

تقرأ له مقالات تَنِزُّ منها مياه الورع، وهي صديد الجزع من نعمة سُلبها وأُوتيها المؤمنون سواه.

وهذه إحدى أمراض الخوارج القلبية، وأحفادهم، والسائرين على دروبهم؛ ولذلك لا ينتفعون بكثرة العبادة والبكاء؛ لأنها عبادة خداع، وبكاء التباكي والغرور!!

اللهم نعوذ بك من شرور أنفسنا!!

* * * * *

(هَلْ هَذَا مِنْ نَقصِ الغَيْرَةِ على مَحَارِمِ الله)!

لو ارتكب رجل كبيرة من الكبائر، مما ليس فيها حد، لكنها من كبائر الذنوب، ثم لما قبض عليه، هرب، واستجار بأحد ذوي الجاه. ثم بلغ أحد الصالحين خبره، فلم يأمر القابضين عليه بشيء، مع أن له سلطاناً يقدر به إعادة القبض عليه، ومع ذلك فلا طالب أحداً بتعقبه ولا بمعاقبته، بل ضحك من طريقة هروبه!!

هل سيكون عند بعضنا هذا المسؤول الذي كنا نظنه صالحاً إلا صاحب برودة في الإيمان!!
وصاحب نقص في الغيرة على محارم الله!!

ولكن قبل أن تتعجلوا في الحكم: هل تعلمون أن هذا هو ما وقع مع أخشع الناس وأتقاهم: رسول الله صلَّى اللهُ عَلَيه وسَلَّم!!

ففي مسند الإمام أحمد وسنن أبي داود والنسائي والحاكم وصححه، وقوى ابن حجر إسناده، وهو كما قال بإسناد صحيح: عن ابن عباس قال: (لَـمْ يَقِتْ [أي لم يوقت] رَسُولُ الله صلَّى اللهُ عَلَيه وسَلَّم، فِي الْخَمْرِ حَداً. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فَشَرِبَ رَجُلٌ، فَسَكِرَ فَلُقِيَ وهُوَ يَمِيلُ فِي الْفَجِّ [أي في الطريق]، فَانْطُلِقَ بِهِ إِلَى النَّبِيِّ صلَّى اللهُ عَلَيه وسَلَّم، فَلَمَّا حَاذَى دَارَ الْعَبَّاسِ، انْفَلَتَ، فَدَخَلَ عَلَى الْعَبَّاسِ فَالْتَزَمَهُ فَذُكِرَ لِلنَّبِيِّ صلَّى اللهُ عَلَيه وسَلَّم فَضَحِكَ، وَقَالَ: أَفَعَلَهَا، وَلَمْ يَأْمُرْ فِيهِ بِشَيْءٍ).

فلماذا ضحك رسول الله صلَّى اللهُ عَلَيه وسَلَّم؟!

هل يزيد على أن يكون ضحكه بسبب هذا الموقف المضحك، من احتضان هذا المسلم السكران لعمه العباس بن عبد المطلب لاجئاً إليه؟

وهل تعارض ضحكة رسول الله صلَّى اللهُ عَلَيه وسَلَّم هذه شدة غيرته على محارم الله التي لا يساويه فيها ولا يقاربه أحد؟!

هل يمكن أن يفعل أحد مثل هذا الموقف في كبيرة من الكبائر التي لا حد فيها، ثم لا يتهم في دينه؟!

كما ثبت عن ابن عباس أنه قال أيضاً: مَا ضَرَبَ رَسُولُ الله صلَّى اللهُ عَلَيه وسَلَّم فِي الْخَمْرِ إِلَّا أَخِيراً، لَقَدْ غَزَا غَزْوَةَ تَبُوكَ فَغَشِيَ حُجْرَتَهُ مِنَ اللَّيْلِ أَبُو عَلْقَمَةَ بْنُ الْأَعْوَرِ السُّلَمِيُّ، وَهُوَ سَكْرَانُ، حَتَّى قَطَعَ بَعْضَ عُرَى الْحُجْرَةِ، فَقَالَ: مَنْ هَذَا؟ فَقِيلَ: أَبُو عَلْقَمَةَ سَكْرَانُ، فَقَالَ رَسُولُ الله صلَّى اللهُ عَلَيه وسَلَّم: (لِيَقُمْ إِلَيْهِ رَجُلٌ مِنْكُمْ، فَلْيَأْخُذْ بِيَدِهِ حَتَّى يَرُدَّهُ إِلَى رَحْلِهِ).

هذا هو لطفه صلَّى اللهُ عَلَيه وسَلَّم مع مرتكب الكبيرة، وهذه رقته ورحمته مع من بلغ به السكر أن آذاه، فيأمر مع ذلك بمن يأخذ بيده إلى مرقده!! في مشهد يفيض تسامحاً ورأفة!!

وهنا أنبه: أنَّ هذين الخبرين يحكيان قصتين وقعتا بعد تحريم الخمر، ولم أتدخل في كونها بعد إيجاب الحد أو قبله، إذ يكفي أنها بعد تحريم الخمر التي هي أم الخبائث وهي من كبائر الذنوب، وأن هذه هي رقته ورحمته صلَّى اللهُ عَلَيه وسَلَّم مع شارب الخمر.

* * * * *

(مَنْ يُخبِرُنَا بِمَا فِي قُلُوبِ العُصَاة)!

(من كان منكم بلا خطيئة فليرمها بحجر): كلمة رواها أحد الأناجيل عن المسيح عليه السلام، في قصة امرأة متهمة بالفاحشة، وأرادوا رجمها، وأرادوا أن يحرجوا المسيح عليه السلام بأن يشارك هو في رجمها، أو أن يقف موقف المعترض على شريعة موسى عليه السلام.

فقال لهم تلك العبارة، لما رآهم يتعاملون معها بقسوة المتعالي وبغلظة المتكبر.

فلما قالها لهم، رجعوا، فلم يرجمها أحد؛ لأنهم قالوا لأنفسهم: من منا بلا خطيئة؟! من منا الذي لا ينعم إلا بستر الله عليه؟!

وفي ملتنا يقول صلَّى اللهُ عَلَيه وسَلَّم عن زانية: لقد تابت توبة لو قسمت على سبعين من أهل المدينة لوسعتهم.

فهل سنقول: من يخبرنا بما في قلوب العصاة من التوبة والإيمان، بعد انقطاع خبر السماء بموتك يا رسول الله؟! أم سنقول: هذا درس لن ننساه، يعلمناه أنبياء الله ورسله الكرام عليهم الصلاة والسلام؟

فهل تظنوننا أغير على الدين وأشد غضباً على معصية الله تعالى من أنبياء الله صلوات الله وسلامه عليهم؟

* * * * *

(تَواضَعُوا فَلَـمْ تَكُونُوا شَيئاً مَذكُوراً)

لو كانت عندك القدرة على الخلق من العدم بمجرد الإرادة، أو بمجرد كلمة (كن)، لو كنت قادرا على ذلك، ماذا سوف تساوي عندك تلك المخلوقات؟! وهي محض إرادتك، وتحت حرفي (كن) منك؟

ماذا سوف تساوي عندك أملاكها وذهبها وفضتها وجميع زينتها ومتاعها، وما هي كلها إلا مجرد إرادة منك؟! فأنت في خلقها لا تغرف من بحر، فالغرف من البحر ينقصه، ولو كانت غرفة تافهة لا يشعر بها البحر نفسه.

فالخلق من العدم بمجرد الإرادة ليس فيه نقص شيء من شيء، كما أنه ليس فيه للخالق زيادة شيء إلى شيء أيضا، فعدمها ووجودها عنده وفي ملكه سواء!!

أيها العباد تواضعوا!! فأنتم لم تكونوا شيئاً مذكوراً، وما زلتم لستم شيئاً مذكوراً؛ إلا بإرادة خالقكم سبحانه وتعالى.

* * * * *

(إعَادَةُ النَّاسِ إلى فِطرَةِ الإيمَانِ بِالخَالق)

عندما يعيش الداعية في مجتمع تجتاحه موجة إلحاد عاتية، يكون نجاح مشروعه منوطاً بإعادة الناس إلى فطرة الإيمان بالخالق، كالنبي صلَّى اللهُ عَلَيه وسَلَّم بمكة، كان نجاح مشروعه منوطا بتحقيق التوحيد والإيمان باليوم الآخر.

فإذا جاءه داعية مشروعه هو تشريع الأنظمة ووضع دستور للدولة، فسيفسد هذا الداعية على الداعية الأول مشروعه، لا بمشروع مناهض لدعوته، على العكس، بل بمشروع يتمم مشروعه، لكن لم تكتمل قواعد تأسيسه بعد!

* * * * *

(قَاعِدَةٌ إنسَانِيَّةٌ كُبْرَى)

كلما ذُكر الانشغال بالمظهر عن اللب، تذكرت الحديث الرائع للنبي صلَّى اللهُ عَلَيه وسَلَّم: (الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ، ارْحَمُوا مَنْ فِي الأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ)، وما فيه من وضع قاعدة إنسانية كبرى، يحق لنا أن نفاخر بها أمم الأرض:

فهو يجعل الرحمة حقاً يشمل كل من في الأرض دون استثناء، بل الحديث يجعل استحقاق رحمة الله منوطاً برحمتنا المخلوقات.

ثم هو مع هذا التألق كله، وعند الإغراق في التخصص؛ لا يُستحضر إلا عند ذكر الحديث المسلسل بالأولية، وعند طلب الإجازة من الشيوخ والسماع عليهم.

* * * * *

(هِمَّةُ الأصفِيَاء)!

ثبت عن ابن مسعود رضي الله عنه، أنهم كانوا وهم ذاهبون إلى بدر يتعاقبون على دابة واحدة، كل ثلاثة على بعير، وكان زميلا رسول الله صلَّى اللهُ عَلَيه وسَلَّم هما علي بن أبي طالب، وأبا لبابة. فكانا إذا حضرت نوبة النبي صلَّى اللهُ عَلَيه وسَلَّم في المشي، قالا: اركب حتى نمشي عنك، فيقول صلَّى اللهُ عَلَيه وسَلَّم: (مَا أَنْتُمَا بِأَقْوَى مِنِّي، وَمَا أَنَا بِأَغْنَى عَنِ الأَجْرِ مِنْكُمَا).

توقفت عند قوله صلَّى اللهُ عَلَيه وسَلَّم: (وَمَا أَنَا بِأَغْنَى عَنِ الأَجْرِ مِنْكُمَا): ما هو الأجر الذي لم يكن صلَّى اللهُ عَلَيه وسَلَّم بأكثر استغناء عنهما فيه؟! وهو سيد الأولين والآخرين وإمام الأنبياء والمرسلين وأفضل الخلق أجمعين!!

إنه علو الهمة في بلوغ منازل أعلى من منازل الخُلة والرضوان من رب العالمين، وهي منازل لا حدود لعلوها؛ لأنها منازل عند رب عظيم لا حدود لعظمته، ولا منتهى لملكه، ولا تنقص عطاياه عطاياه. وأعرف الخلق بعظمة هذا الرب هو أفضل الخلق صلَّى اللهُ عَلَيه وسَلَّم، فكان أولى الخلق حقا بأن يكون أعلاهم همة في طلب الأجر وابتغاء المزيد من منازل القرب!!

فالذي كان صلَّى اللهُ عَلَيه وسَلَّم أحوج إليه منهما ومن كل الخلق: هو بلوغ منزلة أعلى من ربه؛ لأنه صلَّى اللهُ عَلَيه وسَلَّم أعرف منهما ومن الخلق بتفاوت منازل القرب من ربه تفاوتاً ليس له نهاية!

إنها همة الأصفياء! بل همة أصفى الأصفياء صلَّى اللهُ عَلَيه وسَلَّم.

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

(قراءةُ القُرآنِ بِعَينِ الحَمْدِ)

فكروا أن تقرؤوا القرآن بـ(الحمد)، أي على قاعدة الحب، وأن تتدبروه من منطلق الشعور بالامتنان للرب المنان.

والحمد هو عنوان القرآن الكريم؛ أوليس (الحمد لله) هو أول لفظ في القرآن؟! أوليست فاتحة الكتاب وأم الكتاب وأفضل سوره: هي سورة (الحمد).

فإذا ذكر القرآن في أول البقرة صفات المؤمنين: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ البقرة: ٣، تذكر نعمة الله العظمى عليك أن جعلك منهم، فاحمده بحب فياض بالحب على الدنيا من حولك!

وإذا ذكر الله تعالى حال الكافرين في إعراضهم وهو في الحقيقة إعراض من الله تعالى عنهم؛ لاستكبارهم وفساد أخلاق قلوبهم؛ فاحمد الله تعالى أنه لم يجعلك منهم! واحمده لأنه أحبك وأقبل عليك، ولذلك فأنت مؤمن به، فأي إفضال أعظم من أن يقبل الله عليك بحبه، التي تتمثل في هداية قلبك؟!

حتى عندما يذكر الله عز وجل ابتلاء بني إسرائيل: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُم بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ البقرة: ٤٩، فهذا موطن حمد عظيم: فنحن نفرح بنجاة المؤمنين من أتباع موسى عليه السلام، ولنا في نجاتهم ونصرهم على فرعون فرحة غامرة، فنحن (المسلمين) الأمة المؤمنة الوحيدة على وجه الأرض.

واحمده تعالى على أنه ما ابتلانا بطاغية مثل فرعون يسمونا سوء العذاب ويذبح أبناءنا ويستحيي نساءنا سبايا! فقبلنا مؤمنون قد ابتلاهم الله عز وجل بذلك! فالحمد الله أن نظر إلينا، فعلم ضعفنا، ورحم إيماننا، فجنبنا هذا الابتلاء العظيم.

وهكذا كل آية في كتاب الله تعالى فيها (حمد)، ويمكن للمؤمن أن ينطلق قلبه ولسانه عند تدبرها بـ(الحمد)، وأن يكون (الحمد) رفيق فؤاده، و (الحب لله تعالى) بوابة تدبره لكل درجة من درجات معراجه في سماء الإيمان وتحليق الروح إلى كنف الرحمن عز وجل.

* * * * *

لِـمَاذَا أُحِبُّه؟!

لـماذا أحبه؟! وهو يُلزمني بطاعته؟! ويريد مني الخضوع له؟!

تخيل رجلاً أخذك من ملجأ الأيتام، وأنت في أسبوعك الأول، وأنت رضيع، فقام على تربيتك أحسن تربية: غذاك بكل غذاء يقيم أودك ويقوي جسدك، وحماك من كل ما يؤذيك، عاملك خيراً مما يعامل الآباء أبناءهم حباً وعطفاً وعطاء مادياً.

وهذا الرجل الذي تفضل عليك بكل هذا الإفضال لا يريد منك نفعاً، لا الآن، ولا في المستقبل، بل هو مستغن عنك كل الغناء، فقد وهبه الله ذرية صالحة تغنيه عنك. حتى إنك لا تستطيع نفعه بشيء، حتى لو أردت ذلك؛ لعظيم ثرائه وواسع جاهه وكثرة خدمه والمحيطين به.

ومع ذلك هو لا ينفك ينفعك نفع الوالدين لولدهما المدلَّل، لكن بحكمة وحسن تدبير.

وهذا الرجل بلغ من حفاوته بك أن علمك أحسن تعليم، وأرسل إليك أفضل الأساتذة وأعظمهم حكمة ليعلموك من علومهم ومن حكمتهم، لتكون قادراً على نفع نفسك، والسمو بعقلك وفكرك إلى مصاف العلماء والمبدعين.

ثم هو من واسع جاهه وانتشار علاقاته وعظيم خبرته بمؤسسات الدولة والشركات الخاصة والعامة وبالمشاريع القائمة لم يبق لك طمعاً بأن تكون أعرف منه بمصلحة نفسك، فأنت

أول من يعترف له بأنه أفضل منك في معرفة الجهات التي يمكنك أن تنجح فيها، وأنت تعلم أنه لا يمكنك أن تنافسه في ذلك؛ فمثله يطير الناس فرحاً لو تمكنوا من أخذ مشورته في شؤون أعمالهم؛ لعلمهم أن علمه وخبرته تقوده دائما إلى أفضل المتاح!

وهو مع عطائه هذا وبذله الكبير غير المنقطع يتصف بصفات جليلة جميلة في أخلاقه وخلقته:

ـ فهو كريم رحيم، يتودد إلى الناس، عادل لا يقبل الظلم منه ولا من أحد تحت إدارة ممتلكاته.

ـ وهو حكيم ثاقب الرأي، يكاد يرى الغيب من شدة ذكائه وعظيم فراسته ودقة تحليله للحوادث والشخصيات. حتى إنك لم تعرفه مرة جزم لك بشيء، وتبين فيه غلطه. بل ربما اعترضت عليه مرات، وزعمت أنك عرفت ما لم يعرف، فإذا بهذا الرجل يتضح أنه هو الذي كان على صواب، وكنت أنت المخطئ!

ـ وهو فوق هذا كله من أجمل الناس، تكاد تشرق الشمس في وجهه نوراً، كأنما مسحه ملكٌ من الملائكة جَمالاً، فإذا تكلم تساقط الكلام من فيه كأنه حبات اللؤلؤ بلاغة وفصاحة ودقة، وإذا ابتسم أغضيتَ من هيبة الجمال، وهيبة الجمال أعظم هيبةٍ، أعظم من هيبة القوة والخوف والبطش.

لقد أسرك هذا الرجل بإحسانه، أسرك بجماله، أسرك بعلمه، أسرك بحكمته، أسرك بحبه لك وسعيه في صلاحك!

ثم بعد هذا تقول: لماذا أحبه؟! وهو يُلزمني بطاعته؟! ويريد مني الخضوع له؟!

أنسيت أن حبه لك يوجب عليك مبادلته الحب؟!

أنسيت أنه أعطاك حبه دون استحقاق لك منه حباً ولا التفاتاً؟! وإنما أعطاك حبه لكرمه وطيب طبعه.

أنسيت أنه بذل لك ما لا يبذله الأبوان؟!

أنسيت أنك مأسور لعلمه وحكمته وسلطاته وجاهه، إذا كنت تريد لنفسك الصلاح والسعادة؟!

أنسيت أنه لا يأمرك لمصلحته، وإنما يأمرك لمصلحتك؟!

أنسيت أن معصيتك لا تضره في شيء، وإنما تضرك أنت وحدك؟!

لقد كان الأولى بك أن تقول: كيف لا أحبه؟! كيف لا أفرح بطاعته؟! كيف لا أُقبِّل قدميه إجلالاً واعترافاً بالفضل، كما يخفض الأبناء جناح الذل من الرحمة لوالديهم؟!

فإن صح هذا في مخلوق، فكيف بالخالق الله عز وجل؟!

فهو الذي جعلك شيئاً، بعد أن كنتَ لا شيء، ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً﴾ الإنسان: ١.

واختار لك أجمل صورة: ﴿يَا أَيُّهَا الإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ. الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ. فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾ الانفطار: ٦ـ٨.

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾التين: ٤.

وكرَّم جنسك على باقي المخلوقات: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾ الإسراء: ٧٠.

وسخَّر لك جميع خلقه: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ. يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ. وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ. وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الأَرْضِ مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ. وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْماً طَرِيّاً وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ النحل: ١٠ـ١٤.

حتى ملائكته (وهم جندٌ من جنده تعالى): جعلهم الله تعالى حفظةً لك، ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللهِ﴾ الرعد: ١١، ﴿إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَـمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ الطارق: ٤.

ويستغفرون لأهل الأرض: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ الشورى: ٥.

وجعلك أهلا للتعلُّم، وعلَّمك: ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ. الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ. عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ. كَلَّا إِنَّ الإِنْسَانَ لَيَطْغَى. أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى﴾ العلق: ٣ـ٧.

أنسيت أنه كان قادراً أن يجعلك غير مؤهل للتعلم، ﴿وَاللهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ النحل: ٧٨، فمن جعلك مؤهلاً للسمع والبصر والتعقُّل؟!

أنسيتَ أن القدرة على الاعتراض هي جزء من قدرتك على الإبانة عن نفسك، فمن وهبك هذه القدرة التي عُدت بها على خالقك، ورجعتَ بها على واهبك إياها بالاعتراض ﴿خَلَقَ الإِنْسَانَ. عَلَّمَهُ البَيَانَ﴾ الرحمن: ٣ـ٤.

ثم إنه تعالى اختار من البشر أفضلهم وأذكاهم وأزكاهم لتعليم البشر ما يسعدهم، وهم الرسل عليهم الصلاة والسلام: ﴿إِنَّ اللهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى العَالَمِينَ﴾ آل عمران: ٣٣، ﴿اللهُ يَصْطَفِي مِنَ المَلَائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ﴾ الحج: ٧٥.

وجعل الله تعاليم شرائعه من أجل سعادتهم لا من أجل شقاوتهم، ومن أجل التيسير عليهم من مشاق الحياة، ومن أجل أن يخفف عنهم من أعباء الدنيا. قال تعالى: ﴿يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ البقرة: ١٨٥.

﴿يُرِيدُ اللهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفاً﴾ النساء: ٢٨، ﴿مَا يُرِيدُ اللهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ المائدة: ٦.

هل تعلم أن الله تعالى يصلي عليك حبا لك، هو وملائكته: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللهَ ذِكْراً كَثِيراً. وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً. هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً﴾ الرعد: ٤١ـ٤٣.

ومعنى صلاته عليك لا مجرَّد الرحمة والمغفرة (كما هو مشهور)، على جلالة رحمته بك وغفرانه لخطاياك وشقاوتك، ولا هي إضافة إلى ذلك ثناؤه عليك وإشاعة ذكرك الجميل (كما قيل

أيضا في تفسيرها)، وإنما هي ذلك كله انطلاقاً من تمام الحب وكمال الرأفة، حتى بلغ من حبه تعالى ورأفته بك أن كانت رحمته ومغفرته وثناؤه هي شأنه معك؛ إذ «لما كان من شأن المصلي أن ينعطف في ركوعه وسجوده، استعير لمن ينعطف على غيره حنوّاً عليه وتَـرَؤُّفاً. كعائد المريض في انعطافه عليه، والمرأة في حُنُـوِّها على ولدها، ثم كثر حتى استُعمل في الرحمة والتَّـرَؤُّف».

أنسيت أن طاعتك لا تنفعه ومعصيتك لا تضره: (يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي، فَتَنْفَعُونِي، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ، مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئاً، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئاً)، وقال تعالى عن الهدي الذي يُذبح ليأكل منه الفقراء والمحتاجون: ﴿لَنْ يَنَالَ اللهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ﴾ الحج: ٣٧، أي الذي يرفعه لكم وينفعكم عنده هو مقدار إخلاصكم لله تعالى عند تقديمكم لتلك الذبائح، فلا تكون ذبائحكم ذبائحَ عُجْبٍ وتكبُّر، ولا رياء وسمعة، ولا مَنٍّ وأذى.

فمن لا تنفعه طاعتك ولا تضره معصيتك، والذي لا يمكنك أن تنال من هيبة سلطانه بعصيانك؛ لأنك تعصيه بعلمه، وبنعمه عليك، وبتمكينه لك من ذلك، ولو أراد منعك من معصيته، لـما قدرتَ على شيءٍ منها طرفة عين؛ ما الذي يجعله يغضب عليك إن عصيته؟! لماذا يغضب، وهو أعلى وأجلُّ من أن تضره بمعصيتك؟! لن يُفسِّر غضبَه عليك من معصيته مع عدم وصولك بشيء من الضرر إلى جنابه؛ إلا إذا ما كان يغضب عليك لك؛ لأنه يحبك، ويريد سعادتك، وفي عصيانه شقاوتك!! فهو لا يأمرك بطاعته لأجله هو، وإنما لأجلك أنت.

فإذا عصيته، أضررت بنفسك، وهو يحبك، وما ترك لك عذراً في عصيانه، ببلاغه شرعه على أحسن صور البلاغ.

ألا تحب المبدعين؟! فكيف بمن أبدعهم!!

ألا تحب المتقنين؟! فكيف بمن خلق هذا الكون بكل هذا الإتقان!!

ألا تحب الجميلين؟! فكيف بمن خلق هذا الجمال؟! فكيف بأجمل موجود عزَّ وجلَّ؟!

والحمد لله تعالى أن حديث: (إِنَّ اللهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ) حديث صحيح في صحيح مسلم، وإلا لاتهمنا الجفاة بأننا إذا وصفنا الله تعالى بهذه الصفة أسأنا إلى جلاله!!

لا أشك أن صفة الجمال الإلهي وحدها لو استغرق فيها ابن آدم لكفته غرقاً في حب الله! بل نجاة وسعادة في هذا الحب!!

ألا تطيع الحكماء؟! ألا تسلِّم لمن تعلم أنه يعلم أضعاف ما تعلم؟! فكيف بمن خلق علمك وكونك وعالمك الذي تتعلم منه؟! ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ الملك: ١٤، ﴿وَاللهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ الحجرات: ١٦، ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ الحديد: ٤. ولا تعلم علماً إلا بما أذن لك أن تتعلمه: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ البقرة: ٢٥٥.

إن حبك الله وطاعتك إياه وخضوعك له مما يوجبه عليك حبه لك وإحسانه عليك، وكمال صفاته جمالاً وكمالاً مطلقاً، وتوجبه حكمته وعلمه، ويوجبه خلقه لك من العدم، وأنك مملوك لربك، ولكنك مملوك محبوبٌ لمالكك، ولذلك ميزك بالعقل والتكليف الذي يجعلك أهلا للتكريم.

فكان الواجب لا أن تقول: لماذا أحبه؟! بل أن تقول: كيف لا أحبه؟!!

وكان الحق يلزمك لا أن تقول: كيف أحبه وهو يُلزمني بطاعته؟! بل أن تقول: كيف لا ألتزم طاعته، وهي طاعة لا ينتفع بها غيري، ولا تضر معصيته سواي؟!

وكان العقل سيرفض أن تقول: كيف يريد مني أن أحبه وهو يريد مني الخضوع له؟! لأن خضوعك له حاصل في طاعتك ومعصيتك، فما خرجت من خضوعك له في كلتا الحالتين: فلا أطعته إلا بإنعامه، ولا عصيته إلا تحت تمكينه وسلطانه، وبعد علمه وإذنه.

كل الذي خرجتَ منه بالعصيان أن خرجتَ: بنكران الجميل، وكفران الإفضال، وسوء أخلاق المتنمّر على سيدك، وغباء المتطاول على من بيده إهلاكك وإصلاح حالك!!

إن من لم يعلم لماذا يحب الله أهل بأن لا يعلم لماذا يحب أحداً من خلق الله، فما أحببتَ إلا بحبه تعالى؟! أرأيت حبك والديك، ألم يكون عطاؤهما ورحمتهما إلا جزءاً من عطاء ربك ورحمته؟! أريت جمال الحسناء الذي ذهبتَ في حبها كل مذهب، هل هي إلا هبة جمال الجميل عز وجل وقطعة من إبداعه؟! أوليس حبك لها نفسه نعمة من نعمه عليك، فما لحبك وحبها ليكون في ملك الله إلا بعد إذنه تعالى؟!

من لا يعرف لماذا يحب الله؟! فهو أهل أن يكون مخلوق الكراهية بكل ظلماتها وبجميع وحشتها وبعصارة آلامها، فلا تنتظر منه أن يحب إله المحبة!!

* * * * *

الْحُرِّيَّةُ الفِكْرِيَّةُ هِيَ أجوَاءُ الرِّسَالَة:

فقد كانت أول بعثة الرسول صلَّى اللهُ عَلَيه وسَلَّم في العرب الذين كانوا أحراراً، لا يدينون لملك ولا يخضعون لسلطان، وكانت أديانهم شتى.

فكان هذا المجتمع الحر هو الذي أنشأ جيل الصحابة رضوان الله عليهم؛ لأن اختيارهم للإسلام كان اختياراً حراً، لم يجبرهم عليه أحد، ولا خدع قناعتهم به ترغيب ولا ترهيب ولا زوره ضغط اجتماعي.

بل على العكس، مورس الضغط عليهم من الكفار، فما زادهم ذلك إلا ثباتاً؛ لأن القناعة التي تجيء بالاختيار الحر، لا تخرج أبداً إلا بالاختيار الحر!

* * * * *

(هَلْ هَذِهِ الحَضَارَةُ نَابِعَةٌ مِنَ الإسلام)!

لو كانت الحضارة المعاصرة نابعة من تعاليم الإسلام، هل كان اختراع سلاح يفتك ويهلك ويفسد الحرث والنسل كالسلاح النووي سيجد طريقه فيها؟!

فالرحمةً التي وسعت العالمين بالنبي صلَّى اللهُ عَلَيه وسَلَّم، تسع حتى ألد أعدائها الميؤوس منهم، فتحب لهم الحياة، ولا ترضى لهم الهلاك، لمجرد احتمال أن يخلق الله منهم ذرية يصلها بَرَدُ تلك الرحمة، فتقول لملك الجبال الذي ينتظر الإذن بالإطباق: (لا، لعل الله يخرج من أصلابهم من يعبد الله ولا يشرك به شيئاً).



فِي الأَخلاقِ والسُّلُوك

حَيَاةُ الأخلاقِ ومَوْتُهَا

الأخلاقُ كائنٌ حيٌّ، يعيشُ داخلنا، يُولد معنا، فهو من الفطرة السويَّة التي امتنَّ اللهُ تعالى على البشر بتكريمهم وتفضيلهم بها.

وهذا الكائن الطاهر السامي قد يكون من خصائص أرواحنا (السر الرباني الذي يعطي أجسادنا الحياة، وبانتزاعه نموت)، وقد يكون هو خاصية العقل الذي يميِّز بين الخير والشر، والعقل هو ذلك الجزء الشريف فينا، الذي به تميَّزنا عن باقي الحيوانات، وبه أمكننا تحمُّل أمانة التكليف والمحاسبة.

لذلك فإن انعدام الأخلاق هو موت روحي، كموت الدماغ مع حياة القلب! وسوء الأخلاق هو اختناق للفطرة، تحبس أنفاسها كما تنحبس أنفاس الغريق!

فمن ظنَّ بعد ذلك أن ديناً أو حكمةً تبيح لك أن تشتمَ وتسبَّ، أن تَسْفَهَ وتجهلَ على خلق الله، أن تقابلَ الإساءة بالعدوان (لا بالانتصاف بغير عدوان)، فقد كذب في ظنه، وأساء إلى دينه، وسوَّدَ وجه الحكمة المضيء؛ فلا يمكن لأيِّ دين يدَّعي أصحابه الحق والخير أن يسمحَ بإعدام الأخلاق لديك؛ إلاَّ أن يكونَ تحريفاً عن الحق والخير. ولا يمكن لحكمة أن تجتمع والسفاهة، إلا أن تكونَ جهلاً، لا حكمة!!

أخيراً: أنصحُ مَن قتل فيه روح الأخلاق، مَن أعدم فطرتها في نفسه، أن يحرصَ على أن يتعرضَ لنفحات معجزة إحياء الموات، أن يبذرَ بذرة الخير والأخلاق فيه من جديد، أن يسهرَ على سقيها، أن يحرصَ على تعريضها لحرارة شمس الحق؛ لكي تنبت من جديد.

عسى أن تحيا أخلاقه بعد موت، وأن تُنشر من قبرها قبل يوم النشور، وما ذلك على كرم الله تعالى ببعيد، ولا عن سُنن الكون في إحياء موات الأرض ومن فيها بغريب!!

لكن عليه أن لا يعود إلى خطيئة الإماتة من جديد، فما مات، مرتين، لن يحيا ثلاث مرات!!

* * * * *

(فَضِيلَةُ الأخلاقِ الحَسَنة)

عندما قال النَّبي صلَّى اللهُ عَلَيه وسَلَّم فِي أُسَارَى بَدْرٍ: (لَوْ كَانَ المُطْعِمُ بْنُ عَدِيٍّ حَياً، ثُمَّ كَلَّمَنِي فِي هَؤُلَاءِ النَّتْنَى، لَتَرَكْتُهُمْ لَهُ)، فهو صلَّى اللهُ عَلَيه وسَلَّم يقول ذلك عن المطعم بن عدي، وهو مشرك، مات على عبادة الأصنام، لكنه كان رجلاً ذا خلق كريم: فهو صلَّى اللهُ عَلَيه وسَلَّم يشيد بذلك بناء عالياً للأخلاق، يبين فيه أن صاحب الأخلاق الكريمة يستحق احترامه وتقديره وقبول شفاعته في أمر جليل (وهو فكاك أسرى الحرب)، لأخلاقه الكريمه، رغم كونه كافراً مشركاً!!

وهذا يعني أن صاحب الخلق اللئيم، ولو كان مسلماً، فليس مسلم الأخلاق، ولربما رُدَّت شفاعته؛ للؤم خلقه. بخلاف المشرك ذي الأخلاق الكريمة، كالمطعم بن عدي، فضلا عن المسلم الموحد المبتدع ذي الأخلاق الكريمة؟!!

وكما تناقل الناس كلمة القائل عن بلاد المسلمين: رأيت مسلمين ولم أر إسلاماً، فربما رأينا أهل سنة في عموم عقائدهم، ولكن أخلاقهم ليست أخلاق أهل السنة!!

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

(مِنْ رِقَّةِ عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عنه)

ثبت خبر يذكر أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه خرج في سفر في ركب من المسلمين، بلا خادم ولا حرس، فكان يخدم نفسه بنفسه كلما نزلوا منزلاً.

وفي أحد المنازل، أناخ عمر راحلته، وحط عنها الرحل بيده، ثم قيدها كأي رجل من عامة المسلمين، فلم يكن له خادم يحط عنه رحله.

ثم ذهب يطمئن على حال ركاب القوم، فوجد فيها راحلة مقصوراً لها من قيدها، فأرخى لها عمر، ثم أقبل وهو غاضب يتغيظ، ويقول أيكم صاحب الراحلة؟! فقال له رجل من القوم: أنا يا أمير المؤمنين، فقال له عمر: بئس ما صنعت، تبيت على فؤاده، تضرب صدره، حتى إذا حان رزقه، جمعت بين عظمين من عظامه؟

ذُكرتْ هذه القصة لعمر بن عبد العزيز، فبكى بكاء شديداً، وعرف الفرق الكبير بينه وبين عمر بن الخطاب!!

ثم بعد هذا القلب الكبير الرقيق يوصف عمر بن الخطاب بالشدة، وهو الذي رق مثل هذه الرقة بالعجماوات من الحيوانات؟!

أين نحن من هؤلاء؟!

وإذا لم نقترب من حالهم، فهل فينا قلب عمر بن عبدالعزيز لنبكي على أنفسنا؟!

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

ابتِسَامَةُ الأطفَالِ

رضا بالقليل، وقناعة بالموجود، وتفاعل إيجابي مع الواقع مهما كان صعباً، وتفاؤل وأمل في المستقبل، وسعادة جبارة لا تقهرها الآفات!!

فليتنا نتعلم من الأطفال!! فقد كنا أطفالاً يوماً؛ ألهذا الحد تكبرنا على الطفولة؟!

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

(البَحثُ عَنِ السَّعَادَة يَجلبُ السَّعَادَة)

أن تبحثوا عن السعادة فلا تجدوها، خير من أن ترضوا بواقع يخبركم بأنكم لن تجدوا إلا الحزن!

فإن البحث عن السعادة وحده يجلب السعادة! لأن الأمل باحتمال وجود السعادة سعادة؛ ولأن السعادة صناعة نفس، وليست صناعة واقع. فرب غني تعيس، ورب فقير سعيد، فلا نفع الأول واقعه في الغنى، ولا ضر الثاني فقره مع نفسه التي تصنع السعادة.

أرأيتم الطفل الفقير عندما يفرح بلعبة مكسورة مرمية على قارعة الطريق، فيفرح بأخذها وباللعب بها؟!

أرأيتم فرحه باللباس الجديد عليه يوم العيد، ولو كان يعلم أن هذا اللباس هو لباس قديم لطفل آخر؟!

هكذا يعلمنا الأطفال أن السعادة تجدها حين تبحث عنها! بل هي التي تجدك عندما تريدها فقط.

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

(الأحلامُ والأُمْنِيات)

الأحلام طيف طاهر والأمنيات نور رقيق، والطاهر لا يمكن أن تصل إليه بأرجاس الأحقاد، والرقيق تخرقه غلاظة العنف والنزاعات.

فلا تتصور أنه يمكنك أن تحقق أحلامك بالأحقاد، أو أن الأمنيات يمكن أن يوصلك إليها صراع الوحوش على البقاء.

إن الذي يحقق أحلامك ويجعلك تفوز بأمنياتك لا بد أن يكون في طهرها ورقتها، وهو التنافس الشريف، والذي يقع الحب والإيثار منه موقع القلب من الجسد.

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

(سُمُوُّ المَشَاعِر)

سمو المشاعر ليس هو رقة شعورك بما يخصك، فهذا شعور لا يختص به الإنسان أصلاً، ولا يخلو منه الأناني الذي لا يشعر بغير نفسه.

وإنما سمو المشاعر هو أن تشعر بالآخرين.

يقول أحدهم: أبكي عندما أشاهد برامج المواهب؛ فرحاً بوجود هذه القدرة الإنسانية على الإبداع، وفرحاً بنجاح هذا الشخص في تنمية مهارته.

ويقول أيضاً: بكيت فرحاً بمشاهدة لقاء أم بولدها بعد غياب خمس وعشرين سنة، لا يعرف الابن صورة أمه خلالها، رغم مهاتفته لها كل أسبوع أكثر من مرة.

وقال أيضاً: بكيت وأنا أستشعر حب عنترة لعبلة وسر هيامه الأسطوري بها؛ فقد كانت له روح الحياة ونسمة النعيم في حياة البؤس والعبودية والظلم التي تغمر قلبه؛ إلا عند ذكر عبلة:

ولقد ذكرْتُكِ والرِّماحُ نواهلٌ ... مني وبيْضُ الهِنْدِ تقْطرُ منْ دمي

فوددتُ تقبيل السيوفِ لأنها ... لمعت كبارق ثغركِ المتبسِّم

ويقول كذلك: بكيت لمشهد طفل يتكلم كلام الكبار، بسبب حياة حملته تكاليف الكبار، وهو ما يزال طفلاً.

فقلت: هذا كله من سموِّ المشاعر!!

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

(السُّمُوُّ الإنسَانيُّ)

الحزن والبكاء لفقدان حبيب أو ألم عزيز، بقدر ما هو مؤلم، بقدر ما يعطي شعوراً بالإنسانية والكرامة.

فإذا بكيت لألم من لا تعرف، وحزنت لمآسي من لا يعرفك ولا يعلم بك، فهذه لذة كبيرة، فأنت تستشعر بهذا الحزن والبكاء سمواً إنسانياً ورقي مشاعر، يستحق أن تجد له لذة.

لكن احذر من أن تمارس النفاق مع نفسك، فيكون حزنك وبكاؤك لإرضاء نفسك فقط، بل اجعله مشاعر حقيقية تدعو للبذل والتضحية لهم

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

هَلِ الذِّكْرَيَاتُ الجَمِيلَةُ جُرُوحٌ؟ فَلِمَاذَا أشعُرُ أنَّ نبشَهَا يُؤلِمُنِي؟!

أوشكت على إتمام الخمسين، فعدت بالذاكرة إلى عمر كنت فيه بين السادسة عشرة والعشرين، فبكيت، ولا أدري هل بكيت يأساً، أم بكيت شوقاً، أم بكيت ندماً، أم بكيت حنيناً؟

أما (الحنين) فرغم كثرة ذكر النّاس له، إلا أني لا أدري ما هو، إن كان هو مجرد البكاء على الماضي، فما أنا فيه هو الحنين. وإن كان هو هذا السر الذي يجمع جيوشاً من المشاعر المتصارعة،

والتي لا يمكنك معها أن تعرف سبب بكائك؟ ولا أن تتذوق في عبرتها دمعة الفرح ولا عبرة الحزن؟! فسوف يبقى (الحنين) سراً، لا أدري ما هو؟

لقد كنت أبكي في ذلك السن الغض (سن ما قبل العشرين) على ذكريات الطفولة، ما زلت أذكر حنيني الشديد إلى سن الطفولة: حنيناً إلى تلك النظرة التي كانت تندهش بكل شيء، وإلى ذلك القلب الذي يفرح بكل شيء، وإلى ذلك الشعور بالحاضر، بلا آلام من الماضي، ولا تخوف من المستقبل.

هل تصدقون أني ما زلت أذكر أني كنت آخذ عود كبريت، أو عودين، فأكسرها أحجاماً مختلفة، ثم أبدأ أقص على نفسي قصة بهذه الأعواد، منعزلاً عن العالم، واضعاً وجهي إلى الجدار، في لذة لا تساويها لذة، حتى أنام!!

نعم لقد كنت طفلاً، كباقي الأطفال!!

وأما اليوم فأنا أبكي شبابي: تلك النظرة الشجاعة للمستقبل، والتي يسميها الناس الأمل، وأبكي ذلك القلب الذي كان يظن الغدر والحقد والخيانة أغلالاً لا تجدها إلا في الروايات، عكس ما يقوله الناس من أن الوفاء وصفاء النفس وحفظ العهد هي التي غابت إلا من الحكايات.

وأبكي تلك المشاعر التي تهزم بقوتها جبال اليأس، وتكاد تهتك بشدة إصرارها وقوة مثابرتها حجب الغيب الآتي.

فهل سأعيش حتى أبكي الخمسين؟!

* * * * *

رَسَائِلُ التَّشجِيع:

الأولى: ليس يَكْبُرُ على التشجيع أحدٌ، فليس التشجيع للصغار فقط. بل كلما كَبُـرَ الشخص كان إلى التشجيع أحوج؛ لأنه كلما عَلَتْ قِمّةُ الجبل أصبحت مدببة، فيصعب الثبات عليها. ولذلك فقد كان أصحابُ القمم أحوجَ الناس إلى التثبيت، وإلى حثِّهم على الاستمرار في الترقّي إلى معارج الأمجاد.

الثانية: ألم تسمع إلى عظيم ثناء الله تعالى على أنبيائه (عليهم السلام) عموماً، وعلى خاتمهم خصوصاً، ويُسمعهم سبحانه هذا الثناءَ في حياتهم؟! أوَلَم تسمع إلى عظيم ثناء رسول الله على كبار أصحابه الأحياء (كأبي بكر وعمر)؟!

هل كان ذلك كله إلا تشجيعاً على الثبات، وحثاً على مزيد من العطاء؟! وهؤلاء هم أكبر الناس وأكملهم عقلاً وزكاءَ نفس. فلو كَبُـرَ أحدٌ على التشجيع، ولو استغنى عنه أحدٌ، لكان هؤلاء هم أولى الخلق بذلك.

الثالثة: التشجيع الذي لا يفضي إلى الغرور هو: الذي يدلُّكُ على مواطن القوة والإجادة، ويحذرك في الوقت نفسه من جوانب الضعف والإساءة فيك.

والأول بلا الثاني كثيراً ما يؤدي إلى الغرور، والثاني بلا الأول كثيراً ما يؤدي إلى الإحباط.

الرابعة: عليك عند تشجيعِ أحدٍ الإطالةَ بذكر جوانب القوة والإجادة فيه، والاختصار بذكر ما يضادُّها فيه؛ فإنهما لو تساويا في الذِّكر فإن عملك هذا سيكون تقييماً، لا تشجيعاً. ولئن كان المرء محتاجاً للتقييم من حين لآخر، فإنه يحتاج إلى التشجيع في كل حين، حتى إذا ما أردت منه قبول التقييمَ وأن يقبل نقد الآخرين له عليك بتشجيعه أولاً.

الخامسة: بما أنه لا يمكن لأحد أن يدعي الإحاطة بحدود المواهب لدى شخص آخر، فقد وجب عند تشجيعه عدم تحجيم مواهبه، بحجة الخوف عليه من الاغترار، فالتشجيع الحقيقي هو الذي ينبش كوامن المواهب الخفية فيك، ويفجر طاقة القدرات المجهولة عندك، وربما تكون مجهولة حتى عند من تشجعه!

السادسة: التشجيع ممدوح دائماً، أما المدح فمنه الممدوح ومنه المذموم، وشرط كونه ممدوحاً: أن يكون بنية حسنة (فلا يكون تزلفاً ونفاقاً) وأن يكون بحق (فلا يكون فيه كذب)، وأن لا يؤدي إلى مفسدة (مثل اغترار الممدوح). وبهذه الشروط تجد أن المدح المحمود يكاد يكون هو التشجيع نفسه.

السابعة: قلت سابقاً: إنه كلما كبُـرَ الشخص كان إلى التشجيع أحوج، وأضيف إلى ذلك اليوم: أنه كلما كبُـرَ الشخص وجب أن يكبر معه تشجيعه، وإلا كان استخفافاً بقدره.

الثامنة: الأصل أن المدح بحق سيكون محمود الأثر على الإنسان السويِّ الشخصية، فيشجعه على الخير. ولذلك فالأصل أن نشيع ثقافة المدح بالحق؛ إلا إذا ظهرت علامات الكبر والغرور على الممدوح. والحق أقول لكم: إن المدح الذي يؤدي إلى الغرور غالباً لا يكون مدحاً بحق، بل بكذب ومبالغات وبنية التزلف والنفاق.

التاسعة: كثيراً ما يترك بعض الناس مدح شخص وتشجيعه بحجة الخوف عليه من الاغترار، وتكون الحقيقة غير ذلك، بأن يكون الحسد هو دافعه إلى ذلك. وعلى الصادق أن يفرق بين الأمرين: فإن وجد نفسه تقبل ذكر الممدوح في غيبته بصفاته الحسنة، ولا تضيق بسماع الثناء عليه في حالة عدم حضوره، فهذا مما يشهد لصاحبه بنجاته من الحسد وسلامته منه تجاه الممدوح.

وإن وجد نفسه تضيق بذكر محاسن شخص حتى عند عدم حضوره، ولا يستطيع سماع الثناء عليه بحق، فهذا لن يترك المدح والتشجيع خوفاً على الممدوح من الغرور، بل خوفاً على نفسه من أن تحرقها نار الحسد.

ولا يخلو إنسان حي من جانب مضيء يستحق التشجيع عليه لاستكماله، فكيف إذا كان الحديث عمن في قلبه ذرة من إيمان؟! فإن لم يؤمن أحدنا بقدرات معينة لدى شخص، فلا بد أنه سيجد فيه قدرات أخرى، فإن عجز تماماً، فليعلم أن المشكلة في عجزه هو عن إيجادها، لا في الذي لم يجدها فيه.

وحينها إن كان صادقاً في حُبِّه للخير وفي بُعده عن الحسد، فليكن سخياً على ذلك الشخص ولو بعبارات تحفيز عامة وبثناء مطلق، ليثبت لنفسه (قبل الآخرين) أنه لا يغطي عينه الحسد، ولا يعميه عن المحاسن كراهية.

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

رَسَائِلُ المُبَادَرَة:

الأولى: الفرق بين المبادرة والتهور لا يتبيَّنُ إلا من خلال تحديد الفرصة التي تستوجب اغتنامَ المبادرة إليها، والفرصة الحقيقية هي: التي يجب أن لا ينزل احتمال النجاح فيها عن احتمال الفشل.

فالمبادرة إذن هي: اغتنام الفرصة الحقيقية إذا واتتك قبل فواتها، فالفرص لا تكرر دائماً، وأما التهوُّر فهو: تعجُّلُ اغتنام الفرصة قبل أن تواتيك، أو قُل: توهُّمُ وجود فرصة لا وجود لها!

الثانية: من طبيعة الإنسان أنه كلَّما أطال التأمل في خطة عملٍ مستقبلي، متجاوزاً في التأمل حدَّ ظهور رجحان النجاح على الفشل، تكاثفت عليه أغشيةُ الغيب، فتزايد خوفُه وتردُّدُه، وتوقف عن اتخاذ القرار، حتى تفوته الفرصة. ولذلك كانت المبادرة شجاعة؛ لأنها صراعٌ مع المجهول.

الثالثة: المبادرة يُغتَفَر لها من الأخطاء ما لا يُغتَفَر مع التَّريُّث؛ لأن المبادرة بحد ذاتها فضيلةٌ كبيرةٌ، فهي تحجب بفضلها كثيراً من الأخطاء.

والمبادرة تعني أنك بقدر تعجلك في اغتنام الفرصة، بقدر ما ستستغني عن خطط للإنقاذ؛ لأن التأخر بحد ذاته يُكثر من احتمالات الفشل، بعكس المبادرة التي تقلل من احتمالاته.

ولـمَّا كانت الحروب تعتمد على عنصر المفاجأة وعلى اغتنام الفرص، تجد أنَّ إعذار القادة العسكريين في ذلك أقوى من غيرهم، وصارت فكرة الكَرِّ والفَرِّ سياسةً متَّبعةً في جميع الحروب؛ لأنها فكرة مبنية على المبادرة القتالية في قيادة الحرب، بمراعاة الاختلاف السريع لموازين القوة والضعف.

أما مَنْ تُتاح له فرصة التفكير الطويل ثم بعد ذلك يخطئ، يكون لومه أكبر، والعتاب عليه أشد.

الرابعة: لكن سرَّ نجاح المبادرة هو قِصَرُ فترة إنجازها، فكلَّما طالت فترة الإنجاز فَقَدت خاصية المبادرة، واكتسبت خاصية الخطط الطويلة الأمد: التي تُدقِّقُ في المؤاخذة على الأخطاء،

وتستوجب طول الدراسة. وهذا فارق مهم بين المبادرات، والقرارات العشوائية لما يستوجب الدراسة الطويلة.

الخامسة: قد يبدو أن المشاريع الطويلة الأمد تستعصي على المبادرة؛ لأن المبادرة تعتمد في نجاحها على قاعدة قِصَر فترة الإنجاز، إلا أن المبدعين من أصحاب المبادرات يستطيعون القيام بهذه المشاريع، وذلك بأن يقسِّموها إلى عدد كبير من المبادرات المتوالية، فينجزون المشروع الطويل الأمد بعدد من المبادرات القصيرة.

السادسة: قد يُضطر المبادر إلى عدم أخذ مشورة الآخرين؛ لأن شجاعة المبادِر يجبن عنها الكثيرون، خاصة أنهم يخشون اللوم من صاحب المبادرة فيما لو حصل له إخفاق، فمشورتهم في مبادرة غيرهم غُنمها للمبادر وحده وغُرمها عليهم، فهي في حسابهم: غُرْمٌ بغير غُنْمٍ، ولذلك كثيراً ما يشير المشيرون بعدم المبادرة، ولذلك قد يُضطر المبادر إلى ترك الأخذ بالمشورة في بعض الأحيان، إذا شعر أن خوف المشيرين غير مبرَّر.

السابعة: إذا أردت أن تكون صاحب مبادرة فتحلَّ أولاً بالشجاعة، ثم تابع القضايا التي تريد أن تكون صاحبَ مبادرةٍ فيها متابعةً دقيقةً، لكي تقتنص الفرصة التي تمر سريعة عبر الحدث وبين ركام القرارات الرتيبة.

إنَّ لحظةَ المبادرةِ لحظةٌ خاطفة، تلك هي لحظة اغتنام الفرص، فلا تفوتها، ولا تيأس من أول إخفاق، فإن اغتنام الفرص مهارةٌ ورياضةٌ تنمو مع التدريب والمثابرة.

الثامنة: تأملت لحظة اتخاذ قرار المبادرة، فوجدته قد يكون أسرع من طرفة العين، يمر بك، فيبادر الخوف إلى صدك عنه، والتسويف إلى تأخير التفكير فيه، والتردد إلى قتله! فإذا لمعت في ذهنك فكرة للمبادرة، فإنك تحتاج إلى إيقاف الزمن عندها لحظة، لتتأمل ذلك القرار تأملا عميقا وسريعا، ثم لتبت القرار قبل فوات الفرصة.

التاسعة: المبادرة هي طوق النجاة في الأزمات؛ لأن الأزمات لا تحتمل حلولها أدنى قدر من التأخير.

وأمتنا اليوم تمر اليوم بأحد أشد أزماتها تأزماً، كما أن العالم بأسره يعيش في عصر السرعة، والسرعة لا يستطيع تصحيح مسارها إلا المبادرات، ولذلك فنحن بحق في عصر المبادرات. فالمبادرات من أهم ما يجب تنشئة الأجيال على فقهها وتدريبهم على مهارتها.

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

رَسَائِلُ الحِكْمَة:

الأولى: لولا أن الناس كلهم حكماء بالفطرة لما اتفقوا على قبول الحكمة واستحسانها، بلا طلب دليل عليها. ولا فرق بينهم وبين الحكيم الذي صاغ عبارةَ الحكمة؛ إلا أن الحكيم يصوغ حكمته بما يكون أدعى للعمل بها ولالتزامها، لتنتقل الحكمة بصياغته من بُرج المثاليّة المترفِّع إلى أرض الواقع المتواضع، ومن الحقيقة الذهنية المجرّدة إلى الحقيقة الموجودة خارج الذهن بالممارسة العملية.

الثانية: تأمل الفرق بين قولنا: (الصدق شيء جيِّد) وقولنا: (الصدق منجاة)، لماذا كانت العبارة الأولى ليست حكمة، والثانية هي الحكمة؟ مع أن العبارة الأولى صحيحة، وأعمُّ من الثانية في ذكر محاسن الصدق!

السبب: هو أن العبارة الأولى لا تحمِّس على التزام الصدق الذي يعرف الجميع أنه جيِّد، بينما نبَّهت العبارة الثانية إلى أثر مهم من آثار الصدق؛ فكانت أقوى أثراً في التزام الصدق عملياً.

الثالثة: الحكيم الذي يحسن القول ويسيء العمل كالمتنبئ الكذاب، لا خير في حكمة الأول، كما أنه لا خير في نبوَّة المدَّعي الكذَّاب.

ذلك أن قداسة العلاقة بين الحكمة والعمل تجعل الحكمة نافرةً عمن لم يكتشف سرَّ ارتباطها الكامل بالعمل، وهو سرٌّ لن يكتشفه إلا من جعل العمل هو سبيله إلى اكتشافها.

الرابعة: الحكمة حكمتان: حكمة بشرية، يدرك حكمتها العقلاء من البشر. وحكمة ربانية، ولِدقتها فقد لا يدرك حكمتها كثير من البشر، لكن دلَّ على وجوب قبولها صدورها من

الحكيم سبحانه. فالأولى: لا تعرف الفواصل الدينية ولا الوطنية ولا اللغوية ولا غيرها. والثانية: تفوق قدرة البشر، ولذلك فتحتاج لاستدلال على أنها قد صدرت من الخالق الحكيم سبحانه.

الخامسة: الغريب أن الحكمة تزيد قداستها إذا ما تلطَّخت بأخطاء الواقع؛ لأنها طهارة للواقع من تلك الأخطاء؛ ولأنها لا تكون قابلةً للتطبيق إلا إذا خالطت الواقع. ولن تتزايد في القداسة: لو ترفّعت بسجنها في فضاء العقل الفسيح، ولو تنزَّهت عن الواقع بحبسها في عالم الأفكار الطاهرة. وهذا أحد الفروق المهمة بين حكمة الأنبياء وحكمة الفلاسفة، وبين مدينة الأنبياء الفاضلة الواقعية، ومدينة الفلاسفة المثالية.

السادسة: أُس الحكمة الأكبر: الاعتدال، فلا حكمة بغير إنصاف. ومددها: طول التفكر، فليس بحكيم من لم يُدم التأمل. ومحكُّها: العمل، وإلا ستكون مثالية لا تقبل التطبيق العملي. وصقلها: التجارب، فالتجربة تزيد الحكمة إحكاماً. وثمرتها: وضوح التمييز بين الحق والباطل، ولذلك كان من أوتي الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً.

السابعة: لن يرى المجرم غالباً في حكمة العقوبة المنصفة له على إجرامه (حكمة)، ولن يرى المغرور المكابر الذي لا يعترف بخطيئته (الحكمة) التي تفضح تلبسه بالخطيئة، ولن يرى المتكبر الذي يحتقر الآخرين (الحكمة) التي تلزمه بمساواته للآخرين. وهكذا تحرم خطيئة مخالفة (الحكمة) من رؤية (الحكمة)، وهكذا تعلم أن (الحكمة) قرينة النفوس الزكية العاملة بـ(الحكمة).

فخُلُقٌ واحد قد يكون معه الحكيم حكيماً، وإن تأخر عمله عن التزامه بالحكمة: وهو الإنصاف من نفسه، بأن يعترف بخطئها وتقصيرها. فمثل هذا الحكيم وحده هو الذي يمكنه أن يعرف الحكمة ولو لم يعمل بها، ولن يمنعه تقصيره في العمل من الفوز بالحكمة. ومن أنصف من نفسه كان لغيره أنصف، ولذلك كان العدل والاعتدال أس الحكمة الأكبر.

الثامنة: إن الاعتراف بالخطأ الذي قاد إلى إدراك الحكمة، لن يكون دليلاً للحكمة إذا ما كانت الخطايا أغلب من الحسنات؛ لسببين: الأول: أن الاعتراف بالخطأ لن يكون سهلا إلا على

من قلّ خطؤه، فهان عليه لذلك الاعتراف بالخطأ. والثاني: أن كثير الخطايا لن يكون كذلك إلا وقد ودّع الاعتدال واحتضن الاعتداء على الحقوق، والاعتدال هو أس الحكمة (كما سبق).

التاسعة: كل الناس يقبلون الحكمة، أي: يقرون بكونها حكمة. لكن الغريب: أن أقل الناس من يعمل بها! وهذا هو الفرق بين الحكيم الحقيقي وغيره: فالحكيم يقبل الحكمة بيقين راسخ، وهو ما يجعله منقاداً للعمل بها، دون شعور بأنه مُجبَرٌ على التزامها. وغيره: يقبلها معرفياً، بغير يقين، ولذلك يظنها تتخلَّف عن تحقيق المصالح، فلا يعمل بها، وإن عمل بها فيعمل وهو كاره، كالمضطر.

العاشرة: لن تجد حكيماً إلا وهو طويل التأمل عميق التفكُّر. وأما الحكمة التي تنقدح في الذهن بسرعة كالشرارة السريعة، فقد تنطلق حتى من لسان فاقد العقل (خذوا الحكمة من أفواه المجانين)، ولن يصبح هذا المجنون حكيماً بمجرد ذلك. فما أحوجنا إلى تعلم هذه المهارة التي كان أمهر الناس فيها: سادة الحكماء وهم الأنبياء: وهي طول التأمل.

* * * * *

(الأخلاقُ الحقيقيةُ تَنشأ في المُجتمعِ الحُرِّ)

يذكر علماء الأخلاق أن الالتزام الأخلاقي الناشئ عن الضغط الاجتماعي ليس التزاماً حقيقياً بالأخلاق؛ لأنه ناشئ عن عبودية اجتماعية، وليس عن حرية تتيح فرصة القناعة الصادقة.

ولذلك فالأخلاق الحقيقية لا تنشأ إلا في المجتمع الحر، والذي يحافظ على الحرية بكل قوة ووعي وانضباط.

ولا يعني ذلك أن هذا المجتمع الحر لن يكون له ضغط اجتماعي، فهذا الضغط لا بد أن يعمل وفق مبادئه، حتى بغير إرادة المجتمع، لكنه يعني أن ضغط المجتمع الحر لا يصل إلى درجة المطالبة بممارسة النفاق الاجتماعي باسم الأخلاق، أي لا يطالب بالتزام الأخلاق من أجل

المجتمع فقط، وإنما يكتفي بتمجيد الأخلاق الفاضلة واسترذال الرذيلة، وبترسيخ الإيمان الحقيقي بكون الأخلاق وحدها والتزامها وحده هو الذي تتحقق به المصلحة العاجلة.

فإن لم تكن مصلحة الأخلاق عاجلةً، فهي مصلحة آجلة كبيرة، تفوق خسارة المصلحة العاجلة الفائتة بعدم التزام الأخلاق.

ويترك المجتمع الحر العقوبات للجهات العدلية، ولا يتدخل بأكثر من ذلك، فلا يتبرع هو في إنزال العقوبات على مخالفة الأخلاق بغير قوانين تضبط تلك العقوبات ولا جهات تضبط تطبيقها.







﴿قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾ البقرة: ٢١٩

قال تعالى عن الخمر والميسر: ﴿قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾، لو كان هذا من كلام البشر لقالوا: فيهما ضرر كبير ومنافع للناس؛ لأن الذي يقابل المنفعة هو الضرر، وليس الإثم.

ولكن جاء النظم على ما هو عليه لحكم منها: أنه قد استقر في قلوب المؤمنين بأن أحكام الشرع جاءت لجلب المصالح ودرء المفاسد، فأصبح التأثيم دالاً على تحقق الضرر الدنيوي ويزيد عليه تذكيراً بالضرر الأخروي.

* * * * *

﴿وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ البقرة: ١٢

الإفساد بعد النهي عنه لا يكون بسبب الجهل، وإنما يكون بسبب فساد الحواس؛ لأن الصلاح أمر ظاهر، فالإصرار على إفساده بعد النهي عنه لا يكون بسبب الجهل، بل بسبب ما هو أسوأ من الجهل، وهو انعدام الإحساس.

ولذلك قال تعالى عن الذين يُنهون عن الإفساد: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ البقرة: ١٢.

بينما قال عن الذين يصفون المؤمنين بالسفه: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ البقرة: ١٣.

فالسفه يكون بسبب الجهل، وأما تعمد الإفساد فلا يكون إلا بسبب غياب الشعور.

* * * * *

﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً﴾ الكهف: ٦.

استوقفني في هذه الآية أنه بعد أن ذكرت أن النبي صلَّى اللهُ عَلَيه وسَلَّم يكاد يهلك نفسه غيظا وحزناً من عدم اهتداء قومه، جاء قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ الكهف: ٧، فلماذا جاء ذكر هذه الآية بعد ذكر حزن النبي صلَّى اللهُ عَلَيه وسَلَّم وغيظه الشديد؟!

بدا لي أن الله تعالى يقول لنبيه صلَّى اللهُ عَلَيه وسَلَّم: لا تشتد ولا تغلظ على قومك مهما أعرضوا عنك وكذبوك، فإني ربك وباعثك بالنبوة، وأنا الذي أشركوا بي غيري، ومع ذلك فإني أذكرهم بي وبحقي عليهم بألطف شيء، بزينة الدنيا، وأردهم إليَّ بنعيمها.

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

﴿وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجاً﴾ الكهف: ١.

﴿الْحَمْدُ للهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجاً﴾، لماذا جاء التعبير بـ﴿لَهُ عِوَجاً﴾ ولم يقل (فيه عوجاً)؟ لأن العوج في القرآن مستحيل وهو كلام الله تعالى؛ فزاده الله تعالى شرفاً بأن جعل استقامته واضحة غاية الوضوح، فلا عوج حتى فيما أحاط به وتمسك بأهدابه، ولا خفاء في الطريق إليه لمن قصده أو صدر عنه، ولا يلتبس منهجه بالسبل العوجاء التي تخالف منهجه. وهذه المعاني يحققها قوله تعالى: ﴿لَهُ عِوَجاً﴾، دون قولنا: فيه عوجاً.

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

﴿فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ الشعراء: ٢١٦.

لقد كان النبي صلَّى اللهُ عَلَيه وسَلَّم بريئاً من شرك قومه من قبل إصرارهم على رفض دعوته، وقومه أنفسهم يعرفون أن لازم دعوته للتوحيد براءته من الشرك، فما معنى أمره صلَّى اللهُ عَلَيه وسَلَّم بإعلان البراءة من دين عشيرته الذي قد تبرأ منه منذ اللحظة التي دعاهم فيها للتوحيد؟!

إنها براءة خاصة: وهي براءة الاستعلاء بالحق، وإشعار المخالف بسوء اختياره، ودناءة الموضع الذي رضيه لنفسه! عسى أن يغير قراره، ويختار لنفسه عزة الحق.

* * * * *

﴿قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللهِ﴾ النمل: ٤٧.

عندما يدَّعي المشركون أن كل ابتلاء يصيبهم نتج من شؤم المصلحين، يكفي للرد عليهم أن نذكرهم بما يؤمن به حتى عامة المشركين، من أن الأقدار بيد الله وحده، مما يعني أن ما أصابهم إنما أصابهم بأمر الله تعالى.

وإذا كان كذلك، فلن يصيبهم إلا بعدله. فعاد الشؤم إليهم، وأنهم بعصيانهم كانوا هم الشؤم على أنفسهم. وهكذا يكون جواب الأنبياء، حجة قاطعة، وانتصاف بغير فحش، واختصار غير مخل.

* * * * *

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِناً ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً. ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضاً يَسِيراً﴾ الفرقان: ٤٥ـ٤٦.

التذكير بالقدرة الإلهية من خلال مد الظل وقبضه: فيه لطف؛ فالظل نعمة كبيرة، ومده وقبضه يضفي على سطح الأرض حركة الحياة، مما يشهد لقدرة الله تعالى على بث روح الحياة في كل شيء.

ثم في عجز حاسة البصر عن ملاحظة نقصانه البطيء مع اليقين به، ما يدل على قصور الحواس عن إدراك بعض الحقائق اليقينية.

* * * * *

﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَباً قَالَ هَذَا رَبِّي﴾ الأنعام: ٧٦.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَاماً آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ. وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ. فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَباً قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الآفِلِينَ. فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغاً قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ. فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ. إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ الأنعام: ٧٤ـ٧٩.

إن كان قالها تنزلاً، كما ذهب إليه بعض المفسرين (كابن كثير)، وأنه عليه السلام إنما كان يقول ما يقول ليتدرج بالحجة على المشركين، لكي تعيها عقولهم.

ولا يصح هذا التقرير؛ إلا بأن يقال: جاز له عليه السلام بل حَسُنَ منه إطلاق عبارات ظاهرها الكفر: لما علم أنه سيحيا حتى يقيم الحجة على قومه، أو لكون قومه كانوا يعلمون من حاله وإنكاره عليهم شركهم أنه لا يقول ما يقول عن اعتقاد، وأنهم علموا أنه يناظرهم بمثل هذا الكلام.

وهذا فيه فوائد:

١ـ أن التمثيل من وسائل دعوة الأنبياء، ومنها هذا الموقف الواضح، والذي أطلق فيه خليل الرحمن عليه السلام عبارات كفرية (في ظاهرها) لكي يقيم بها الحجة.

٢ـ أن الإخبار بخلاف الواقع ليس دائماً يكون كذباً مذموماً، فسواء ظنوه يقول ما يقول اعتقاداً، أو أنه اكتفى بعلمهم بحاله، فكلا الحالين لا يخرجان قوله عن كون ظاهره خلاف الواقع، فلا عبد عليه السلام الكوكب ولا القمر ولا الشمس، بل كان ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لله حَنِيفاً وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ النحل: ١٢٠.

٣ـ تقديم المفسدة الأخف على الأعظم، فالقول ظاهره مفسدة، لكن نتيجته تزيح مفسدته وتقتلع حجة الكفر من أساسها.

٤ـ النظر القوي العميق إلى المآلات والمقاصد، فلما كانت إقامة الحجة على قومه ستكون أقوى بإطلاق تلك العبارات التي ظاهرها الشرك والكفر، ومآلها إقامة حجة التوحيد عليهم، لم يتردد عليه السلام في إطلاقها.

* * * * *

﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذاً إِلَّا كَبِيراً لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ الأنبياء: ٥٨.

تحطيم الأوثان في القلوب قد يحتاج إلى عدم تحطيم كبير الأوثان في معبد الشرك، وزلزلة العقول لتكتشف غيابها قد ينفع في إحداث هزته الشديدة إبقاء أكبر صنم غابت عنده العقول.

وحينها لن يكون في عدم تحطيم كبير الأوثان برودة في الغيرة على التوحيد، ولا رضا باستمرار قيام معابد الشرك.

بل ترك كبير الأوثان حينئذ سيكون هو قمة الغيرة على التوحيد، وهو أقوى ثورة غضب على محاضن الشرك.

وعلى العكس: سيكون تحطيم كبير الأوثان في هذه الحالة هو التهمة بتقديم حظ النفس، بالفرح بالنصر العاجل على هداية الخلق، وسيكون هو النقص الدال على قلة الفقه في دين الله!

فتأمل كيف كان بقاء هذا الصنم توحيداً أقامه إمام الحنفاء وأبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام؛ لأنه بإبقائه حطم الأصنام في القلوب!!

* * * * *

﴿وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللهِ﴾ النور: ٢.

قال تعالى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللهِ﴾. عندما نهى الله تعالى عن الرأفة بالزانية والزاني، لم ينه عن هذه الرأفة بإطلاق، بل قيد الرأفة المنهي عنه بالرأفة في دين الله، أي الرأفة التي تمنع إقامة أحكام الله وحدوده.

فلم ينهنا الله تعالى عن كل رأفة تجاه العصاة!

وفي هذا بيان أن الرأفة بالعصاة التي لا تمنع الحد رأفة مأذون فيها، بل الحق أن هذه الرأفة لا يتعلق بها التكليف والأمر والنهي أصلاً؛ لأنها عمل قلبي وشعور يهجم على القلب بغير إرادة؛ ولأنها لا تعارض حب إقامة شرع الله ولا تضعف من تطبيق أحكامه.

فيخطئ من يظن هذه الآية مانعة من كل رأفة بالعصاة، ولو كانت رأفة لا تتعطل بها أحكام الشريعة.

* * * * *

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلاً يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ﴾ سبأ: ١٠.

أوتي نبي الله داود عليه السلام صوتاً جميلاً جداً في تلاوة الزبور، والذي هو عبارة عن تسابيح وأذكار وابتهالات، فكان إذا تغنى بها بصوته الشجي، تردد معه هذه الترانيم الطيور والجبال!!

فما أغرب هذا الجمع! بين الجبال والطيور!

فالطيور رقيقة لطيفة في تحليقها وتقلبها في جو السماء، فهي من أكثر الأحياء حيوية.

والجبال الراسيات: جماد صلد، بل هي رمز الصلابة والقسوة، وأبعد ما تكون عن الرقة واللطف!!

فما أشجى ذلك الصوت، وما أزكى تلك الكلمات، التي جمعت على التسبيح والذكر: الجبال والطيور!!

ومن أولى ممن ألان تسبيحه الجبال: أن يلين في يديه الحديد؟!!

* * * * *

تريديد الجبال مع نبي الله داود عليه السلام ليس هو الصدى، بل هو تسبيح حقيقي، بدليل:

ظاهر الآية، والتي أكدت ذلك بأسلوب لا يحتمل غيره، لمن تأمله:

أولاً: الصدى هو ترديد للصوت المرتفع مطلقاً، ولا يختص ذلك بداود عليه السلام، ولا بالتسبيح وحده، فما فائدة تخصيص داود عليه السلام به.

ثانياً: أمر الله تعالى للجبال بالترديد معه عليه السلام ﴿يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ﴾، يدل على أن ترديدها هذا أمر يخرج عن ترديد الجبال المعتاد بالصدى المعروف؛ لأن الله تعالى أمرها أمراً خاصاً به.

ثالثاً: لو كانت الآية قد ذكرت الجبال وحدها لكان احتمال كون الترديد هو مجرد الصدى وارداً، لكن أن يكون الأمر موجها للجبال والطيور، فهذا يدل على أن الأمر الواحد الذي جمعهما ليس هو الصدى؛ لأن الطيور لا علاقة لها بالصدى.

ولا يصح أن يكون أمر واحد دالاً عن معنيين متغايرين ﴿يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ والطَّيْرَ﴾، فيكون الأمر للجبال بفعل الصدى (الذي تفعله بغير إرادة مع كل أحد ولكل صوت)، ويكون للطيور هو التسبيح.

رابعاً: لو كانت الآية هكذا: (يا طيور أوبي معه والجبال)، لأمكن أن يقال: إن الأمر للطيور وحدها، وأما الجبال فكانت تردد الصدى، فالعطف حينها لا على الأمر بالتسبيح، وإنما على بيان الواقع: فالطيور كانت تسبح مع داود عليه السلام، وكانت الجبال ترجع صوت تسبيحهما.

لكن الآية لم تكن كذلك، فجعلت الأمر موجهاً ابتداء للجبال، وعطفت الطيور عليها فيه: فدلت بأسلوب معجز مختصر على المعنى: فالجبال هي المأمورة أساساً بالتسبيح، وأما الطير فلا يمكن أن يكون ترديدها هو الصدى (كما سبق)، فدل ذلك على أنهما جميعاً كانوا يسبحون.

أخيراً: تخيلوا مشاعر داود عليه السلام والجبال والطيور من حوله تردد معه تلاوته الشجية، أي حب وأنس سيجده بهذا الاجتماع على حب الله تعالى والأنس به!

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلاً يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ﴾.

* * * * *

﴿يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيّاً﴾ مريم: ٧.

أي: مسمى بيحيى.

تأملت سبب الامتنان بتسميته باسم لم يسبق إليه، غير السبق بالتسمية، فتنبهت إلى أن هذا من تمام المنة على نبي الله زكريا عليه السلام، ليستحضر كمال إكرام الله تعالى عليه، فهذا الابن عطاء رباني محض، لشيخ كبير وامرأة عاقر، حتى اسمه فقد كان اختياراً ربانياً أيضاً وغير مسبوق إليه؛ وهكذا الكريم: لا يرضى إلا بأتم عطاء!

* * * * *

﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللهِ كَثِيراً﴾ الحج: ٤٠.

الملفت أنه تعالى خص ذكر تهديم بيوت العبادة في سياق بيان الآثار الخطيرة المترتبة على عدم مدافعة الحق الباطل، مع أننا نعلم أن قتل المؤمنين أعظم عند الله من هدم مسجد!

وذلك لكي لا نغفل عن حقيقة مهمة: وهي أن هذا النوع من الحروب لا يقصد إلا الحرب على المبادئ والعقائد ولذلك تتعمد تدمير بيوتها ورموزها، لكي تتحطم في نفوس الأتباع روح المقاومة.

* * * * *

﴿وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللهِ وَمَا كَانَ مُنْتَصِراً﴾ الكهف: ٤٣.

تبين الآية حالة هؤلاء المستكبرين والمانعين لحقوق الفقراء، وهو أنهم يعيشون منبوذين، لا يحبهم أحد، فلا يحامي عنهم أحد عند حلول الكوارث بهم، ولا يواسيهم بعد حلولها أحد.

فلا فئة لهم أصلاً، لكي تدعي الدفاع عنه قبل حلول عقاب الله بهم، أو لكي تواسيهم بعد حلول العقوبة، وهذا عقاب من جنس الذنب، فقد كان يتعالى ولا يرى لأحد فضلاً ولا حقاً، فلما حلَّت به العقوبة، تحقَّق له ما أراد: ﴿وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللهِ﴾.

* * * * *

﴿وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ﴾ الحجر: ٨٥.

بعد أن أكد الله تعالى أن الساعة آتية لا ريب فيها، كنا نتوقع وعيدا وتهديدا للكفار الذين يكذبون بذلك اليوم، لكن الآية كانت خاتمتها ضد ذلك تماما، فقال تعالى موجها الخطاب للنبي صلَّى اللهُ عَلَيه وسَلَّم: ﴿فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ الحجر: ٨٥!!

لأن من أعظم ما يعين الداعية على الصبر هو أن يتذكر أن عقوبة تكذيبه لن تضيع، فلها يوم حساب. كما أنه تذكير له بأن عمله يقف عند الدعوة، وأن حسن التعامل من أحسن وسائلها، وأما عواقب أفعال الناس (تصديقاً أو تكذيباً) فهذا شأن رباني صرف.

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

﴿قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللهِ﴾ هود: ٧٣.

عندما عاتبت الملائكة سارة زوج إبراهيم عليه السلام فـ﴿قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللهِ﴾، كان المتوقع أن يكون بعد هذا العتاب تكملة له، لكننا فوجئنا بعد هذا العتاب مباشرة بخطاب تبجيل وتفخيم عجيب: ﴿رَحْمَتُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ﴾ هود: ٧٣!

فكأن العتاب على الخطأ قد انقلب فضيلة تستحق الإكرام! أو كأن الملائكة هي التي أخطأت بعتابها، فبادرت إلى الأدب في الخطاب، وتقدمت بطلب الصفح عند عالي ذلك الباب.

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

﴿إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ﴾ هود: ٥٤.

هكذا شأن أعداء الإصلاح، يتمنون أن يصيب السوء المصلحين؛ ليزعموا أن ما أصابهم إنما هو عقوبة، فإن لم يصب المصلحين أي سوء، لم يجد خصوم الإصلاح إلا أن يزعموا بأن إصلاحهم هو نفسه عقوبة، لأنه (حسب رأيهم) انتكاس وتبديل ابتلوا به بسبب مخالفة مألوفاتهم وبسبب تعرضهم للمعظمين لديهم. ولا تستبعد أن يسعى هؤلاء للاعتداء على المصلحين: بتلفيق تهمة، أو قتل أو سجن، ليكون عبرة للمعتبرين.

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

﴿بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِ وَلَـمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾ يونس: ٣٩.

سقوط موضوعي ذريع للكفار في تكذيبهم للقرآن، وهو أنهم كذبوا بما لا يعلمون. والتكذيب لا يكون إلا بعد الإدراك والعلم. أما تكذيب ما لا تعلم، فهذا يعني أنك تصدق الجهل وتحتكم إليه.

وفي الآية أيضاً إلماحة للتفريق بين عجز العقل عن التصور لقصوره والاستحالة العقلية، فعجز العقل عن إدراك الغيبيات ﴿وَلَـمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾ لا يجيز له إنكارها، فليس كل ما عجز عنه العقل يكون باطلاً ومستحيلاً عقلاً.

* * * * *

﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ﴾ البقرة: ٨٧.

ما أشد حلم ربي! يبعث أصفياءه، بالهدى والنور والخير والسعادة، فلا يواجَهون دائماً إلا بالتكذيب، أو القتل!!

أفكلما أحب الله لكم الخير وخصكم بالهداية قابلتموها بأشد أنواع الجحود؟!

أفكلما أرسل إليكم الأصفياء الأنقياء المخلصين من رسله، بدلاً من مقابلتهم بالإجلال وتقبيل الأقدام والحمل فوق الرؤوس، قابلتموهم بأشد صور الإهانة، والتي تصل حد المنع حتى من حق الحياة (القتل).

ثم تعالوا ننظر في الآية من جهة أخرى: أوليس اتباع هوى النفس كافياً للتكذيب والقتل، فلماذا قال الله تعالى: ﴿بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ﴾؟

لماذا أضيف داء الاستكبار بعد داء هوى النفس، لبيان سبب تكذيبهم الأنبياء وتقتيلهم؟

هذا يعني أن اتباع المرء هوى نفسه، لا يكون مع غفلة نفسه عن إجرامها، بل مع حضور نفسه؛ لكنه يكابر ويعاند، ويدعي خلاف ما يعرف!!

إنها سنة المستكبرين في كل زمان ومكان، يدَّعون التكذيب، وهم مملوكون بالتصديق واليقين، لكن خبث نفوسهم يمنعهم من الاعتراف، ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً﴾ النمل: ١٤، ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ﴾ الأنعام: ٣٣.

* * * * *

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللهَ﴾ الفتح: ١٠.

ما زلت أتأمل قوله تعالى عن أصحاب بيعة الرضوان رضي الله عنهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللهَ يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً﴾ الفتح: ١٠، ثم ثناءه البالغ في قوله عز وجل: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً﴾ الفتح: ١٨.

وقد ثبت أن بيعتهم رضي الله عنهم للنبي صلَّى اللهُ عَلَيه وسَلَّم يومها كانت بيعة على الثبات حتى الممات.

وموضع استغرابي هو أني أظن عامة المسلمين اليوم لو كانوا بين يدي النبي صلَّى اللهُ عَلَيه وسَلَّم، ودعاهم عليه الصلاة والسلام لمثل هذه البيعة، لافتداه عامتهم بأنفسهم، ولما ترددوا في التزام هذه البيعة، ولا أظن سيتخلف عن هذا الشرف إلا القليل جداً من المسلمين.

ونحن نرى اليوم كثرة الفدائيين والمتشوقين للجهاد والاستشهاد، ومنهم من يقدم على الموت تحت راية جهادية يشوبها من الغبش وربما الخلل شيء كثير، ومع ذلك يقدم على الفداء. مما يدل على أنهم سيكون أسمح بالفداء وأجود بالأرواح بين يدي رسول الله صلَّى اللهُ عَلَيه وسَلَّم وتحت رايته.

مع أنه لن تبلغ راية جهادية اليوم (مهما شرفت واتضحت) في سمو ربانيتها وشرف غايتها وخلوص الحق فيها ما بلغته راية يرفعها رسول الله صلَّى اللهُ عَلَيه وسَلَّم، ويطلب عليها هو صلَّى اللهُ عَلَيه وسَلَّم بيعةَ الموت!!

ومع ذلك أحسب كثيراً من المسلمين اليوم (إن لم يكن أكثرهم) لن يترددوا في مثل هذه البيعة لو حضروها، ولو كانوا سيضربون بأيديهم فيها يد رسول الله صلَّى اللهُ عَلَيه وسَلَّم!!

فمن يتردد عن مثل هذا الشرف المتناهي غايته، وعن مثل هذا الضمان الكامل للحق؟!!

المعنى: إن كان شرف وأجر هذه البيعة الوارد في الآيات خاصاً بأصحاب رسول الله صلَّى اللهُ عَلَيه وسَلَّم؛ لشرف الصحبة، لا لشرف الموقف وحده، والذي قد يشاركهم في نحوه من جاء بعدهم؛ فهذا مفهوم؛ لثبوت شرف الصحبة واختصاصها بأحكام تفضيل ليست لمن جاء بعدهم.

وأما إن كانت لشرف الموقف، فسيشاركهم فيه كل من وقف مثل موقفهم، ممن فدى دين الله وراية الحق بالبيعة على الموت بيعة إخلاص وصدق، ولا يكون للصحابة اختصاص بهذا الأجر؛ إلا من جهة نزول الوحي مبشراً لهم باستحقاقه. وأكرم به من فرق كبير، لكنهم رضي الله عنهم على هذا الرأي ليسوا مختصين به.

وكرم الله تعالى وجوده سبحانه يجعلني أرجح هذا المعنى: أن كل من بايع الله تعالى على الموت تحت راية جهاد خالصة من الجهل والبغي والعدوان؛ فهو داخل تحت رجاء أجر أصحاب بيعة الرضوان.

وفضل الصحابة رضوان الله عليهم، واختصاصهم بفضائل كثيرة سبقوا بها من بعدهم يجعلني أرجح: أن ثواب هذه البيعة الوارد في القرآن خاص بهم دون من سواهم!

ولا أهوى من هذين الوجهين رأياً؛ إلا غلبه الآخر، فلي في كل واحد منها هوى يمنعني من تجرد الترجيح!!

* * * * *

﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ. فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ. وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ الحجر: ٩٧_٩٩.

هذه آيات مكية، وهي تتحدث عن الضيق النفسي الذي كان رسول الله صلَّى اللهُ عَلَيه وسَلَّم يعاني منه بسبب إعراض قومه وتكذيبهم وبسبب الأذى الذي كان يلاقيه هو صلَّى اللهُ عَلَيه وسَلَّم وأصحابه رضي الله عنهم من المشركين.

فيخبره الله تعالى أنه عالم بضيق صدره، ثم يأمره تعالى بأن يسبحه ويسجد له ويعبده حتى يموت (حتى يأتيه اليقين: وهو الموت).

وظاهرية الفهم للآية: لا يبشر رسول الله صلَّى اللهُ عَلَيه وسَلَّم بالفرج، فظاهريتها قد تعني: أن الله تعالى يخبر رسوله صلَّى اللهُ عَلَيه وسَلَّم أنه ليس له من الأمر شيء، وأنه ليس عليه إلا أن يعبد ربه حتى يلقاه.

لكن لطف الله تعالى برسوله صلَّى اللهُ عَلَيه وسَلَّم وعنايته به وتأييده له وحبه تعالى لمصطفاه؛ كل ذلك يأبى هذه الظاهرية، ويستبعدها غاية الاستبعاد.

إذن فسيكون الفهم الصحيح لهذه الأوامر الإلهية: أنها ألطاف وسبيل إلطاف، وبيان لما به يزول ضيق القلوب، وبه يتم الإنعام بتفريج الكروب. وأنه هو: التسبيح بحمد الله، وكثرة الصلاة، والتهمم والاستعداد الكامل لعبادة شاملة، تدوم حتى لقاء اليوم الحق.

وانشراح الصدر بعد ضيقه بهذه الفضائل، وتفريج الهموم بهذه العبادات لا شك أنه يتم بأمر من الله تعالى وبإثابته.

ولكن في هذه الأذكار وفي هذه العبادات نفسها معاني تشرح الصدر وتفرج الهم:

ـ فالتسبيح في هذا المقام: تنزيه لله تعالى من أن يخذل أولياءه، وتقديس له من أن يسلمهم لأعدائه وأعدائهم. فسبحان من لا يخلف أنبياءه وعده، وسبحان من يغار على أوليائه، وسبحان من ينصر من نصره.

فهذا التسبيح وحده تثبيت وتبشير بالفرج.

ـ والتسبيح المتلبس بالحمد ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾؛ هو تسبيح غمره حب المنعم، ونضرته بهجة الآلاء، وأنطقت النعم قلب العبد بتسبيح الحامد.

فأنى يتطرق اليأس إلى قلب ينبض شكراً، ولسان يلهج حمداً، وعين تفيض فرحاً بفضل الله ورحمته.

ـ وكثرة السجود: لأن العبد أقرب ما يكون من ربه وهو ساجد، ومن حظي بالقرب من مولاه، فلن يشعر بالعبيد إذا أبعدوه، بل سيكون ببعده عن العبيد، والذي يزداد كلما ازداد قربه من ربه؛ أبعد عن الوحشة وأولى بالأُنس من قرب العبيد! فأي أنس للعبد أعظم من أنس تقريب مالكه له، واصطفاء سيده، ومحبة خالقه!!

وفي التعبير بقوله: ﴿وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾: تذكير باشتراكه مع الصالحين في هذا القرب، فليس هو الوحيد الذي نال حظوة التقريب، بل هو مع الساجدين.

وأكرم بمعية الساجدين، في حضرة رب العالمين، وتقريب أحسن الخالقين.

ـ والأمر باستدامة العبادة حتى الموت: تذكير بقرب الفرج، وأن عناء الدنيا وعداوة أهلها لن تخلد، بل سرعان ما تنتهي، ولو بالموت. فموت الصالحين تفريج لكربة الدنيا، حتى لو كانوا أنعم أهلها؛ فما ينتظرهم من نعيم الآخرة وإكرام الله لهم فيها خير لهم من الدنيا وما فيها.

فقوله تعالى: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ ليس هناك بشرى للمؤمن أعظم من بشرى لقاء الله تعالى، ولا هناك تشوق عند الصالحين أعظم من لهفتهم إلى النجاة من ابتلاء الدنيا، بجزاء وإثابة الآخرة.

فانظروا: كيف كانت هذه الأوامر سبباً عظيماً لتفريج الهم، وكشف الغم.

فسبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم!

* * * * *

﴿وَلَئِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَاوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ الأنبياء: ٤٦.

لو كانت هذه الآية من كلام بلغاء البشر لقالوا: (ولئن مستهم لفحة)؛ لأن اللفح هو مس النار، وهو المقصود هنا، وأما النفحة فهي لهبوب الخير، ومسيس البركات والألطاف!

لكن جاء التعبير بـ(النفحة): لبيان أنها أدنى درجات العذاب، فهذه (اللفحة) بالنسبة لشديد العذاب كأنها نفحة خير.

فإذا كانوا بمجرد نفحة العذاب ستخور قواهم، وستأكلهم حسراتهم، وستنوح قلوبهم وتصرخ حناجرهم بدعوة الويل والثبور؛ فكيف إذا مسَّهم شديد العذاب؟!

وفي حرف الجر (من) في قوله تعالى: ﴿نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ﴾ زيادة تأكيد على خفة هذا العذاب بالنسبة لما ينتظرهم من شديده، فهو ليس فقط (نفحة)، بل هو جزء من هذه (النفحة).

وهذا يذكر بالحديث الصحيح: عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله صلَّى اللهُ عَلَيه وسَلَّم: (يُؤْتَى بِأَنْعَمِ أَهْلِ الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُصْبَغُ فِي النَّارِ صَبْغَةً، ثُمَّ يُقَالُ: يَا ابْنَ آدَمَ، هَلْ رَأَيْتَ خَيْراً قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ نَعِيمٌ قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لَا وَاللهِ يَا رَبِّ).

نسأل الله رحمته والنجاة من عقابه!

* * * * *

﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾ الأنفال: ١١.

سأقف من هذه الآية عند قوله تعالى ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ﴾، وما ذكره المفسرون من أن كثيراً من الصحابة لما نزل عليهم النعاس والنوم قبيل الغزوة احتلموا وأصابتهم الجنابة، فكان الشيطان يوسوس لهم بأنكم تزعمون أنكم أولياء الله وتجاهدون في سبيله، وأنتم تقاتلون وتصلون ولم تغتسلوا من الجنابة!! فأمطرت السماء مطراً شديداً، فاغتسلوا.

فأولاً: من وسائل الشيطان في التشكيك في أصل الإيمان مسائل الفروع الفقهية! وإلا فمتى كان الشيطان يعرف للطهارة طريقاً، ومتى كان يرى في الجنابة حكماً يوجب الغسل؟! لكنه جاءهم بفقههم، ليشككهم في صحة دينهم!!

وهذا أحد مداخل الشيطان على بني آدم!!

ثانياً: الحكم الفقهي في مثل هذه الحالة معلوم، وهو أنه لا يكلف الله نفساً إلا وسعها. ولئن كان حكم التيمم لم ينزل حينها، وإنما نزل بعد ذلك؛ إلا أن رفع التكليف بما لا يُستطاع حكم ثابت محكم من أول الإسلام.

وبالتالي: لم يكن هناك من بأس على الصحابة رضي الله عنهم أن يقاتلوا وهم على جنابة، ما داموا ما استطاعوا الاغتسال.

لكن النفس البشرية ضعيفة، خاصة في أوقات الشدة وفي الضغط النفسي الشديد، فإنها كما قد تتعلق بقشة للنجاة، فقد تغرقها أيضاً قشة!! والصحابة رضي الله عنهم في يوم بدر كانوا في أول لقاء مسلح مع الكفار، وبعدة وعتاد غير متكافئين.

فكانوا في لحظات رهيبة وفاصلة، وكان أقوى ما يثبتهم لهم هو تفوقهم الإيماني، بل هم يعتمدون فقط على إيمانهم هذا. فإذا جاءهم الشيطان من هذه الجهة، فقد آذاهم في عامل قوتهم وثباتهم الأهم، بل هو عامل القوة والتفوق الوحيد!!

وهذا يبين ضعف النفس البشرية، وحاجتها التامة لتثبيت ربها وإلى عون إلهها في كل لحظة؛ فمثل هذا الوسواس التافه الذي جوابه الفقهي النظري لا يخفى، قد يؤثر بموازين القوة والثبات عند سادة المؤمنين من أهل بدر!!

ثالثاً: عظم رحمة الله بعباده المؤمنين، ومسارعته في تأييدهم على كيد الشيطان، بأن أغاثهم بمطر يغتسلون به، فلا يبقى للشيطان مدخل على عزائمهم وثقتهم بإيمانهم.

كان يمكن أن ينزل الله تعالى قرآناً يخبرهم فيه نصاً بأن هذا لن يؤثر على إيمانكم، ولا على قدرتكم على الثبات، ولا على قوة علاقتكم بربكم، وإن كنتم جنبا. لكن كان سيبقى مدخل: بأن

الطهارة أتم، وأننا نود لقاء ربنا فيها لو استشهدنا مغتسلين طاهرين. فحقق الله لهم هذه الرغبة، فأنزل الغيث لِّيُطَهِّرَهم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنهم رِجْزَ الشيطان ويثبت به الأقدام.

ما أعظم عناية الله بعباده المؤمنين، وما أضعف كيد الشيطان أمام تأييد الرحمن!!

* * * * *

﴿تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَائِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ﴾ الأعراف: ١٠١.

ما أخطر القناعة الأولى إذا لم تعتمد على برهان صحيح؟! ألا ترون كيف كان تكذيبهم الأول هو سبب إصرارهم على الكفر ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ﴾، أي بسبب تكذيبهم من قبل.

وما أشد ألم ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾!!

إذن عدم استقلال النظر وتبعية التفكير والتقليد الأعمى، هو سبيل الطبع على القلوب، ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ﴾.

* * * * *

﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ﴾ الدخان: ٩.

الأصل أن الشك داعٍ للتثبت، لا للعب، خاصة إذا كان شكاً في خطر عظيم (وهو الشك في صحة البعث بعد الموت والجزاء والحساب).

والآية تبين أنهم لا يلعبون غافلين عن الشك، بل كانوا وهم يلعبون مستحضرين شكهم، بل بلغت قوة الشك أن يكون غامراً لهم، فهم (في) شكهم، ولم يقل: من شكهم، فكأنهم غارقون فيه!

وهذا التصوير كما يبين عنادهم وتفريطهم في التثبت من صحة شكوكهم، فهو يبين أمرين آخرين:

- أنهم يهربون من معرفة الحقيقة بهذا اللعب.

- وأنهم لم يستطيعوا الفرار من ألم الشك، حتى وهم يلعبون!!

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى﴾ طه: ١٣.

﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ﴾: تكريم السيد لعبده واصطفاؤه وإنعامه لا يحتاج استئذاناً ولا أخذ رأي العبد فيه، حتى لو ترتب عليه تكليف: ﴿فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى﴾؛ فهو تكليف يزيده تشريفاً.

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ﴾ الإسراء: ٨١.

عندما أمر الله تعالى نبيه صلَّى اللهُ عَلَيه وسَلَّم بقوله: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ البَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً﴾، لم يكن الأمر بهذا لأجل احتياج الحق لكي تقال هذه العبارة: ﴿جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ البَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً﴾، فالحق يدمغ الباطل، والباطل زاهق، قيلت هذه العبارة أو لم تُقل!

وإنما أُمر صلَّى اللهُ عَلَيه وسَلَّم أن يقولها لاحتياج الناس أن يقولوها، لا لاحتياج الحق: وحاجة الناس لقولها؛ لأنها:

١ـ نذارة لأهل الباطل؛ لكي يتبرؤوا منه.

٢ـ وبشارة لأهل الحق؛ لكي يثبتوا عليه في وقت الشدائد.

٣ـ ولأن تكرار الحقائق على المسامع والأذهان يزيدها ثباتاً، ويمنع من غفلة النسيان وخطفة الشيطان. وهذا ما أدركه دعاة الضلالة في وسائل الإعلام، أدركوا خطورة تكرار الأكاذيب والشبهات، وأنها تعمل عمل السحر في النفس الإنسانية!

فما أولى أهل الحق أن يحرصوا على تثبيت الحق بالوسيلة التي استطاع أهل الباطل أن يشوه بها.

٤ـ الحق منتصر، ليس هذا موضع ريبة ولا محل جدل، ولكن بمن سينتصر؟!

فليس السؤال وما كان يوماً هو: هل الحق سينتصر، لكن السؤال هو: هل سأنصر أنا الحق؟ أم سينصره غيري؟!

فإذا كرر الإنسان قوله تعالى: ﴿جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً﴾، فهو يكرر انتسابه لراية الحق، ويؤكد وقوفه في صفه؛ ثقة بانتصاره، وإيمانا بقوته الذاتية التي تستعصي على ضعف الباطل الذاتي.

* * * * *

﴿يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾ يوسف: ٩.

﴿اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضاً يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾، لم يقولوا: (يخل لكم قلب أبيكم)، مع أن القلب هو المقصود، وهو محل الحب:

١ـ إما هروباً من التصريح بالقلب المصروف عن حبهم بحب يوسف عليه السلام، فالتصريح بالحقائق المرة قد يصعب على النفس التلفظ به، وإن كان معلوماً لها.

٢ـ وإما لأنهم يزعمون أن انشغال أبيهم عليه السلام عنهم بيوسف عليه السلام كان بسبب أنه لم يكن ينظر إليهم، وأنه لو التفت إليهم قليلاً لعرف استحقاقهم بالتقديم في الحب، ولذلك عبروا بالوجه والتفاتته إليهم. فكأنهم قالوا: لن ينظر أبوكم إليكم، ولن يعطيكم حقكم من الحب؛ إلا إذا نظر إليكم، ولن ينظر إليكم ما دام لا يلتفت إليكم، ووجهه دائماً إلى يوسف عليه السلام!

* * * * *

﴿الَّذِينَ هُمْ يُرَاؤُونَ. وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾ الماعون: ٦-٧.

تبين فشل خطتهم، وعدم بلوغهم لشيء من غايتهم: فهم يصلون رياءً؛ ليمدحهم الناس، ثم في أخف اختبار بعده يسقطون، ليذمهم الناس على شحهم بإعارة الصحن والقدر والإبرة!!

وهو شح يدل على دناءة وانعدام مروءة، بإعارة (وليس إهداء) آنية البيوت التي لا تبلى بالإعارة، ولا هي بذات القيمة التي يخشى معها عليها أصلاً. (هذا على تفسير الماعون: بآنية الطبخ والأكل، وهو الأكثر شيوعاً في استعمالها).

فتبين الآيتان: أن المرائي لن يحبه الله ولن يحبه الناس!!

وتبينان أيضاً: أن الأخلاق المصطنعة يفضحها أول اختبار سهل!

وَمَهْمَا تَكُنْ عِنْدَ امْرِئٍ مِنْ خَلِيقَةٍ ... وَإِنْ خَالَهَا تَخْفَى عَلَى النَّاسِ تُعْلَمِ

* * * * *

﴿وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ الروم: ٧.

نقل القاضي أمين الدين الحسيني (ت٥١٥هـ) في كتابه (المجموع اللفيف)، عما وجده بخط الوزير ابن المغربي (ت ٤١٨هـ) أنه قال: [مسألتان في سورة الروم تحتاجان إلى فكر طويل، فانظر فيهما إن شاء الله، قوله تعالى: ﴿وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ الروم: ٧، وقوله عز وجل: ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَـمُبْلِسِينَ﴾ الروم: ٤٩].

وهو يعني بذلك استخراج معنى التكرار في الآيتين.

وقد تأملت ذلك طويلاً، وحاولت معرفة فائدة التكرار في الآيتين:

أما قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِنَ الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ الروم: ٧، والمعنى: يعلمون ما يصلح معاشهم وحياتهم الدنيا من صناعة وزراعة ومتاع، ويغفلون عن الآخرة. والسر يكمن في تكرار الضمير (هم) فيه، والذي كان يغني فيه ذكره مرة واحدة.

فلو كان القول في الآية ﴿وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾، دون تكرار الضمير (هم)، لكان المعنى واضحاً صحيحاً، فلماذا جاء ذلك التكرار؟!

تأمل القول لو كان بلا تكرار: (وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ غَافِلُونَ)، لكان هذا مجرد خبر عن كونهم في غفلة عن الآخرة، ومثل هذا الخبر لا يحقق بيان حقيقة نكارة فعلهم وسوء حالهم التي وصلوا إليها؛ لأن الغفلة عن الآخرة وإن كانت مستقبحة، لكن مَن مِن البشر لا يغفل عن الآخرة مرات، حتى المؤمنون؟!

أما بتأكيد الضمير (هم) بتكراره، فستكون غفلة هؤلاء القوم عن الآخرة غفلة تخصهم، مستفادة من تكرار الضمير الذي يفيد معنى الحصر، فكأن الآية تقول: وهم وحدهم الغافلون عن الآخرة، ليكون المقصود بيان أن غفلتهم لم تكن غفلة نسيان طارئة، وإنما كانت غفلة تامة دائمة.

وفي تكرار ضمير الغائب (هم) أيضا إيحاء غير مباشر بأن الله تعالى معرض عنهم، فتكرار ضمير غيبتهم يوحي ببعدهم وغيابهم عن عين الله الكالئة، فكما غفلوا عن الآخرة استحقوا أن تغفلهم عين الله!!

أما الآية الثانية فهي قوله تعالى عن حال الناس بعد نزول الغيث ﴿وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَـمُبْلِسِينَ﴾ الروم: ٤٩، والمعنى: أنهم كانوا يائسين قبل نزول الغيث موقنين بالهلاك. ولكن لو كان القول هو: (وإن كانوا من قبل أن ينزل عليهم لمبلسين)، لأدت هذا المعنى نفسه أيضاً، فما هو السر في تكرار ظرف الزمان (قبل)؟! وما الذي أضافه من معنى؟

الجواب: أضاف التكرار معنيين:

الأول: قُرب قبلية اليأس من نزول الغيث، فلم تكن القبلية بعيدة. فقد يقع اليأس قبل نزول الغيث بمدة، ويزول اليأس قبل الغيث بمدة، فيصح أن تقول: كانوا قبل نزول الغيث يائسين، لكن لا يصح أن تقول: كانوا قبل نزول الغيث قبله يائسين.

فتأكيد التكرار أفاد تحقق القبلية في كل لحظة قبل نزول الغيث، حتى آخر لحظة قبل نزوله.

والمقصود بذلك بيان سرعة تغير الأحوال بنزول الغيث، وأنه يحيي الأرض من قحطها ويحيي النفوس من يأسها، ولذلك قال تعالى بعد هذه الآية مباشرة: ﴿فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَـمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ الروم: ٥٠.

الثاني: تكرار الظرف مع الضمير (قبله)، تذكير بأن الغيث هو سبب زوال اليأس، فقبل الغيث.. وقبله فقط كانوا يائسين، وبذلك سيكونون بعده.. وبعده فقط غير يائسين، وهذا يعني أنه بفقده تحقق اليأس وبنزوله زال اليأس. تأكيداً على تمام النعمة به، وأنه نعمة تقلب الأحوال من الموت للحياة ومن اليأس للأمل!



قُطُوفٌ لُغَوِيَّة وأَدَبِيَّة

(اللغةُ لا ترضى بأنْ يحويها فضاءٌ دون فضاءٍ من فَضَاءاتِ الإنسانيَّة)

اللغة ليست فقط:

- أداةً للتعبير عن مكنونات النفس.
- ولا تنحصر في كونها طريقَ التواصل مع الآخرين.
- ولا في أنها وسيلة التنفيس عن المشاعر.
- ولا في أنها فن من فنون الجمال.
- ولا في كونها وعاء التاريخ.
- ولا تكتفي بكونها عنوانَ الحضارة

نعم.. ليست اللغة شيئاً من ذلك كله فحسب، ولا ترضى بأن يحويها فضاءٌ دون فضاء من فضاءات الإنسانية.

فهي من النفس: النفس نفسها، ومن الآخر: الآخر نفسه، ومن المشاعر المشاعر عينها، وهي الجمال والتاريخ والحضارة.. كلها تختصرها اللغة، بل اللغة تطويها وتبسطها، تلفها ثم تنشرها.

فالكلمة تعلو بالنفس وتهبط بها، وتزكيها وتدسسها. تشرُف بها حتى تكون نفسا ملوكية، مع أن صاحبها من العامة والدهماء. وتدنو بها، حتى تجعل الملِكَ سُوقيَّ النفس غوغائي الهمة.

والجملة تقرِّب الآخرين حتى يكونوا الأحبة الأدنين، وتبعدهم حتى يكونوا الأعداء المقصين. وهي غصن السلام الزيتوني، وبشارة حمامته البيضاء. وهي أيضا منشور الحرب المهدِّد، وصفارة الإنذار المشؤومة لغارة الدمار.

حتى كلام العيون الصامت، وهو لمعانُ حِداق، وإغضاءُ طرفٍ، ونظرٌ شزرٌ، فهو مع ذلك (كلام) عيون، لا تترجمه إلا اللغة، ولا نفهمه إلا إذا انطبع في النفس أحرفا وكلمات.

وبيت من شعرٍ يشعل المشاعر، فيبكيك وأنت في عافية من الحزن، ويطير بك على جناح الأحلام والآمال وأنت في يقظة الواقع.

ومقطوعة نثرية تريك تقاسيم الجمال، وتنقلك إلى مشاهد الحسن، وتقف بك على عتبات الفنون كلها، ثم لا تكتفي بذلك حتى تولجك إلى مشهد الجمال المقدس، ومزار الحسن الذي يغيب فيه الوعي عما سواه.

وجملة كاذبة (وهي كاذبة) تجعل الهزيمة نصراً والنصر هزيمة، فيكتبها التاريخ، وتخلدها صحائف الأمم، كما كُتبت، لا كما وقعت! ويلعن الناس أناساً على مر الأجيال؛ لأن كلمة لعنتهم، فصاروا لعنة الأيام والدهور. وتقدس الكلمة شياطين، فتتبرك الشفاه بذكراهم وتترنم المعابد بأسمائهم!

ولا تُعرف الحضارات إلا في مدوناتها، ولا تقوى حضارة لا تكون لغتها أقوى منها في الذيوع والانتشار. بل مقدمة جيوش الغزو الحضاري وقلبه لن يكون سوى اللغة، واللغة وحدها.

هذه هي اللغة، بل هذا بعضٌ من حقائق اللغة!

فإذا كنا نتحدث عن اللغة العربية، فلا تسل أيُّ نفسٍ هي! ولا ما هو تواصلها بالآخرين! ولا كيف تكون المشاعر بها! ولا في أي معابد الجمال رفع نُصبها، وهي في محرابه! ولا تطمع بأن تصل أعماق تارخها، فهو عميق عمق التاريخ نفسه!

ولا تستغرب إن حفظت العربيةُ بل رفعت حضارةَ أمةٍ، تخلت هي عن حضارتها، فكانت لغتها أوفى منها بها، وأكرم تعهدا لها.

فإن أنشئ للغتنا العربية بعد ذلك مجمعٌ، فهو مجمعُ النفوس والصِّلات والمشاعر وفنون الجمال والتاريخ والحضارة! فلا غرو أن يكون مجمعَ البشرية في أسمى منازلها.

* * * * *

(مِنْ فَوَائِدِ الرُّجُوعِ للغةِ في فَهمِ القُرآن)

في خطاب إبليس لربنا عز وجل: ﴿قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلاً﴾ الإسراء: ٦٢.

من فوائد الرجوع للغة في استيعاب المعنى القرآني: أن المعنى الذي يذكره المفسرون لكلمة (لأحتنكن) أنها بمعنى:

١- الاستئصال.

٢- والاستيلاء.

وهما معنيان صحيحان بلا شك، وأحدهما يؤدي إلى الآخر؛ فإن الشيطان إذا استولى على ابن آدم فقد أدى به إلى الهلاك والاستئصال.

لكن كتب اللغة تضيف تفاصيل لهذه اللفظة تنفع في تصور المعنى القرآني بصورة أعمق.

فقد جاء فيها قولهم: (وحَنَكَ الفَرَسَ يَحْنُكُهُ ويَحْنِكُهُ: جَعَلَ في فيه الرَّسَنَ، كاحْتَنَكَهُ).

إذن من معاني احتنك: وضع اللجام في الحنك، كما يوضع اللجام في فم الدابة، لكي يسيرها راكبها كيف يشاء.

وهذا هو أصل معنى الاستيلاء الذي ذكره المفسرون لكلمة (احتنك).

لكن شتان ما بين أن نقول لك:

ـ معنى الآية: أن الشيطان يقسم بأن يستولي على بني آدم.

ـ وأن نقول: إن الشيطان يتوعد بني آدم بأن يجعلهم كالدواب له، يركبهم ويسخرهم بوساوسه، ويسيرهم كيف يشاء، كما يسير الراكب دابته باللجام في حنكها.

لا شك أن المعنى الثاني أعمق، وأشد تنفيراً من الخضوع لوسوسة الشيطان، وأدعى للشعور بعداوته الحقيقية وحقده العظيم على بني آدم.

* * * * *

أُمَرَاءُ النَّثرِ العَرَبيِّ عِندِي أربعة:

الجاحظ ثم الجاحظ ثم الجاحظ.. ثم ابن المقفع، ثم أبو حيان التوحيدي، ثم الرافعي!

فمن أراد أن يتذوق النمط الراقي من كلام أدباء الجيل الأول: فعليه بالأدب الكبير والصغير، مع كليلة ودمنة لابن المقفع.

ومن أراد أن يعرف قدرة سحر البلاغة في التأثير على القناعات، فليقرأ كتاب (أخلاق الوزيرين) للتوحيدي. فلقد كرهت الصاحب ابن عباد، وكذبت عامة الثناء عليه، بعد الصورة القبيحة التي رسمها هذا الكتاب له. ولا أعرف أحداً احتج للغيبة، وسوغها مثله.

ومن أراد أن يعرف إعجاز الكلمة في إثارة المشاعر: فليقرأ (وحي القلم) للرافعي. فهو معجزة بلاغية، لكن صاحبها ليس متنبئا!

أما الجاحظ: فعقل لغوي وحكمة لغوية لم تعرف العربية لها مثيلاً.

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

الفَرقُ بَينَ (صَبَّار) و(صَبُور)

سألني أحد طلبة العلم عن الفرق بين (صبار) و(صبور)، وكلا اللفظين صيغة مبالغة من (صابر)؟

فقلت ـ بعد تأمل الفرق بين دلالة البناء الصرفي لـ(فعّال) و(فعول) ـ:

(صبار) لمن تكرر منه الصبر في مواقف عديدة، وأما (صبور) فلمن اشتد صبره ولو في موقف واحد.

ثم إني بعدها بأسابيع راجعت كتب اللغة، فأسعدني أن يكون ما توصلت إليه بتذوقي أمراً منصوصاً عليه:

فقد قال أبو هلال العسكري في كتابه (الفروق اللغوية): (إذا كان قوياً على الفعل قيل: فعول، مثل: صبور وشكور. وإذا فعل الفعل وقتاً بعد وقت قيل: فعَّال، مثل: علام، وصبار).

فلئن كنت قد أصبت مالاً جزلاً، لم يكن عندي بأحب من صحة استنباطي لهذا الفرق.

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

(تَذَوُّقُ اللغةِ العَربيَّة)

عندما تعرف أن (الأشجان) هي الأغصان المشتبكة، تعرف متى تستخدم لفظة (الأشجان) للهموم والغموم والأحزان، وأنها لا تطلق إلا على تخالف الآلام، وتداخل الأحزان بعضها في بعض!! أو على تصارع المشاعر، واشتباك الحنين والذكريات فيها!!

للتعمق في اللغة العربية أثره البالغ في تذوقها، ومعرفة أسرار كلام بلغائها، وعلى تفهم كلام الله تعالى وكلام رسوله صلَّى اللهُ عَلَيه وسَلَّم والتفقه فيهما واستخراج كنوز معارفهما.

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

(حُكْمُ الكَلامِ بِغَيرِ العَرَبيَّة)

أولاً: هناك فرق بين من كانت لغته الأولى ولغة بلده وبني وطنه لغةً غير عربية، ومن كان عربياً في البلاد العربية.

فمن كانت لغته الأولى الفارسية أو الأُردية أو الإنجليزية أو الفرنسية أو غيرها، فلا يُطالب بأن يتكلم بالعربية؛ إلا ما يجب على الأعيان تعلمه مما يُقيم الفرائض الدينية من القرآن الكريم والأذكار الواجبة، إذا ما كان يستطيع ذلك.

وهذا بخلاف العربي في بلاد العرب، فلئن كان الحفاظ على اللغة العربية فرضاً كفائياً على المسلمين كلهم، إذا فرَّطَ فيه المسلمون بما يُهدّد لغةَ العرب بالزوال، فقد أَثِمَ المسلمون كلهم، فنصيب العرب من هذا التأثيم أكبر؛ لأن العربية لغتهم وهم أولى من حافظ عليها، ولأن حِفْظَها عليهم أيسر.

ولهذا قال الإمام الشافعي: (يَنْبَغِي لِكُلّ أحد يَقْدِرُ على تعلُّم العربيَّة أن يتعلَّمها؛ لأَنَّه اللّسان الأَوْلَى بأنْ يكون مرغوباً فيه، من غير أن يحرم على أحد أن ينطق بأعجميَّة).

وقد استدلَّ الله تعالى على عظيم قُدرته باختلاف الألسن (وهي اللغات)، وذكرها بعد دليل خَلْق السموات والأرض، فقال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ﴾ الروم: ٢٢، ولا يستدلُّ الله تعالى على عظيم قدرته في

سياق يجمع الاستدلالَ بالامتنانِ (كهذا السياق) بمكروه لديه، مما يدلُّ على أن ذِكْرَ اختلاف الألسن كما أنه دليلُ قُدْرة: فهو تذكيرٌ بمنّةٍ من مِنن الباري عز وجلّ.

مما يعني أن اختلاف الألسن كما أنه حقيقةٌ قدريةٌ لا يصح السعي إلى زوالها، فهو أيضاً من بين اختلاف صور الشعوب الداعي لتلاقح الثقافات وتطوُّر الحضارات، والذي أشار إليه الله تعالى في قوله سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ الحجرات: ١٣.

ولا ننسى أن صفوة الله من خلقه، وهم الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام، كانوا يتكلمون بلغات مختلفة، وامتنَّ الله على عباده بذلك، فقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ﴾ إبراهيم: ٤. مما يعني أنه لا توجد لغةٌ مبغوضةٌ لله تعالى في نفسها، وأن الإسلام لا يذم لغةً من اللغات، ولا هناك لغة تسيء لمن يتكلم بها، ولا تنقص من خُلقِه ولا دينه.

وإلى ذلك أشار الإمام البخاري في صحيحه، عندما بوَّبَ لبابٍ قال فيه: «باب من تكَلَّمَ بالفَارِسِيَّةِ والرَّطَانَةِ، وقوله تعَالَى: ﴿وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ﴾، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ﴾». ثم أورد الإمام البخاري ثلاثة أحاديث تكلم فيها النبي صلَّى اللهُ عَلَيه وسَلَّم بكلمات فارسية أو حبشية.

فقال الحافظ ابن حجر في شرح هذا التبويب: «وأشار المصنف إلى ضعف ما ورد من الأحاديث الواردة في كراهة الكلام بالفارسية: كحديث: (كلام أهل النار بالفارسية)، وكحديث: (من تكلم بالفارسية زادت في خبثه، ونقصت من مروءته)، أخرجه الحاكم في مستدركه، وسنده واهٍ. وأخرج فيه أيضاً عن عمر، رفعه: (من أحسن العربية فلا يتكلمن بالفارسية، فإنه يورث النفاق..) الحديث، وسنده واهٍ أيضاً».

وإلى ذلك أشار أيضاً الإمام النسائي، عندما بوَّبَ في (سننه الكبرى) لباب بعنوان: «رَطانة العجم»، ثم أورد فيه حديث أبي هريرة رضي الله عنه، قال: (أخذ الحسن تمرة من تمر الصدقة في فمه، فقال له رسول الله صلَّى اللهُ عَلَيه وسَلَّم: كِخْ.. كِخْ؛ أما شعرتَ أنا لا نأكل الصدقة). يشير الإمام النسائي بذلك إلى عدم صحة الذم المطلق للكلام بغير العربية، بدليل إدخال النبي صلَّى اللهُ عَلَيه وسَلَّم لبعض الكلمات غير العربية في كلامه.

ومن لطائف إشارات المحدثين: ما بوَّب به الحافظ أبو الشيخ الأصبهاني (ت٣٦٩هـ)، في كتابه (أخلاق النبي صلَّى اللهُ عَلَيه وسَلَّم وآدابه)، حيث عقد فيه باباً بعنوان: «ما ذُكر من تَـكَلُّمِه صلَّى اللهُ عَلَيه وسَلَّم بالفارسية»، وأورد عدة أحاديث في ذلك. وكأنه يشير بذلك إلى سعة خُلُقه صلَّى اللهُ عَلَيه وسَلَّم وسماحته مع اللغات والحضارات الأخرى، وبُعد أخلاقه صلَّى اللهُ عَلَيه وسَلَّم عن العنصرية والعصبية للأعراق ولغاتها!

وهذا كله يدل على أن اللغات والتكلم بها الأصل فيه الإباحة، بل هي علمٌ من العلوم التي يُمدح من تعلّمه!

وفي السنن الصحيحة: عن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: أمرني رسول الله صلى الله عليه و سلم أن أتعلم له كتاب يهود، قال صلَّى اللهُ عَلَيه وسَلَّم: « إني والله ما آمن يهود على كتاب». مما يدل على أن تعلم اللغة الأجنبية عند الحاجة إليها واجب شرعي، فكيف إذا كانت وعاءً للعلم المادِّي والتقدُّم التِّـقْني، كما هو الشأن اليوم؟! فسيكون تعلمها فرضاً كفائياً على الأمة، لتلقي العلوم النافعة للأمة، تلك العلوم التي تجعلها قادرة على الرُّقي والمنافسة على منازل الرِّفْعة والقوة.

وأما ما جاء من النهي عن رطانة الأعاجم، فقد سبق أن شيئاً من ذلك لم يصح عن رسول الله صلَّى اللهُ عَلَيه وسَلَّم، ولا صحَّ إطلاق النهي عن أحد من أصحابه رضي الله عنهم.

ومن عبارات العلماء المهمة في تفصيل حكم المسألة: قول شيخ الإسلام ابن تيمية في (اقتضاء الصراط المستقيم): «وفي الجملة فالكلمة بعد الكلمة من العجمية أمرها قريب، وأكثر ما كانوا يفعلون إما لكون المخاطب أعجمياً، أو قد اعتاد العجمية، يريدون تقريب الأفهام عليه...(إلى أن قال):

وأما اعتياد الخطاب بغير العربية، التي هي شعار الإسلام ولغة القرآن، حتى يصير ذلك عادة للمصر وأهله، ولأهل الدار، وللرجل مع صاحبه، ولأهل السوق، أو للأمراء، أو لأهل الديوان، أو لأهل الفقه: فلا ريب أن هذا مكروه، فإنه من التشبه بالأعاجم، وهو مكروه كما تقدم.

ولهذا كان المسلمون المتقدمون لما سكنوا أرض الشام ومصر ولغة أهلهما رومية، وأرض العراق وخراسان ولغة أهلهما فارسية، وأهل المغرب ولغة أهلها بربرية؛ عوَّدوا أهل هذه البلاد العربية، حتى غلبت على أهل هذه الأمصار مسلمهم وكافرهم، وهكذا كانت خراسان قديماً، ثم إنهم تساهلوا في أمر اللغة، واعتادوا الخطاب بالفارسية، حتى غلبت عليهم، وصارت العربية مهجورة عند كثير منهم. ولا ريب أن هذا مكروه».

والتحرير عندي في هذا الباب أن أقول:

١ـ من جرى على لسانه من العرب الكلمة بعد الكلمة من غير العربية، بغير قصد سيء، كقصد التشبه بالكفار، ولا بسبب هزيمة نفسية أمام ثقافة الأجنبي: فلا يحرم عليه ذلك ولا يُكره.

٢ـ من أكثر الكلام بغير العربية بقصد التعلم لتلك اللغة، لكونها علماً أو ليتمكن من تعلم العلوم النافعة لتلك الأمة التي يتعلم لغتها: فهو مأجور على ذلك. وقد يكون هذا فرضاً كفائياً، كما هو اليوم مع اللغة الإنجليزية خاصة؛ لكونها لغة تحوي أكثر العلوم المادية التي يحتاجها المسلمون.

٣ـ من تعلم اللغة الأجنبية وتكلم بها؛ بغضاً للعربية، وحباً للغة الأخرى: فإن كان بغضه للعربية لا يعود بالنقص في دينه، كأن يكون بغضه لها لأن طبعه منافرٌ لها ولصعوبتها عليه؛ فلا إثم عليه.

وأما إن كان بغضه للعربية ينقص من دينه، كأن يكون بغضه لها صادراً عن حب للكفار، فحكمه حكم حب الكفار: فمن أحبهم لكفرهم: فهذا كفر، ومن أحبهم لفسقهم: فهذا إثم، من أحبهم لأمر فيهم غير محرم: فلا إثم عليه.

٤ـ يأثم الفرد إذا ترك العربية حتى عجز عن قراءة ما يجب عليه من القرآن والأذكار في صلاته.

٥ـ تأثم الأمة كلها إذا فرطت في لغتها حتى أصبحت اللغة العربية غريبة بين أهلها، مستنكرة في أرضها. فاللغات شعار الأمم، ووعاء حضارتها، والتفريط فيها خيانة للأمة، يدل على عدم انتماء، وعلى هزيمة نفسية تؤذن باستلابٍ حضاريٍّ للأجنبي، وباندثار لمعالم التميز عنه.

٦ـ تأثم الأمة كلها إذا فرطت في لغتها، فأصبح فقهاؤها عاجزين عن فهم كلام الله تعالى وفهم كلام رسوله صلَّى اللهُ عَلَيه وسَلَّم، وصارت عاجزة عن التفقّه في دينها.

وبذلك يتبين أن مناط حكم الكلام باللغة الأجنبية في البلاد العربية يرجع إلى أمور ثلاثة:

ـ بحسب درجة شيوع الكلام باللغة الأجنبية وتهديده للغة العربية. فقد تكون حالة من حالات الكلام باللغة الأجنبية مباحة أو مكروهة فقط، ثم قد تصبح محرمة عند وصول الأمر درجة التهديد الصريح لواجبات اللغة في الأمة (من حفظ الدين، وحفظ الحضارة).

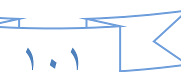
ـ وبحسب أثره على الفرد.

ـ وبحسب نية ومقصد المتكلم.

هذه أهم معالم الحكم، وهي خلاصة قواعد هذا الباب، والله تعالى أعلم.





نُورُ الحَقِّ وظُلُمَاتُ الطُّغيَان

(لا تَعجَبُوا مِنْ بُطءِ فَهمِهم)

لا تعجبوا من بُطء فهم الحكام الظلمة، هو في الحقيقة ليس غباء ولا عجزاً عن الفهم، بل هو فهم صحيح، لأنهم يعلمون أنه لا عاصم لهم من سيف العدالة إلا بقاؤهم في الحكم.

ولذلك لا تطمعوا منهم خروجاً برضاهم، لأن خروجهم يعني دخولهم بين قضبان المحاكمة والعقاب.

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

لا يمكن للمجرم أن يضع حبل المشنقة في عنقه، بنفس الدرجة من استحالة أن يتنازل المستبد عن استبداده؛ لأنهما يعرفان أن نهايتهما واحدة.

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

(لِـمَاذا تَمنعُ الشَّعبَ مِنْ حُقُوقِه)

كانت الأنظمة التي لا تعطي شعوبها حقوقها تراهن لسكوت مواطنيها على شيئين: الأول جهلهم بحقوقهم من خلال الإعلام المغلق الذي تملكه والذي لا يسمح بتوعية المواطنين بحقوقهم.

والثاني: من خلال قمع تلك الشعوب، وخاصة من يدعو للعدالة الاجتماعية والإصلاح.

والسبب الأول سقط الآن، فالشباب كله يعرف حقوقه بالكامل. والثاني قد ثبت فشله، وأنه مجرد وهم أمني ومخدر وقتي للشعوب، فإذا استيقظت من تخديره فعلت ما فعلته الشعوب الثائرة.

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

(مَنْ حَذَّرَ الحُكَّامَ مِنَ الاستبدادِ هو أكثرُ شفقةً عَلَيهِم)

كان إذا حذّر أحدٌ من خطر الاستبداد على الأنظمة الحاكمة: ظنت الأنظمة أنه يحرك الناس للفتنة، وأنه يدعوهم بأسلوب غير مباشر لإسقاط الأنظمة، وظنت هذه الأنظمة أنه لا خوف عليهم من الاستبداد، بل يظنون القمع هو صِمَامُ أمنهم وحاميهم من أطماع الشعوب.

فهل ستعلم الأنظمة الآن أن الاستبداد خطر حقيقي عليهم، وأن من حذرهم منه هو أكثر شفقة عليهم وأحرص على الاستقرار والأمن ممن يزين لهم القمع والاستبداد.

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

(مِنْ شُؤمِ التَّخْذِيلِ عن مُسَانَدَةِ المظلُومِينَ)

من شؤم التخذيل عن مساندة المقهورين المطالبين بحقوقهم، بتحريم المظاهرات السلمية وادعاء كونها فتنة، أن يتمنى هؤلاء المخذلون عدم نجاح تلك المظاهرات في تحقيق مطالبها النبيلة!!

نعم إلى هذا الحد يبلغ شؤم تخذيلهم؛ لكي لا يكذب الواقعُ ظنهم، ولكي لا يلومهم المجتمع الذي لم يلتفت لتخذيلهم.

بل حتى لو نجحت تلك المطالبات نجاحاً نسبياً، سيكون هؤلاء حريصين على إظهارها وكأنها فشلت، فهم بين تثبيط سابق وتحبيط لاحق، وهذا من شؤم المعصية.

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

(لا يَصِحُّ الاستِهَانَةُ بِكَيدِ البَاطِلِ اعتماداً على قُوَّةِ الحَقِّ)

الثقة بقوة الحق وبثباته وبحتمية انتصاره النهائي مبادئ يجب أن تكون ثابتة، لكنها لا تعني إغفال تقدير قوة الباطل، ولا الاستهانة بعدده وعتاده؛ لأن هذا الإغفال نفسه من الباطل، وتلك الاستهانة عينها ليست من الحق في شيء.

فكم انهزم أهل الحق بسبب باطل عدم تقديرهم لقوة الباطل، وكم أُذل أهل الحق بسبب اغترارهم بما لديهم من حق، وغفلتهم عن حق آخر فرطوا فيه، وهو وجوب الإعداد الصحيح لمواجهة الباطل، والذي لا يكون صحيحاً حتى يبدأ من تقدير قوة العدو التقدير الكامل الذي لا يبالغ في تعظيم حجم قوته ولا في انتقاصها.

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

(رُبَّمَا وَحَّدَ الظُّلْمُ الناسَ)

ربما وَحَّدَ الظلم، فهو كالنار التي تحرق، لكنها أيضاً تصقل المعادن وتصفيها من الشوائب، وربما انصهرت والتحمت.

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

(وهَكَذَا يَعجَزُ البَاطِلُ أمَامَ الحَقِّ)

أحد الأسرى الفلسطينيين، كان أسيراً في سجون المحتل أربعة وعشرين عاماً!! ويقول في أول لقاء معه اليوم: إن إسرائيل كانت تطمع أن تكسر إرادتهم بهذا السجن!! ويسخر من محاولة كسر إرادته بسجنه ربع قرن، ويعتبرها محاولة مضحكة وفاشلة!!

أربعة وعشرون عاماً من السجن يصدأ فيها الحديد ويتآكل، ويتشقق فيها جبروت الجبال، وتهوي فيه دول ويسقط جبابرة!!

لكنها بكل أعوامها تلك لم تكسر شيئاً من إرادة مؤمني فلسطين، وعجزت أن تحرك شعرة من إيمانها بالله تعالى ومن عدالة قضيتها!!

هذا أكبر دليل على عجز الباطل أمام الحق، وعلى أن المؤمن لا يمكن أن ينسلخ من إيمانه؛ إلا إذا كان لا إيمان راسخاً لديه أصلاً.

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ﴾ هود: ١١٣.

الميل إلى الظالمين نصرةٌ للظلم وتأييد للظالمين، وهذه معصية كبيرة، فلماذا كانت العبارة في العقوبة مقتصرة على مجرد (المس)، ولم تكن اصطلاء أو دخولاً أو إحاطة، وأمثالها من الألفاظ الدالة على شدة العقوبة؟!

أولاً: لما كان (الركون) يدل على ميل ومقاربة، وشابه حال الراكن حال الذي يميل متكئاً إلى حائط أو نحوه، ناسب أن ينبِّه إلى أن ذلك الحائط الذي سيركن إليه ويستند عليه حائط ملتهب، ولن يأوي بركونه إليه إلى ركن شديد، بل إلى ركن ملتهب، سيشعر بمس ناره بمجرد ملامسته. فليعلم أنه إن ركن إلى الظلمة يبتغي عندهم النصر والقوة، وجدهم هم من أذاقه عذاب النار وألم الحريق.

ثانياً: من مال إلى شيء فهو الذي مسه، ولا يقال عن الحائط الذي أميل إليه: مسني الحائط، وإنما يقال: مسست الحائط؛ فلماذا جاء التعبير في الآية بكون النار هي التي تمس الراكنين إلى الظلمة؟

لأن هذه النار بيد الحكم العدل سبحانه، وهي عقوبة مقدرة لمن استحقها، فلا تعاقب إلا من استحقها، ولا يمكن أن تمس إلا من أراد الله لها أن تمسه. فمن مس هذه النار لن يمسها بإرادته، ولن يهرب منها أحدٌ استحق مساسها، فهي تدرك وتمس من وجبت عليه العقوبة بها. فهي التي تمس، وليس من مسته، ولو كان هو من سعى لها ومال إليها!

* * * * *

(الذَّكَاءُ الجَمْعِيُّ عِندَ الشُّعُوبِ)

ذكاء الشعوب ذكاء جماعي، ودهاء الحكام مهما عظم فهو ذكاء فرد أو أفراد.

وفي وقت الثورات تتحرك الشعوب متكاتفةً بعقلها الجمعي، فيصبح الغبي فيهم ذكياً، ويتكون من مجموع عقول الأفراد في الشعوب عقلاً هائلاً في العبقرية، لا يمكن للحاكم مهما اشتد دهاؤه إلا أن يخضع لعبقريته.

وهذا الذكاء الجمعي لا يغلبه القمع، فإن غلبه في مرة، فسوف تتعلم الشعوب من خطئها بأسرع مما يتوقعه الحاكم. فحُق للحكام أن ترتعد فرائصها خوفا من غضب الشعوب!

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

(لا يَستَحِقُّ أنْ يَكُونَ حاكماً)!

الحاكم الذي يقتل شعبه من أجل البقاء في الحكم: لا يستحق أن يكون حاكماً؛ لأن أول واجب من أجله احتاج الناس معه لمنصب الحاكم أصلاً: هو أن على هذا المسلم الذي نصبه الناس حاكماً أن يصون عليهم دماءهم وأعراضهم وأموالهم، بعد صيانته لدينهم.

فهل يحتاج هذا التقرير العلمي القطعي إلى كثرة استدلال لكي يفهمه المتفيقهون؟! وكم كنت أتمنى أن أراه واضحاً صريحاً كهذه الصراحة في تقريرات علمائنا السابقين!!

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

(سِرُّ بَقَاءِ الاستِبدَاد)

قد نظن الاستبداد يستمد بقاءه من القتل والسجن والتعذيب، ولا شك أن هذه هي قوته؛ لكنها ليست هي سر بقائه، فسر بقائه هو الخوف منه.

فإذا انكسر حاجز الخوف، كان هذا فناء الاستبداد، وأصبحت أسباب قوته وسر بقائه (كالقتل والسجن والتعذيب) هي نفسها أسباب فنائه؛ لأن الكرامة والحرية أخص مزايا الإنسان، فإذا سُلبت، لم يبق شيء يخاف المرء عليه

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

(قَدْ ظَلَمنَاكُم عِندَمَا سَكَتنَا عَن استبدادِكُم)

أيها المستبدون: قد ظلمناكم، وأسأنا إليكم، عندما سكتنا عن استبدادكم ولم نمنعكم منه، مما أدى إلى أن خسرتمونا وخسرناكم،وأنتم جزء منا، وكان يمكن أن نصلحكم ونصلح بكم.

(كلمة الشعوب)

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

(السَّلامُ يَغْلِبُ العُدْوَان)

الحق أنني لم أكن أصدق بأن السلام سيغلب العدوان، وأن السلام يزداد قوة كلما عانده العدوان، وأن قوة السلام المعنوية أقوى من قوة العدوان المادية، حتى تابعت ما يحدث في مصر.

وعندها تذكرتُ الثبات الكوني للحق، والزوال الكوني للباطل.

بقي أن قوة السلام تبدع كل ساعة وجهاً جديداً من وجوه القوة، في مقابل قوة العدوان التي لا تعرف الإبداع.

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

(الاستبدادُ يَحجبُ العَقلَ)

الأصل في الأخطاء أنها كلما عظمت أدرك أصحابها خطأهم ولم تلتبس بالصواب؛ إلا الاستبداد فهو كلما امتدَّ وتعاظم أصبح صاحبه عاجزاً عن إدراك جريمته، وعن فهم مطالب الأحرار؛ لأن الاستبداد غرور يُسكر ويحجب العقل.

وهذا كما يبين بلادة المستبد، فهو يبين خطيئة استمراء الأحرار للعبودية؛ لأنهم يعينونه بالسكوت على الوصول إلى ذلك الحد من البلادة.

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

(الشَّبَابُ هُوَ التَّفَاؤلُ والمُستقبَل)

الشباب هو المستقبل والطموح، هو كذلك بالخلقة والطبيعة، مهما ساءت ظروفه، كطبيعة الطفل في البراءة واللهو.

فمن ظن أنه قادر على أن يحول بين الشباب وطبيعته، وأراده يائساً بلا مستقبل ولا طموح، فلن يستطيع مقاومة الطبيعة، وحينئذ إما أن يحترق الشباب، أو أن يحترق اليأس، والشباب لا يحترق؛ إلا إذا توقف الزمان على اللحظة الراهنة، فلم يعد هناك مستقبل!

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

(كُلُّ مَا زَيَّفَهُ الإعلام، في مَدح الظُّلَّام، هو هِجَاءٌ لهم)!

يظن الطغاة أن تاريخهم سيكتبه جيش من مأجوري الإعلاميين والكُتاب، وأنه يمكن بهم تزوير حقائق التاريخ، لكنهم نسوا أن للمظلومين صوتاً لا بد أن يظهر، وصوت المظلوم يظهر فوق كل صوت.

فكل ما زيَّفه الإعلامُ عقوداً، تمحوه حناجر المتظاهرين في لحظة. حتى تصبح مدائح المتزلفين هي نفسها قصائد هجاء مقذع؛ لأنها دليل من أدلة الطغيان، وهي التي كان الطغاة يحسبونها ستكون وساماً من أوسمة مجدهم المزيف.

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

(جِنَايَةُ الطُّغَاة)

(كنا كلنا نخاف من بعضنا، والآن كلنا يحب بعضنا)، هذا ما قاله شاب تونسي بعفوية صادقة آسارة، في إحدى القنوات، واختصر في كلمته هذه أهم ثمرة قطفها التونسيون بعد سقوط الطاغية.

وهذا يبين مقدار جناية الطغاة، فهم جرثومة تفسد كل شيء، حتى القلوب، ولا يقتصر إفسادهم على الأجساد والأموال كما قد يظن من لا يدرك أثر الاستبداد الذي يناقض حرية الإنسان كل مناقضة.





العَقْلُ في الإسلام

(جَمَالُ العَقلِ في قُوَّتِه)

أجمل الأفكار هي أقواها!

وملك جمال العقول هو أقوى العقول!

وليس ذلك إلا للعقل ونتاجه (الأفكار): أن يكون جماله هو قوته.

فليس جمال الأجسام قوتها، ولا جمال الأزهار والأشجار في قوتها، ولا جمال شيء قوته؛ إلا العقل وأفكاره!

وهذا هو الجمال الذي يستهويني: قوة العقل!

وليست قوة العقل ولا قوة أفكاره: في ترتيب الأفكار، ولا في استحضار المعلومة (الحفظ)، ولا في كثرة المعارف (سعة الاطلاع: الثقافة الواسعة).

إنما قوة العقل في صحة استنباطه (قوة الملاحظة والمتابعة والاستخلاص)، وفي قوة استدلاله وسلامة حجته.

* * * * *

(الإسلامُ جاءَ خِطَاباً لِلعَقلِ الصَّحِيح)

قول علي رضي الله عنه: (لو كان الدِّينُ بالرأي لكان أسفل الخف أولى بالمسح من أعلاه)، معناه:

لو كان الدين بالرأي المختل؛ لكان مسح أسفل الخف أولى؛ لأن الرأي السوي الصحيح لا يجعل أسفل الخف أولى بالمسح؛ لأن مسح أسفل الخف لن يمنع بعد المشي عليه شيئاً، بل إصابة الرطوبة لأسفله سيجمع ما على الأرض عليه.

فالرأي السديد والعقل الرجيح لن يرجح مسح أسفل الخف، وإنما سيرجح ما قررته الشريعة من مسح أعلى الخف.

واحتجاج أعداء العقل بهذا القول دون عقل هو ما يجعلهم يظنونه يتضمن انتقاصاً للعقل!!

وإلا فلو كان الدين بلا عقل، لما جاز أن يكون الدين خطاباً للعقلاء.

فالدين والوحي جاء خطاباً للعقل الصحيح، وليس الدين بالعقل الخاطئ، ولا بلا عقل، كما يريد المطلون.

ومعنى كون الدين خطاباً للعقل: أنه لا يأتي بمحالات العقول، وما يطلب منها انتقاصه فضلا عن إلغائه.

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

(العَقلُ لَهُ حَدٌّ يَنتَهِي إلَيه)

يقول العلامة أعجوبة التفسير في القرن الهجري الأخير: فضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي (عليه رحمة الله): (يقول أحد العارفين: العقل كالمطية، يوصل الإنسان إلى عتبة السلطان، ولكن لا يُدخلك عليه).

يقول هذا في سياق: أن من آمن بالأدلة العقلية بوجود الله تعالى، وآمن بالأدلة العقلية بصحة النبوة، فآمن بذلك أن الشريعة (كتابا وسنة) هي من الله سبحانه وتعالى؛ فعليه أن لا يسلط عقله على قبول شرائع الله عز وجل أو رفضها (أخبارا أو أوامر)؛ لأن الله هو خالق عقل الإنسان، وهو سبحانه خالق الكون بقوانينه، والله تعالى قادر على أن يخلق ما يخالف مخلوقه وهو العقل، وأنه عز وجل قادر على أن يخلق ما يخالف قوانين الكون التي كان هو تعالى خالقها، وقادر عز وجل على أن يحقق مصلحتنا بما لا نعيه من الوسائل.

ومَنْ جعل عقله حكماً في قبول خبر آمن أنه خبر الله، وفي تشريعٍ آمن أنه تشريع الله، فقد عاد إلى إيمانه العقلي بوجود الله وبصحة النبوة بالنقض والتكذيب! وهنا يكون قد نقض العقل بالعقل؛ لأنه قد أولج عقله فيما لا يمكنه أن يلجه.

وهذا التناقض العقلي: هو قمة الإقصاء للعقل، وليس هو إعمالاً للعقل، كما يتوهمه أصحابه.

وهذا هو معنى قوله رحمه الله: (يقول أحد العارفين: العقل كالمطية، يوصل الإنسان إلى عتبة السلطان، ولكن لا يُدخلك عليه).

* * * * *

قال بعض الحكماء: (لا ينبغي لعاقل أن يعرض عقله للنظر في كل شيء، كما لا ينبغي أن يضرب بسيفه كل شيء).

وقيل ذلك؛ لأن العقل يعجز عن إدراك كل شيء، فإذا نظر في كل شيء كَلَّ وضَعُف وعجز عن كل شيء. كالسيف: لو ضرب كل شيء لصار سيفاً كليلاً ينبو عن قطع كل شيء!!

* * * * *

(لِـمَاذَا هذا التَّنفِير مِنَ العَقل)

تراث ضخم في ذم العقل، وفي التحذير من التفكير بوصف (الرأي) مرة، وباسم الفلسفة أخرى، وكان لذلك التراث سياق صحيح مقبول في زمنه، وله سياق خاطئ أيضاً حتى في زمنه، فكيف في زمننا، وأصبح النفور من عبارة تقديم العقل على النقل نفوراً لا يساويه ولا يقاربه نفورنا من عبارة تقديم النقل على العقل، مع أن كلا العبارتين خطأ من وجه وصواب من وجه.

وفي خضم هذا التنفير الحاشد من العقل، تأتي إضاءات مشرقة متفرقة في تراثنا السلفي، من مثل (درء تعارض العقل والنقل) لابن تيمية، و(فضل العقل) لابن أبي الدنيا، وقليل غيرها.

لكننا زدنا أثرها ضياعاً بزيادة التنفير من العقل! فلئن كانت تلك الإضاءات النادرة في زمنها بدوراً تضيء طريق السائرين، فقد أصبحت نجماً غائراً لا يهدي إلا خريتاً ماهراً بمسارب السالكين.

وبعد هذا كله يبقى الحث على التعقل المتبصر بالوحي عند بعضهم خطراً!!

* * * * *

(بَيْنَ الخِطَابِ الوجدَانيِّ والخِطَابِ البُرهَانيِّ)

الخطاب الوجداني في غاية الأهمية، وقد يُستجاب له بما يعجز خطاب الحجاج العقلي أن يقنع الناس به، إذ قد يُقنع الخطاب الوجداني بما تحول أمراض النفس (من الكبر والعناد) دون قبوله بالحجاج العقلي.

لكن الخطاب الوجداني إذا لم يُؤسس على قناعة برهانية صحيحة، كان من أخطر ما يكون!

ألا ترى النصارى وعقيدتهم التي لا يقبلها عقل، ولا يفهمها بشر، في فكرة الخلاص والصلب والتثليث الموحِّد (بزعمهم)؛ إلا أن المبالغة في الخطاب الوجداني لديهم غيّبت العقول، وجعلت النفوس مستعدة للإيمان بما يتناقض مع العقل، ولا ترضى بمحاكمته عقليا؛ لأن الشحن العاطفي سُكر يغيّب العقل، كما تغيبه المسكرات.

أما إذا اجتمع الخطاب الوجداني والخطاب البرهاني، فهذا هو الغاية، وهذا هو ما ينشيء جيلاً يفدي معتقداته بروحه والدنيا جميعها.

* * * * *

(الإعرَاضُ عَنِ الوَحيِ والإعرَاضُ عن فَهمِ الوَحي)!

تفلُّتُ الباحث الحر من قيود النصوص، كتقييد الباحث الجامد لحرية العقل: فلئن فرط الأول بهداية الوحي، فقد فرط الثاني بآلة فهم الوحي، وكما نخشى على الأول من زلة نتاج العقل، نخشى على الثاني من الضلال في فهم الوحي.

وكما أجرم الأول بالإعراض عن الوحي، أجرم الثاني بالإعراض عن فهمه.

وكما يقع الأول في انتقاص الوحي بتقديم العقل عليه، يقع الثاني في انتقاص الوحي بنسبة ما يرفضه العقل السليم إليه.

وكما ضلَّت طوائف بالأول (كالمعتزلة) ضلَّت طوائف بالثاني (كالخوارج).

والأول: حريته أصبحت فوضى، والثاني: تقيده أصبح بلادة!

والأول: تعبَّدَ لعقله، والثاني: تعبد لجهله.

ولا فرق في الضلال بين من غلا في العقل على حساب النقل، ومن غلا في النقل على حساب العقل؛ إلا بقدر ابتعادهما عن العلاقة التكاملية الصحيحة بينهما.

فقد يكون من غلا في العقل أشد انحرافاً، وقد يكون من غلا في النقل هو الأشد انحرافاً.

وقد عرف تاريخنا الإسلامي كلا الانحرافين، كما سبق، فالتأكيد على أحد الانحرافين دون الآخر، وبصورة متكررة، قد يؤكد على انحراف للجانب الآخر، وهو واقع نشاهده دائماً!!

* * * * *

(تَعَقُّلُ الإنسَانِ هُوَ حُرِّيَّتُه)

حاول أعداء العقل (باسم النقل) أن يتسلطوا على عقول غذَّاها العمق، وقوَّاها الشرع، وبصَّرها النقل، لكنهم عجزوا، وخسروا أصحاب تلك العقول واحداً بعد واحد، لأنهم لا يعلمون أن تعقل الإنسان هو حريته التي لا تسلبها حتى عبودية الامتلاك والرق، فمن أراد أن يسلبها من الذين ذاقوا طعمها وعرفوا حقيقة حرية الفكر، فقد أراد محالاً!!

لقد كنت أشاهد تفلت أولئك الشباب واحداً بعد واحد، من إغراءات سجن عقولهم، وأقول في نفسي: أما آن لأولئك الذين أرادوا منهم أن يلغوا عقولهم أن يستفيدوا من هؤلاء الشباب انطلاقتهم الفكرية؟!

بل ألَـمْ يأنِ لهم أن يعرفوا سبب اندفاعهم هم أنفسهم إلى أولئك الشباب الحر ورغبتهم هم فيهم؟! لماذا لم يعرفوا سرَّ جمالهم؟! لماذا لم يدركوا حقيقة قوتهم؟!

لكن من سجن عقله عن التفكير، ويرى سجنه حصناً يحصنه من الضلالات، سوف يحرم على نفسه السؤال والاستشكال! ويستعيذ الله منهما!!

لأن السؤال والاستشكال سيخرجان عقله من سجنه الذي يحسبه حصنه، وهو يخشى من التفكير الحر كما يخشى المحاصَر من ثقوب باب الحصن، فضلاً عن انفتاح بوابته.

* * * * *

(المُقَـابَلَةُ المُطلَقَةُ بَيْنَ العَقلِ والنَّقل)

(النقل) غالباً هو عمل عقلي في الحفظ والأداء، وفقه (النقل) كله كذلك: فهو عمل عقلي في فهم المنقول.

وقد يكون المنقول:

١ـ متيقن الحفظ عقلاً: كالقرآن الكريم (لكونه خبر عامة عن عامة)، وكبقية أخبار العامة عن العامة (المسمى بالمتواتر المعنوي) والآحاد المحتف بقرائن الإثبات.

٢ـ وقد لا يكون كذلك، ولكن العقل يرجح فيه الثبوت والصحة، ترجيحاً ظنياً، لا متيقناً.

وقد يكون فقه المنقول:

١ـ مقطوعاً به، إذا كان نصاً في المسألة، أو كان ظاهراً تؤيده بقية الظواهر وأدلة الشرع من إجماع (ظني) أو أقيسة صحيحة.

٢ـ وقد يكون فقه المنقول راجحاً بغير قطع، إذا لم يكن كما سبق.

الخلاصة: نَـقْـلُنا النص، وفِقْهُنا فيه، هو عمل عقلي بامتياز، فلا يصح أن نُخوِّن عمل العقل، لمجرد أنه عمل العقل، فهذا سيطعن ـ أول ما يطعن ـ في النقل.

فضلاً عما هو مكرر معروف: من أن إثبات علاقة المنقول (من كتاب وسنة) بالله تعالى، بإثبات النبوة والوحي، لا يكون إلا باستدلال عقلي يسبق الإقرار بصحة الوحي، وإلا فلن يكون هناك فرق بين النبي الصادق والمتنبئ الكاذب!

فهذا الوحي لا يثبت إلا باستدلال يسبق الاستدلال بالوحي يُثبت أنه وحي!

وكما يوجد في النقل ما هو مقطوع به ثبوتاً ودلالة، فيوجد في العقل ما هو مقطوع به.

وكما قد يخطئ الإنسان بظنه الاستدلال بدلالة العقل بسبب إهماله الاهتداء بدلالة الوحي، فقد يخطئ الإنسان أيضاً ويضل مع ظنه التمسك بالوحي والاهتداء به بسبب عدم اهتدائه بالعقل في إثبات صحة النقل أو في فهم النقل الثابت.

فكما قد يضل الإنسان بسوء فهمه للنقل (كالخوارج)، فقد يضل المرء بسوء استعماله لدلالة العقل (ككثير من الفلاسفة).

فالمقابلة المطلقة بين العقل والنقل خطأ؛ لأن النقل ليس دائماً نقلاً مجرداً عن جهد العقل في نقله وفي معرفة درجة ثبوت نقله وفي فقهه واستخراج المراد منه!

* * * * *

١ـ عندما يحذرك شيخك أو مدرستك الدينية من القراءة للمخالفين مطلقاً، ولا يحددان لك مرحلة أو وقتاً للسماح لك بالقراءة لهم، أو الاستماع إليهم؛ إلا مرحلة تعجيزية: أن تُصبح شيخ الإسلام.

٢ـ عندما ينهونك عن حوارهم ومناقشتهم، عندما يزعمون أن هذا هو منهج السلف: النهي عن الاستماع للمخالف مطلقاً والزجر عن جداله دائماً.

٣ـ عندما يغضبون إن أوردت عليهم دليلاً قوياً للمخالفين، ويسمونه شُبهة، ويُقَرِّعونك لذكر تلك (الشبهة)، لكن لا يجيبون عليها بجواب علمي مقنع، في حين أنك لو ذكرتَ شُبهةً حقيقيةً للمخالفين تفاصحوا في الرد عليها، وفرحوا بإظهار قدرتهم على إبطالها، وهم لهم ردود كثيرة على مخالفيهم، منها الصواب ومنها الخطأ، مما يدل على أنهم لم يطردوا في الامتناع عن الردِّ، وإنما ردوا عند القدرة على الردِّ أو إيهام القدرة عليه، وتركوه عند العجز والفشل في الرد أو في مخادعة الرد.

٤ـ عندما يُنفرون عمن خالفهم بالكذب عليه وتشويه سمعته، ليكون عبرةً مخيفةً لمآل من يخالفهم، يأخذ الـجُبناء منها حِذرهم، وعندما يؤذون محبيه ومن يقتنع به بأنواع عديدة من الأذى: تبدأ بالهجر، والسب، وبتضييق فرص العمل وتهديد الأرزاق.

٥ـ عندما يمنعون نشر كتب المخالفين وبيعها، إلا في نطاق ضيق جداً، بلا ضوابط ترجع إلى حق وعدل ومراعاة مصلحة عامة؛ إلا مصلحة الحفاظ على كهنوتهم ومكانتهم الدينية كـ(رجال دين)، فلا يفرق منعُهم بين اختلاف معتبر وغير معتبر، ودون وجود جواب علمي على المنع؛ إلا أن الكتاب يخالفهم.

٦ـ عندما تنشأ في المدارس وتُربَّى في الجامعات ممنوعاً من الاستشكال، خائفاً من الاعتراض، مقموعَ الحرية الفكرية، مهدَّداً بالفصل والطرد لو حاولت ذلك، دون جدل ولا إقناع.

٧ـ عندما يبلغ الحجر على العقول درجة التخويف منها، والتحذير من إعمالها، وإيهامك أن نتائج العقول مضادة للوحي مناقضة لهداية الخالق عز وجل، ويكررون على مسامعك الأبيات التي مطلعها:

نهاية إقدام العقول عِقالُ ... وأكثرُ سعي العالمين ضلالُ

عندها فاعلم أنك تعيش حبيس العقل مشلول التفكير، وأنت لا تعلم، بل ربما تظن أنك عبقري زمانك! مفكِّرُ الأُمة الذي بيده حلول نهضتها!!

مع أنك في هذه الحالات كان الواجب أن لا تثق بكثير من قناعاتك، ولا يجوز لك أن تثق بها!

لا تثق بقدرتك العقلية، ولا تظن أن لديك قدرة عقلية قادرة على أن توصلك للحقيقة!

لا تثق بصحة فِكْرك؛ لأنك لم تتمرَّن على التفكير أصلاً، فصار فِكْرُك ضعيفاً هزيلاً لا يَـقوَى على حمل أمانة التفكير!

لا تثق بمنهجك البحثي ولا بدراساتك، حتى لو نلتَ الماجستير والدكتوراه؛ فأي بحث يمكنك أن تقوم به وأنت ملزمٌ ببحث وفق خطتهم ووفق نتائج رأيهم!!

لا تثق بشيء من ذلكم أبداً؛ لأنك لم تقتنع يوماً على الحقيقة، فهي قناعة غيرك مُملاةٌ عليك، ولأنك لم تُعمل عقلك إعمالاً قوياً، بل لقد أعرتَ عقلك لغيرك، ولأنك مسلوب التفكير بعدما ألزموك بفكرهم، ولأنك أبعد ما تكون عن استقلالية الباحث وموضوعية المنهج العلمي!!

لقد جرَّبتُ كثيراً الحديثَ مع من قُيِّدت عقولهم وسُلب تفكيرُهم بتلك الخطة الخطيرة، فوجدتهم عاجزين عن التفكير السليم حقاً، عاجزين عن ترتيب مقدمات سليمة للخروج بنتائج صحيحة، عاجزين عن القيام بمعادلة عقلية تعارض ما ألفوه، مهما كانت واضحة!

ولذلك كنت دائماً أحرص في البداية على أن أقوم بعملية إنعاش لعقولهم في عناية فائقة، قد أضطَـرُّ معها بأن أقوم بعملية صعق فكري قاس كعملية الضربات الكهربائية التي يُنعش بها القلب من سكتته، وقد أكتفي بإفساح المجال لعقولهم بالتفكير وإشعارهم بحريتهم فيه، ليصل أكسجين الحرية إليهم، كما قد يكتفي المنقذون بقبلة الحياة، لإعادة جهاز التنفُّس إلى عمله!!

إنها عملية صعبة وخطيرة، تلك التي يمارسها أطباء العقول والمصلحون الفِكْريون؛ لأنهم يتعرضون لأخطر الحالات، التي تكثر فيها نسبة الوفيات، ممن يزدادون انغلاقاً ويزدادون رضا باستلاب القدرة على التفكير.

لكنها من أشرف الوظائف، والذين يتعافون من حالتهم فيها يكونون من أقوى الناس عقولاً، ومن أشدهم تمرُّداً على عبودية التفكير، فهم يستحقون المخاطرة، ويستحقون المجازفة في محاولة انتشالهم من غرفة الحجر العقلي المفروض عليهم من غير جرم ولا مرض؛ إلا حب السيطرة وممارسة الكهنوت!

وإني لأدعو كل من تسوِّل له نفسه بأن يكون حرَّ التفكير ومنطلقَ العقل أن يراجع نفسه قبل أن يقع في هذه الجريمة: كيف أمكنه الانفكاك من قيود التفكير تلك كلها؟! وهل تجاوزها جميعا حقاً؟ هل صار حر التفكير بالكامل، أم مازال عبداً مكاتَباً موعوداً بالعتق إن أكمل رسوم انعتاقه، وما هي هذه الرسوم؟ ربما كانت مزيد قيود وتمحُّضَ عبودية وهو لا يشعر! أم هو عبدٌ مدبَّـرٌ: لن يُعتق إلا بهلاك سيده!!

ألا ومَنْ ذَاقَ لذة الحرية الفكرية، لن يؤرخ لحياته (بل لوجوده) إلا بعدها.





(التَّغَيُّرُ هُوَ مِنْ سِمَاتِ المَخلُوقِينَ)

(سبحان من لا يتغير)! وهي تعني: أنه تعالى لا يزيد من نقص سبحانه وتعالى؛ لأن كمال صفاته عز وجل هو كمال صفات الربِّ الذي لا إله غيره.

و(سبحان من لا يتغير) كلمة يقولها العوام عندنا، لا يستحضرون فيها غالباً قصد تسبيح الله تعالى، ولكن ليمتدحوا بها من يتغير من الناس، أو ليذموا بها من لا يقبل أن يتغير منهم، أو ليعتذروا عن خطأ فرط من أحدهم..

لأن التغير خاصية الخلق، وما كان من خاصية الخلق (وإن كان نقصاً بالنسبة لمقام الخالق) فتنزه المخلوق عنها سيكون هو النقص؛ لأنه بتنزهه هذا سيكون مُدَّعياً أولاً، ومتشبهاً بالخالق سبحانه ثانياً، وما أعظمها من سوأة: أن يشمخ أنف الناقص ليظن نفسه في منزلة الكامل.

فإذا شاهدتم داعية أو شيخاً يفتخر هو أو يمتدحه غيره بأنه منذ شبابه وبداية تعلمه إلى أن شاخ لم يتغير، فقولوا له: سبحان من لا يتغير!!

* * * * *

(التَّغْيِيرُ ضَرُورَةٌ)

التغيير ضرورة حياتية، وهو حيوية الواقع ونشاطه الذي يفرضه عليه عامل الزمن الذي لا يتوقف. فكل شيء يتغير من حولنا، حتى خلايا جسدك هي في تغيرٍ مستمر.

فلا بد أن نحمي عقولنا من الجمود وكراهية التغيير، لا بد أن نقي أنفسنا من أن يجعلنا السنُّ عاجزين عن قبول التغيير لمجرد أنه تغيير. ولذلك إن لم نسع للتغيير نحو الأفضل، سعى بنا التغيير نحو الأسوأ.

* * * * *

(بَينَ مُخَالفَةِ العُلَمَاءِ ومُخَالفَةِ الأصدقَاء)

نخالف العلماء ونحبهم ونجلهم، فلماذا إذا خالفنا الأصدقاء تصورنا أنه لا بد أن تفتر علاقتنا بهم، وسمحنا لقلوبنا بأن تحمل عليهم عتباً (في أقل تقدير).

أهم شيء أن لا يقع منكما نقصانٌ في أدب الجدال، فستريان أن كل عتب وفتور في العلاقة ليس له سبب؛ إلا حظ الشيطان في التفريق!!

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

(كَيفَ نَجعَلُ العُلُومَ الإسلاميَّةَ واقعيَّةً)؟

طال الجدل حول واقعية الفقه الإسلامي وعلوم الإسلام، وهل تخلفها عن الواقعية (خدمة الواقع هدايةً وإصلاحاً) كان بسبب:

ـ الدين نفسه (وهذا لا يقوله مسلم).

ـ أو بسبب تراثنا (كأصول الفقه)، والذي قد يكون نافعاً في واقعه الذي نشأ فيه، لكنه ليس نافعاً في زماننا، مما يوجب علينا بناء مناهج جديدة لفهم نصوص الوحي، أو لمعرفة هداية الله، دون اضطرار الرجوع إلى ذلك التراث.

(وهذا قول لا دليل عليه، فلا يوجد دليل يدل على أن الصواب في أصول تراثنا كان هو سبب عدم قدرة العلوم الإسلامية على أن تكون فاعلة في الواقع).

ـ أو بسبب: فقدان روح الاجتهاد من أهل الاختصاص بالعلوم الإسلامية، وشيوع الجمود فيهم، مما جعلهم عاجزين عن تخليصها من ركام الأخطاء (بل متعثرين بذلك الركام)، وجعلهم عاجزين عن ترك هذه العلوم لتعمل عملها التلقائي في فاعلية كاملة مع الواقع، ولتكون صانعة للواقع، ولا تقف عند معايشته!

الأخير هو رأيي!

ولذلك قلت: إن الجواب النظري عن سؤال (كيف نجعل العلوم الإسلامية واقعية) جواب سهل: وهو أعيدوا لها روح الاجتهاد فقط!

لكن جوابه العملي هو الصعب والمعقد (كثير التشابك): وهو كيف نعيد روحها؟!

وسبب صعوبته لا عدم العلم به، ولكن لأنه طريق طويل، ويحتاج جهوداً وتعاوناً ونهضة يقف فيها الغيورون على الدين وقفة واحدة، لتهييء العقول القادرة على التجديد، وإنشاء البيئة الحاضنة له (لا المعادية له)، وتركها لتنقي التراث من أخطائه، لتجده قد فعل وانفعل بالواقع مؤثراً ومتأثراً!

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

(بَعضُهُم لا يَعرِفُونَ الإعذارَ إلَّا مَعَ مَشَايِخِهِم)

بعض الناس لا يعرف الكلام عن إعذار العلماء إلا إذا أخطأ من يتعصب لهم، فعندها تبرز أخلاقيات وأدبيات الإعذار مع العلماء.

ثم يزيد من عدم إنصافه بخلط الإعذار في الاجتهاد غير المعتبر بالمعتبر، فيجعل الاجتهاد الذي في غاية السقوط وكأنه اجتهاد معتبر.

أما إذا أخطأ من يريد إقصاءهم، فيغيب عنده حينها منهجه هذا في الإعذار غياباً كاملاً.

مما يدل على أنه صاحب هوى، وأنه لم يُؤتَ من جهة غياب أدب الخلاف عن علمه.

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

(هَلْ نُخْفِي الحَقَّ خَوْفاً مِنْ أهلِ البَاطِلِ؟)

كثيرا ما يطالبون بمنع قول الحق أو بيان سواغ الاختلاف بحجة النظر في المآلات، ويعنون بذلك استغلال أهل الباطل للحق أو للاختلاف السائغ.

وينسون أن تقرير المآلات نفسه تقرير ظني ويسوغ فيه الاختلاف أيضاً، وأن استغلال أهل الباطل للحق ليس محصوراً في حق دون حق..

فهل نخفي الحق كله خوفاً من استغلال أهل الباطل؟! وهل الحق بهذا الضعف الذي يجعله مركباً سهلاً للباطل؟!

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

(مُرَاعَاةُ الوَاقِع)

يذكر بعض علمائنا السابقين أنه على المسلم أن يُغلِّب جانبَ خوف الله تعالى على رجائه في حياته، ثم يغلب جانب الرجاء إذا حضرته الوفاة، ومنهم من يقول: يغلب جانب الخوف قبل المعصية وجانب الرجاء بعدها.

فأعجب من حملة هذا التراث الفقهي الرائع، الذي يراعي فقه الواقع واختلاف الحال حتى في أخفى واقع وأدق حال، وهو عمل القلوب؛ كيف يغفل كثير منهم عن مراعاة هذا الفقه حتى في السياسة الشرعية والمصالح العامة.

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

(مُنَاقَشَةُ الأفكَارِ أعمقُ مِنْ مُنَاقَشَةِ الألفاظ)

الاعتراض على الفكرة لا يصح من خلال الاعتراض على الألفاظ المعبرة عنها، ومن يفعل ذلك يقع في فخ نفي وجود المصطلح لمجرد خطأ في تعريفه.

كمن ينفي وجود المجاز لمجرد اعتراضه على أولية الوضع اللغوي. وهذا يبين أن مناقشة الأفكار أعمق بكثير من مناقشة الألفاظ المعبرة عنها، وأن العميق يكون أقدر في التعبير عن الفكرة التي يرفضها، حتى ربما كان أقدر على ذلك ممن يقبلها.

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

(وهَلْ تُرِيدُ مِنْ ثَوَابِ الإنصافِ أكثرَ مِنْ هَذا)!

مِنْ أصعب الأمور: أنْ تعطي بصولة الإنصاف الذي تتصف به مَنْ يظلمك حَقَّه، فكيف أنْ تعطيه بالإحسان فوق حقِّه.

لكن الذي يُسهل عليك ذلك أن تتيقَّن: أنك بإنصافك أو إحسانك (لا بغير ذلك) كنت أولى منه بالحق.

وبذلك كنت أوثق بانتصار الحق لك، وهذا الانتصار هو الإدالة والغلبة التي قامت عليها السموات والأرض: ﴿وَقُلْ جَاءَ الحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً﴾ الإسراء: ٨١.

وماذا تريد من ثواب الصبر على الإنصاف والإحسان أكثر من نصر الدنيا وأجر الآخرة.

* * * * *

(لا يُمكِنُ أَنْ تُؤَخِّرَ عَطَاءَكَ عَنْ وَقتِهِ ثم تجده في غيرِ وقتِه)

تقول العرب: (إذا ترك الإنسان القول ماتت خواطره)، وهذا كما يصح في القول يصح في الفعل، فمن لم يعمل ما يمكنه فعله في وقته المتاح فقد أماته، ومن تمادى في تأخير إنجاز ما يمكنه ماتت قدرته عليه.

وهذا يعني أن قدرتك على العطاء هبة مؤقتة، فمن لم يستغلها فسوف يفقدها، ولا يمكن أن تؤخر عطاءك عن وقته ثم تجده في غير وقته!

* * * * *

(إِذَا لَـمْ نُطَوِّرْ مَشرُوعَنَا)

إذا لم نحاول أن نطور مشروعنا حسب حاجتنا فسنجد مشروعنا منحرفاً عن هدفه الصحيح، حتى لو كان مشروعنا أشرف مشروع، كتصحيح العقيدة والدعوة إلى التوحيد.

وربما يصل الانحراف إلى درجة الفرح بوجود الشرك ليبقى لمشروعنا فائدة! أو إلى اختلاق أرضية صالحة للمشروع بتكفير الموحدين وادعاء وقوعهم في الشرك، لنمارس بطولات مشروعنا في الأقربين.

* * * * *

(حَلُّ هَذِهِ المُعضِلَةِ يَبدأ مِنْ إدرَاكِهَا)!

معضلة أن العميقين قلة، بل ندرة، في كل المجتمعات، وخاصة المجتمعات التي لا تنمي ملكات التأمل والتحليل والنقد.

وهذا يعني أن جمهور السطحيين هم الغالبية العظمى، وأن الكلام العميق قليلون من يفهمونه، وأن كل كلام عميق سوف يعتبر عند تلك الغالبية كلاماً غامضاً أو فلسفة لا داعي لها، وأي تفسير عميق سيعده السطحيون تعسفاً في التأويل وخلافاً لظاهر اللفظ.

وحل هذه المعضلة يبدأ من إدراكها!!

* * * * *

(إنْ لـمْ تَكُن خططاً تُحقِّقُ النَّصرَ فهي تُحقِّقُ الهَزِيمةَ)

خطط مواجهة الفساد القادم كخطط المعارك: إن لم تكن خططاً تحقق النصر، فهي خطط تحقق الهزيمة.

ولذلك فلا يصح أن نمجد كل خطة في مواجهة الفساد، لمجرد أنها خطة في مواجهة الفساد؛ فرُبَّ خطة لمواجهة الفساد يستحق صاحبها المحاكمة والعقوبة، إذا كانت خطة فرطت في حقائق ووقائع ظاهرة لا يجوز التفريط فيها ولا يُقبل إغفالها في وضع الخطط.

* * * * *

(حَربٌ ضَرُوسٌ)

سوء الظن المتبادل مشروع حرب ضروس لن تنتهي إلا بانتهائه، وهو لا يجعل بين المختلفين أرضية للتفاهم؛ لأنه لا يذر قاعدة للتفاهم إلا ونسفها.

وهذا يجعل كل طرف يزداد بُعداً عن الآخر، ويزداد في الاحتياط لعداوته، وتزداد بذلك بينهما العداوة، والحرب تكبر كلَّما كبرت عداوتها. وهذا ما أشاهده من كلا الطرفين: من بعض العلماء الشرعيين وبعض دعاة حقوق المرأة.

* * * * *

(مَتَى يَكُونُ سُوءُ الظَّنِّ حَزْماً)؟

سوء الظن لا يكون حزماً إلا إذا كان في محله، ولا يكون في محله إلا إذا لم يكن حراماً، ولن يكون حلالاً إلا بشرطين:

الأول: أن يكون لديك الدليل الصحيح على سوء هذا الشخص الذي لا يحتمل التأويل ولا الاعتذار.

والثاني: الاعتدال في حجم إساءة الظن، فلا يصح أن أسيء ظني بمسلم وكأنه كافر، مهما كان سيئاً، ولا بفاجر وكأنه أفجر مما دلت عليه الدلائل.

وليتنا نعرف متى يكون بعض الظن إثماً، فهو خير من تحبيب الناس في سوء الظن بحجة أنه قد يكون حزماً.

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

(تَنَاقُضُ الغَربِ في تَعَامُلِهم مَعَ قولِهم بِنِسبِيَّةِ الحَقِّ)

أعجب من الغرب: هو من صدَّر للعالم الخلل الفكري القائل بنسبية الحقِّ، ونصر القول المرذول عندنا بتعدِّد الحق.

ثم هو نفسه لا يقبل تنوع الوسائل لتحقيق قيم الحرية والعدالة والمساواة، في مثل موقفه من بعض أحكام الشريعة المتعلقة بعقوبات الجرائم، وهي عند المسلمين أحكام مقبولة، كما أنها جاءت لتحقيق قيم الحرية والعدالة والمساواة التي يتفق عليها الجميع.

فهلا قالوا بتعدد الحق هنا؛ إن لم يقبلوها من باب التعددية والتنوع الثقافي!

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

(الذِي يَنتَقِصُ عُلُومَ الحَدِيث)

لا ينتقص علوم الحديث التي أبدعها علماء السنة لتمييز الثابت مما ينسبه الناقلون إلى النبي صلَّى اللهُ عَلَيه وسَلَّم مما لا يثبت؛ إلا أحد شخصين:

ـ جاهل، يتكلم فيما لا يعلم.

ـ أو من أعماه هواه وتعصبه، وضم إلى ذلك غروراً، جعله أحمق التعصب والهوى!

وطريقتهم في التشكيك في علوم السنة لو أحب أي شخص اتباعها مع أي علم تخصصي (غير علم الحديث)، حتى من العلوم التجريبية، لاستطاع ذلك، ولاستطاع أن يجد له فيه مؤيدين من المغفلين والجهلة أو أصحاب الهوى مثله.

* * * * *

عَلَّمَتنِي التَّجَارب

أن لا يغرني أحد بمنصبه الديني، ولا بدرجته العلمية، ولا بمذهبه العقدي، ولا بدعاواه في التسامح وعدم التبديع والبعد عن التكفير، ولا بروحانياته وإيمانياته ومواعظه؛ فلا أحد من هؤلاء سيكون بشيء من ذلك ناجياً من الزلل العظيم.

لا لكون حقيقته بخلاف ما تقتضيه تلك الظواهر فقط، بل هو كذلك أحياناً كثيرة، وأحياناً أخرى: لأن هناك خُلُقاً كثير الغياب، سريعَ التبخر والفقدان عند احتكاكه بحرارة أول ابتلاء وامتحان، فهو الطبيعة المفقودة: وهي التوازن المبني على العدل.

فكم سمعت من السلفيين دعاوى عدم التحزب إلا للكتاب والسنة، فإذا بهم يتحزبون على ما سواهما أشد التحزب، إذا شعروا بما يهدد عروشهم القيادية وأوهام تميزهم بالحق عن باقي الخلق!

وكم سمعت من بعض الأشعرية وصف السلفيين بالتهافت على التكفير والتبديع (وقد صدقوا)، ثم أراهم هم يتهافتون على ذلك، عندما يعيشون مرحلة تهديدهم منهم!

وكم سمعت من الصوفية إيمانيات تتنزه عن حظوظ النفس، ثم يسقطون في وحل اختبار الابتلاء، فإذا أحدهم وحش كاسر، يدعي علم غيب الصدور، ويوجب غيبة وشتم مخالفه، بدعوى وجوب فضح أهل المجاهرة بالمعاصي!

فعلمتني التجارب: أن هؤلاء بشر، فهم مع نقائصهم عن الكمالات التي يدعونها أو يدعيها لهم المنصب أو المواقف التي يقفون فيها، هم بشر ضعفاء، يعيشون ضغوط الواقع، وتغشى قلوبهم غاشية من جهل أو بغي؛ لكنهم مع ذلك كله مسلمون طيبون طيبة الفطرة البشرية التي خلقنا الله عليها، وطيبة ما لديهم من فضائل علمية وإيمانية حقيقية، لا يلزم أن تكون تصل إلى حد ما يستوجبه المنصب أو الدعاوى والمواقف الوعظية والعلمية التي كانوا يقفونها.

ولا أشك أنني أنا نفسي كذلك، فلست سوى ذلك البشر الضعيف الظلوم الجهول.

فاستطعت بذلك أن أجد لكل واحد من هؤلاء في نفسي قدراً من الحب والإعذار، لا أسقطه مهما حصل منه، مهما أبغضت فيه جهله أو حتى حمقه أو بغيه وفجوره، فما دام إنساناً، وما دام إنساناً مسلماً، ففيه شيء كثير من خير، يجعله أهلاً لمغفرة الله ورحمته، وأهلاً لاحتمال دخول الجنة، بل ربما كان فيها برحمة الله أعلى مني منزلة وأسرع إليها دخولاً (كتب الله لنا جميعاً رحمته وثبتنا على ما يجعلنا من أهل رضوانه).

فلولا أن هذا الاحتمال احتمالُ عدلٍ وحق (وهو احتمال ارتفاع كل مسلم عليك في الجنة، وفي استحقاق دخوله الجنة قبلك) لما كان هو الاعتقاد الواجب أن تعتقد احتمال حصوله، ولا يجوز لك التألي على ربك بنفيه وعدم إيراد احتماله.

ولا أظن أن التأليف بين قلوب الصحابة رضوان الله عليهم الذي امتن الله به على رسوله صلَّى اللهُ عَلَيه وسَلَّم، إلا قد قام على معانٍ جامعة، ومباركات ربانية وتوافيق إلهية، تقوم على نحو هذا المعنى، مع ما كان فيهم رضوان الله عليهم من أسباب الاتفاق الظاهرة أيضاً.

* * * * *

(أَوَّلُ طَرِيقِ الحَلِّ: مَعرِفَةُ الخطأِ والاعترافُ بِهِ)

كلما انتقدنا واقعاً مريراً، له أثره القبيح على أمتنا، يأتي السؤال: فما هو الحل؟

ومع أني أكون قد ذكرت الحل مرات، لكن كل من كره النقد (لأنه يفضح خطأه) يريد منا أن نكرر ذكره بعدد أنفاس مخطئين، كلما صحا أحدهم يسأل عنه.

كما أنهم بسؤالهم هذا؛ كأنهم يقولون: سوف نستمر في ارتكاب الخطأ حتى تأتونا بالحل!!

ألا يعلمون أن أول طريق الحل هو معرفة الخطأ والإقرار به!!

* * * * *

(العِبَارَاتُ القَاسِيةُ ضد المُخَالِفين)

إذا أقرأنا طلابَ العلم العباراتِ القاسيةَ لبعض السلف ضد المخالفين، وإذا امتدحناها بأنها نموذجٌ من نماذج الغضب لله تعالى، فينبغي التنبيه على أمرين:

الأول: أنه لا يصح في غمرة تمجيد الغضب لله تعالى أن ننزلق إلى البحث عمن نُغاضبه في الله تعالى من المسلمين، وكأن هذا مطلبٌ بحدِّ ذاته.

والثاني: أن الغضب قد يكون لله تعالى ومع ذلك فقد يكون محرماً؛ وذلك في حالتين: إذا أدَّى الغضب إلى اعتداء وظلم،أو إذا أدَّى إلى مفاسد تفوق مصلحته.

* * * * *

(لا نُرِيدُ الذَّوَبَانَ في الآخَر ولا الانغِلاقَ التَّامَّ عَنه)

ذَوَبانُ أمةٍ وحضارة في أمة وحضارة أخرى (العولمة) لا يُسهم في رُقي البشرية؛ لأن التطوُّر لا يكون إلا بالتلاقح بين المختلف، ولا يقع تلاقحٌ بين المتفقَين.

كما أن محاربة هذا الذوبان بالانكفاء على الذات والتقوقع لا يحفظ الأُمة منه، ولا يمكِّنها من التطوُّر؛ لأنه يمنعها تماماً من إمكانية الاستفادة من الآخر، وهو ما سيؤدي بالأمة إلى الضمور التدريجي والتلاشي.

* * * * *

(مَوْجَةُ التَّغيير)

موجة التغيير إذا بدأت، ركبها المفسدون؛ ليفسدوا. وركبها المصلحون؛ لكي يصلحوا.

والتخلُّفُ عن ركوبها سيكون أفضل هدية للمفسدين؛ لأنهم سيستحوذون عليها، وستكون لهم وحدهم.

وأكبر مشكلة عندما يكون أهل الإصلاح لا يعرفون شيئاً عن تلك الموجة، وما زالوا يعيشون على آثار موجة قد تبددت على صخرة الماضي منذ زمن. فلا ينتبهون؛ إلا والموجة الجديدة قد جرفتهم خارج ساحة التأثير.

* * * * *

(التَّسَارُعُ الهَائِلُ في اكتِشَافِ الحَقَائق)

التسارُعُ الهائل في اكتشاف الحقائق العلمية يعني تسارعاً هائلاً في اكتشاف جهلنا، فكان ينبغي أن تقودنا هذه المكتشفات إلى التواضع، لا إلى الغرور؛ لأن الاكتشاف ما هو إلا اكتشافٌ لما كنا نجهله سابقاً، ولأن الاختراع ما هو إلا معرفة استثمار علاقة بين شيئين وكانت هذه العلاقة غير معروفة لنا.

فإذا تسارعنا في الاكتشاف والاختراع فينبغي أن نسارع (في الوقت نفسه وبالسرعة نفسها) في الاعتراف بالقصور البشري والضعف الإنساني!!

* * * * *

الأولى: الجميع يدَّعي أن نقده بنَّاءٌ، ولا تصحُّ هذه الدعوى إلا: لمن كانت نيَّتُه حسنة ومقصده هو الإصلاح، ولمن راعى الحكمةَ في اختياره الأنسبَ لوقت النقد ولأُسلوبه.

الثانية: النقد البنَّاء هو الذي تكون مصالحه أكثر من مفاسده، فلا يُشتَـرَطُ في النقد لكي نعدَّه بنَّاءً أن لا تكون له أيُّ مفاسد، فهذا لا يكاد يحصل في النقد؛ لأن من لا يريدون الاعتراف بالخطأ لن يرضيهم النقد، وغضبهم وثورتهم على النقد البناء مفسدةٌ ولا شك، لكنها مفسدةٌ لا تُجيز ترك النقد بالكلية؛ لأنها مفسدةٌ باقيةٌ لا تزول، فتَرْكُ النقد لأجلها يعني تَرْكَ النقدِ البنَّاءِ أبداً.

الثالثة: إذا كنتَ ترى أنك صاحبُ إنجاز تتضاءل أمامه إنجازات الآخرين، فدعْ إنجازك نفسَه يتحدَّث عن ذلك.

أما إذا شعرتَ بأن إنجازك لم يكن كافياً لكي يبرهن للآخرين على عظمته، فلا تظن أن انتقاصك لإنجازات الآخرين هو الذي سوف يبرهن عليه.

فأصحاب الإنجازات العظيمة برهانُ عظمة إنجازاتهم هو إنجازاتهم نفسُها، وأما أصحاب الدعاوى العريضة فلا يتحدَّث عن إنجازاتهم إلا كلماتهم المغرورة.

الرابعة: (تتبع الأخطاء): صفةٌ اعتدنا إطلاق ذمها، ونسينا أن المصححين والمصلحين والمجددين يتتبَّعون الأخطاء أيضاً، وهذا ما جعلهم مصلحين ومصححين ومجددين، ولولا تتبعهم للأخطاء ما عرفوها ولا صححوها أو أصلحوها. فـ(تتبع الأخطاء) قد يكون محموداً، وذلك إذا ما كان تتبُّعها بغرض إصلاحها، دون مقاصد دنيوية وحظوظ نفسية، وبغضِّ النظر عن أصحاب تلك الأخطاء

الخامسة: مع أهمية النقد؛ إلا أنه لا يُقدِّمُ وحده إنجازاً (ولو كان إنجازاً تافهاً).

ومع أهميته أيضاً؛ فإنه لا يتجاوز كونه حجراً من بين أحجار صرح الإنجاز.

فعلى الناقد (مهما قوي نقدُه) أن يتواضع لصاحب الإنجاز (مهما ضعُفَ إنجازه)؛ لأنه لولا المنجزون ما وُجد الناقدون.

ولا يصح أن يظن الناقد في نفسه ولا الناس أن الناقد مطلقاً خيرٌ من صاحب الإنجاز؛ لمجرد أنه انتقد الإنجاز.

السادسة: المجتمع الذي لا يقبل النقد مجتمع جاهلي متخلف؛ لأنه لا يريد الإصلاح.

ولكن قبول النقد لا يعني تصديق كل نقد؛ ولكنه يعني سماع النقد والسماح له والتسامح معه، ثم نأخذ ما دل البرهان على صلاحيته. وعلى المجتمع أن يعلم أن حفاظه على قديمه الجيد لا يتم إلا بتخليه عن قديمه الفاسد، وهذا يتم بالنقد والإصلاح.

السابعة: الخوف من النقد له ما يبرِّره: وهو أن يكون مطية لمهاجمة الحقائق والتشكيك فيها.

والخوف على النقد له ما يبرره أيضاً: وهو أن يكون إقصاؤه بغرض سجن الأفكار وتقديس كل قديم.

ولكن المجتمع الذي عانى من سجن الأفكار والذي تجمد من الجمود، يجب أن يكون خوفه على النقد أكبر من خوفه من النقد، مع الحرص على انضباطه دائماً؛ لكي لا يخرج من سجن القديم إلى سجن الحديث ومن جمود القطب الشمالي إلى الجنوبي!!

* * * * *

أحوج ما تكون لنقد الذات: أشد ما تكون كارهاً لنقده!

* * * * *

(المُنَاظَرَةُ فِي الدَّقَائِقِ)

(من أدب الجدل) إذا دخلت المناظرة في الدقائق، فلا يصح لمن أراد الحق أن يكتفي بسكوت الخصم وعجزه عن الجواب، فيظنه دليلاً على تصويب ما كان عليه.

فالدقائق لا يكون جوابها في دقائق، ولا بد فيها من التأمل الفائق.

* * * * *

الأولى: التحدي هو مِرآةُ الذات، التي بها تعرف ذاتك؛ لأنه احتكاكٌ قويٌّ يُظهر للنفس حدودَ مواهبها. وكما لا يرى الإنسانُ نفسه بغير مِرآة، فإنه لا يشعر بذاته بغير تحدي. ومن لا يشعر بذاته سيكون نسخةً مقلَّدةً من غيره؛ لأنه لا يرى ذاته، وإنما يرى غيره.

الثانية: فراغُ عدمِ الشعور بالذات لا يمكن أن تملأه بغير التحدِّي؛ فإن لم تملأه بالتحدي امتلأ بوهم الشعور بغيرك، وهو التقليد. والتقليد تغييبٌ تامٌّ للذات في ذات من تقلّده؛ فبالتقليد: تفقد ذاتك، ولن تحصل على ذات غيرك؛ لأنك لن تكون غيرَك!

الثالثة: التحدي هو الذي قاد المكتشف إلى اكتشافه، والرياضي إلى بطولته، والشهيد إلى فدائه، والمجرم إلى اعتدائه، وكل هؤلاء قد حقق ذاته بالتحدي.

فحقِّقْ من ذاتك جانب الخير فيها، لكي لا تكره ذاتك.

الرابعة: الشعور بالذات من خلال التحدي في الشرِّ والإجرام، أو عدم الشعور بالذات بسبب عدم قيامها بتحدٍّ يُحيي الشعور بها ، كلاهما عذابان أليمان للذات:

أما الأول: فهو ألمٌ شديد كألم احتضار الموت؛ لأن الإجرام يخالف الفطرة البشرية الطاهرة، فالمجرم يمارس نَحْرَ فطرته كلما مارس الجريمة أو تذكّر ما اقترفت يداه.

وأما الثاني (وهو الذي لم يقم بتحدٍّ ما): فعذابه هو الموت نفسه؛ لأنه هو عذاب انعدام الشعور بالذات.

الخامسة: بين تحقيق الذات والعبودية للذات فرق كبير، مع أن طريقهما جميعاً هو الشعور بالذات من خلال التحدي.

لكن الذي يعصمك من عبادة ذاتك هو أن ترى فيها نقصَك البشريَّ دائماً، وأن ترى ما عند غيرك من المحاسن التي ليست فيك.

السادسة: لا يكون التحدي محموداً إلَّا إذا لم يخرج عن حدود مواهبك وقدراتك، فإن خرج عن أحدهما: فهو الفشل الذريع، أو التهور.

فالتحدي المطلوب: هو الذي لا يحرمك أبداً من الاستمرار في القدرة على التحدي وعلى تحقيق ذاتك به، حتى فشلُك فيه لا يحرمك منه.

بخلاف التهور، فإن فشلك فيه يحرمك من الاستمرار في التحدي؛ لأن نتائجه غالباً نتائجُ كارثيةٌ، وتَحرِمُك جزءاً كبيراً من مواهبك وقدراتك، إن لم تُفقدْكَها كلَّها (حماك الله من ذلك).

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

(مَعنَى حُرِّيَّةِ التَّعبِير)

حرية التعبير: ليست هي أن تقول كل ما يخطر على بالك، فهذا هو الهذيان، وليست هي أيضاً أن لا يكون هناك قانون يعاقب على التعبير المسيء.

وإنما هي: أن تقول ما تؤمن بصلاحه، بشرط أن تتحمَّلَ مسؤولية هذا الإيمان؛ لأن القول كالعمل، فكلاهما مسؤوليتان أمام الشريعة والقانون، فكما يحاسب القانون على الفعل، يجب أن يحاسب على القول، ولا يصح أن نستثني القول من تحمُّل مسؤوليته.

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

(التَّعَامُلُ مَعَ الوَاقِع)

لمعرفة ما الذي يتيحه لنا الواقع من الإصلاح وما الذي لا يتيحه، فإنك تحتاج إلى دراسة الواقع، وستخرج بواحد من ثلاثة احتمالات:

(١) هناك أمور تقطع بأنها فوق متاحات الواقع.

(٢) وهناك أخرى تقطع بأنها من متاحاته.

(٣) والأخيرة تتردد فيها.

فإذا أخفقت: في الأولى فلأنك طلبت المستحيل، وفي الثانية فلأنك لم توفق للتخطيط السليم..

وأما إذا أخفقت في الثالثة فسوف تستفيد درساً جديداً في معرفة الواقع..

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

(لِـمَاذَا يَبتَعِدُ بَعضُ النَّاسِ عَنِ الإسلام)؟

قام مدرس بريطاني مسلم بإجراء بحث ميداني على شريحة من طلاب المدارس البريطانية، من مراحل الروضة إلى نهاية الثانوي، حول ما يودون معرفته عن الإسلام، وما هي الأسئلة التي تدور في أذهانهم عنه، وخرج بعشرات الأسئلة، تجدونها في الرابط التالي.

وهي أسئلة يمكن أن تبين لكم ما هي تصورات بعض الأمم عن الإسلام.

وقد لفت نظري في هذه الأسئلة أشياء كثيرة، تدل أن الصواد عن الإسلام ليست فقط الأسئلة الوجودية الكبرى، ولا هي فقط عدم العلم بصحة النبوة، ولا التشكيك في أخلاقيات الإسلام فقط، ولا هي فقط الاعتراض على بعض أحكام الإسلام كتعدد الزوجات والرق والحدود، بل ربما كانت بعض القضايا الاجتماعية والإنسانية والترفيهية سببا في الصد عن الدين!!

لقد لفت نظري تكرر السؤال في مراحل عمرية عديدة عن المسلمين هل يحتفلون بالعيد، هل لديهم أيام بهجة وفرح، وما هي مظاهر السعادة لديهم في مناسبات تجمعهم كالأعياد ونحو ذلك؟

وواضح أن هذا نشأ عن أننا لم ننجح في إظهار بهجة الإسلام، وأن كثيرا من الفتاوى المتزمتة تكاد تحرم كل مظهر من مظاهر السعادة، من الألعاب واللهو، وأننا لم نستطع أن نصدر نموذجنا الإسلامي للاحتفال، رغم أموالنا وأعدادنا الكبيرة وتعدد ثقافاتنا وأعراقنا وانتشارنا في الأرض شرقاً وغرباً!

حتى إذا أرادنا الاحتفال جلبنا شجرة عيد الميلاد، واحتفلنا بعيد الميلاد، ونافسناهم في بضاعتهم، كما يحصل في بعض دول الخليج وغيرها!!

كنت أقرأ تلك الأسئلة، وأتذكر قول النبي صلَّى اللهُ عَلَيه وسَلَّم، لما سمح بالرقص واللعب داخل مسجده! نعم.. سمح بذلك في المسجد النبوي الشريف، وفي حرمه الطاهر المبارك!! وقال عليه الصلاة والسلام: (ليعلم يهود أن في ديننا فسحة)!!

لقد علمت لـماذا كان النبي صلَّى اللهُ عَلَيه وسَلَّم حريصاً على إظهار فسحة الإسلام في الاحتفال والبهجة؟ إذ لم يكن ذلك ليغيظ اليهود، ولا لينافسهم، كما قد يتصور البعض، بل كان ذلك الحرص لكي يدعوهم إلى الإسلام!

لقد علمت لماذا كان إظهار الفسحة الإسلامية، ولماذا كانت مباهج الحياة وصور السعادة؛ من وسائل الدعوة إلى الله تعالى! ومن وسائل الدعوة النبوية!!

لقد حان الوقت (مع فضائياتنا الكثيرة) أن نظهر للعالم أن في ديننا سعادة، أن في ديننا فسحة، وأن المسلم سعيد في الدنيا، عندها قد يصدقوننا أن ديننا يحقق سعادة الدارين!!

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

(يَجعَلُ نَفْسَهُ حَكَماً عَلَى فُنُونِ النَّاس)!

(إذا تكلم المرء في غير فنه أتى بالعجائب)، ومَنْ تعجَّبَ ممن ظنَّه تكلَّم في غير فنه (وهو فنُّه أو أحد فنونه) فتعجُّبه من أعجب العجائب.

وأعجب منه من جعل نفسه حَكَماً على فنون الناس فيسمح لبعضهم الكلام في فنون عديدة (وربما في كل فن)، ويريد أن يمنع آخرين من الحديث إلا في فن واحد هو حدده لهم.

وأعجب الجميع إذا قال الجاهل الذي ما غاب عنه من العلم أكثر مما حضره منه: (من تكلم في غير فنه أتى بالعجائب)، وأكثر العلم عند مثله عجائب!!

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

(بَينَ «حُرِّيَّةِ الفِكْرِ» و «التَّوَاضُعُ لِلعِلْم»)

بعض طلبة العلم لا يفرق بين حرية الفكر وعدم التبعية (من جهة)، والتواضع للعلم والأدب مع العالم (من جهة أخرى).

فإما أن يُلغي تفكيره ويقلد تقليداً متعصباً أعمى، بحجة التواضع للعلم والأدب مع العالم.

وإما أن يتعالى على العلم ويغتر، فيسيء الأدب مع العلم والعلماء، بحجة حرية الفكر ورفض التبعية.

ومن مظاهر هؤلاء المتعالين على العلم:

١ـ التعالم: بادعاء منزلة في العلم ليست لهم، والتمشيخ قبل بلوغ بلوغ رتبتها.

٢ـ الوثوقية الزائدة في أمور لا يمكن للعالم أن يكون واثقاً منها، فضلاً عن طالب العلم. فتجده يقول: (هذا قول فاسد)، و: (هذا باطل)، و: (هذا هو الحق بلا ريب)، و: (هذا هو الهُدى وليس بعده إلا الضلال).

ومثل هذه الوثوقية إذا أكثر منها صاحبها في غير محلها من الأمور الظنية، دلت على الغرور وسوء الأدب.

يكاد بعضهم (من اغتراره) يظن الشيء الذي لا يعلمه جهلاً، فينكر ما لا يعلم؛ لأنه لا يعلمه!! ويحكم بفساد ما لم يهضمه فكره، لمجرد أن فكره الضعيف عجز عن هضمه، فبدلاً من أن يحاول أن يقوي قدرته على الهضم، تجده يحكم بفساد ما لم يفهم!!

٣ـ الاعتراض على تقرير العالم بالإشكالات، دون الجواب عن الإشكالات: ليس علماً، بل هو جهل، وسوء أدب.

أما أنه جهل: فلأن الإشكال ليس جواباً، ولا يبني تقريراً. بل هو قطع طريق دون العلم، ويهدم العلم.

وأما أنه سوء أدب: فلأن صاحب الإشكال حقه أن يسأل عن إشكاله، ويطلب الشفاء من داء شبهته، حتى إذا عجز عن سماع جواب مقنع، سكت، وترك الاعتراض، حتى يجد هو الجواب، والتقرير الخالي من الإشكال أيضاً.

أما الاعتراض بالإشكال، دون جواب، ودون تقرير بلا إشكال، فهو هروب من إشكال إلى إشكال، وأقل ما يقال لصاحب ذلك: جهد بغير طائل، وتعب بلا ثمرة!

* * * * *

لا تَستَغْرِبُوا

عندما يكون التشديد والتزمت هو الفقه السائد، لا نستغرب أن يكون غالب خلاف المصلحين تيسيراً وتسهيلاً، ليكون فقه المصلحين في نظرنا فقه الذين يتتبعون الرخص؛ لأننا قد أصبحنا نحن نتتبع التنطع والتزمت!

وعندما يكون التحريم مطلقاً هو دليل الورع ومتانة الديانة، لا تستغربوا أن تكون الإباحة مطلقاً دليل التهافت على الدنيا وخفة الديانة.

وعندما يكون التكفير هو دليل صفاء العقيدة وصلابة التوحيد، لا تستغربوا أن يكون الكلام عن حرمة أهل الشهادتين فساداً في العقيدة وإرجاءً من إرجاء غلاة الجهمية (ولغير المتخصصين: الإرجاء عند العقديين: هي سُبةٌ عقدية، والجهمية: هم ـ باختصار ـ قوم ما عندهم سالفة!).

وعندما يكون سد الذريعة بالتحريم والمنع هو خط الدفاع الأول لحماية الدين، فسددنا بسد الذرائع أنفاس الناس، لا تستغربوا إذا تجاهل فئام كبير من المجتمع الفتاوى؛ وقالوا: استفت قلبك!

لأننا ضيقنا عليهم ما وسعه الله، فلا حمينا الشريعة، وهدمنا سدودها، وفتحنا ذرائع التفلت من الدين، ونحن نظن أننا نبني السدود!!

وعندما يكون كل تشبه بالكفار محرماً، لا تستغربوا إذا وجدنا من يرفض التشبه بإنسانيتهم، مع أن الإنسانية صفة تجمعنا جميعاً، وعندها ستجد من يتشبه بهم غير مبال بالفتاوى التي لا تعقل معنى المشترك الإنساني. وقريباً كانت إجازة الجمعة والسبت (بدلاً من الخميس والجمعة) حراماً لأنها تشبه بالكفار، ثم صدر القرار باعتمادها، فخرست الألسن المحرمة، وتشبهنا بالكفار على زعمهم، فوجدنا هذا التشبه حلواً طيباً!!

وعندما يكون كل جديد يخدم الدين بدعة، فلا تستغربوا إذا ما حرموا المآذن والمحاريب، وحرموا أن تزيد درجات المنبر على ثلاث (كما وقع فعلاً)!!

وعندما تصبح المرأة مبغوضة بسبب سوء فهم تعظيم النصوص لفتنة الرجل بالمرأة، وبيانها لشدة انجذاب الرجال إلى النساء، لا تستغربوا أن تصبح الدعوة إلى إعطائها حقها الإنساني في وجداننا تعاطفا مع الشيطان! مع أن المال من أعظم الفتن أيضاً، وحذرت منه النصوص أعظم تحذير كذلك، وما زال القوم يحبونه حباً جماً!!

وعندما لا نعترف بأخطائنا، ونجعل كل شيء مؤامرة، لا تستغربوا إذا أصبح التحذير من المؤامرة هو نفسه مؤامرة، ومؤامرة التحذير من المؤامرة هي نفسها مؤامرة، في سلسلة مضحكة من المؤامرات.

وعندما نعتقد أننا نحن (حصرياً) امتداد السلف والصحابة رضوان الله عليهم، لا تستغربوا إذا قلنا إن أهل الجنة هم أهل منطقتنا ومن اتبعهم (كما قال أحدهم).

وعندما نعتقد أن شيخ الإسلام ابن تيمية هو شيخ الإسلام حصراً، بمعنى الانفراد بهذه المنزلة، لا تستغربوا إذا أصبح علماء الإسلام كلهم صفراً على الشمال! وقد كان شيخ الإسلام يعيب على النحويين تسليمهم المطلق لسيبويه، وكان يقول: ما كان سيبويه نبي النحو، فأظنه لو كان هو بيننا لقال لنا: ما كان ابن تيمية نبي السنة والسلفية!

وعندما نجعل الحفظ هو مقياس العلم، حتى قالوا: احفظ فكل حافظ إمام، لا تستغربوا إذا أصبح أئمتنا مسجلات تكرر ما قيل بغير فقه، فيكون واقع المستفتي في واد، والفتوى في واد آخر، وكأنك تسمع في الفتوى صرير أعواد الأقلام على الجلود واللخاف والعُسُب والأكتاف أو والكاغذ، لا صوت أزرار لوحة المفاتيح (الكيبورد) على الحاسوب (الكمبيوتر)!

وعندما يصبح تعظيم النص هو الظاهرية الجامدة والسطحية الجوفاء، سيصبح فقه النص وعلم علله ومقاصده تحريفاً للنصوص وتبديلاً للشريعة، حتى أصبح وصف (الفقه المقاصدي) شتيمة وانتقاصاً.

وعندما يصبح الدفاع عن الإسلام بالأدلة العقلية عقلانية مذمومة (تقديماً لنتاج العقل الظني على النص)، سيصبح الإلحاد واللادينية هو دين شبابنا الذي تجتاحه الشبهات والشكوك من كل مكان.

وعندما يصبح طلبة العلم يسألون ماذا قال ابن باز وابن عثيمين والألباني (عليهم رحمة الله)، ولا يفكرون في معرفة ماذا قال أبو حنيفة ومالك والشافعي وأحمد، فلا تستغربوا إذا وصفنا قولاً اتفق عليه الأئمة الأربعة كلهم بأنه من أقوال أهل الفساد، وإذا وصفنا قول جمهورهم بأنه دعوة للسفور والإلحاد في آيات الله (كما وقع فعلاً)!!

وإذا أصبح وعاظُنا هم علماءَنا، فلا تستغربوا إذا ما قادوا أمتهم إلى الجهل والمعارك الطائفية.

وإذا أصبح الضال من أهل البدع المسلمين أكفر من الكافر، فمن الطبيعي أن نستعين بالكافر عليه، أو أن نرجو هلاكه على يد اليهود والنصارى، ولن يكون ذلك عندنا خيانة، ولا ناقضاً من نواقض الإسلام (كما يزعمون في تكفيراتهم).

فإذا استعان هو بالكافر علينا، صار خيانة وعمالة وتاريخاً أسود من التآمر ضد الإسلام والمسلمين. ولا نشعر (مجرد شعور) أن ذلك من ازدواج المعايير ومن الكيل بمكيالين، وتختفي معالم العدل وتموت مشاعر الوخز في ضمائرنا!!

وإذا لم نفرق بين جماهيرية الفرقعات الإعلامية ومسايرة الجماهير فيما تحب، وجماهيرية القبول العلمي لدى أهل العلم، فلا تستغربوا إذا ما أصبح جهلة الوعاظ هم من يقود عقل الأمة ووجدانها إلى جهالاتهم.

وأما إذا كان دليل القبول عند الله كثرة من المتابعين والمعجبين في الفيس وتويتر، فلا تستغربوا إذا شهد الناس بالجنة لبعض الفنانين والفنانات ولاعبي الكرة، فهم أكثر أتباعاً، وأكثر معجبين.

وإذا أصبحت لحوم من نسميهم نحن علماء لحوماً مسمومة، ونستبيح بسبب سُميتها لحوم علماء آخرين يخالفونهم، فلا تستغربوا إذا تسمم كثير من الناس بلحوم الناس جميعاً؛ فنحن من سن لهم أكل لحوم البشر المسمومة.

وإذا حصرنا سبب تخلفنا في معاصي الشهوات واتباع الهوى فقط، دون التفات إلى معصية التخلف العلمي وجريمة التأخر التقني وعار التراجع الحضاري، فلا تستغربوا إن بقينا أضعف

أمة على وجه الأرض، وإذا أصبح النموذج القاعدي أو الداعشي هو نموذج الخلافة الراشدة في وجداننا.

في قائمة طويلة من الهموم، كتبت جزءاً يسيراً منها. وهي قائمة من فنون الحديث (التي يأخذ بعضها برقاب بعض)، لا لتمتعنا، ولكن حتى تخنقنا، و(الحديث فيها يجر الحديث)، ليسحبنا على وجهنا غماً وحزناً، و(الحديث فيها ذو شجون) لا حنيناً يسعدنا بذكرياته، ولكن جنوناً يُصدِّع رؤوسنا بواقعاته!

ولكن يختصر الأمر: ما يقوله العامة بسلاسة ودون تعقيد: إذا عُرف السبب بطل العجب!

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

(مَنْ يُرِيدُ نَصرَ البَاطِلِ)

ما أراد أحد نصر الباطل أو نصر الحق بالباطل؛ إلا وخذله الباطل أحوج ما يكون للانتصار.

وأي خذلان أشد من الإسفاف في القول؟! إسفاف يبغِّضُ مناصرته لكل ذي فطرة سوية!!

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

الإسلامُ السِّيَاسِيُّ، أو تَسيِيسُ الدِّينِ

يكون خطأ وخطراً إن أُريد به:

١ـ استغلال الدين استغلالاً باطلاً لتحصيل مكاسب سياسية.

كتكفير أحزاب أو شخصيات سياسية بغير حق، أو تفسيقهم أو تضليلهم ظلماً وبغياً، وكاستخدام الفتاوى في غير محلها، بمثل تحريم ترشيح شخص بحجة دينية لا تسوغ، أو إيجاب ترشيح شخص بحجة شرعية باطلة.

٢ـ أو إن أريد به الرؤية السياسية المبنية على فهم ديني مقطوع ببطلانه: إما بسبب تقرير ديني باطل، أو بسبب جهل بواجب الواقع جهلاً لا يسوغ مثله في علم سياسة الدول.

فلا شك أنه بهذه الصورة سيكون باطلاً، ويستحق التحذير منه.

لكن (الإسلام السياسي) وأحزابه قد يكون المراد بها الناجية من الخللين السابقين، فقد يكون المراد بها:

١ـ مراعاة أحكام الشريعة في سياسة الدولة الداخلية والخارجية، وفق ما يُمكّنه الواقعُ الداخلي والخارجي.

٢ـ قيام أحزاب سياسية (في الدول التي تسمح أنظمتها بوجود أحزاب سياسية) تسعى بالطرق النظامية لصورة أفضل من (مراعاة أحكام الشريعة في سياسة الدولة الداخلية والخارجية، وفق ما يمكنه الواقع الداخلي والخارجي).

فمثل هذا التسييس للدين ليس ممنوعاً، بل قد يكون هو واجب الدولة الإسلامية.

ولهذا التفصيل: يجب الحذر من الهجوم المطلق على (الإسلام السياسي) و(أحزابه)؛ لأنه بإطلاقه قد يُقصد به الحق الواجب تحديداً وحصراً، وبتعميمه قد يشمل الحق الواجب منه.

قد يقول قائل: المقصود بـ(الإسلام السياسي) و(تسييس الدين) هو الصورة الباطلة فقط، ولا تحارب الدول الإسلامية غير تلك الصورة.

فأقول: حتى لو كان هذا صحيحاً، وهو بإطلاقه هذا غير صحيح؛ فإن التفصيل والتوضيح هنا واجب، لسببين:

الأول: حتى يعرف الناس أن الدين لا ينعزل عن السياسة.

والثاني: لكي تتضح أصول محاكمة دعاة الإسلام السياسي ومنظِّريه إلى قاعدة صحيحة: لا ترفض كل صوره، ولا تقبل كل صوره.

* * * * *

صُنَّاعُ الإرهَابِ مُتعَدِّدُونَ في وَظَائِفِهِم

فمن صناع الإرهاب: المنظرون له والمؤسسون لفكره، كأدعياء العلم من رؤوس الطوائف التكفيرية، قديماً وحديثاً.

ودعاة هذا الفكر، ومموله، والمتعاطفون معه. فهؤلاء جميعاً يصنعون الإرهاب، وهؤلاء (في الغالب) هم الذين يوصفون بصناع الإرهاب، وقد يُظن انحصار صناعته فيهم.

ومن صُناع الإرهاب أيضاً: الظلمة والطغاة والمستبدون، الذين يُنشؤون وسطاً نفسياً وفكرياً غير سوي، ويدفعون بطغيانهم وظلمهم إلى الجنون، وليس إلى التطرف فقط. ثم إذا انفجر المظلومون ففجروا وقتلوا، وإذا تحولوا إلى إراهابيين فعلاً، ادعى الظلمة أنهم يحاربون الإرهاب!!

ويصنع الإرهاب أيضاً: من يجيز مواجهة الإرهاب بالإرهاب؛ لأن الظلم لا يجيز إلا الانتصاف، ولا يمكن أن يجيز الظلمُ الظلمَ. وما ذكرته في صنع الظالمين بظلمهم للإرهاب، ليس تجويزاً لمواجهة الإرهاب بالإرهاب، بقدر ما هو بيان واقع، وبيان من يستحق محاسبته بصنع الإرهاب.

فمن يحتج للإرهابيين بظلم الظالمين: فهذا ممن صنع الإرهاب أيضاً.

* * * * *

(هَلْ مُصطَلَحُ الإرهَابِ لا يُمكِنُ ضَبطُه)؟

كلما ذكرت الإرهاب والإرهابيين انزعج بعض الناس:

١ـ إما لأنه هو إرهابي أصلاً.

٢ـ وإما لأن أمريكا والغرب أدخلوا في تعريف الإرهاب مقاومة إرهاب احتلالهم للأوطان (كما في فلسطين والعراق)، فأصبحوا يتحسسون من هذا اللفظ.

٣- وإما لظنهم أنه اصطلاح لا يمكن ضبطه، مستدلين بتباين إطلاقاته!

وهذه الأسباب كلها ليست أسباباً كافية للانزعاج من هذا الإطلاق؛ لأن انزعاج الإرهابي من هذا الوصف هو أقل عقوبة يستحقها وأولها؛ ولأن استغلال هذا المصطلح لدعم الاستعمار

الظالم والاحتلال الغاشم لا يختلف عن استعمالهم العدالة والحضارة والقيم في غير محلها؛ ولأن هذا المصطلح يمكن ضبطه وتعريفه، وليس مطاطاً، كما يتوهم البعض.

فالإرهاب: هو العنف والترويع الذي يخالف العدالة؛ لتحقيق أهداف سياسية أو لنصرة مبدأ عقدي أو منهج فكري، وقد يقوم به فرد أو جماعة أو دولة أو مجموعة دول.

وليس هو الجريمة التي تكون بهدف مرابح شخصية، كاللصوصية وعصابات الإجرام؛ إلا إذا تحولت هذه العصابات إلى عقيدة تقاتل لأجلها، كبعض عصابات المافيا وتجارة المخدرات!

إذن فالإرهابي: هو من يمارس هذا العنف والترويع، وفق التعريف السابق.

فإن قيل: المشكلة تكمن في قيد (العدالة)، فما هي حدودها؛ إذ كل يدعي أنه لم يخالفها: من (الصهاينة) في جانب، إلى (داعش) من الجانب آخر.

والجواب عن هذا السؤال، يبدأ بسؤال آخر: ومتى كان مجرد اختلاف الناس سبباً لادعاء نسبية الحق وخفائه؟! إذن فقولوا مثل ذلك: في الإيمان والكفر، والسنة والبدعة، فالكفار يكفرون المسلمين والمسلمون يكفرونهم، والمبتدعة يبدعون أهل السنة، وأهل السنة يبدعونهم! بل قولوه في الحق نفسه؛ فما زال بعض الناس يخالف فيه!!

هذا التخبط العقلي ناشئ عن عدم التفريق بين اليقينات والظنيات وما يترتب عليها من مراتب الاختلاف المعتبر وغير المعتبر، وهو ما كنت حريصاً على بيانه في كتابي (المحكمات).

إذن فـ(العدالة) كغيرها من الحقائق، منها ما هو منها يقيناً بغير شك، ومنها ما ننسبه إلى العدالة ظناً، ومنها ما ننفيه عنها ظناً، ومنها ما ننفيه عنها يقيناً.

فـ(داعش) و(الصهيونية) تمارسان إرهاباً لا شك فيه، ومن يقاربها أو يدعمها، فهو مثلها في ممارسة الإرهاب.

فأرجو بعد ذلك أن لا يسألني أحدهم عن معنى (الإرهابي)، وأن لا ينزعجوا من هذا الإطلاق؛ فـ(الإرهاب) موجود، ونحن (معشر المسلمين) أكثر من يصطلي بناره، من داخلنا، ومن عدو يأتينا من الخارج!!

وشيء هذا هو وجوده وأثره البالغ علينا، يجب أن نكون نحن أحرص الناس على بيانه وترسيخ معناه الصحيح، لا الهروب من لفظه، لندع معناه يدمرنا كل حين وفي كل مكان، فهذا الهروب من لفظه هو أول وأشنع الهزائم أمامه.

* * * * *

(الذِي يَطلُبُ الغَلَـبَةَ في مَسَائِلِ العِلمِ بِالسُّلْطَة)

العلم لا ينتصر بغير الدليل، ولذلك كان انتصار العالم بغير الدليل يدل على أنه دعيٌّ في العلم وعلى العلماء. ولا أدري! هل يشعر بلذة الانتصار من يطلب الغلبة في مسائل العلم بالسلطة والجاه والقوة؟!

لأن غلبته وقتها غلبة مغشوشة، كمن يدخل سباقاً في العدو على الأقدام، فيركب سيارة، ليصل بها إلى نقطة النهاية!! فمثل هذا لم يدخل السباق أصلاً، لكي يشعر بلذة الفوز!!

وكذلك من يدعي العلم، ثم ينتصر بالسلطات والمال في مسائل العلم، فهو انتصر في قربه من السلطة وتقريبها له، وفي ماله؛ لكنه لم ينتصر في سباق العلم؛ لأنه لم يدخله أصلاً!!

لا بد أنه يشعر بلذة الغلبة، لكنها غلبة الباطل والغش.

ولا بد أن يشعر بذل الهزيمة وألم الانكسار في الآن نفسه؛ لأن نفسه افتضحت عند نفسه بعجزها وجهلها!!

* * * * *

(لا يَصِحُّ السُّكُوتُ عَمَّنْ يُشَوِّهُ صُورَةَ الإسلام)

لا يصح أن يُسكت عن كل ملتح يظهر في القنوات الفضائية، ليشوه صورة الإسلام باسم الإسلام، ولا أن تُترك القنوات لتختار كل من هب ودب ليتكلم باسم الشريعة، لتختار لذلك من يحقق لها مآربها في الإساءة للدين.

وأتمنى أن توضع قوانين تضبط هذا الأمر، تضع شروطاً لمن يُسمح له بالظهور في الإعلام، تكون شروطاً موضوعية مهنية، ليست طائفية ولا إقصائية.

كما أتمنى نشوء هيئات مجتمع مدني تتابع هذا الأمر، وتتخذ حياله الإجراءات المتاحة، من رفع دعاوى قضائية، إلى إصدار بيانات، إلى مناصحة.

فالأمر تجاوز الإساءة إلى الأحزاب السياسية ذات المرجعية الدينية، إلى الإساءة إلى الإسلام والتنفير منه!

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

(أَكْثَرُ الخَائِضِينَ فِي التَّكْفِيرِ يُحَرِّكُهُم: التَّعَصُّبُ واتِّبَاعُ الهَوَى)

منذ نحو تسعمائة سنة، يقول الإمام أبو حامد الغزالي رحمه الله عن التكفير: (اعلم أن للفرق في هذا مبالغات وتعصبات، فربما انتهى بعض الطوائف إلى تكفير كل فرقة سوى الفرقة التي يعتزي إليها... (إلى أن قال:) فإن أكثر الخائضين في هذا إنما يحركهم التعصب واتباع الهوى، دون التصلب للدين).

فإن كان أكثر الخائضين في التكفير كذلك، وإذا شكا الإمام الغزالي من صعوبة الخوض في هذه المسائل بسبب كثرة تلك الأخطاء، وهو يتكلم عن المصنفين في العقائد، ولم يكن في زمنه صحافيون ولا إعلاميون، ولا مواقع ومنتديات في الانترنت يكتب فيها كل من أحسن الكتابة، ولا كان هناك فضائيات تخرج لنا جهالاً باسم الدعاة والوعاظ والعلماء!! وإنما كان يتحدث عن أخطاء أرباب القلم وأهل التصنيف من الموسومين بالعلم في تلك الأزمان.

فإذا كان ما سبق الغزالي من الجهل الداعي لمثل هذه الأخطاء هو أمر لا يكاد يُذكر أمام قرون أعقبته، فقد حوت القرون بعده جهلاً أشد وانتشاراً له أكبر، وكان من ضمن هذه القرون التي جاءت بعد الإمام الغزالي عصور الظلمات في تاريخنا الإسلامي (القرن العاشر فما بعده إلى بداية النهضة الحديثة).

وإذا كان ما حدث بعد الإمام الغزالي من الخوض في هذا الباب بالتعصب والهوى أضعاف ما أدركه الغزالي منذ نحو تسعمائة سنة!!

فكم سيبلغ ركام الخطايا في باب التكفير؟!

وكم سيكون صعباً جداً تخليص الحق والصواب من ظلمات هذا الجهل والتعصب والهوى الذي تراكم على مر هذه القرون المتطاولة؟!

فلا تستغربوا إن أكثرت (أنا أو غيري) من إنكار أخطاء العلماء والموسومين بالعلم في باب التكفير!

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

(أَتَرغَبُ عَنْ قَولِ عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عنه)؟

في مسألة في الفرائض (المواريث) اختلف فيها الإمام أبو حنيفة والإمام مالك، وكان قول الإمام مالك متأيداً باجتهاد لعمر بن الخطاب رضي الله عنه!

في حين أن قول الإمام أبي حنيفة متأيد بقول لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه!

فلما عرض الإمام محمد بن الحسن الشيباني لهذا الاختلاف، في كتابه (الحجة على أهل المدينة)، قال: (قالوا: أترغب عن قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه؟!

قيل لهم: لا ينبغي لأحد أن يرغب عن قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ولكن وجدنا قول علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فإنه فيها من الراسخين في العلم). الحجة (٤/ ١٩٨-١٩٩).

فيه فوائد:

١ـ مكانة اجتهاد الخلفاء الراشدين في فقه الأئمة.

٢ـ أن اختلاف الخلفاء الراشدين لا يكون الترجيح فيه بالأفضلية، وإلا لكان قول عمر وضي الله عنه أرجح عند محمد بن الحسن. وإنما يكون الترجيح لقول المفضول بالدليل (ما دام الدليل مدرَكاً)،

٣ـ أدب العبارة لديهم، حتى عندما يخالفون اجتهادا لأحدهم! فمحمد بن الحسن يُسأل فيما خالف فيه عمر رضي الله عنه لقول علي رضي الله عنه: أترغب عن قول عمر؟! فلو كان من غلمان هذا الزمان، لقال نعم، أرغب عن قوله؛ لمخالفته الدليل ولمخالفته قول علي)، وهذا هو واقع اختيار محمد بن الحسن فعلاً. لكن هؤلاء الأئمة نتعلم منهم الأدب قبل العلم، فقد عبر عن هذا المعنى بألطف أسلوب وأكثره أدباً، وهو أسلوب لا يوفق إليه إلا من كان معظماً لعمر بن الخطاب ولعلي كليهما (رضي الله عنهما) أكبر التعظيم.

فراجعوا عبارته لتعلموا مقدار ما فيها من الحب والتعظيم لمقام الفاروق رضي الله عنه، حتى مع مخالفته، وحتى مع استفزاز الخصم بما يشبه الاتهام بنقص تعظيمه!!

٤ـ يتهمون فقه أهل السنة بأنه فقه أموي!! وهي فرية كبيرة، ولست في مجال الرد على هذا الهراء.

لكن هذا الموطن دليل كاف لنقض فريتهم، فها هو فقه محمد بن الحسن (شيخ الحنفية وناشر مذهب الإمام وتلميذه) ينصر صراحة ويرجح فقه علي رضي الله عنه على فقه عمر رضي الله عنه.

فهل سيصبح فقه أهل السنة علوياً، بعد إذ كان أموياً؟!

* * * * *

(الذي أقَامَ تخصُّصَهُ على العداوة يَصعُبُ عليه التَّراجع)

لن يكون توقعي متفائلاً ممن أقام تخصصه وعلمه على عداوة فكر إسلامي معين أو على خصومة لأتباع معتقدات محددة أن يتراجع أن عداوته وخصومته؛ لأنني إذا طالبته بذلك فإني أطالبه بدرجة كمال لا يبلغها عامة البشر، إذ إني بمطالبته بالتراجع عن ذلك فإني أطالبه بالتنازل عن علمه وتخصصه!!

فمثل هذا لن يتراجع، ولن يدع التمسك بالشبه التي يظنها أدلها، أو لا يراها إلا أنها أدلة، ولا ينظر إلى براهين خطأ تصوره إلا على أنها شبه باطلة، لا تصدر إلا من جاهل أو صاحب هوى!!

وهذه صورة من صور الاستكبار الخفي والعناد المستتر، ولا ينجو منها إلا كُمَّل الناس!

ولا سبيل له للخروج من دوامة الاستكبار إلا بأن يوطن نفسه توطيناً حقيقياً للتخلي عن كل مكتسباته الدنيوية، وأن يحب الحق أكثر من نفسه وولده والناس أجمعين.

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

(بعضُهُم مشروعُ عَالِـمٍ، إلا أنه تنقصه أخلاقُ العِلْم)

بعض الناس في ذكائه وسعة اطلاعه مشروع عالم في المستقبل، إلا أنه تنقصه أخلاق العلم وطباع الصواب وشيمة الحق؛ فيفشل مشروعه!!

ينقصه (الصدق)، فتجده يرتفع فوق منزلته العلمية، ويتزبب قبل أن يتحصرم، فلا صار عالماً، ولا بقي متعلماً، ففسد أفسد.

وتنقصه طباع الصواب: وهي (الاجتهاد والمثابرة عليه والصبر فيه). فهو لا يعلم أن الاجتهاد في التنزه من الخطأ، لا يكون بالتعالي عن الاعتراف به.

فخُلُق الصواب هو الاجتهاد في التنزه من الخطأ دون اعتقاد العصمة، بل مع اعتقاد النقص والحاجة الماسة لمعرفة الصواب.

فتجد هذا الذي قد فقد أخلاق الصواب يكابر الاعتراف بالخطأ، ويتعالى عن الخضوع للصواب (إذا جاء من غيره)، ويستمر في ذلك، حتى يستيقظ يوماً، فإذا به قد أصبح محامي الباطل ولسان الغلط والناطق الرسمي باسم الأخطاء.

وتنقصه شيمة الحق، وهي: المروءة، فلا يستحي من محاولة الصعود والتصدر ولو على أكتاف غيره، ولا يهمه في سبيل الصعود والتصدر ماذا يقول وماذا يفعل. فما يزال كذلك حتى

تدنو همته وتسفل عزيمته؛ فلا همة ولا عزيمة لمن لا مروءة له، فيترك الطلب، ويبقى يجترُّ من حوصلة طلبه، ويقتات من سنام معلوماته، حتى لا يبقى لديه ما يجترُّه ويضمر شحم سنامه!

فلا صعد؛ إلا كما صعد سقط. ولا تصدر؛ إلا كما تصدر، طردوه في الأطراف، حيث مهوى الأقدام ومخلع الأخفاف!

* * * * *

مِنْ لَطَائِفِ التَّكفِيرِيين: حتى هم لهم لطائف

أنهم لما نصفهم بأنهم خوارج، لاستباحتهم دماء المسلمين، يردون علينا بزيادة في قائمة المستباحة دماؤهم!!

فيقولون: الخوارج كما جاء في وصفهم (يقتلون أهل الإسلام، ويدعون أهل الأوثان)، ونحن نقتل اليهود والنصارى!!

ويظنون أنهم بذلك لا يكونون خوارج! ولا ينطبق عليهم الوصف النبوي!!

بل هم أسوأ، فالخوارج الأولون: كانوا يقتلون المسلمين ولا يقتلون أهل الذمة والمعاهدين والمستأمنين، وأما هؤلاء فيقتلون الجميع!!

* * * * *

(التَّيسِيرُ فِي الفَتوَى)

صح أن امرأة أعجمية حجت، وقضت مناسكها كلها، غير أنها لم تُهل بشيء (أي لم تحدد نسكها من تمتع وقران وإفراد)، فقال عطاء بن أبي رباح: لا يجزئها.

وقال طاوس: يجزئها، ثم قال طاوس: قال رسول الله صلَّى اللهُ عَلَيه وسَلَّم: (يسروا ولا تعسروا).

هذه الفتوى من قديم فتاوى التيسير في الحج وسلفيها، إذ تجعل التيسير منطلقها في الترجيح!

وأعجبني فيها أن استدلال هذا التابعي الجليل (طاوس) بالحديث، والذي يشبه استدلال بعض المُتَّهَمين بتمييع الأحكام والتساهل في الإفتاء، من جهة اعتبار التيسير مرجِّحاً، والتشديد قرينة على مخالفة الصواب.

* * * * *

(كَثْرَةُ المُنقَلِبِين ضِد المُصلِحِين)

أحد ما سوف يعتاده المصلحون الخارجون عن المألوف: كثرة المنقلبين ضدهم، ممن كان يغلو في إظهار الإعجاب والحب!

فبعضهم يعجبه إذا ما وافقه الخارجون عن المألوف فيما كان هو يتمنى فيه الخروج عن المألوف، لكنه كان عاجزاً عن الرد فيه والإقناع، فيجد غيره قد رد واحتج لذلك، فيغلو في حب هذا الذي خرج به عن ذلك المألوف المبغوض إليه.

حتى إذا ما خرج به عن المألوف المحبوب إليه (المنتفع به أو المقتنع به)، انقلب حبه بغضاً، وغلوه غلواً في الكره.

وصنف آخر من هؤلاء من محبي الخارجين عن المألوف: تجد أحدهم يبدأ بأن يعلن عن إعجابه بذلك الخارج عن المألوف، وينسى أن الخارجين عن المألوف هم أكثر الناس أعداء، وأن أعداءهم من أصلب الأعداء، فيفاجأ بأن كثيرا من الناس قد عادوه؛ لأنه من أتباع فلان ومن محبيه، فيصبر أولاً، ثم يعجز عن التحمل، فيبتدئ بالتبرؤ النسبي، فيقول: أحب فلاناً مع أني أخالفه في أشياء (وكأن هناك من يوافَق في كل شيء بعد رسول الله صلَّى اللهُ عَلَيه وسَلَّم!).

ثم يلحظ أن الناس لا يقبلون منه إلا التبرؤ الكامل، فيعجز مرة أخرى عن تحمل ذلك، فيعلن البراءة الصريحة، ليبيع ضميره وقناعته في المزاد للجماهير!! ثم لا يقبل الناس منه ذلك؛ لأن (لعنة) محبته لذلك المخالف لهم ما زالت تلاحقه، فيغلو في إعلان البغض والذم والسب والإقذاع، لكي يرتاح من ملاحقة خطيئة ذلك الحب وتلك القناعة!!

كل هؤلاء وهؤلاء أصبحوا جزءاً من طبيعة الإصلاح، ومن خَـبَـرَ هذه الطبيعةَ لم يستوحش منها، بل ستكون جزءاً من لذة نضالها!!

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

(الفِكْرُ الدَّرَاوِيشي)

دائماً ما يشق الفكر الدراويشي طريقه بين الألغام! لكن لا يشقه فينجو، بل يشقه منتحراً: متحولاً لأشلاء، أو يشقه: ليخرج مبتور الرجل مفقوء العين، ليخرج منه أضعف منه حين دخل فيه.

فكثيراً ما نسمع عبارات التبشير بالفجر الجديد عند اشتداد المحن، واسوداد الظلام، وأن الفجر لا يبزغ إلا عند حلوك الظلمة!

وطبعاً تخدرنا هذه التباشير، كما يغتر الجاهل بتباشير الفجر الكاذب؛ لتكون سبباً في زيادة الضعف وزيادة الهبوط.

يجب أن نعلم أن مجرد اشتداد البلاء ومجرد احلولاك الظلام، ليس هو الذي سوف يكشف البلاء، ولا هو الذي سوف يسطع بنور الحق، فما من بلاء إلا وفوقه بلاء، ولا من ظلام إلا وهناك ما هو أشد منه ظلمة.

وهذا ما جربناه في عالمنا الإسلامي، فكل مرة نظن أننا وصلنا نهاية الضعف وحضيض الهوان، فإذا بنا نهوي في هوة أعمق من الذل والضعف؛ لأننا كنا كل مرة نكتفي بأن نتغنى: بأن الفجر قادم عند اشتداد الظلام!!

إن الفجر لن يأتي إلا إذا أردنا نحن أن نراه، ولن نراه إلا إذا خططنا الخطط التي تبلغناه، وصبرنا على تنفيذ خططه.

إن فجر النصر ليس ساعة فلكية، تسير وفق حساب لا يتغير أبداً. ففجر النصر يسير حسب سنن كونية، تسير وفق سنن لا تتغير أبداً.

فمن أراد لفجر النصر أن يسطع، لن يجده في شدة البلاء ولا في اسوداد ظلمة الظلم والقهر، بل سيجده إذا صقلت الشدة عزائمنا لكي نخطط ونصبر على الخطط، وإذا ولَّدت الحاجة فينا الاختراع وجعلتنا أمة الإبداع!!

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

(مَعَالِـمُ الفِكْرِ الدَّرَاوِيشي)

سأل أحدهم عن معالم (الفكر الدراويشي) الذي ذكرته قريباً في خاطرة سابقة؟

فقلت: من أهمها:

١ـ السطحية والظاهرية في فهم النصوص الشرعية، وفي فهم كلام الأئمة، وفي دراسة العلوم الإسلامية، فضلاً عن غيرها.

٢ـ عدم الاهتمام باتخاذ الأسباب، والاعتماد على تباشير بالنجح والنصر، مأخوذة من فهمهم السطحي للنصوص.

وهذا جعلهم مشهوربن بشعار معارضة السنن الكونية، بحجة الثقة بالله وبنصره، وانتظار موعوده تعالى الذي نسبوه إليه سبحانه.

٣ـ عدم الإفادة من الأخطاء، وكثرة تكرارها دون أي اعتبار؛ لأنهم لا يعترفون بالخطأ.

٤ـ العزلة الذهنية عن الواقع، فهم حتى لو نظروا في الواقع، حتى لو درسوه، لا ينظرون إليه إلا من خلال نظارة ثلاثية الأبعاد: المعارك الدينية، والمعارك العقدية (الطائفية)، ومعارك التاريخ القديم!

فتراهم ينظرون للواقع، وهم يعيشونه في الماضي!

٥ـ بغض نعيم الدنيا، باسم الزهد، والتأصيل لخراب الدنيا باسم عمارة الآخرة، وتزيين الانتحار باسم الشهادة في سبيل الله.

فهم يلعنون الدنيا، بحجة أن الدنيا ملعونة، في الوقت الذي يحمدون الله تعالى على نعمه عليهم منها!! فاستطاعوا الجمع بين المتناقضات: لعن النعمة، وحمد الله تعالى شكراً على ملاعنه فيهم!!

فأي دروشة فوق هذا؟!

٦ـ الاستهانة بالعلوم الكونية وبالحضارة المادية، والحنين لا إلى أمجاد الماضي (فكلنا يحن إليها) ولكن إلى الماضي بكل ما فيه، حتى بتخلفه التقني وتخلف علومه البشرية الكونية.

إنه فكر متعدد المواهب، لكنها لا تخرج عن مواهب الدراويش!!

* * * * *

(كَلِمَةُ حَقٍّ يُرَادُ بِهَا بَاطِل)

كثيراً ما نسمع عبارة حق يراد بها باطل، من يوم أن قال الخوارج لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه: (لا حكم إلا لله)، يعترضون بها على أفقه الصحابة في زمنه، بل على فقهاء الصحابة جميعهم!

وبنفس الشعار، وبالمضمون نفسه تقريباً، كثيراً ما نسمع ممن يعادون التنظيمات الإسلامية، وممن يستغلون أخطاء كثير منها، يقولون في خصومتهم معها: ليس في الإسلام متحدث باسم الله.

وقد صدقوا: فليس في الإسلام متحدث باسم الله (بعد انقطاع الوحي)، لكن يوجد علماء بالله تعالى وبأمره، فهم لعلمهم بالله أولى من عرَّف الناس بربهم، وهم من فقه عن الله أمره وفهم شريعته، وهم وحدهم من يحق له الاجتهاد في استنباط خفي أحكامها، وتحرير مرادات الله تعالى في كلامه، وأولى من حقق مقاصد شريعته في عباده.

* * * * *

(الجَهلُ بِعُلُومِ الأُمَّةِ الإسلاميَّة)

عندما أقرأ هجوماً على أحد علومنا الإسلامية، أتألم غاية الألم، لا على علومنا، فهي حصون شامخة، لا يخدش أسوارها الحصينة حفنة رمل يقدفها صبيان عابثون!

ولكن على عقوق بعض أبناء الأمة بعلوم أمتهم، حتى جهلوها، ثم ضموا إلى الجهل بها انعدام أخلاق، بالتطاول عليها، فهم في قبح الأخلاق كصبي سفيه، ثم هو يريد أن يعبث ساخراً بلحية شيخ جليل أو يسحب عمامته ليقذفها تحت الأقدام!!

هل يحتمل هذا المنظر كريم الأخلاق؟! فهذا ما نراه ونسمعه صباح مساء!!

والذي يزيد من ألمنا: ليس أنهم يجدون أنصاراً من السفهاء، فما زال السفهاء يجتمعون ضد المكارم وأهلها! ولكن أنهم ربما غرروا بأغرار الجهلة وعوام المسلمين، بعد أن أصبح لكل أحد الحق في أن يكون له منبر إعلامي، ولو كان سيصبح منبر جهل مركب واغترار قاتل!!

* * * * *

مَا هِيَ الطَّائِفِيَّة

الطائفية: هي الاعتداء على الغير أو ظلمه بأي وجه من وجوه الظلم بسبب الاختلاف الديني أو المذهبي (أي بسبب انتمائه إلى طائفة من الناس، تخالفك في أصل الدين أو في بعض معتقدات الدين، دون أن تخرج منه).

فليست الطائفية: هي الاعتراف بالاختلاف: بين مسلم وكافر، وبين سُـنّي وبِدْعِي (مخالِف)؛ إلا إذا أصبح الاعترافُ بالاختلاف سبباً للاعتداء على المختلِف أو ظلمه بسلبه شيئاً من حقوقه الإسلامية (سلباً مطلقاً) إذا كان مسلماً، أو بسلبه شيئاً من حقوقه الإنسانية (سلباً مطلقاً) إذا لم يكن مسلماً، فبالاعتداء والظلم يصبح هذا الاختلاف طائفيةً مقيتة.

وليس من الطائفية أيضاً: ردع المعتدي بسبب طائفيته، ولا الانتصاف منه، بمنعه من ظلمه أولاً، وبمحاكمته على جرائمه ثانياً.

لكن يجب أن نتنبه إلى أن الانتصاف أيضاً ليس هو مواجهة الطائفية بالطائفية، بالدعوة للانتقام بناء على الطائفة، وليس هو مواجهة الطائفية بالطائفية، كما لم يكن الانتصاف قط هو مواجهة الظلم بالظلم، ولا كان العدل أبداً هو مقابلة الجهل بالجهل.

* * * * *

أبرزُ العَوَامِلِ المُثِيرةِ للطائفيَّة

أولها: الجهل الديني، فالدين أبرأ شيء من الطائفية وظلمها براءته من الظلم ذاته!

ولا أقصد بـ(الجهل) الجهل البسيطَ فقط، الذي يكون علاجه غالباً بالتعليم البسيط (وهو الإيقاف على المعلومة الغائبة). وإنما أقصد بـ(الجهل) أيضاً الجهلَ المركَّب، وهو التأوُّل في مخالفة الحق (كما يعبر أئمتنا السابقون).

وإنما حرصت على التذكير بالجهل المركب، لكي يدخل في صور الجهل المقصود التكفيرُ بغير حق، فالتكفير بغير حق من أوضح عوامل الطائفية؛ إذ سَلْبُ المسلم أخوته الإسلامية من أشد أسباب التأزم الطائفي ولا شك؛ لأنه من أشد أنواع الظلم. والتكفير بغير حق شائع بين المسلمين، وبين بعض دعاتهم وبعض قياداتهم الدينية، بسبب ركام الأخطاء التراثية في التكفير، المخالفة لأدلة الكتاب والسنة، وإن استُدِلَّ عليها (خطأً) بأدلة الكتاب والسنة! فهذا هو التأوُّل والجهل المركب: أن تظن الشُّبَـهَ أدلةً، وأن تظن نفسك على الحق وأنت على الباطل.

ومن صور الجهل المركب: تقريرات خاطئة عن التعامل مع المخالف (المبتدع المسلم)، تحرمه حرماناً مطلقاً أو شبه مطلق كثيراً من حقوقه الإسلامية، مما له عظيم الأثر في التناحر والتنازع والتظالم. وهذا ما كتبت عنه كتابي (التعامل مع المبتدع: بين رَدِّ بدعته ومراعاة حقوق إسلامه)، تصحيحاً مني للتقريرات المنسوبة خطأً للسنة من كثير من أهل السنة!

ولا أقصد بذكر هاتين الصورتين من صور الجهل المركب أن أحصر فيهما صور الجهل المغذي للطائفية، فهي صور عديدة، وإنما أردت به بيان مقصودي منه؛ ولكي لا نظن أننا نتحدث

عن جهل عوام المسلمين، لأننا في الحقيقة نتحدث (أكثر ما نتحدث) عن جهل كثير من المتحدثين باسم الدين، وممن يُظن بهم العلم بالدين عند عموم المسلمين، فهم قيادات دينية، تؤجج الطائفية أقوى تأجيج، بسبب هذا الجهل المركب!

العامل الثاني: الصراعات السياسية، والتي قد تستغل الطائفية الكامنة في التعصب الديني لدى بعض القيادات الدينية، لتحقيق أهدافها السياسية.

العامل الثالث: غياب البُعد الأخلاقي والإنساني الذي يستبيح الاعتداء والظلم لمجرد الاختلاف، والذي لا يعرف معنى للتعايشِ رغم الاختلاف القدري الذي لا مناص منه: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ. إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ هود: ١١٨ـ١١٩.

العامل الرابع: ضعف الإيمان: الذي يجعل صاحبه غير راضٍ عن عدالة الله تعالى مع المخالف، فهو يود تصفية المخالف جسدياً، بغض النظر عن حكم الشرع فيه. فبحجة الغيرة الدينية، يتجاوز الحدود الدينية! وبحجة حب آل البيت رضي الله عنهم أو بحجة حب أمهات المؤمنين والصحابة رضي الله عنهم يُعتدى على الآخر بشتى أنواع الظلم.

* * * * *

أبرزُ الأثارِ العَمَليَّةِ النَّاتِجةِ عَنِ الطَّائفيَّة

للطائفية آثار مدمرة على الأمة الإسلامية: فهي ظلم، والظلم مرتعه وخيم.

ـ فهي سبب لاختلال الأمن، فتستباح حرمات الدماء والأعراض والممتلكات.

ـ وللاحتقان الطائفي بين أبناء الوطن الواحد.

ـ وما يجره ذلك من اعتداءات، لا تنتهي إلا بحرب أهلية؛ إن لم يتداركها العقلاء.

ـ والحروب الإقليمية بين الدول المتجاورة.

ـ وما يستتبع ذلك من ضعف اقتصادي وعسكري، يجرئ الخصوم الخارجيين علينا.

ـ وما قد ينتج عنه من تقسيم الوطن الواحد على أساس طائفي.

ـ هي أفضل هدية للعدو المشترك (كالصهيونية)، فما هو الأفضل من أن نلتهي ببعضنا، ليخلو له الجو في تحقيق مزيد من الأطماع.

* * * * *

دَوْرُ السِّيَاسَةِ في إثارةِ الطَّائِفِيَّة، وكيفَ يُمكِنُ الفَصل بَينَ ما هو سِيَاسي وما هو مذهبي، ومنع تداخلهما؟

السياسة الخاطئة قد ترى في الطائفية سبيلاً لتحقيق أهدافها، والتي قد تكون أهدافاً غير مشروعة، وقد تكون أهدافاً مشروعة، لكن تحقيقها باستغلال الطائفية يجعلها غير مشروعة.

وقد اتفق الدين والفلسفات البشرية الأخلاقية على عقيدة واحدة في هذا الجانب: وهي أن الظلم لا يُدفع بالظلم، وأنه لا يُدفع الظلمُ إلا بالعدل. والطائفية ظلم (كما سبق)، فلا يمكن أن تحقق نصراً حقيقياً، وإن حققت مكاسب مؤقتة يتوهمها الطائفيون مكاسب دائمة.

فالسياسي الذي يغتر بانتصارٍ بناه على الظلم، لن يدوم له انتصاره، وسيعود عليه كيده بالهزيمة الماحقة. فهذا ما يؤمن به المؤمنون حقاً، ويؤمن به الأخلاقيون صدقاً، وتقطع به حوادث التاريخ الكثيرة، التي تبين أن السموات والأرض قامتا على الحق والعدل، وأن الباطل زاهق!

فهذا خطاب للسياسيين: أن لا يُبطلوا هدفهم المشروع (إذا كان مشروعاً)، وأن لا يُفسدوا شرف المطالبة بالعدالة: بوسيلة ظالمة، هي الطائفية.

وهو خطاب للعامة: أن لا ينجروا وراء الدعوات الطائفية، ولو تولى كبرها قادة دينيون، أو قادة سياسيون، وأن يفصلوا بين نُصرة من بُغي عليه بغياً طائفياً، وبين أن يتبنّوا هم النهج الطائفي في الانتصار له. فمثلاً: لا يصح أن يوصم السنة كلهم بأنهم إرهابيون؛ لأنه وجدت فيهم جماعات إرهابية تكفيرية.

ولا يصح أن يوصم الشيعة كلهم بأنهم إرهابيون وطائفيون؛ لأنه وجد فيهم من لا تحركه إلا الطائفية، ولا يرفع إلا الشعارات الطائفية: من (ثارات الحسين) إلى الشعارات الطائفية

المعاصرة. إنما يؤاخذ المجرم بجرمه، ولا يُعمَّم الحكم بالتجريم، ولا تُعمم العقوبة، فلا يؤاخذ البريء بجرم المجرم، لمجرد أنه من طائفته؛ إذ لا تزر وازرة وزر أخرى.

أما كيف يُفرَّق بين ما هو سياسي وما هو طائفي؟ فالتفريق يبدأ من معرفة ما هو طائفي، فإذا عرفنا ما هو طائفي، عرفنا ما هو سياسي. وقد عرَّفتُ الطائفية، فإذا وجدنا السياسي يستغل الظلم الطائفي لتحقيق أهداف سياسية، فهذا سيكون استغلالاً مسيئاً، لا يرضى العاقل أن يكون جزءاً من وقود فتنته.

وأما إذا كان السياسي يدعو إلى دفاع عن حق بحق، ويطالب بنصرة المظلوم من غير إثارة نعرة طائفية، فهذا واجب ديني وأخلاقي ووطني، لا يجوز التردد في دعمه بكل قوة ممكنة، ما دام وسيلته للنصرة وسيلةً مشروعة، وما دامت وسيلةً تحقق نصرة المظلوم أيضاً، وليست وسيلةً فاشلة ولا تؤدي إلى الانتصار.

* * * * *

أَهَمُّ وَسَائِلِ تَعزِيزِ المَنَاعَةِ ضِد الطَّائفيَّة في المجتمَعاتِ الإسلاميَّة؟

ـ إشاعة روح التسامح مع المخالفين، بوضع تصوراته الصحيحة، وحدوده الدقيقة، والتي لا تقبل بالذوبان في المخالِف، ولا تتعصَّب ضدَّه. ولا تخلط بين ردِّ الاختلاف وبيان غلطه وبين معاملة صاحب الاختلاف.

ـ منع فتاوى التكفير الخاطئ، (وهي عقبة كبيرة؛ لأن تحديد التكفير الخاطئ من غيره أصبح في ظل الجهل المركب سياسة تعليمية، وليس مجرد أخطاء فردية).

ـ تقرير مبادئ التعايش على معاني الأخوة الإسلامية، أو معاني المواطنة والقيم الإنسانية المشتركة.

ـ تجريم الطائفية ومعاقبة دعاتها، وعدم التسامح مع أعداء التسامح، بتطبيق العدالة فيهم. وأن لا نتغاضى عنهم، ولو كنا نواجه اعتداءً طائفياً من غيرنا. فالطائفية لا تواجه بالطائفية، وإنما تواجه بقوة العدل وبانتصار الحق.

* * * * *

صَفحَةٌ نَاصِعَةٌ مِنَ التُّرَاثِ، فِي مُقَاوَمَةِ الطَّائفيَّة:

جاء في كتاب الأصل لمحمد بن الحسن الشيباني (ت ١٨٩هـ): (قال أبو حنيفة: شهادة أصحاب الأهواء جائزة؛ إذا كانوا غير متهمين في الشهادة.

وكذلك قال أبو يوسف ومحمد.

وقال أبو يوسف ومحمد: إنما الأهواء فُتيا أفتى بها رجل، فلا ينبغي أن تبطل شهادته إن أخطأ في فتياه.

إنما عظم قوم الذنوب، حتى جعلوها كفراً؛ فأخطأوا، وهذا منهم فتيا، فلا تبطل شهادتهم بذلك.

وشك قوم في الدين، فقالوا: لا نقر بأنا مؤمنين، فلا تبطل شهادتهم، لضعف رأيهم هذا.

ألا ترى أن أعظم الذنوب بعد الكفر: القتل، ثم دماء أصحاب محمد صلَّى اللهُ عَلَيه وسَلَّم أعظم الدماء، فقد قتل بعضهم بعضاً! أرأيت لو شهدت عائشة عند علي بن أبي طالب، أو شهد عنده سعد بن أبي وقاص وعبدالله بن عمر وقد تخلفوا عنه، أما كان يجيز شهادتهم؟! فأي اختلاف أعظم مما كان بين هؤلاء؟!

وقال أبو يوسف: سمعت ابن أبي ليلى يقول: شهادة أهل الأهواء جائزة؛ إنما دخلوا في الأهواء لشدة المبالغة في الدين. إلا الخطابية، وهم صنف من الرافضة، فإنه بلغني أن بعضهم يصدق بعضاً بما يدعي، ويشهد له).

ومعنى قوله: شكوا في الدين: أي رفضوا القطع لأنفسهم بوصف الإيمان، على معنى أن الإيمان مرتبة فوق الإسلام.

تخيلوا لو قلت لكم: إنما ابتدع المبتدعة من زيادة حرصهم ومبالغتهم في جانب من جوانب التدين؟! هل كانت ستمر دون اتهام بتمييع الدين؟! لقد قالها من هم أغير على الدين منا.. قالها الأئمة!!

تخيلوا لو قلت لكم: إنما البدع اجتهاد في معرفة الحق، لا تقدح في العدالة! هل كنتم ستقبلونها؟! قالها الأئمة من قبل.

تخيلوا لو قلت لكم: إنما كفر الخوارج بالذنوب من شدة تحرجهم منها! فاقبلوا شهادتهم؟! قالها الأئمة من قبل.

أعيدوا قراءة هذا الفصل بهدوء وتمعن (وليس هو الوحيد ولا هو بغريب في تراثنا)، إني واثق أنه سيرفع ضغط بعضكم، وسيخفض ضغط آخرين!! ولنا في الطائفتين عبرة: فالأولى: يظنون أنفسهم أعلم وأغير من أئمتنا، والآخرون يجدون فيهم قدوة وأسوة حسنة.

ما أعظم اعتدال أئمتنا! وما أبعدهم عن الكلام العاطفي غير المنضبط بالعلم والعدل!!

* * * * *

مِنَ السَّهلِ أنْ أخطبَ ودَّ الجَمَاهِيرِ:

فإذا كانوا غاضبين: أن أصرخ معهم، وإذا كانوا متحمسين أن أدفعهم، وإذا كانوا يحبون أن يقال لهم شيء أن أسمعهم إياه، وإذا أحبوا شيئاً مدحته، وإذا كرهوه هجوته!

لكني سأكون متبعاً لأهوائهم، خائناً لواجب نصحهم.

* * * * *

مِنْ ثِمَارِهِم تَعرِفُونَهُم

عندما يصبح قتل الناس وتعذيبهم رجالاً ونساء وأطفالاً منهجاً متبعاً؛ فأنت أمام طاغية متجبر.

عندما يفتخر داعية أو لابس لباس الدين بقتل شخص لمجرد اختلاف المعتقد الطائفي أو الديني؛ فهو طائفي إرهابي.

عندما تجد شخصاً ينتقد خطاب الرئيس مرسي لأنه ختمه بآية تقول في آخرها: ﴿وَانْصُرْنَا عَلَى القَوْمِ الكَافِرِينَ﴾ البقرة: ٢٥٠؛ فاعلم أنه من متطرفي العلمانية أو من غلاة الطائفيين الأقباط!!

* * * * *

(العِلْمُ هُوَ الطَّرِيقُ إلى الحَلِّ)

واقع المسلمين في عموم العالم الإسلامي يجعلنا في انشغالنا بالعلم نستشعر تأنيب الضمير وألم الهروب من المعركة!

ولولا أننا متيقنون بأن العلم جزء مهم من الحل، إن لم يكن الجزء الأهم، كما كان الجهل جزءاً كبيراً من المشكلة؛ لخوَّنا أنفسنا، ولاتهمناها بإحدى الموبقات: التولي يوم الزحف.

فبالجهل: كفر بعض المسلمين بعضاً، واستباحوا دماءهم وأعراضهم.

وبالجهل: شددوا على المسلمين فنفروهم، أو ميعوا الدين فتفلتوا من هدايته.

وبالجهل: ظلموا وبغوا، باسم الدين.

وبالجهل: تعجلوا الحلول قبل أوانها، فعوقبوا بحرمانها.

وبالجهل: تواكلوا وتركوا اتخاذ الأسباب، بالفهم الخاطئ لقوله تعالى: ﴿إِنْ تَنْصُرُوا اللهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ محمد: ٧، ﴿وَكَانَ حَقاً عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ الروم: ٤٧.

* * * * *

(عَدَمُ فَهمِهِ لَيسَ نَقصاً فِي ذَلِكَ العِلم)!

التمرد على العلم باسم الحرية الفكرية جريمة، ومن يمارسها مجرم، ومن يعلمها ويدعو إليها رئيس عصابة.

والتمرد على العلم هو أن يتوهم الجاهل بالعلم أنه يمكنه بجهله أن يحاج العلماء، ويجادل أهل الاختصاص فيما يجهل.

هذا التمرد يؤدي إلى التخلف وشيوع الجهل؛ لأنه يرفض العلم، ويحارب العلم، ويخرب الفكر، ويسيء للحقيقة.

يقول أحدهم في الرد على العلماء: لم أقتنع، وهو يقصد: لم أفهم! وهذا كمريض ذهب لطبيب، فكشف عليه، وصنع له تحاليل عديدة، ثم أخبره بالمرض، فسأله المريض: كيف عرفت المرض، فأخذ يشرح له، فلم يفهم المريض؛ لأنه غير متخصص في الطب، فأراد المريض أن يقول: لم أفهم، لكنه قال: لم أقتنع!

فسيقول له الطبيب: ليس المطلوب أن تقتنع حتى تفهم، لكن المطلوب أن تفهم لماذا لم تقتنع؛ لأنك لست طبيباً!!

ويصح هذا المثال مع كل شخص جاهل باختصاص علمي، ويريد أن يفهم ما لا يمكن أن يفهمه إلا المختص، ويظن عدم فهمه نقصاً في ذلك العلم! بل يظن أنه من حقه أن يجعل عدم فهمه قناعة واكتشافاً ينشره بين الناس!!

* * * * *

(بَعضُ الشُّبُهَاتِ مِنْ شِدَّةِ ضعفِهَا لا تَكَادُ تَفهَمهَا)

بعض الحجج الباطلة (الشبهات) من شدة ضعفها وعدم عقلانيتها، لا تكاد تفهمها، حتى ترد عليها!

فالعقل لا يستطيع أن يفهم غير المفهوم؛ لأن الفهم وغير المفهوم يكادان يكونان ضدين لا يجتمعان.

فالرد على نحو هذا الكلام يحتاج منك عملاً عقلياً شاقاً:

أولاً: أن تتخلف عقلياً (لفترة من الزمن)، حتى تعرف كيف تستخرج من احتمالات (اللافهم) غير المتناهية (لا فهماً) معيناً، هو مراد المحتج عليك به.

ثانياً: ثم تبدأ بمحاولة عقلنة غير العقلي، وفهم غير المفهوم، وإبرازه في ثوب يمكن أن يكون مفهوماً.

وهي مرحلة خداع وكذب، يصعب على النفس القيام بها!

ثالثاً: أن تكر على تلك الحجة مرة أخرى؛ لتبين أنها غير مفهومة ولا عقلية!!

وهذه المراحل تحتاج منك أن تستصحب حال المصاب بفصام الشخصية، وتتدرب عليها مرات كثيرة، حتى تصبح قادراً عليها.

ثم أنت مخشي عليك من الجنون! فإن معاشرة القوم تجعلك منهم!!

أذكر مرات أن أحدهم يذكر لي نحو هذا الكلام الذي ليس له بداية ولا نهاية ولا راس ولا ساس، فقد أكون في مزاج جيد، وأكاد أنفجر ضحكاً، لكنني أتمالك نفسي خشية على مشاعره، ثم أحاول أن أمارس تلك المراحل. وقد لا أكون في مزاج جيد، فأكتفي بأن أقول: هذا كلام لا أستطيع فهمه، فضلاً عن أرد عليه!!

فاصبروا علينا، فنحن مثلكم بشر: نضعف ونقوى، ونصبر ونجزع، وتأكلنا الأيام، وتفنينا الهموم.

* * * * *

(مَوْضُوعَاتٌ أعلَى مِنْ مُستَوَاهم)

يكلفون طلاب الدراسات العليا (في رسائل الماجستير والدكتوراه) بموضوعات لا يمكن أن يقوم بها إلا إمام، فتخرج الرسالة بين نقل محض لا يُحسن الطالب تحليله ولا نقده ولا استثماره، ومحاولة اجتهاد ممن ليس عنده آلة الاجتهاد في هذه الأعماق أصلاً.

فيغرق الطالب في تلك الأعماق، فلا هو نجا مستفيداً، ولا نجا بحثه من أن يغرق معه.

* * * * *

(يَرُدُّ عَلَى أهلِ الأهواءِ وهُوَ لا يُمكِنُهُ تَمييزُهُم)

بعض طلبة العلم يركب مركب الرد على أهل الأهواء، ولربما ركب مركب الرد على حماة الدين وأئمة السنة، وهو لا يعلم!!

فهو يركب هذا المركب قبل أن يبلغ علمه مبلغ تمييز أهل الأهواء من أهل الاتباع والسنة إلا بالتقليد، وبتكرار كلام المعظمين لدي شيوخه وشيوخهم ومن سبقهم من علماء يعظمهم ويقلدهم شيوخه!

وبذلك يمنع نفسه عن استقلالية البحث، ويحجب عقله عن البحث المتجرد، إذ كيف يشتم اليوم من يمدحهم غداً، وكيف يصف بالسنة من كان يضللهم ويبدعهم بالأمس.

فتراه (دون وعي) ليس فقط يعجز عن رؤية الحق، بل تراه يسعى لصد الناس عنه، وتخويفهم من رؤية أدلته؛ لكي لا تتضح أغلاطه، ولكي لا تنكشف زلاته، ولكي لا يقف في موقف يصبح فيه هو من أهل الأهواء الذين يستعذب الآخرون الرد عليه!!

* * * * *

(يُخشَى عَلَى الإصلاحِيِّ)

أخشى ما يُخشى على الإصلاحي الذي ينتقد واقعه المليء بالأخطاء، أن يتأثر سلبياً بهجوم واقعه عليه.

فمن المعلوم أنه ما جاء أحد بالإصلاح العام كالأنبياء عليهم السلام، إلا عودي من مجتمعه، وأوذي أذى شديداً من قومه؛ لأنه خالفهم في أمر غالبهم عليه.

وأجد كثيراً من الإصلاحيين يقع فريسة الهجوم عليه، فينتقد بقسوة مفرطة لا تُصلح، أو يحيد عن الاعتدال في نقده، وبالتدريج يصبح نقده غير علمي ولا موضوعي، وتكثر أخطاؤه وتعجله في تخطيء الواقع.

وأحسن ضابط يعين الإصلاحي على التثبت من نفسه، وينجيه من الاستجابة السلبية لضغوط المجتمع وهجومه، لا الأسلوب واتهامه بالقسوة فيه، فهذا غالباً ما يكون اجتهادياً ونسبياً؛ وإنما الأخطاء التي لها ميزان واضح، كالأخطاء العلمية.

فمن كثرت أخطاؤه العلمية في نقده وتصحيحه؛ دل ذلك على أنه قد وقع في أسر الهجوم عليه، واستجاب استجابة سلبية للبغي في خصومته، بأن أصبح هو أيضاً يبغي في خصومته للواقع.

* * * * *

(لِـمَاذَا لا يُوجَدُ عِندَهُم مَنْ يَمدَح الرَّئِيس)؟!

في أعظم دول العالم والتي يرأس حكومتها أكثر رؤساء العالم قوة وثقافة وذكاء، لا تجد أحداً يمتدح الرئيس بما فيه من صفات حسنة لغرض التزلف إليه، فضلاً عن أن يمدحه بما ليس فيه ولا في أحد من البشر.

هذه حقيقة مشاهدة، فهل تعلمون لماذا؟

لا لأنه لا يوجد فيهم منافقون متزلفون.

ولا لأن رؤساء حكوماتهم لا يحبون المدح.

ولا لأن المجتمع لديهم خاصة يمقت النفاق، فكل المجتمعات تمقت النفاق، وإن اضطرت لإخفاء المقت أحياناً.

ولكن (وبكل سهولة) لأنه لا يوجد لديهم رئيس أصلاً!! أقصد لا يوجد قرار ينفرد به الرئيس، فقرارات الرئيس هي نتاج مؤسسات الدولة، التي شارك الشعب كله في اختيارها.

ولذلك إن رضي الشعب عن الحكومة وأدائها فقد رضي قبلها عن اختياره هو للحكومة، ثم رضي عن الحكومة، ثم رضي عن رئيسها. وإن لم يرضَ عنها لام الشعب نفسه على سوء اختياره أولاً، ثم لام الحكومة، ثم لام الرئيس. فكان نصيب الرئيس من ضعف اللوم بقدر نصيبه من الرضا.

وفي كل هذه العملية، من الرضا وعدم الرضا، يغيب قاموس التزلف؛ لأن أول مستحق للتزلف سيكون هو الشعب نفسه، فهل يمكن أن يتزلف الشعب لنفسه؟!

وقد يقول قائل: إن هذا التزلف لا يوجد عندهم؛ لأنه ليس في يد الرئيس نفع أحد بغير قانون يحكم كل عطاء ومنع. والواقع أن هذا صحيح إلى حد ما، ولكن المهم هو أن التزلف للشعب وإرضاءه (لا الرئيس) سيكون هو غاية منى الرئيس نفسه؛ لأن مصير الرئيس نفسه منوط برضا الشعب عنه وعن أداء حكومته.

ولذلك السبب نفسه كسدت سوق المداحين في عند الخلفاء الراشدين؛ لأنهم كما يرفضون الكذب في المدح، فهم لا يستجيزون العطاء على مجرد المدح بصدق! وكان ميزان الشريعة هو حاكمهم في المنع والعطاء، وعدل الحكم هو دستور الدولة الذي تجري أحكامه على الجميع.

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

(بَينَ الدُّخُولِ فِي الإسلام والثَّبَاتِ عَلَيه)

الدخول في الإسلام قد يقع انبهاراً بأحد جمالياته، كما سمعته وقرأته كثيراً عن الداخلين في الإسلام.

ولكن الثبات عليه يحتاج دليلاً عقلياً يقينياً، يمنع الإيمان من التصدع أمام هجمات ظنون الشبهات وإغواء الشهوات.

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

(هُنَاكَ فَرقٌ بَينَ بُغضِ الكَافِرِ لِكُفرِهِ، وبُغضِهِ لِذَاتِه)

إذا كنا نبغض في الكافر كفره، ومع ذلك يجوز أن نحب فيه شيئاً آخر، قد يصل حد جواز الاقتران به طول الحياة، كما في تزوج الكتابية، والتي يتزوجها المسلم وهي على كفرها؛ دلَّ ذلك على الفرق الواضح بين بغض الكافر لكفره، وبغضه لذاته مطلقاً؛ ذلك أن زواجك من الكتابية حباً لجمالها أو لطباعها أو لأخلاقها أو لغير ذلك، لا يتعارض مع بغضها من جهة كفرها.

ولأن الزواج والاقتران لا يستلزم حب كل شيء فيمن تقترن بها، ولا العشرة الزوجية مما توجب أن تحب كل شيء في زوجك. بل هذا الحب لا يكاد يحصل، لأن البشر لا يخلو من نقائص وعيوب، فيُحب من وجه، ويُبغض من وجه. وأن بعض العلاقات بين المسلم والكافر قد تتم بحب لا يؤثر على كراهيته لكفره!

بل غلبة حب الكتابية على قلب المسلم غلبة أجازت له زواجها، وإحسان عشرتها ومعاملتها بكل حب وعاطفة، كل ذلك لا يعارض بغضها من جهة كفرها. كما تبغض أشد البغض المسلم الظالم الباغي المعتدي عليك وعلى مالك وعرضك، وأنت تحب فيه توحيده وإسلامه.

وهذا الحكم المجيز لتزوج المسلم بالكتابية يبين حقيقة عقيدة الولاء والبراء، وأن هناك فرقاً واضحاً بين حب الكافر لغير كفره وحبه لكفره، وأنه قد يجتمع في الكافر حبه مع بغضه، فيُحب لأمر يجيز الحب، ويُبغض لكفره.

فالزواج من الكتابية عمل اختياري، وليس كالأبوة والبنوة والقرابة، التي ليس للإنسان اختيار فيها. فلو كان حب المرأة الكتابية حراماً تحريماً مطلقاً، لما أجاز الشرع الزواج بها؛ لأن الزواج (وهو اختيار) لا يتم إلا لحب خَلق فيها أو خُلق أو نحوهما. فلما أجاز الشرع للمسلم هذا الاختيار، دل على أن ذلك الحب الاختياري والاستمرار عليه بالزواج أمر جائز.

وكل من فهم آيات الولاء والبراء بما يعارض حكماً من أحكام الله، فقد نسب حكم الله تعالى للتناقض والخُلف والجهل!! وهذه شناعة في الفهم، توجب الإنكار والتحذير منها.

* * * * *

(الْمُلْتَزِمُونَ) هَلْ هُم (الْمُلْتَزِمُونَ)؟!

(الملتزمون) لفظ ثناء، والمقصود الحرفي له: الملتزمون بأحكام الشريعة. وليس هو لفظ ثناء فقط، بل هو لفظ تمييز للموصوف به على بقية المسلمين سواه، فمن سواه غير ملتزم بأحكام الشريعة.

وهذا المصطلح من ثمرات جيل الصحوة، الذي عايشته بكل تفاصيله، منذ سنة ١٤٠٠هـ حتى ١٤٢٠هـ، بداية انحسار ذلك الجيل.

و(الملتزمون) في عرف الصحوة ليس هو المعنى المأخوذ من الدلالة اللغوية للفظ، والذي سبق ذكره. وإنما (الملتزمون) في عرف الصحوة: هم كل من أعفى لحيته وشمر ثوبه، هذا هو أهم شرط.

فكنا ما إن نرى ذلك الملتحي وغير المسبل، حتى تنفرج أساريرنا عن أخ لنا في الله، يشاركنا همّ التمسك بالدين!! وقد يضم هذا الملتزم إلى ذلك التزاماً ببعض ظواهر الأعمال، كتردد على المسجد لصلاة الجماعة، وسماع محاضرات أو دروس لبعض المرمّزين ضمن المدرسة السلفية.

طبعاً: ولا بد أن لا يسمع الغناء، وأن لا يلبس العقال (في بعض الأعراف).. إلى غير ذلك من التفاصيل التي لا تخرج عن كونها شكليات أو ظواهر، منها ما هو من الأعمال الظاهرة في الدين حقاً، ومنها ما في نسبته إلى الدين (وجوباً أو استحباباً) اختلاف معتبر بين الأئمة، ومنها ما لا علاقة له بالدين أصلاً.

وعمل هذا المصطلح عمله السيء في الفرد والمجتمع، والذي يتجسد في أمرين كبيرين:

الأول: تقسيم المجتمع على غير أساس صحيح من الشرع؛ لأنه أباح لنفسه وضع ميزان الحسنات والسيئات في الدنيا، وأن يمارس هو وزن الناس به!

وليت هذا الميزان (فوق هذا التدخل في عمل من خصائص الرب عز وجل) كان ميزاناً عاقلاً، يزن الناس بشمولية أحوالهم وبتعظيم ما عظمه الشرع وتصغير ما صغره من الطاعات والمعاصي، بل وزنهم بتلك الظواهر التي لم يجعلها دين الله تعالى وحدها (في أقل تقدير لفساده) ميزانَ الناس في الصلاح والفساد.

الثاني: أثره السلبي في انحراف تصور المسلمين عن الدين، بتقديم أعمال الظاهر على عمل القلب، بل بالغفلة الكبيرة عن عمل القلب. وبعدم المبالاة بمكارم الأخلاق، التي هي روح الشريعة.

فلم يعد غريباً أن نرى ملتزماً: يكذب ويخون، ولا يعرف الأدب مع كبير، ولا الرحمة مع صغير؛ لأن مصطلح (الالتزام) لم يكن يُلزمه بذلك، ما دام ملتحياً ومقصراً ثوبه!!

ولا أدري كيف سمح موجهو الصحوة وقادتها العلميون حينئذ بشيوع هذا المصطلح! فلا يستطيع أحد منهم أن يزعم أنه هو نفسه لم يساعد على تثبيته في المجتمع بشكل من الأشكال، بالرضوخ له واستعماله، أو بالسكوت عنه، أو بنقده على خجل، فضلاً عن أن يزعم مقاومته!

وأذكر أني في مرحلة دراستي الجامعية (البكالوريوس) حضرت محاضرة للدكتور سفر الحوالي (شفاه الله وغفر له)، وتناول فيها بالحديث عمن سماهم جيل الصحوة بالملتزمين، والذي أذكره من تلك المحاضرة: أنه كره هذا الوصف (الملتزمون)، لا من جهة مضمونه الخاطئ، ولا من جهة أثره السلبي في تقسيم المجتمع، وإنما من جهة أنه ليس لفظاً وارداً في القرآن والسنة وعند السلف الصالح، واقترح استبدال (المستقيمين) به!! وبذلك لم يكن إلا نقداً شكلياً، لا علاقة له بالمضمون!

وأذكر أني لم أقتنع حينها بهذا الرأي، أو لعلي لم أفهمه، وكان لدي شعور جامح بضرورة هذا اللفظ، بكل ما يحويه من تقسيم للمجتمع. وأحسب جيل الصحوة كله كان يشعر معي بهذه الضرورة، بدليل شيوع هذا اللفظ ورسوخه في الفكر الصحوي.

وأذكر تماماً كيف بدأ هذا الوصف بالانتشار قبل ذلك: إذ كنا في البداية نقول: الشباب الطيب.. الخيِّر.. المسمى بالملتزم. ثم استطلنا هذا الوصف، مع شيوع مضامينه واستقرار دلالته المصطلح عليها، فصرنا لا نتردد أن نقول: (الملتزمون)، بلا أدنى تردد ولا تقديم ولا شرح.

وأسأل الآن نفسي: لماذا كنا مندفعين إلى هذا التقسيم المجتمعي؟! لماذا كنا نشعر بالحاجة الماسة إلى أن نقسم المسلمين إلى (ملتزم) و(غير ملتزم)، وبناء على أمور لا تبيح شرعاً هذا التقسيم؟

ولذلك أردت أن أجعل عنوان المقال نابعاً من ذلك الشعور بالأسر لهذا المصطلح: (الملتزمون) هل هم (الملتزمون)؟! إمعاناً في إظهار مقدار الاستئسار لهذا المصطلح!!

لدي أجوبة، نعم.. لدي الجواب، وأظن لكل قارئ أجوبة، ما دام قد عاش هذه المرحلة أو عرفها، فدعونا إذن نتشارك الجواب!!

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

(الحِكَمُ العَونِيَّة)

صفحة ضائعة من (الحِكَم العطائية) لم تُنشر من قبل، ولا وقف عليها أحد من الشراح، تخص حال مناصب الجهال في مراتب العلم والإفتاء:

١ـ أقل الناس عقلاً من صدَّق أنه من أكابر العلماء، وعلمه علم أصاغر الطلبة!

٢ـ ما أقبح العالم يعجز عن مصاولة الحجج والبراهين، فيلجأ في الرد عليها إلى السلاطين.

٣ـ علامة العالم المفتون: قطعُه في موارد الظنون.

٤ـ المكروهات هي سدود مشكوك ذرائع الحرام أو مرجوح ظنونها، فيجب لذلك أن تكون المكروهات أضعاف المحرمات، فمن وجدتموه نادراً ما يقول: (مكروه)، ويستعجل في التحريم سداً للذريعة، فاعلموا أنه مغرور، يظن نفسه هو المشرِّع، وأنه يستدرك على الشرع!

٥ـ اغترار العالم (الذي يسميه المنصب أو الناس عالماً) يجعله عاجزاً عن النفوذ إلى محالِّ النزاع وعُقد الخلاف، فلا يزال يصول ويجول في ساحة لا يخالفه فيها إلا توهمات جهله.

٦ـ مراعاة الاختلاف المعتبر في الفتوى: من علامات التقوى، وعدم مراعاته (مع العلم به) لا يصدر إلا بسبب مراعاة حظوظ النفس، وغفلة عن حقوق خالق النفس.

٧ـ يقرؤون خبر الإمام مالك في غلبة (لا أدري) على جواباته، ويمدحونه به، ولا تكاد تسمعها منهم؛ فهل دروا ما دراه وما لم يدره؟! أم لم يدروا ما دراه، فكيف ما لم يدره؟!

٨ـ الوثوقية الزائدة في كلام المتصدر للفتوى: جهل، فإذا صاحبها استطالة بتلك الوثوقية على العلماء، بإحلال ترجيحاته الظنية، منزلة القطع واليقينية، فقد ترقى من الجهل إلى الرعونة.

٩ـ متى ما رأيت المفتي يُكثر أن يجعل المكروه حراماً، والمستجب واجباً، والصغيرة كبيرة، فاعلم أنه مصفوع على عين قلبه بيد جهله وقبضة اغتراره، حتى ظن نفسه أشد غيرة على دين الله تعالى من الله تعالى.

١٠ـ أن يجهل السطحي في العلم أنه سطحي، فهذا جهل مركب، لكن أن يفتخر بسطحيته، حتى يزعم بأن بلاهة ظاهريته هي التعظيم للنص؛ فهذه قلة ديانة، أو ضعف عقل!

ملحوظة: كُتب على المخطوط (الحكم العَونية) ثم ضرب الناسخ عليها، وكتب (يقصد العطائية)!!

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

الفِكْرُ الانعِزَالِيُّ والفِكْرُ الاعتِزَالِيُّ

الفكر الاعتزالي قد أشبعناه بحثاً، وقتلناه نقداً، لكننا أهملنا الفكر الانعزالي!

وللفكر الانعزالي أنواع وصور، فمن أنواعه:

الانعزال في الطائفة، فلا أرى إلا ما تراه، ولا أسمع إلا ما تسمعه، بل لا أفكِّر إلا فيما تسمح الطائفة أن أفكر فيه!

ولذلك فإن الانعزال في الطائفة منهج خطير، يحرِّف فهم صاحبه للإسلام، بل يمنعه من قراءة النص الشرعي في الكتاب والسنة إلا من خلال الطائفة..

بل لا أبالغ إن قلت: إنه منهج يمنع صاحبه رؤية الآية من كتاب الله (وهو يتلوها) والحديث من أحاديث رسول الله صلَّى اللهُ عَلَيه وسَلَّم (وهو يقرؤه)؛ لأن عين قلبه لا ترى إلا ما يوافق طائفته!!

ومع كثرة حديث العلماء في التحذير من الفكر الاعتزالي، لكنهم لا يستطيعون ادعاء أن النص الشرعي قد حذر منه؛ لأنه فكر نشأ بعد انقطاع الوحي!

لكن الفكر الانعزالي (الذي نتحدث عنه) قد حذرت منه نصوص الوحي؛ لأنه هو المنهج الذي أحاط أبطل الباطل وأزْهَقَهُ بمجيء الحق، وهما الشرك والكفر، بسياجٍ استطاع (من

غلاظته وخطورته) أن يمنع من وصول نور التوحيد والإيمان إلى القلوب، وهو النور الذي يهزم كل جيوش الباطل بظهور بصيصٍ من مشكاته!

وذلك كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ. مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ الروم: ٣١ـ ٣٢، أي كل حزب من المشركين يعتقد صوابية ما حزَّبه وفَرَّقه عن غيره، فهو فرح بالتحزب، وهو إعجاب بانعزالية كل حزب وبإنكفائه على نفسه.

فإذا بلغت خطورة هذا المنهج أن حجبت نور التوحيد عن قلوب المشركين، فهو في الباطل الذي لا يصل حد أبطل الباطل (الشرك) سيكون أشد حجباً عن رؤية نور الحق وحجة برهانه.

ولقد كان حق هذا الفكر الانعزالي أن ينال حظه من التحذير؛ لكن مع شيوعه بشيوع الطائفيات والتحزبات، والتي لا تجد منها حزباً إلا وهو يدعي نجاته من التحزب ومن الانعزال؛ هو ما غيَّب التحذير منها؛ لأننا أصبحنا لا نقرأ الكتاب والسنة باستقلالية النظر، وإنما نقرؤهما من خلال منهج هذا الفكر؛ بحجة أن هذا المنهج الذي اخترناه هو منهج السلف! وحينئذ ستجد أن كل حزب بسلفهم وبسلفيتهم فرحون!!

ولو كانت دوامة التردد بين استقلالية قراءة النص واعتقاد صوابية منظار قراءته الطائفية دوامة حديثة النشأة؛ لالتمست العذر في عدم التنبه لخطورتها، لكننا نعيش فيها منذ قرون، وما زالت تُضيِّق علينا فسحة النظر الداعي للتقارب والتفاهم، وما زلنا نزيد في تضييق دائرة النظر؛ لأننا نتبارى في النظر للنصوص بذلك المنظار، فيزداد حجم ما نؤطره من النص بذلك المنظار الطائفي صغراً، لتصبح الطائفة الواحدة طوائف.

ونحقق فينا سبباً من أعظم أسباب براءة النبي صلَّى اللهُ عَلَيه وسَلَّم من طوائف أمته، دون أدنى شعور بتأنيب الضمير، بل باعتزاز وافتخار طائفي، فـ(الجماعة) هي ما تزعم أنه الحق ولو كنتَ وحدك!

وننسى تلك البراءة المخيفة الواردة في كتاب الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ الأنعام: ١٥٩.

* * * * *

(بَينَ التَّنَاقُضِ والاطِّرَاد)

أصحاب الفكر السطحي: قديماً اتهموا الإمام أبا حنيفة رضي الله عنه بالتناقض؛ لأنه كان يتغير اجتهاده في موارد الظنون الدقيقة!

في حين كان الخوارج المكفرون مشكلتهم في اطرادهم وعدم تناقضهم، فكفَّروا الصحابة رضي الله عنهم والأمة كلها، حتى كفروا بعضهم؛ باطرادهم في فهم علاقة المعاصي بالإيمان.

واطرد الظاهرية في نفي التعليل في عامة فهمهم، فخرج علينا ابن حزم رحمه الله بشواذ الآراء، وجمود لا يقبله عاقل في فهم النص، رغم شدة ذكائه.

واطرد ابن حزم في عدم الاحتجاج إلا باليقين: فادعى أن خبر الآحاد يفيد اليقين، لاضطراره إليه، في حين أنه رد القياس والإجماع السكوتي ودلالة الاستقراء، بسبب اطراده.

فلم يكن التناقض مطلقاً مذموماً، ولا الاطراد مطلقاً ممدوحاً.

فرُبَّ تناقض دلَّ على عمق العلم، ورُبَّ اطراد دلَّ على جهل أو بغي وهوى.

المشكلة أن هؤلاء السطحيين: ما زالوا يذمون تغير الاجتهاد في موارد الظنون ودقائق الأنظار، مع أن تغير الاجتهاد فيها هو العلم.

ويمدحون الاطراد فيها، ولو أدى إلى تبديع وتضليل عامة أئمة المسلمين، مع أن هذا القطع قلة علم أو قلة ورع؛ لأنه جزم فيما لا يجوز فيه الجزم.

* * * * *

الجُمُودُ فِي اتِّبَاعِ الدَّلِيل

الجمود جمود، سواء أكان بالتقليد الأعمى للمذاهب، أو بالرجوع للنصوص وادِّعاء اتباع الدليل!

فالجمود الذهني لا علاقة له بالأمر الذي يَجمُدُ الذهنُ عليه، فقد يجمد العقل عن التفكير بسبب العادات والتقاليد، فلا يحاكمها، ولا يستطيع الخروج عن نسقها.

وقد يجمد التفكير على أقوال المذاهب الفقهية، فلا يعرف سبيلاً إلى الأحكام إلَّا من خلال تلك الأقوال.

وقد يجمد على سطحية فهمه للنص من الكتاب والسنة، فلا يجد في النص إلَّا ظاهرَ لفظِه دون النظر في سياقه ولا في إشارته وإيمائه، ولا يستوعب النظر في بقية النصوص الدالة على روح الشريعة ومقاصد الأحكام، ولا يستطيع مراعاة تأثيرات الواقع على الأحكام العملية.

فليس الجمود صفة ملازمة للمذهبيين (أتباع المذاهب الفقهية الأربعة)، كما يتوهم بعضهم، وليس الخروج عن المذهبية هو صك البراءة من الجمود، كما يُوهِمون الناس!

فالمذهبية لا تعني الجمود؛ إلَّا عند قاصري العلم، ممَّن حفظوا أقوال المذاهب، دون علم بأدلتها ومآخذها.

والرجوع للدليل لا يعني عدم الجمود، فليس هناك أَجمَدُ من ظاهرية اللفظ التي لا تعرف علل الأحكام ومقاصد الشريعة!

وأشدُّ جموداً منها: من أضاف إلى ذلك قصوراً في النظر للنصوص، فلا ينظر عند إرادة معرفة الحكم إلَّا إلى نص واحد أو نصين، ويُلغي النظر إلى بقية النصوص المؤثرة في فهم النص وفي استخراج الحكم.

وخطورة الجمود في فهم النص أن الجامد عليه يظن نفسه ليس جامداً، ولا يعترف بجموده، بل لا يشعر به؛ لأنه يتوهم أن لذهنه حركةً في فهم النص، وهي حركة لا تختلف عن حركة أذهان جامدي المذاهب، ممَّن تقتصر حركة أذهانهم على فهم متون الفقه فَهْمَ من لا يعرف مآخذ الأئمة وأدلتهم في ترجيحاتهم.

لكن يتميز مقلدة المذاهب الجامدون عليها على أصحاب الجمود على الدليل: أنهم يعترفون بجمودهم، ولذلك فقد أغلقوا باب الاجتهاد على أنفسهم، وأرادوا إغلاقه على غيرهم.

أمَّا جامدو النصوص، فيظنون أنفسهم أئمة الاجتهاد، ويحسبون أكتافهم تزاحم أبا حنيفة ومالكاً والشافعي وأحمد!! وهي إنما تزاحم غرورهم وجهلهم!!

ومصيبة هؤلاء أنهم يصابون بالغرور، ويظهر غرورهم بمظاهر عديدة، منها: جزمهم وقطعهم في مواطن الظنون؛ لأن جمودهم لا يتيح لهم معرفة ما يحتمله النص من المعاني! فلا يجدون فيه إلَّا معنى واحداً، فيقطعون به!

ومن لطائف جمود الذهن على النص: هذه الفتوى الغريبة، والتي لا أنفك أضحك منها وأبكي، وهي فتوى تحريم أن تجمع المرأة شعرها في أعلى رأسها!! زعموا استنباطاً من قوله صلَّى اللهُ عَليه وسَلَّم: (صِنْفَانِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ لَمْ أَرَهُمَا: قَوْمٌ مَعَهُمْ سِيَاطٌ كَأَذْنَابِ الْبَقَرِ، يَضْرِبُونَ بِهَا النَّاسَ. وَنِسَاءٌ كَاسِيَاتٌ عَارِيَاتٌ، مُمِيلَاتٌ مَائِلَاتٌ، رُؤُوسُهُنَّ كَأَسْنِمَةِ الْبُخْتِ المَائِلَةِ، لَا يَدْخُلْنَ الْجَنَّةَ، وَلَا يَجِدْنَ رِيحَهَا، وَإِنَّ رِيحَهَا لَيُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ كَذَا وَكَذَا).

فقادهم جمودهم الذهني إلى اعتبار هذا الوصف (رُؤُوسُهُنَّ كَأَسْنِمَةِ الْبُخْتِ الْمَائِلَةِ) إلى تحريم جمع المرأة شعرها في أعلى رأسها!

فَـقَـدْتُه من استنباط!!

فعلى فهمهم هذا سيكون إمساكُ الرجل سوطاً كأذناب البقر محرَّماً أيضاً، لأنه أيضاً وصفٌ ورد في ذِكر الصنف المذموم الأول!

ولا يدركون أن هذه الأوصاف لم تأتِ لتحريم آحادها، وإنما جاءت علامة لهذين الصنفين، لكي نعرفهم بهذه الصفات، فنحذرهم ونحذر من أن نكون منهم.

فالأولون: هم الظلمة وأعوانهم، يظلمون الناس ويضربونهم بغير حق. والآخرون: نساء فاجرات، يحرصن على الإغواء، ولا يستحين من إعلان فجورهن بعلامات تميّزهن..

ولا علاقة للحديث بتحريم تسريحة شعر معينة، وحاشا الشريعة الغراء من هذا الهُراء!

ولذلك لم يقل أحد من شُرَّاح الحديث من أهل العلم السابقين بحرمة جمع المرأة شعرها في أعلى رأسها، ولا ذكر هذا أحد في كتب المذاهب الفقهية في المحرمات، ولا أفتى بذلك أحد من أهل العلم قبل بلاء الجمود في اتباع الدليل وأصحابه الجامدين!!

وانحصر عامة كلام أهل العلم في شرحهم الحديث على ذكر معنيين لتلك الصفة:

الأول: أنهن نساء يُعظِّمن رؤوسهن بالعمائم أو بصلة الشعور حتى تشبه أسنمة الإبل في ارتفاعها، فأرجعوا الحديث إلى معنى تحريم الوصل الوارد في السنة.

والثاني: أن هذا مجاز عن عدم غض البصر، وأنهن يرفعن رؤوسهن بالنظر والتحديق في الرجال رفعاً لا يعرف الحياء، فأرجعوا الحديث إلى وجوب غض البصر عن النظر المحرم الوارد في القرآن.

ولا قال أحد من أهل العلم إن هذا الحديث يحدد أنواع التسريحات المباحة وأنواعها المحرمة، كما ابتدعه جمود أتباع الدليل!!

طبعاً هم سيعدون ذلك فتحاً جديداً، وعبقريةً اجتهادية؛ لأن حركة ذهنهم في حيِّز الجمود توهمهم باجتهاد، هو اجتهاد في التجمد الذهني! أعاذكم الله من ذلك الجمود!!

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

(التَّفْرِيقُ بَيْنَ اليَقِينِيَّاتِ والظَّنِّيَّات عِلْمٌ عَمِيق)

التفريق بين يقينيات العلوم والأفكار والأحكام وظنياتها علم عميق، وهو علم عظيم الأثر على الحياة العلمية.. والمجتمعية أيضاً!

فهو أساس التعاطي الصحيح معها في الأمور التالية:

١- تحديد مجالات الاجتهاد: بحصرها في الظنيات.

٢- بيان مواطن الثبات: وعدم قبول دعاوى الاجتهاد فيها.

٣- تحديد الموقف من الاختلاف فيها: اعتبارا وعدم اعتبار.

٤- الإنكار على المخالف، وعدم الإنكار.

٥- تطبيق أدب الاختلاف الذي ينعدم بغياب التفريق بين الظنيات واليقينيات.

ومع ذلك كله؛ ما زال هذا التفريق غائباً غياباً كلياً، تحت دعاوى نسبية التفريق بين اليقينيات والظنيات، أو بسبب ضبابية هذا التفريق، أو بسبب الغفلة عن أهميته، أو بسبب تعمد التغافل عنه لمصالح حزبية أو شخصية..

* * * * *

(التَّوَاضُعُ لا يَتَجَزَّأ)

التواضع لا يتجزأ، فمن رأيته متواضعاً في شؤون أو مواقف، مغروراً في غيرها، فتواضعه هذا تواضعٌ مصطنع!!

لأن التواضع الحقيقي (والـخُـلُق الحقيقي عموماً) يكون راسخاً في النفس، غالباً على أحوالها غلبةَ العادات والطباع. ومن يتكرر منه غياب التواضع في حالة خاصة، هذا يدل على اصطناعه التواضع، وأن هذه الحالة الخاصة هي محكُّ حقيقته و مختبر معدنه.

فقد رأيت بعض المتمشيخين يتواضع في لباسه، وممشاه، وصوته، لكنه يتكبر في رأيه، ويجعل ظنونه يقينيات لا تقبل النقاش!

ورأيت بعض أدعياء التجديد يتواضع مع المعارف الحديثة والمناهج الفكرية العصرية، وفيما يتلقاه عن علماء الغرب، وهو في الوقت نفسه يتكبر على التراث غاية التكبر، ويتعالى على علوم الإسلام، ويستسهل فيها الدفع بالصدر، ويسارع إلى استسخافها، دون أي قدر من التواضع، بل بغرور متناهٍ.

فأمثال هؤلاء ما عرفوا حقيقة التواضع، ولا كان التواضعُ خُلقاً لهم، إنما هم:

ـ قومٌ أرادوا التواضع منقبةً لهم، يتحسسون في الناس ثناءهم به عليهم، وينتظرون رؤيته في تراجمهم وسيرتهم وفي كتاب مناقبهم، ويتلذذون بتوهم رؤيته في المستقبل وصفاً لامعاً في صحيفة فضائلهم!!

ـ أو هم قومٌ أرادوا التواضع أن يكون طُعماً بصطادون به الجمهور، يسوقون به لأنفسهم ولآرائهم، ولكي يحتالوا بالتواضع على الناس، فيتقبَّل الناس منهم غرورَهم وتعاليهم على أنه غَيرةٌ وحميةٌ للحق وحماسٌ في الدفاع عن الدين وغضب لأجل الحقيقة!!

* * * * *

(إعَادَةُ قرَاءَةِ الكِتَابِ الأَصِيل)

لا يوجد كتاب أصيل لا تحتاج أن تقرأه أكثر من مرة، فالكتاب الذي كنتُ قد قرأتُه قديماً، ثم قرأتُه بعدما تشكل فكري بشكل مختلف عما كان عليه، وبعدما اتسعتْ تصوراتي لما كانت لا تتسع له؛ فهو كتاب جديد بالنسبة لي، كأني ما قرأته.

فالكتاب القديم والذي قرأته قديماً هو جديد بالنسبة لي اليوم، أفهم منه وأستفيد منه، وأعلق عليه وأستلهمه ما لم يكن يخطر على البال قبل عشرين أو ثلاثين سنة!

ما أوسع العلم!! وما أكثر الأفكار!! أمام عجز الإنسان عن استيعابها، وأمام قصوره التام عن احتوائها!!

* * * * *

(الصِّرَاعَاتُ تَجعَلُ مَسَائِلَ العِلْمِ حَرباً)

للصراعات المذهبية والعقائدية سننها، فهي تجعل مسائل العلم حرباً، ويجوز في الحرب من المكر والاحتيال بل والكذب ما لا يجوز في غيرها!! فالحرب خدعة!!

لكن الحقيقة أن مسائل العلم أنزه من ذلك، ولا يجوز أن تُخاض بروح المحارب، ولا بنفسية المقاتل، ولو كانت بأخلاق الفرسان (كما يقال)!

بل يجب أن تُتناول بروح الحكماء، ونفسية ورثة الأنبياء عملاً بالحق وحباً له ودعوة إليه!

إن العلم يحتاج أخلاق الأنبياء عليهم السلام؛ لأن حملته هم العلماء وهم ورثتهم عليهم السلام!!

* * * * *

(الحَقُّ لا يَنصُرُهُ إلَّا الحَقُّ)

من حين أن تعجز عن الدفاع عن الحق (بزعمك) إلا بالغلو أو البغي، فأنت لا تدافع عن الحق؛ لأن الحق لا ينصره إلا الحق!!

قد يكون ما كنت تدافع عنه ابتداءً هو الحق، لكن إذا دافعت عنه بغير الحق لن تنصر إلا الباطل. فلم يكن الحق حقاً إلا لأنه ضد الباطل، لا يقفان في صف واحد أبداً، ولا يمكن أن يؤيد أحدهما الآخر، بل لا يمكن أن يكونا إلا ضدين متعارضين متعاديين.

نقول هذا للدول، وللسياسيين، ولوزارات الداخلية والاستخبارات، وللدعاة والموجهين، وللإعلاميين والصحفيين.

ومن حين لآخر أجد أنهم لا يفهمون ذلك، فيظنون مثلا أنه يمكن مواجهة الغلاة بالغلاة، يمكن دحر المتطرفين بالمتطرفين، يمكن إشغال الطائفيين بالطائفيين!!

وهذا خطأ كبير لا يُغتفر؛ لأنه ناتج عن عدم إيمان بالحق على أنه هو الثابت المستقر، وأن الباطل هو الزائل المتزلزل، ولا فهم أصحابه قوله تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى البَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ الأنبياء: ١٨، ولا قوله تعالى: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ البَاطِلُ إِنَّ البَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً﴾ الإسراء: ٨١. بل ظنوا أنهم سيفصدون الغلو بالغلو، وكأنه عصير معقود (مركز) سيُفصد بالماء!

وحسبوا أنهم سوف يخففون من تطرف طرف بالتطرف المضاد له! وتوقعوا أن حدة طائفية ما سوف تكسر حدة الطائفية الأخرى!

ولا عرفوا أنهم بذلك ينصرون باطلاً على باطل، ولا ينصرون حقاً! وأنه لا فرق بينهم وبين المُبطِل الأول الذي سبق إلى نصرة الباطل!

فلا أجد لهؤلاء عذراً في مواجهة الغلو بالغلو؛ إلا الجهل، أو عدم ابتغاء الحق أصلاً.

* * * * *

(لَنْ تَفحَصَ المَعلُومَةَ حَتَّى تَكُونَ أعلَى مِنهَا)

لن تستطيع أن تفحص المعلومة، إذا كنت تراها فوقك، ولن تفحصها إذا كنت تراها مساوية لك! لن تفحصها إلا إذا وضعتها دونك، ورأيت أنك أعلى منها، فنظرت إليها من فوق إلى أسفل!!

لأنك لن تفحصها إلا إذا وضعتها تحت مجهرك؛ فإن صحت، كانت أهلاً للترقي في سماء العلم، وإلا كانت عينة مغشوشة، لا تستحق إلا سلة المهملات!

هذا ما أقوله لمن تبهره المعلومة الصادرة من العالم الذي يعظِّمه، فينظر إليها من تحت، وكأنها الكوكب الغابر في السماء! كيف يمكن لهذا أن يفحصها؟!

قد يكون العالِـمُ كوكباً دُرياً غابراً في السماء، لكن معلومته: إما أن تتواضع لننزلها على المجهر للفحص، أو أن تعلو أنت إليها؛ لتكون تحتك فتفحصها، وإما أن نرد معلومته تلك إليه، فلا يمكن أن نقبلها بغير فحص؛ إلا تقليداً، واعترافاً منك بأنك عاجز عن فحصها والتثبت منها!

فلا تنصرها، ولا تجادل عنها، وتقف عندها معلنا عن تعصِّيها عن الهبوط إليك، وأنها بعيدة عن أن تكون تحت مجهرك!

* * * * *

(رُبَّمَا كَانَ الرَّأيُ الأصلَحُ هُوَ رأيَ الذِي يَنظُرُ مِنَ الخَارِجِ)

ليس دائماً صاحب الشأن أعرف بما يصلحه، فربما كان غير صاحب الشأن أقدر على رؤية الأصلح، بسبب نظره للقضية من خارج صندوق المشكلة، متحرراً من قيود ضغوطها النفسية.

ولا يعني ذلك أن يتنازل صاحب الشأن عن قناعاته لرأي غيره، لمجرد ورود احتمال أن يكون أقدر منه على رؤية الحل، إذ يبقى أن صاحب الشأن أعرف بواقعه، وهذا جانب مهم يرجح رأي صاحب الشأن.

ولكن المقصود فقط هو أن يورد صاحب الشأن على نفسه احتمال عجزها عن رؤية ما يراه غيره، فينصت بفهم، ويصبر على مناقشة الرأي الذي يخالفه، بكل تعقل ممكن، محاولاً الإفادة من ذلك النظر الذي ينظر من خارج مشكلته، فهو نظر يصعب على صاحب المشكلة أن يراه.. غالباً، خاصة إذا صدر ممن لا يتهمه بغش أو عداوة!

* * * * *

(خَطَرُ القَهرِ والاستِبدَادِ عَلَى طَلَبَةِ العِلم)

من دقيق ملاحظ ابن خلدون الإبداعية: أنه تكلم عن الأثر السيئ للاستبداد والقهر على الشعوب، وأنه يجعلها شعوباً ضعيفة، عديمة البأس عند الحاجة إليه، فيما لو دهمها عدو تحتاج معه إلى قوة وصبر وعزيمة.

ثم ضرب مثالاً أيضاً بطلبة العلم الذين يُمارس عليهم من مشايخهم القهر باسم التأديب، والتبكيت باسم حفظ هيبة ووقار مجلس العلم.

فتذكرت حالة تدجين طلبة العلم التي يمارسها عليهم بعض المشايخ، وكيف يخرجون مرددين لمقالات شيوخهم بلا وعي، مقلدين لآرائهم بلا تفكير، ويظنون أن حفظهم لاستدلال شيوخهم، وتلقينهم ردود شيوخهم على مخالفيهم؛ استدلالاً منهم يكفيهم عن استدلالهم هم، ورداً منهم يغنيهم عن سماع حجج المخالفين ومناقشتها.

فلا يزدادون بذلك إلا انكساراً بذل ذلك القهر، وخنوعاً بذلك التسلط، والذي يأتي (للأسف) باسم الدين والأدب وحفظ هيبة العلم ووقار العلماء!

* * * * *

لَيسَ لِلجَمَالِ حُدُودٌ !

أجمل الكلام كلام الله تعالى، وأحسن القصص قصص القرآن، وأحلى الحديث هو القرآن الكريم!

وكيف لا يكون كذلك؟! وهو كلام ربنا العظيم البر الرحيم سبحانه!!

ومع ذلك لا يستغني القرآن عن التحسين والتزيين!! نعم.. لا يستغني عن التزيين والتحسين!!

لست أنا من يقول هذا الكلام، بل قائله هو رسول الله صلَّى اللهُ عَلَيه وسَلَّم! فقد قال عليه الصلاة والسلام: (زينوا القرآن بأصواتكم)!!

وأقسم بالله، لو قلت أنا هذه العبارة، لكفرني أناس، أو لاستشنعوا مني هذه العبارة، ولقالوا: ما هذا الكلام؟! وهل في القرآن قبح لكي يحتاج إلى تزيين؟! ولاتهموني بانتقاص القرآن الكريم وبالاستخفاف به!

ولكتب أحدهم معلقاً: العوني ينتقص القرآن!!

ولكتب الآخر متهكماً: العوني يقول إن القرآن يحتاج عملية تجميل!!

ولقال آخر متظاهراً بالجدية والموضوعية: د. حاتم العوني يطالبنا بأن نخفي عيوب القرآن بأصوات المتغنين به!!

ولقال.. ولقال...

لكن الذي قال ذلك الكلام ليس هو العوني، وإنما هو سيدي رسول الله صلَّى اللهُ عَلَيه وسَلَّم!

والذي رواه ليس هو العوني، بل الذين رووه وصححوه هم أئمة المسلمين!

لأنهم قد فهموا الحديث بما لا يستدعي إنكار متنه، فقد فهموا منه: أن حاجة القرآن إلى التحسين لا تعني وجود نقص فيه.

وإنما تعني وجود طبيعة فينا (معشرَ البشر)، يمكن أن تسميها نقصاً، ويمكن أن تسميها كمالاً، وهي حب الجمال، بل حب الترقي في الجمال، والطمع أمام كل انبهار بجمال أخَّاذ في أن يبهرهم ما هو أجمل منه.

إنها فطرة فُطر الناس عليها، إنها فطرة الطمع في جمال غير متناهٍ، جمال ليس لجماله حدود، لكي يتعلقوا في النهاية بأجمل جمال، إذا آمنوا: (أنَّ اللهَ جَمِيلٌ، يُحِبُّ الجَمَالَ).

إنها فطرة: أن لا يقف البشر في طلب الجمال عند حد منه، مهما بهرهم، ومهما عشقوه، لكي يعلموا أخيراً: أنه لا شفاء لعشقهم هذا، ولا لولههم فيه؛ إلا بأن يحبوا جمال من خلق الجمال، من كان كل جمال نشاهده في الكون من جماله، ولولا عظمة جماله عز وجل ما عرفنا هذا الجمال المخلوق الذي تَـهَـيّـمنا به وتولّهنا فيه!!

ومراعاةً لهذه الفطرة قال رسول الله صلَّى اللهُ عَلَيه وسَلَّم: (زَيِّنُوا القُرآنَ بِأصْواتِكُمْ).

فمهما كان القرآن جميلاً، فإنه يزداد جمالاً بالصوت الحسن! مهما كان مؤثراً، فإنه يزداد تأثيراً بالصوت الشجي! مهما كان معجزاً، فإنه يزداد إخضاعاً للعقول والقلوب بالترتيل المتقن الجميل!!

إن هذا الحديث لهو تأصيل أصيل للفنون الجميلة، فهو يضع قاعدة لها، تقول: اطلبوا الجمال، بل أجمل الجمال، وأتقنوا صناعة الجمال، وتفننوا في التجميل، ولا تقنعوا بحد من حدوده.

ولا تقولوا: وهل هناك أجمل من كذا؟! فكل جمال يمكن أن يكون أجمل، فلا حد لأجمل الجمال؛ إلا عند جمال الخالق عز وجل.

فالحديث بذلك قد وضع فلسفة للجمال تقول: مهما أتقنت الجمال، فهناك ما هو أجمل.

وتقول أيضاً: لا تغتر ولا تكتف بما وصلت إليه من صناعة الجمال، فمهما بلغت، فأنت تغرف من بحر الجمال غير المتناهي! وبذلك مهما أتقنت صناعة الجمال، فأنت مقصر غاية التقصير في صناعته!!

إنها فلسفة لو أتقنها المسلمون، بل لو آمنوا بها فقط، لكانوا أساتذة البشرية في صناعة الجمال.

لكنهم في كثير من التصورات للأسف قد جعلوا من (الزهد) في الدنيا ضداً للجمال، وما علموا أن من صور الزهد الحق أن تكون فناناً في تذوق جمال الكون، لا لذاته، ولكن لتحب الخالق الجميل الذي خلق جمال الكون، فتقدم بذلك كل ما يقربك من جماله عز وجل على كل شيء من جمال الدنيا الناقص الفاني!

وإلا لـماذا كان النظر إلى الله تعالى أعظم من كل نعيم الجنة: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾ يونس: ٢٦، فالزيادة على (الجنة) هي النظر إلى جماله سبحانه وتعالى.

وفي الحديث من الفوائد: تشريعٌ لاستثمار الفنون الجميلة في الدعوة إلى الله تعالى، فالجمال وسيلة جذبٍ مشروعة، وما أعظم خسائرنا الدعوية بإهمال الجمال وفنونه في الدعوة إلى الله تعالى، بل باستعمال ما يناقض الجمال كل المناقضة: من قبيح القول، وسيء الفعل، وتشوه الفكر، وممسوخ الأخلاق؛ في الدعوة إلى الدين!!

وكم يؤلمني استخفاف بعض من يسميهم الناس دعاة وشيوخاً بأثر الجمال وفنونه في بناء الحضارة الإسلامية، بل توسعوا جداً في تحريم وتجريم صور منه، وسعوا بكل جد في إلغاء الخلاف المعتبر في بعضها، فما اكتفوا بالتحريم، بل زادوا إليه التجريم والتشنيع. حتى لقد تشكل توهم عند بعض المسلمين (فضلاً عن غير المسلمين) أن الإسلام يعادي الجمال!!

وبالغ بعضهم في الخشية من الغلو في طلب الجمال، حتى استشكلوا هذا الحديث (زينوا القرآن بأصواتكم)، حتى وصل بأحد أعلام المسلمين من التابعين، وهو الإمام الفقيه الزاهد أيوب السختياني، أن ينهى عن التحديث بهذا الحديث!! خشية أن يُفهم على غير مراد النبي صلَّى اللهُ عَلَيه وسَلَّم، فيُغنى القرآنُ كما تُغنى القصائد والأشعار الغنائية!

ومع احترامنا الكبير لهذا الإمام الكبير، ومع احتمال أن يكون أراد حالة خاصة في وقت خاص؛ إلا أن سياسة منع التحديث المطلق بحديث نبوي سياسة مرفوضة تماماً، خاصة مع تعميم هذا النهي؛ إذ هي مع كونها سياسة لكتم للعلم، فهي تتضمن أيضاً نوع استدراكٍ على البلاغ النبوي الشريف!

ولذلك فقد خالف علماء الإسلام هذا الاجتهادَ من أيوب السختياني، وأبرزوا هذا الحديث في كتبهم، وصححوه، وبوبوا الأبواب بلفظه، وأعلنوا التحديث به، ولا خصوا به أناساً دون أناس!!

ليس هناك ما يُخشى منه في هذا الحديث، فتزيين القرآن بالصوت لن يفهمه عمومُ العقلاء أنه خروج به عن جلال قدره وعظيم غايته في الهداية، فمثل هذا الخروج تقبيحٌ وليس تزييناً.

ولا يصح في السياسة العامة للتعليم والتبليغ أن نراعي شُـذّاذ البشر، على حساب عمومهم وغالبيتهم. لا يصح أن نمنع الجمال؛ لأجل من يشوهونه!! بل يجب أن نعالج من تشوهت فطرهم بكفاية الجمال عن أفكارهم الشاذة التي تسيء إليه، يجب أن نكشف عن أعينهم أغشية القبح.. لا بمنع الجمال، بل بإبرازه وترويض القلب قبل العين على طول تأمله واكتشاف دقائق لذته وحلاوته.

كم في هذا الحديث من دروس الجمال؟! وكم نحن غافلون عنها!!

* * * * *

(لَيسَ كُلُّ مَنْ خالَفَهُمْ، لَـمْ يَفهَمْ كَلامَهُمْ)!

بعض الباحثين يظن أن العلم متوقف عند حدود ما قرره بعض العلماء الذين يعظمونهم، ولأنهم يجدون صعوبة في فهم كلام أولئك العلماء في بعض المسائل العميقة، يظنون أن من خالفهم ما خالفهم إلا لعدم وقوفه على كلامهم، أو لعدم فهمه لهم.

وآخرون يظنون أن الشبهة هي الكلام الذي يشكك في بعض ما كانوا يعتقدونه ولا يجدون له جواباً، فيقولون: هذه شبه لا تشكك في الثوابت (بزعمهم)، وينسون أن الأدلة هي التي لا يقوم شيء بردها، وليس الشبهات. بل الشبهات هي التي تدحضها الأدلة، وتبطلها البراهين.

وهم بذلك يعلنون على أنفسهم بالتقليد، دون أن يشعروا. ويغفلون عن أن العلم أوسع من أن تحده تحريرات عالم من علماء المسلمين.

فإذا اجتمع مع ذلك جهل بمراتب المعارف (من ظنية ويقينية)، وجهل بحقيقة الاجتهاد (والفرق بينه وبين التقليد المبني على القناعة بالدليل)؛ فلا تسل عن مقدار التعالم والجزم في غير موضعه والتحزب للأقوال وأصحابها وإساءة الأدب مع العلم والعلماء.

* * * * *

(عِندَمَا يَسلُبُهُم ذَكَاءُ العَالِـم)

بعض طلبة العلم يسلبهم ذكاء عالم أو قوة حجاجه، فيصبحون أسراء اجتهاداته، يظنون أنها منتهى المطاف، وغاية العلم في تلك المسائل؛ لأنهم بين انبهار بقوة حجاج ذلك العالم، ونقص علم عن فهم وجوه الخلل في بعضها، فلا يجدون فيه إلا ما يشبه الكمال!

فهم بسبب ذلك الاستلاب الفكري يظنون أنه لا يخالفه إلا من لم يقرأ كلامه، أو من لم يفهمه. ولا يعلمون أن غيرهم ربما يكون قد قرأ كلامه، وفهمه، وخالفه لأنه اكتشف مواطن الخلل فيه، التي خفيت عليهم.

ولا مشكلة في أن يظلوا على تقليدهم لحجاجه أسراء لتفكيره، لكن عليهم أن يعترفوا بأنه أحد علماء الأمة، أحد عباقرتها الذين حفلت بهم عصورها، ليس أكثر من ذلك!

عليهم أن يعرفوا أن دقائق المسائل التي يخالفه فيها العباقرة الآخرون ليست واضحات تجيز لهم الإنكار فيها، حتى لو زعم هو أنها واضحات، حتى لو حشد لها ما يدعي به أنه إجماع السلف.

فلا يمكن أن يكون هناك أمر في غاية الوضوح، وهو محل إجماع، ثم يخالفه فيه عامة العباقرة سواه..

* * * * *

فَوَائِدُ الْمُتَزَمِّتِين

من فوائد المتزمتين المتشددين: أنهم سَوَّقوا لكلام المعتدلين، وجعلوه أكثر قبولاً، لدى المتفلِّتين المستثقلين للالتزام بأحكام الشرع!!

فلما يقول المتشدد بوجوب أن يكون الحجاب: عباءة، وسوداء، وأن توضع على الرأس، ولا يجوز وضعها على الكتف، وعندما يقطع بتحريم كشف الوجه. ثم يأتي المعتدل بعد هذا الغلو: ويقول: لا يُشترط في الحجاب شيء من ذلك؛ إلا الستر، وأن لا يكون زينة، ويؤكد أن كشف الوجه خلاف معتبر؛ سوف يقول المتفلِّتون (ومعهم بقية الأسوياء العقلاء) عن هذا الكلام الأخير: يا سلام!! ما هذا الاعتدال!!

ولو سمع بعضهم هذا الكلام المعتدل، ولا سمع بقول المتزمتين: لعدَّ الاعتدال تشدداً، ولطالب بقدر أكبر من التيسير والتسامح (كما يسميه)، وهو في حقيقته مطالبة بالخروج عن أحكام الشرع. فكان وجود المتزمتين سبباً في عدم الغلو في جانب التفلت.

فكان هذا من فوائد المتزمِّتين!

وتخيَّلوا لو طالبنا بوجوب الالتزام بضوابط الشرع في كثير من الأمور (كتمثيل الصحابة، وقيادة المرأة السيارة، وغيرها من القضايا التي أشغلت المجتمع وتشغله من حين لآخر)، هل كانت هذه المطالبات منا ستُقبل، لولا وجود من لا يكتفي بالرفض المطلق والممانعة التامة، بل يضيف إلى المنع المطلق الإنكار والتشنيع على من يبيح بضوابط شرعية!!

فكان وجود هؤلاء المتزمتين دعايةً وإعلاناً مجانياً للرأي المعتدل، وسماداً يُخصِّب أرضية القبول والرضا بالاعتدال عند فئام عريض من الناس، فيكثر عدد قابليه والراضين به، بسبب وجود المتزمِّتين!

ولا شك أن هذا الكلام لا يعطي التزمُّت مشروعية البقاء، ولا هو جواز قبوله وعدم مقاومته. ولكنه يُظهر جانب عجزه عن التسويق لمشروعه، ويُظهر أيضاً قوة الحق، وأنه وإن ضرَّه الباطل من وجوه، فقد ينصره من وجه لا يشعر به! على حد قول النبي صلَّى اللهُ عَلَيه وسَلَّم: (إنَّ

اللهَ لَيُؤَيِّدُ هذا الدينَ بالرَّجُلِ الفاجِرِ)، وقوله صلَّى اللهُ عَلَيه وسَلَّم عن الشيطان: (صَدَقَكَ وهو كَذوبٌ)!

وما هذا المقال؛ إلا سهم من سهام مقاومة الغلو والتزمُّت، أنبه به على عجز خطتهم وفشل منهجهم المنافر للفطرة ولدين الفطرة!

* * * * *

(مِنْ سَمَاحَةِ الشَّرِيعَة)

الأصل في الشريعة عدم الإلزام (بالإيجاب وبالتحريم)، فعامتها هي بين أمرين: تخيير الإباحة، والحث من غير إلزام (بكراهة واستحباب):

- فالعبادات الواجبة: هي أقل بكثير من المستحبات.

- والعبادات الواجبة لا تأخذ من ساعات يومك إلا نحو ٥٪ من يومك، وأقل من ذلك من مجموع ساعات عمرك.

- والأصل فيما سوى العبادات الإباحة، فالمحرمات استثناء في أمور الدنيا.

- وما لا تظهر مفسدته من أمور الدنيا (كالمعاملات) فعامة نهي الشريعة عنه لا يتجاوز الكراهة، لا يصل درجة التحريم. وأما ما تظهر مفسدته: فهو ما تدعو الفطرة لمنعه، وجاءت الشريعة بتحريمه.

وهذا يدل على أن تدين الإسلام تدينٌ اختياري، بمعنى أنه يسعى إلى تنمية التدين الاختياري، وإلى أن تكون تزكية النفس وإصلاح الحياة مسؤولية إنسانية اختيارية.

وما ألزمت الشريعة بما ألزمت به إلا حماية للبشرية من الانحراف الشديد عن صلاح نفسها وحياتها، فيما لا غنى لها عنه.

ولذلك جاءت الإلزامات قليلة جداً، بالنسبة لعدم الإلزام، كما سبق.

* * * * *

نَزَاهَـةُ العِلْمِ

ما أنزه العلم! يتخلله شيءٌ من الجهل، فيصبح مَسْخاً قبيحاً، ما أبعده عن وضاءة العلم ووجهه الممسوح بالبركة! فلا يحتمل العلمُ الخُـلْطة، ولا يقبل إلا أن يكون في صفاء النور وفي نقاء ماء السماء!!

وتُداخله العصبيةُ والحمية الجاهلية، فينحرف: ليكون تقليداً أعمى، وغُلواً في تقديس الجهل، كتقديس من وجدوا آباءهم على أُمة!

ويُنتصَر له بالجماهير، فينقاد العلم لهم، بدلاً من أن يقودهم، ويذل لرغباتهم، فيزدادون به توحشاً وأنانية. بدلاً من أن يهذب طباعهم ويسمو بأخلاقهم!

ويُستقوى له بالدولة وسلطانها، فيُصبح بغياً وظلماً، عبداً خادماً للدولة، ولا تكون الدولة خادمة له، كما يجب أن يكون! لأن العلم لا ينتصر بشيء أجنبي عنه، لا ينتصر إلا ببراهينه وأدلته.

وتُرفع لنصرته الأصوات، وتصيح للدفاع عنه الحناجر، فتضعف حججه بقدر صراخها، ويهترئ حجاب حُرمته بعويلها! فهدوء الحجة كنسمة الريح، لا تلقح الأزهار، إلا إذا كانت قوتها في هدوئها.

أمَّا إذا عصفت الريح، فإنها تكون ريحاً عقيماً: تَحُتُّ الورق وتُسقط الزهر، بل تقصف الشجر، وتقلعها من أساسها!

وقد يُكذَب بدعوى الدفاع عن العلم، فلا يكون إلا دَفْـعاً له ورداً عليه! وإن توهم المدافع غير ذلك، فيكذب الكذبُ عليه، ويخدعه، لما استعمله في الانتصار للعلم!

وإذا استغله المبطلون في باطلهم، فيجهل فوق جهل الجاهلين!! ألا ترون كيف أصبح العلم قنبلة ذرية ونووية، تقتل الشعوب، وتحرق الطفل، وتفسد التراب والهواء، وهي علم.. لـمَّا استغله المبطلون!!

ولا تسعى لرؤية العلم بغير عين البصيرة، إلا واحتجب عليك، وصدَّ عنك، فالبصائر وحدها التي تدركه، وأمَّا الأبصار فلا تدركه.

ولا تطلبه لنفسك، لا له؛ إلا وغار على نفسه، وغرَّك بقشوره، ولم يُبْلغْك لُبابَه. وقشوره تستحيل جهلاً بعد مُدة، لتكون سجوناً من الجهل، تحبسك بين جدرانها، وأنت تظنها هي العلم!!

ولا ارتويت من بعض مائه، إلا وهلكت من ظمأ ملح بحاره! فكنت كمن يموت ظمأ، وهو يركب البحر. لا كمن يستقي بدلوه من عين معينه، لا يظمأ ما دام يستقي!

ولا اكتفيتَ منه بكثير ممَّا ليس عند الناس، إلا وفضحك هو بكثيره، فكثيرك منه أقل من قليله. فتبيّن عند الناس جهلك، وظهر لهم قصورك منه.

ولا طلبته للدنيا، إلا واستعبدتك الدنيا. ولا طلبته له، إلا وصار لله، واستعبدتَ الدنيا.

ولا تحجَّرتَ واسع موارده، فحصرته في مدرستك وشيوخك؛ إلا وغرقت في شبر من حوضه، ولا استطعت العوم في أنهاره وبحاره.

ولا ضاق أُفقك عن سعة سمائه، ولا رفضت حِكمته إلا ممَّن تحب، فتناسيتَ أن الحكمة ضالة المؤمن أنَّى وجدها أخذها؛ إلا وضللت طريق الحكمة، واتبعت هواك، وأنت تظنه الحكمة!

إن العلم هبة الإله، وروحٌ منه، ونورٌ يقذفه في قلب من يشاء من عباده، وقبسٌ من تلك الأقداس، ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ البقرة: ٢٥٥!!

فكيف لا تكون للعلم كل تلك النزاهة؟!

* * * * *

(أَئِمَّةٌ في العِلمِ لَكِنَّهُم لَـمْ يُخَالِفُوا المَذهبَ إلَّا قليلاً)

استوقفني أني وجدت كثيراً من أكابر العلماء ممن بلغوا رتبة الاجتهاد يذكر المترجمون لهم في وصف حالهم: أنهم ربما خالفوا المذهب أحياناً (يعنون مذهبهم من أحد المذاهب الأربعة التي ينتسبون إليها)، اتباعاً لما ظهر لهم من الدليل.

ويذكر المترجمون ذلك في سياق بيان قوة نفسهم الاجتهادي، وقوة شجاعتهم وجرأتهم، وجسارتهم على هذا الأمر الخطير!! وكثيراً ما يعبرون تعبيرات تدل على إمكان عدِّ المسائل التي خرجوا بها عن المذهب؛ فهي مسائل محصورة!!

كل ذلك مع عظيم علم أولئك الأئمة، ومع توفر آلة الاجتهاد فيهم. لا كبعض متمشيخي عصرنا من أدعياء الاجتهاد، ممن ظنوا الانتساب للمذاهب بدعة يجب محاربتها، فنشروا جهلهم باسم الاجتهاد واتباع الدليل!!

ومن هؤلاء الأئمة الذين بلغوا رتبة الاجتهاد، واجتهدوا، لكنهم وجدوا أنفسهم مزمومين بالمذهب وفق دليله؛ إلا في القليل من المسائل: الإمام سراج الدين البُلْقِيني (ت٨٠٥هـ)، أحد أجل شيوخ الحافظ ابن حجر العسقلاني في الفقه، ومن شرب السيوطي ماء زمزم على نية أن يبلغه الله تعالى رتبته في الفقه!

وقال له الحافظ ابن كثير (صاحب التفسير وتلميذ شيخ الإسلام ابن تيمية): (أذكرتنا سمت ابْن تَيْمِية)!!

وقد طُبعت فتاواه مؤخراً، في مجلد كبير فخم: شكلاً ومضموناً.

قال عنه السيوطي: (وانتهت إليه رياسة المذاهب والإفتاء، وبلغ رتبة الاجتهاد. وله ترجيحات في المذهب خلاف ما رجحه النووي، وله اختيارات خارجة عن المذهب، وأفتى بجواز إخراج الفلوس في الزكاة، وقال: إنه خارج عن مذهب الشافعي).

يقول السيوطي هذا في سياق ذكر أمر يستحق التسجيل!!

فلو كان السيوطي في زماننا، هل كان سيفكر في أن ينص على ما خالف فيه المعاصرون المذهب بدعوى الرجوع إلى الدليل؟!

هل كان سيستطيع أن يحصي ما ربما قد خرجوا به عن المذاهب كلها؟!

* * * * *

(كُلُّهُمْ يَظُنُّونَ أَنَّهُم يَتَّبِعُونَ الدَّلِيل)

حتى المتعصبون لأبطل الباطل، من عُباد البقر والشجر والحجر: يظنون أنهم أتبع الناس للدليل!!

حتى تقليد الآباء والأجداد، سيصبح هو نفسه دليلاً؛ فهو إجماع من ذوي العقول الراجحة، ولا يجتمع مثلهم على ضلالة.

حتى الملحدون يظنون أنهم أتبع الناس للعقل وأدلته، وأنهم هم الموضوعيون الذين تجردوا عن رهاب الجماهير.

حتى أنا وأنت قد نظن نفسنا نتبع الدليل، ونحن نتبع ما نحب من الدليل، ونترك ما لا نحب.

إن مراجعة النفس ومحاسبتها بصدق رياضة، تزداد قوتها باستمرارك عليها!

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

(مَنْ يَعتَمِد عَلَى قُوَّةِ الدَّوْلَة)

آخر من يحق له أن يتحدث عن الموضوعية العلمية ونزاهة الخصومة، وآخر من يرمي مخالفيه بفقدانها: من كان وجوده واستمراريته وانتشاره معتمداً ومؤسَّساً على قوة الدولة وسلطانها وعلى دعمها، وعلى ترغيبها وترهيبها!!

هذا لا يحق له أن يعظ في الموضوعية، ولا أن يحدثك عن النزاهة!! لأنه أستاذ في انعدام الموضوعية وفي الأساليب غير النزيهة في دعم آرائه ومعتقداته!!

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

(عَلَى العَالِـمِ الشَّرعِيِّ أنْ يَرجِعَ فِي أُمُورٍ إِلَى أهلِ الاختِصَاص)

الحكم الشرعي قد تكون متعلقاته بالعلوم الدنيوية سطحية أولية، فيكون من السهل على العالم الشرعي أن يعرف وجه الحكم الشرعي فيه، من خلال معرفة متعلقاته من العلوم الأخرى.

لكن الحكم الشرعي في مرات أخرى قد تكون متعلقاته بعلوم الدنيا عميقة جداً:

ـ كتقدير نسبة نجاح عملية جراحية طبية، ومقدار أهميتها للمريض، فهذه مرجعها للأطباء، ويكون موقف العالم الشرعي أن يقول: ما يقرره الطبيب الماهر من حاجة وأهمية وخطورة ونجاح هو حكم الشرع في تلك العملية.

ـ وكتقدير مصالح ومفاسد قرار اقتصادي عام، كرفع أسعار الوقود أو خفضها. يجب أن يكون موقف العالم الشرعي أن يقول: ما كانت مصلحته أكبر ومفسدته العامة أقل، فهو المطلوب شرعاً، وتقدير ذلك يرجع للخبراء الاقتصاديين، بشرط مراعاة المصلحة العامة.

ـ وكتقدير مصالح ومفاسد قرار حرب أو هدنة، يحتاج خبيراً عسكرياً وسياسياً يحدد موطن مصلحة الأمة فيه، ودور العالم الشرعي يقف عند بيان الحكم بناء على ما يقول له ذلك الخبير إنه الخير للأمة.

أما مطالبة العالم الشرعي أن يكون محيطاً بالعلوم، والمنقذ الأسطوري في كل علم، وأن يكون (سوبرمان) الأمة، فهذا من بقايا الكهنوتية التي أخذتها الأمة من الأمم قبلها (اليهود والنصارى)!!

* * * * *

(لا بُدَّ مِنَ التَّفرِيقِ بَينَ هَذِه الأمُور)

هناك لازم مذهب، وهناك لازم البغي في عداوة مذهب!

وهناك مقتضى قول، وهناك مقتضى ما يفتريه فجور خصومة لقول.

وهناك فحوى كلام، وهناك فحوى ما تعكسه الضغائن من معنى الكلام.

ومن لا يفرق بين هذه الأمور، فهو عاجز عن التفريق بين الحق والباطل!!

* * * * *

(لِلتَّحذِيرِ مِنَ الافتِرَاقِ)

حديث الافتراق جاء لتحذير المسلمين من الافتراق، فجعلته الصراعاتُ الطائفيةُ سبباً لتفريق الأمة!

جاء الحديثُ ليبين لنا أن ضلال الأمة وضعفها بتمزيقها شِيعاً وأحزاباً هو أخطر عليها من تَفَرُّقِها في الآراء والأفكار ما دامت لم تُخرج أصحابها من دائرة الإسلام الواسعة، فجعلته الحزبيةُ العقائديةُ دليلاً على وجوب تحزيب الأمة وتقطيع أوصالها!!

جاء الحديث ليقول لنا: لا تتشبهوا بالأمم قبلكم في الانقسامات الطائفية، والاقتتال عليها اقتتال الكفار بعضهم مع بعض، كما في الحديث الآخر: (لا تَرْجِعُوا بَعْدي كُفَّاراً؛ يَضْرِبُ بَعْضُكُم رِقَابَ بَعْضٍ)، فجعله بعضنا دليلاً على حتمية هذا الانقسام وعلى ضرورته شرعاً وقدراً!!

إنه الفقه المنكوس، بل هو انعدام الفقه وانعكاس عدم الفهم!!

* * * * *

(مِفتَاحُ الاعتِرَافِ بِالخَطَأ)

كلما افترى الخصم رحمته أكثر، ورجوت أن يكون بداية هدايته؛ لأن العجز عن الرد؛ إلا بالتقوُّل، عجز متناهٍ، قد يكون مفتاح الاعتراف بالخطأ بعد زوال الغشاوة.

أرأيتم كفار الطائف، سلطوا على النبي صلَّى اللهُ عَلَيه وسَلَّم سفهاءهم وآذوه أشد الأذى، ثم بعد سنوات جاؤوا مصدقين مسلمين، وبلغ بهم إيمانهم أنهم ثبتوا يوم ارتد الناس!

إنه الصبر على العجز عن الاعتراف بالعجز، الذي يأتي تسليط السفهاء وافترائهم عنواناً له، يعقبه انفتاح القلوب الطيبة، واستيقاظ الضمائر الحية، بعد صدودها وإعراضها.

دعوا بذرة الخير تعمل عملها، فستتبت، ولو بعد حين.

* * * * *

(إخفَاءُ الحَقِيقَة)

جنون العظمة: هو أن تطالب بالتغابي، من أجل أن تخفي الحقيقة، وتظن أنك بهذه الطريقة ستخفيها!!

لا تقولوا الحقيقة؛ لأن هذا يهددنا!

لا تقولوا الحقيقة؛ لأن الحقيقة تهدد الوطن!!

لا تقولوا الحقيقة؛ لأن الحقيقة ليست هي الحقيقة!!

عندما يصبح التغابي مشروعاً وطنياً، فماذا تتوقعون من الوطن أن يكون؟!

عندما يكون التغابي تحصيناً دينياً ضد معرفة الحقيقة، متى نتوقع الإصلاح؟!

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

مَغَالِيقُ العُقُولِ عَنِ الإصلاح

هناك أقفال تمنع انفتاح أبواب التفكير، وهناك مغاليق تسد كل منافذ التعقُّل، ومن هذه الأقفال والمغاليق:

أولاً: التعالي واعتقاد الرفعة بالمنهج والفهم والعلم، فمشكلة المذاهب المتعالية أنها تغلق على نفسها بذلك كل باب للإصلاح:

فعندما كفَّرَ الخوارجُ الصحابةَ رضوان الله عليهم وكل الأمة ممَّن لم يدخل في فئتهم، أصبحوا محاطين بسياج غليظ من أن يستفيدوا من سادة الأمة علماً وإيماناً (وهم الصحابة رضوان الله عليهم)؛ إذ كيف يُؤخذ الدين من الكفار؟! وأنَّى يُؤتمن الكفار على العلم والإيمان؟!

وعندما تحكم أي طائفة بكفر مخالفيها أو بضلالهم بغير حق، لا يمكن أن تستفيد منهم، ولو كان مخالفوهم محقِّين. ولن تعرف هذه الطائفة خطأها، مادامت محيطةً نفسها بسياج هذا التعالي.

ثانياً: السطحية في تناول مسائل العلم، تجعل العمق فيه تفيقهاً وتأويلاً محرِّفاً وإخراجاً للنص عن ظاهره المراد. مع أن ظاهره قد يكون غير مراد أصلاً، أو مع أن ظاهره في حسبانهم قد لا يكون هو ظاهره في الحقيقة؛ إلاّ في سطحية فهمهم للنص وضعف ملكتهم اللغوية أو الذهنية في الاستنباط.

فإذا انضم التعالي إلى السطحية: أصبح التعليم والتفهيم في غاية الصعوبة؛ إذ كيف يفهم من يعدُّ الفهم الصحيح مغاليط خادعة وتفاسير باطلة؟!

وهذا ما وقع للخوارج أيضاً، وكانت السطحية في فهم النص هي إحدى أبرز علاماتهم في النص النبوي، عندما قال صلَّى اللهُ عَلَيه وسَلَّم: (يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم)، فمن معاني هذا التشبيه البليغ: أنهم يقرؤون القرآن بسطحية بالغة، فلا يفهمون فقهه الحقيقي.

ولا نجاة لصاحب السطحية من سطحيته؛ إلَّا بتزكية نفسه، ليقبل الاعتراف بسطحيته أولاً، ثم بحاجته إلى التعلُّم ثانياً.

أمَّا بغير ذلك، فلن يزداد إلَّا بعداً! ولذلك كان هذا هو أحد معاني القول السابق للنبي صلَّى اللهُ عَلَيه وسَلَّم عن الخوارج: (يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم): أي لا يصل إلى قلوبهم فيزكيها، فهم كالأرض السبخة الخبيثة، لا يؤثر الغيث وماؤه المبارك فيها، فلا تنبت نبتاً ولا تحفظ ماءً.

ثالثاً: اتباع الهوى والتعصب. فلا شك أن اتباع الهوى من أعظم مغاليق الإصلاح، وهو من أعظم الصواد عن الحق. لكنَّ كثيراً من الناس يظن اتباع الهوى ينحصر في الصورة الصريحة له، وهي صورة من عرف الحق كما يعرف نفسه، ويصر مع ذلك على باطله.. استكباراً واضحاً وعناداً مفضوحاً.

وهذا الحصر غير صحيح؛ لأن من أعظم صور اتباع الهوى خطراً ومن أكثرها انتشاراً: عندما يختلط اتباع الهوى بشبهة، فكلَّما أراد صاحب هذه المعركة النفسية أن يحاكم الشبهة وحدها خذله اتباعه لهواه، فعجز عن اكتشاف خللها.

وكلَّما أراد أن يحاكم اتباعه لهواه صِرفاً خانته شبهته عن رؤية اتباعه للهوى، فاستمر منجرّاً لحبل هواه يقوده إلى الباطل. فلا يزال كذلك، في دوامة بين الشهوة والشبهة، حتى يهلك، أو ينقذه الله تعالى بهدايته، ثم بصدقه هو في ابتغاء معرفة الحق واتباعه.

ولذلك كان الخوارج يصدون أنفسهم عن محاكمة النفس بكثرة العبادة الظاهرة، كما قال صلَّى اللهُ عَلَيه وسَلَّم: (تحقرون صلاتكم مع صلاتهم، وصيامكم مع صيامهم، وعملكم مع عملهم). فهم (من جهة) يصلون ويصومون ويتعبَّدون كي يستشعروا التفوق الإيماني على الصحابة رضوان الله عليهم فيتعالون على الاستفادة منهم، وهم (من جهة أخرى) يصلون ويصومون ويتعبَّدون كي يخادعوا أنفسهم بعدم انسياقهم لأهوائهم!

ولذلك كان قد استوقفني حديث صحيح لأحد الصحابة، وهو جندب بن عبدالله البجلي رضي الله عنه يحكي أنه لما رآى شباباً في مسجد البصرة يصلون ويتعبدون، وعلم (فيما يبدو) أنهم يحملون فكر الخوارج؛ لأنهم قد خرجوا بعد ذلك فعلاً! فنظر رضي الله عنه إليهم، ثم قال: سمعت رسول الله صلَّى اللهُ عَلَيه وسَلَّم يقول: (من يُسمِّع يُسمِّعِ الله به، ومن يرائي يرائي الله به).

وكان ممَّا وعظهم به أيضاً: قوله صلَّى اللهُ عَلَيه وسَلَّم: (إنما أتخوَّف عليكم رجلاً قرأ القرآن، حتى إذا رئي عليه بهجته، وكان ردءاً للإسلام، اعتزل إلى ما شاء الله، وخرج على جاره بسيفه، ورماه بالشرك)، فكان هذا ما وقع من الخوارج قديماً وحديثاً.

فكنت أعجب من سبب قول هذا الصحابي لهذا الحديث: (من يُسمِّع يُسمِّعِ الله به، ومن يرائي يرائي الله به)، وهو إنما رآى قوماً يصلُّون ويتعبدون، والقلوب ونياتها إنما علمها عند الله تعالى.

لكني لما علمت علاقة خبث النفس بمخادعة كثرة العبادة الظاهرة لها عن علاج دائها، علمت لماذا اتهم هذا الصحابي الجليل رضي الله عنه عُباد الخوارج بالرياء والسمعة؛ لأن العبادة الزكية (الخالصة) تزكي النفس، وأمَّا عبادة هؤلاء فتُدسِّسُها وتُـخبِّـثُها؛ لأن الدافع إليها عندهم إنما هو خداع النفس بالطهورية والنقاء، لكي لا تنتبه لاتباعها حظوظها، ولا تلحظ تعاليها عن الحق واغترارها الذي يمنعها عن التواضع لمن هو أعلم وأفقه منها.

وهكذا تنغلق أبواب النفع عن القلب، وتنطمس منافذ النور إليه، فلا يكاد يزداد صاحب هذا الانغلاق من الله إلَّا بُعداً، ومن العلم إلَّا جهلاً، ومن الحق إلَّا بُغضاً!!

* * * * *

دَعوَى التَّكفِير بِالظَّنِّ عِندَ الإمامِ الغزالي

وقفت على كلام لأحد طلبة العلم، ينقل فيه عن الإمام الغزالي أنه يجيز التكفير بالظن الغالب، واحتج هذا الطالب بقوله رحمه الله في كتابه (الاقتصاد في الاعتقاد): (فإذا أردت أن تعرف سبيل الحق فيه: فاعلم (قبل كل شيء) أن هذه مسألة فقهية، أعني الحكم بتكفير من قال قولاً وتعاطى فعلاً، فإنها تارة تكون معلومة بأدلة سمعية، وتارة تكون مظنونة بالاجتهاد، ولا مجال لدليل العقل فيها البتة).

ففهم من قوله: (وتارة تكون مظنونة بالاجتهاد): أن الإمام الغزالي يجيز التكفير بالظن الغالب، ولا يشترط اليقين.

ومع أن الإجماع محكي بأن: من دخل الإسلام بيقين، لم يخرج منه إلَّا بيقين، مما كان يوجب على هذا الطالب محاولة فهم هذه العبارة من الإمام الغزالي بما لا يخالف الإجماع؛ لأن هذا هو الأصل: أن أهل العلم لا يخالفون الإجماع؛ إلا خطأ نادراً!

ولكن أيضاً في نفس هذا الموطن سيجد القارئ كلاماً يعارض ما فهمه هذا الطالب من كلام الإمام الغزالي، في هذا الفصل نفسه، مما لا يرد معه أن يكون تناقضاً ناشئاً عن نسيان أو غفلة:

ـ فقد قال الغزالي في هذا الفصل نفسه: (والذي ينبغي أن يميل المحصل إليه: الاحتراز من التكفير، ما وجد إليه سبيلاً. فإن استباحة الدماء والأموال من المصلين إلى القبلة المصرحين بقول لا إله إلا الله محمد رسول الله خطأ، والخطأ في ترك ألف كافر في الحياة أهون من الخطأ في سفك محجمة من دم مسلم).

فهل هذا كلام من يستبيح التكفير بغلبة الظن؟! وهو يصرح أنه يجب الاحتراز من التكفير، ما وجد إلى ذلك سبيلاً. وأي سبيل أظهر من ورود الاحتمال المانع من اليقين، والذي لا يرتفع عن درجة الظن؟!

وأي طلب لليقين أكثر من التصريح بأن الخطأ في ترك ألف كافر في الحياة أهون من الخطأ في سفك محجمة من دم مسلم؟!

ـ بل ها هو الإمام الغزالي نفسه يصرح بالقاعدة المجمع عليها المذكورة آنفاً، وفي هذا الفصل نفسه أيضاً، حيث يقول فيه: (وثبت أن العصمة مستفادة من قول لا إله إلا الله قطعاً، فلا يُرفع ذلك إلا بقاطع).

فهذان النصان قاطعان بأن الإمام الغزالي لا يجيز التكفير بالظنون الراجحة، وأنه يشترط اليقين فيها.

* * * * *

(كَيفَ نَتَعَامَلُ مَعَ التُّرَاث)

حذَّر العلماء من زلات العلماء منذ جيل الصحابة رضوان الله عليهم، يوم كان العلماء كثيراً بالنسبة للعصور التي تلت زمنهم، ويوم كانوا علماء حقاً: أرسخ من الجبال علماً وإيماناً.

ثم قلَّ العلم والإيمان، وقل العلماء بعدهم، فكم زاد عدد زلات العلماء؟!

ثم توالت القرون، فازدادت الزلات بازدياد العلماء وبازدياد أنصاف العلماء، وتجمعت زلات المتأخر مع زلات من سبقه، وتكاثف الزلل بعضه فوق بعض!

وما زال عدد زلات العلماء في تكاثر، وفي انتشار في كل أبواب العلم، فلا تكاد تجد باباً إلا وفيه خلاف، ولا تكاد تجد خلافاً إلا وفيه من زلل الكلام في العلم الذي لا يسوغ اعتباره.

فمن رجع إلى هذا التراث بلا تمحيص كان كمن نبذه تماماً، كلاهما يمكنه اتباع الهوى صرفاً: من خلال الرجوع إلى التراث والغلو في تعظيمه، ومن خلال نبذه وهجره والاستخفاف به أيضاً!

أما متبع هواه ممن نبذ التراث: فسيجعل هواه هو قائده إلى فهم الشريعة، بدعوى الاكتفاء بالقرآن، أو بدعوى الاكتفاء بالكتاب والسنة، بلا ضوابط تبين الفهم الصحيح لهما من الفهم الخاطئ.

وأما متبع هواه ممن يعظِّم التراث (لكن بغير تمحيص): فإنه لا يكاد يميل هواه إلى رأي، إلا وسيجد في زلات التراث ما يدعمه، فيسجعله عمدة في إحياء موات الأخطاء وفي تسويغ زلات العلماء غير السائغة.

فما أحوج التراث إلى تنقية، وما أحوج تنقيته إلى علم راسخ يميز بين صوابه وما يحتمل الصواب منه، (ولو كان احتمالاً مرجوحاً)، عما نقطع بخطئه من زلاته.

* * * * *

(طَائِفَتَانِ تُسِيءُ لِلوَحيَيْنِ)

يسيء للوحيين (الكتاب والسنة) طائفتان:

- قوم جعلوا فهوم العلماء السابقين واجتهاداتهم الظنية هي الوحي نفسه، بتعصبهم لها، ودفاعهم عما لا يستحق الدفاع عنه منها.

- وآخرون من المعاصرين جعلوا فهومهم هم واجتهاداتهم الظنية هي الوحي نفسه، بقطعهم بصوابها، وجزمهم بخطأ ما سواها.

فالطائفة الأولى جمدت على التراث، والطائفة الثانية استخدمت الجمود أيضاً، لكن في فهمها؛ حيث جعلت فهمها هو الفهم الوحيد، فكانت وجها آخر لجمود مخلوط بغرور!

فكلا الطائفتين جامد، لكن الفرق بينهما أن الطائفة الأولى جمدت على فهم غيرها، والثانية جمدت على فهم نفسها.

والطائفة الأولى: جمدت على فهم علماء وأئمة غالباً، والطائفة الثانية: جمدت على فهم لعقل كليل وعلم قليل غالباً.

والطائفة الأولى ربما وسمت تقليدها بالاتباع، وحسبت نفسها تتبع الدليل استقلالاً، فلا تعترف بالتقليد.

وأما الطائفة الثانية فتزعم الاجتهاد والاستقلال، ولا شك عندها في ذلك.

والطائفة الأولى فتنة للثانية، فالأولى بتبعيتها العمياء وعجزها عن التمحيص والتفكير تجعل الثانية نافرة من التراث كارهة له.

والطائفة الثانية فتنة للأولى، فالثانيةُ بشذوذاتها وبتطاول جهلها على العلوم تجعل الأولى أشد تعصباً وتقديساً للتراث البشري الاجتهادي.

وتتفق الطائفتان في شيء: كل طائفة تزعم أنها هي التي تحمي الإسلام وتدافع عن حياضه!!

وبينهما يضيع الإسلام، وتهدم حياضه؛ لولا حفظ الله تعالى.

* * * * *

(بَيْنَ نَارَيْنِ)

أصعب شيء على نفسي الرد على الجاهل المتعالم؛ لأني بين نارين:

ـ نار إيلامه ليتأدب ويتواضع فيستفيد، وهي نار تؤلمني قبل إيلامه.

ـ ونار الخشية عليه من عدم الاستفادة، والاستمرار على تعالمه، فيما لو رفقت به، أو كان إيلامه يسيرا لا يوقظ فيه فكرته ولا يفتح له عين بصيرته.

فقولوا لي ما الحل؟!

لا تقولوا: الرفق دوماً؛ لأن هذا لا يقول به نقل ولا عقل، وإلا لما شُرعت العقوبات التأديبية، وإلا لكان الرفق هو السلبية والعجز.

ولا تقولوا: هو الشدة دوماً، ولا عليك في الهالكين؛ لأن كل مسلم يحب خير الهداية والبصيرة والعلم لكل مسلم، بل لكل إنسان.

* * * * *

(الذِي يَظُنُّ أَنَّه لا يَحتَاجُ إلى إصلاح)

قرأت مرة أن أحد اليهود، وهو شاوول بيلو (وهو أديب من أصول روسية، حائز على نوبل) أنه قال: (يمكن استثمار قدر كبير من الذكاء في الجهل: عندما تكون الحاجة للانخداع كبيرة).

فتذكرت الفكر المتطرف والمتعصبين له؛ لأنه أكثر العقول استثماراً في الجهل، بسبب شدة الحاجة للانخداع!

المصلح الذي يظن أنه هو نفسه ليس في حاجة إلى إصلاح، سيكون في إصلاحه بذور الإفساد؛ لأنه سيبذر بذور الغرور والتعالي والشعور بالفوقية في المدعويين، وسيكون هؤلاء هم نبتة التفرق والتشرذم في المجتمعات!

المصلح الحقيقي هو الذي يتيقن أنه هو نفسه مفتقر غاية الافتقار للتصحيح والإصلاح، ولا يزال يطلب وجوه النقص لديه؛ لأنه متيقن غاية اليقين أن بينه وبين علم السلف وإيمانهم وفقه نفوسهم وزكائها كما بين السماء والأرض؛ فأنَّى لا يسارع إلى صلاح حاله، مع سعيه في إصلاح الآخرين بما تيقن أو غلب على ظنه أنه هو الصواب.

* * * * *

(غَرْقَى فِي وَهْمِ النَّقَاءِ والصَّفَاء)

ما زال هناك فئام من المسلمين غرقى في وهم الطهورية والنقاء والصفاء، فهم الإسلام الصافي، وهم الملة الحنيفية، دون بقية المسلمين!

ولذلك يتصورون أن دورهم ينحصر في إنقاذ البشرية كلها، وعلى رأسها المسلمون! فهم ليسوا محتاجين إلى إصلاح حالهم؛ إلا بقدر تصحيح تقصيرهم في القيام بدور المنقذ من الضلال!!

فهم أبدا لن يكونوا إلا مصلحين، لا منصلحين!!

لا يتحدثون عن المسلمين إلا حديث الطبيب عن المجذوم، والراقي عن الممسوس، والمغيث عن الملهوف! فهم في باب الهداية لن يكونوا إلا اليد العليا دائماً، واليد العليا خير من اليد السفلى، وهم يستشعرون هذ العلو الذي ارتفع حتى حك بأنفه قمة جبل إفرست!

يحسبون أنهم المبشَّر بهم (الطائفة الناجية)، وأنهم وحدهم الموعودن بالملائكة المردفين (الطائفة المنصورة)!

ومازالوا ينتظرون انفرادهم بفتح رومية (روما)، طبعا قبلها القسطنطينية (استنانبول)؛ لأنهم غير مقتنعين بأنها قد فُتحت، ما دامت رايتهم لم تخفق في ربوعها!

لا يريدون أن ينظروا إلى حقيقة أنهم كغيرهم، بشر ممن خلق، عندهم صواب وخطأ، واقتراب من السلف، وابتعاد، ولا يستغنون عن مراجعة النفس، والاستفادة من غيرهم، كما يفيدون هم غيرهم سواء!!

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

(مَعَ وُجُودِ كُلِّ هَذِهِ الفِتَن)

ـ رغم كل هذه الفتن التي تحيط بنا، والتي تنذر بشر عظيم؛ إلا أن تداركنا رحمة الله..

ـ رغم كل هذا التشرذم الذي يخجل منه التشرذم في كل مكان..

ـ رغم كل هذا العداء المشتت لأهل الإسلام، والذي فكك المفكك وفتت المفتت..

ـ رغم استغلال أعداء المسلمين لهذا التعادي بيننا أوضح استغلال وأشنعه، حتى وصل حد استغبائنا واستحماقنا، ونحن نتفرج..

ما زال بعض طلبة العلم يجتهد في إثبات أن الأشعرية ليسوا من أهل السنة، ويعد هذه معركته التي لا تقبل الهدنة!!

هذا لو كان موجوداً في زمن صلاح الدين الأيوبي الأشعري، وفي أيام معركة حطين، لكان طابوراً خامساً ضده مع الصليبيين!!

* * * * *

(الانغِلاقُ الفِكْرِيُّ، أسبَابُهُ وعِلاجُهُ)

لا بد أن نعرف أسباب الانغلاق الفكري لنضع حلولاً له:

فأسبابه:

١ـ الجهل الذي يجعل المجتمع يخاف العلم ويخاف الجديد، وعلاجه نشر العلم.

٢ـ الغرور باعتقاد الكمال واحتكار الصواب والدين والسنة، ومن كان كذلك سيظن في نفسه الاكتفاء الذاتي وعدم الحاجة إلى غيره، فيقوده ذلك إلى الانغلاق. وعلاجه يكون في التواضع وإدراك جوانب النقص والقصور التي لدينا.

٣ـ بناء أسوار نفسية تمنع الانفتاح:

ـ كفتاوى تحريم الاطلاع على نتاج الاجتهادات البشرية التي تخالف اجتهادات مدرستنا، ومنعها وتجريمها.

ـ وكتحريم حوار المختلف، بحجة أن بعض السلف نهى عن مجادلة أهل البدع.

ـ وكتحريم مشابهة الكفار مطلقاً، حتى فيما فيه نفع مادي أو معنوي.

كل هذه أسوار تصنع الانغلاق الفكري.

٤ـ الشعور الباطن بالضعف المعرفي أو بالخواء الأخلاقي أو بالانهزام الحضاري، فيخشى الضعيف من أن يكون انفتاحه سبباً في ذوبانه في دين الآخر الديني أو أخلاقه أو حضارته، فيلجأ إلى الانغلاق وسيلةً للتحصين في ظنه.

وعلاج هذا السبب:

ـ أن تُبيَّنَ له جوانبُ القوة في دينه، بترسيخ محكمات الدين بالأدلة الشرعية: (نقلية وعقلية).

ـ وأن تكون أخلاقه نابعة عن قناعة حقيقية (لا رقابة مجتمعية أو قانونية فقط) وعن رقابة ذاتية.

ـ وأن تكون معرفته بحضارته معرفة عميقة، تتيح له رؤية جوانب العظمة التي فيها، وجوانب النقص التي في غيرها.

فإن قيل: كيف يجتمع الغرور مع الشعور بالضعف؟

والجواب: أن الغرور أصلاً لا ينشأ إلا مع شعور بالنقص. هذا أولاً.

وثانياً: قد تجتمع هذه الأسباب في شخص أو مجتمع وقد تفترق.

* * * * *

لِـمَاذا يُخفُونَ ويَخَافُونَ اختلافَ العُلَماء؟!

سؤالٌ وجيهٌ جداً، في زمن انفتاحٍ، تفشل فيه كل خطط الإخفاء، وتشيع فيه مفاهيمُ وقِيمُ النِّسْبيَّةِ بغلو شديد، حتى تَوهَّمَ كثير من الناس سَرَيانَ النِّسبيَّة حتى في الثوابت اليقينية، ومع ذلك لا يزال يوجد من يخشى من ذكر اختلاف علماء الأمة، كالأئمة الأربعة!! أين يعيش هؤلاء الخائفون؟! كيف يفكِّرون؟! ومَن جعلهم في موطن التوجيه والتأثير؟!

وفي هذا السياق، وقبل أسابيع قريبة، جلس إليَّ أحدُ طلبة العلم المتقدِّمين في الطلب، وهو من منطقة مشهورة بانغلاق مدرستها الفقهية، وبميلها الكبير إلى التشدُّد.

وما اجتمع معي إلا لظروف سفر ألجأته إلى مجالستي، وإلا ما كنت أظنه سيفكر بالجلوس إلى هذا الرجل المعروف بآرائه المخالفة لمدرسة نشأ هو عليها!

فبدأ بالحديث عن مسألة، ففوجئ برأيي فيها، وفوجئ لـمَّا علم الخلاف الكبير الذي فيها، ثم فوجئ أكثر بردودي على استدلالات مدرسته التي يعرفها معرفة تامة. وظهرت آثار الاندهاش عليه، وصار يبحث عن اعتراض، فكنت أجيبه، وربما أوردت الاعتراض قبل أن

يذكره، فأرى في وجهه علامات الاستغراب، فلا يكون جوابي عليها بأشد غرابة عنده من علمي بالاعتراض قبل ذكره إيَّاه!!

وهو لا يعلم أني خريج مدرسته، وأني خبرتها أحسن من أكثر المنتسبين إليها، ولذلك أعرف مداخلها ومخارجها!!

وكان هذا الرجل ذكياً لَـمَّاحاً، ولديه تململٌ خفي من التشدُّد، لكنه كان بين أسر مدرسته التي حصرت الدين في اجتهاداتها وضغط حياةٍ إسلاميةٍ وتَوسُّعٍ شاهده خلال سفراته الكثيرة، جعلته يميل إلى التخفِّي بالتوسع، على أنه في حسبانه ضعفُ وازعٍ إيمانيٍّ يتستر به عن أهل بلدته، لا على أنه تيسيرُ الدِّين وفسحته، بل على أنه ضعف التزامه وزلته. فكان بذلك بين نارين، الله أعلم بعذابهما!!

وخلال فترة قصيرة، تكرر حديثه معي. وتكرر المشهد السابق معه، في بضع مسائل معدودة.

وفاجأني مرة، فصرَّحَ لي بعفوية معبِّرة عن لومه لشيوخه، لماذا لم يعرضوا مسائل الاختلاف المعتبر بكل تجرُّد ووضوح؟! لماذا يوهموننا دائماً ـ حسب كلامه ـ أن خلاف ترجيحهم قول ضعيف لا حظ له من النظر، إذا اضطُروا إلى الإشارة إلى الاختلاف؟!

والحقيقة أن هذا المشهد تكرر لي مع آخرين عديدين غير صاحبنا هذا، ولايزال يتكرر.

لكن الغريب في هذا الرجل خاصة، أني لمحت منه في إحدى آخر الجلسات نظرات تخوُّف من استمرار حديثي معه حول إحدى المسائل التي هي من قبيل المسائل السابقات، التي كان يأخذ فيها بقول مدرسته المتشدِّد، والصواب فيها كان في التيسير الذي عليه جمهور الفقهاء سواهم!

رأيته وكأن نظرته تطلب مني الرفق بقلبه، وكأنه يقول: حنانيك! أخشى أن أبغض مدرستي! أخشى أن أكره شيوخي! أخشى أن أشعر بضياع عمري على منهج رُبينا عليه!!

فقد كان في البداية يستفصل عن الأدلة، ويحاول الدفاع عن ترجيح مدرسته، بكل ما يستطيع.

أمَّا في الأخير، فصار يكتفي بسماع ترجيحي، وبداية استدلالي، ثم يبلع ريقه، وبشرب عليه جرعة ماء، ثم يهرب بفكره (أو ينتقل) إلى مسألة جديدة!!

هذا الطالب إذا لم يُوفق لمن يأخذ بيديه إلى فسحة الفقه الحقيقية، فقد يصل به العذاب إلى أن يكون مشروع انتكاسة حقيقية!! ومثله كثير!!

فاتقوا الله يا شيوخ القطع والجزم في ظنون الترجيح، فقد أصبحتم مشروع انتكاسة عن الدِّين!!

* * * * *

(الجُمُودُ عَلَى التُّرَاثِ خَيرٌ مِنْ فَوضَى الاجتِهَاد)

جاءت فترة (في بداية النهضة الإسلامية الحديثة بعد الاستعمار) كان الجمود هو سبب ظهور فوضى الاجتهاد ودعاوى التجديد.

أما اليوم فأوشكت أن تصبح فوضى الاجتهاد هي أكبر دواعي التسويق للجمود؛ لأن الجمود على تراثنا مع كثرة صوابه خير من فوضى اجتهاد تغلب عليه أخطاء تبلغ في فحشها حد الحماقات!!

* * * * *

(خُطُورَةُ السُّكُوتِ عَنْ أخطَاءِ المُتَحَدِّثِينَ بِلِسَانِ الشَّرع)

عندما تدعي طائفة من الناس أنها هي الممثل الوحيد للإسلام الصافي، في حين أنها كثيرة العيوب والنواقص التي تُفسد التصور الديني وتفسد الحياة ولا تصلحها، وتضرب الوحدة الإسلامية في مقتل، فستكون سبباً في التوجه للإلحاد واللادينية؛ لأنها أنشأت أبناءها وأقنعت كثيرا من المسلمين بأنها هي من يمثل الدين.

فإذا انكشفت عوراتها الفكرية والأخلاقية، وإذا اتضحت وجوه من خلل تصوراتها التي لا يمكن أن تصح نسبتها لحكيم؛ كان ذلك سقوطاً للدين كله عند من ظنها خير من يمثل الدين وأفضل من تحدث باسمه!!

خاصة إذا جاء بيان عوراتها من عدو للدين، وإذا حصل انكشافها من خصم للإسلام؛ لأن مثل هؤلاء لن يعطي نقدهم بديلاً دينياً، بل سيكون نقدهم بديلاً ضد الدين!

وهنا يأتي أحد مكامن الخطر في سكوت الشرعيين عن بيان أخطاء خطاب بعض المتحدثين بلسان الشرع: أنه سكوت يتيح للاديني أن يكون هو البديل المتاح لانهيار الدين في نظر من ظنوا الدين وتصوراته محصورة في خطاب مدرسة ضيقة واحدة ادعت أنها الطائفة الناجية الوحيدة!

وهنا يتبين أنه من أوجب الواجبات نقد أخطاء هؤلاء بخطاب ديني، نقد لا يريد إقصاء الدين، بل يدعو إليه، لكن بتصحيح الأخطاء ونقد الممارسات وتصفية التصورات الدينية من كدرها؛ حتى لا يترك ساحة النقد لمن يستغل خطأ بعض الشرعيين للتنفير من الشرع كله ويستثمر وجوه خللهم في إسقاط هيبة الدين من قلوب المسلمين.

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

(كَيفَ تَعلَمُ أَنَّ جُرأَتَكَ عَلَى مُخَالَفَةِ السَّائِدِ لَيسَ غُرُوراً)

الجرأة على التصريح بالفكر المخالف للسائد، تشتبه كثيراً بالغرور والتعالي على المجتمع.

ومن أكثر ما يجعلك تطمئن إلى سلامة منهجك، وإلى ابتعاد جرأتك عن ذلك الاغترار هو: أن تكون جرأتك حاضرةً وقوية في الاعتراف على نفسك بالخطأ؛ لأن هذا يدل على أنك قد سلمتَ من داء الغرور، وسلمت من داء الترفع على المجتمع.

فانظر إلى نفسك: فإذا كنت جريئاً في إعلان غلطك، كما أنك جريء في تغليط المجتمع، فأنت سالم من غرور التعالي على المجتمع.

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

الفُنُونُ والإسلام

لئن كانت اللغة هي وعاء الأفكار، فإن الفنون هي وعاء المشاعر، وخاصية الإنسان إنما تتركَّب من أفكار ومشاعر، والأفكار والمشاعر هما أهم محرِّكات الحرية، فلا يمكن للحرية أن تُنتج أفعالاً اختيارية إلا بوجود فكر ومشاعر، والحرية هي منطلق التكليف، فلا تكليف بغير قدرة على الاختيار الحر، والاختيار الحر إنما تُوجِّهُه الأفكارُ والمشاعر!

وهكذا يعود الدوران حول الأفكار والمشاعر في إظهار تميز الإنسان!

وهو ما يبين أن الأفكار والمشاعر هما مناط التكليف، وهما سبب سعادة الإنسان وشقاوته. فمَنْ صحَّت أفكاره ومشاعره فهو الذي سيكون ناجحاً في اختبار التكليف، ومن فسدت أفكاره ومشاعره فهو الفاشل في هذا الاختبار.

فالأفكار هي التي تُشكِّل العقائد، وأما المشاعر فكما أنها هي التي تدعو للصدق مع المبادئ والتفاني من أجلها والعمل بمقتضاها، فهي أيضاً الداعية إلى تشكيل الأفكار أيضاً وتكوين العقائد أصلاً. ألا ترون قول الله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْدَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبّاً للهِ﴾ البقرة: ١٦٥، وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ﴾ التوبة: ٢٤، كيف جعل الله تعالى شعور الحب سبباً للسعادة والشقاوة، وكيف جعله سبحانه دليلاً على العقائد.

فمَنْ ساوى بين حبه لله تعالى وحبه غير الله من الآلهة والأرباب الباطلة، لن يقبل الإقرار بتوحيد الله تعالى، ولن يحب التعرُّف على دلائل التوحيد أصلاً.

ومَنْ قدَّم حب الدنيا على حب الله تعالى وحب رسوله صلَّى اللهُ عَلَيه وسَلَّم أنّى له أن يفديها بنفسه وماله في الجهادين (الأكبر والأصغر)، وأنّى له أن يكون صادقا مع مبادئه عملياً، حتى لو كان مسلماً موحِّداً!!

فإذا تبيَّنت أهمية المشاعر تبيَّنت أهمية وعائها، وهي الفنون.

وكلنا يعلم أنه لم تقم حضارة بغير وعائيها هذين:

ـ وعاء أفكارها: اللغة. فقوةُ اللغة قوةٌ للأفكار، وضعفها ضعفٌ للأفكار. فليست الأفكار سوى كلمات في الذهن، لا يمكن أن تتشكَّلَ الأفكارُ إلا كذلك.

ـ ووعاء مشاعرها: الفنون. فقوة المشاعر هي الدافع لتحرير الأفكار وتصفيتها، وهي القوة الدافعة إلى التعمُّق فيها، وهي روح الإبداع القائم على الخيال الواسع الذي يتجاوز الفكرة الحاضرة إلى الفكرة الغائبة.

وهناك ميزة للفنون لم أذكرها سابقاً: أنها وعاء الجمال أيضاً، والجمال هو نعيم الدنيا الذي به تُعمر الأرض، وبه يُشكَرَ الربُّ عز وجلَّ، وبه يُـحَبّ؛ فالله جميل يحب الجمال ويحبه الجمال، وبه يتمكن الإنسان من التفرُّغ لعبادة الله تعالى متلذذاً بها أعظم لذة.

حتى الجهاد في سبيل الله تعالى لا يمكن أن نعبد الله تعالى به إلا بالفنون، ففوق ما يُطلق عليه بـ(فن التخطيط للمعارك) و(فن إدارة المعارك) و(الفنون القتالية)، وهي فنونٌ فعلاً؛ فالإعداد لقوة الجهاد المأمور بها في كلام الله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ الأنفال: ٦٠ إنما تقوم على التقنية، حيث الأسلحة الحديثة نتاج العلم والتقنية المتطورة، وهذه التقنيات التي تُنتج الأسلحة الحديثة لم يُتوصَّل إليها إلا بإبداعات الفكر من علوم وفنون، فالخيال الواسع الذي هو فضاء الإبداع لا ينمِّيه إلا الفنون!

أقول هذا وأكرره لكي أقنع التيار الديني المعاصر بأهمية الفنون، ولكي لا ينظروا إليها نظرة سطحية تجعلها من نوافل الاهتمامات ومن توافه الأمور، فضلاً عن تضييق مباحتها بالتحريم غير المنضبط والتشديد غير المعتبر.

الخلاصة: لن تقوم للإسلام قائمة بغير فنون راقية تحرص على التفوق والتميز على فنون الحضارات الأخرى، كما لن تقوم للإسلام قائمة بغير فكر عميق مبدع، ينافس أمم الأرض.

* * * * *

(بَينَ العَالِـمِ والعَابِد)

يهضم العالم نفسه أمام العابد، فيقول: إنما العلم الخشية، ويهضم العابد نفسه أما العالم فيقول: فضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب!

فيأتي أدعياء العلم أو أدعياء العبادة فينتقصون العالم بعبارته هذه، أو العابد بعبارته! فلا يرعون في العالم علمه، ولا للعابد عبادته!! بحجة أن العالم مقصر في عبادته عن العابد، وأن العابد مقصر في علمه عن العالم!!

أو يزنون العالم بعبادته (لا بعلمه)، فيرفعون من علمه إذا كثرت نوافله، أو ينتقصون من علمه إذا قل تطوعه؛ مع أن ذلك لا علاقة له بكثرة العلم، ما دام العالم غير مخل بالفرائض.

أو يزنون العابد بعلمه (لا بعبادته)، فيرفعونه بعلمه اليسير على عباد أجل منه عبادة، أو يخفضونه عنهم بقلة علمه؛ مع أن العلم ليس هو ميزة العابد، وإنما تميز بالعبادة، ما دام عالماً بفروض الأعيان من العلم.

جرى ذكر الزاهد الكبير معروف الكرخي يوماً في مجلس الإمام أحمد بن حنبل، فقال واحد من أصحابه: هو قصير العلم. فقال أحمد: أمسك! عافاك الله! هل يُراد العلم إلا لِـمَا وصل إليه معروف؟!

وسأل عبد الله ابن الإمام أحمد أباه مرةً، قال: هل كان مع معروف الكرخي شيء من العلم؟ فقال له: يا بني، كان معه رأس العلم، خشية الله تعالى!!

في حين أن بشر بن الحارث الحافي الزاهد الكبير لما سُئل عن الإمام أحمد قال: أنا أُسأل عن أحمد؟! إن ابن حنبل أُدخل الكير، فخرج ذهباً أحمر!!

وكان بشر إذا ذكر أحمد بن حنبل يقول: ومن أنا من أبي عبد الله؟! ومن أنا من أبي عبد الله؟! ذلك أعلم مني ، ذلك أعلم مني.

وكان زاهد مصر ذو النون المصري يسأل عن حال الإمام أحمد فلا يقول إلا: أي شيء حال سيدنا؟

* * * * *

(هُنَاكَ فَرقٌ بَينَ تَحدِيثِهِمْ بِمَا يَعقِلُونَ وبِمَا يَقبَلُونَ)

من ظن أن توقع عدم قبول الحق من الأكثرين يمنع من قوله، ويوجب أن تكون الحكمة في كتمانه، ويحتج لذلك بالحكمة المأثورة: (حدثوا الناس بما يعقلون...)؛ فهو مخطئ، وسيكون الأنبياء عليهم السلام في رأيه هذا على خطأ، فقد صدعوا بالحق الصادم لأممهم في أول بعثتهم، وكانوا يعلمون ببطء الاستجابة وبقلة المستجيبين في بداية دعوتهم.

بل كانوا يعلمون بشدة عداوة أقوامهم لدعوتهم، وأنهم سيواجهونهم بالأذى والطرد، وربما بالقتل!

فما كانت الحكمة تقتضي سكوتهم، لتوقع عدم انفتاح غالب القلوب لدعوتهم، ولا أوجب عليهم ذلك السكوت عن الصدع بالحق.

ولم يكن هذا هو معنى: (حدثوا الناس بما يعقلون)، فهناك فرق كبير بين (ما يعقلون) و(ما يقبلون)!!

* * * * *

(انتِسَابُ العَالِـمِ لِحزْبٍ)

لا أعرف عالـماً أو داعية انتسب لحزب إلا وضرَّه انتسابه إليه (سواء أكان تحزباً صريحاً أم غير صريح):

ـ بدءاً بتقيده بحزبه وانقياده له (ولو في بعض الأحيان) بدلاً من قيادته هو له.

ـ انتهاءً برفعه فوق منزلته التي يستحقها من العلم!

وضرر هذا الارتفاع غير المؤسس على الحق والعدل ضرر كبير:

١ـ بما يصيب صاحبه من الاغترار الذي يكثِّر من الزلل.

٢ـ وبما يعين على إشاعة الزلل وتكثير الواقعين فيه من عموم المسلمين، مما يجعل المؤاخذة عليه أشد عند الله تعالى. في حين أن الزلَّة لو كانت قد صدرت من شخص أقل شهرة لقلَّ انتشارها، ولقلَّ متبعوها!

٣ـ ما ارتفع عالم وداعية فوق منزلته؛ إلا وسقط دون منزلته، ولو بعد زمن: سنة العدل التي لا تتخلف. وقد شاهدت هذا عياناً، وفي عبر التاريخ من ذلك شيء كثير. وشاهد العيان أبلغ.

* * * * *

الشَّجَاعَةُ الأدَبِيَّةُ

تبدأ مراحل الشجاعة الأدبية بالقسم الأول منها، وهي: الجسارة على محاكمة كل معلومة (بلا استثناء)، والجرأة على فحصها، والقدرة على ملاحظة الإشكالات مهما دقَّت أو جلَّت حول كل معلومة، ووضعها تحت مجهر البحث للتثبت منها، مهما ادُّعيَ في المعلومة أنها مُسَلَّمة، أو من أنها من الثوابت الراسيات؛ فقداسة المعلومة (لو كانت مقدسة) لا تمنع من فحصها، إذ الفحص ليس تدنيساً لها، بل لا يزيدها الفحص إلا قداسة، ولا يزيد ثبوتها إلا رسوخاً!!

وهذا الجزء من الشجاعة الأدبية هو أول جزء منها، وهو أهم جزء منها، بل لا يمكن أن توجد الشجاعة الأدبية بدونه.

وكثيراً ما يكون فُقدان هذا الجزء من الشجاعة الأدبية هو سبب تكرار الخطأ في البحوث العلمية، وهو سبب الاجترار المعرفي الذي نشكو منه، وهو من أهم أسباب غياب الإبداع فيها؛ لأن هذا (الجُبن غير الأدبي) سيكون هو قيود الجهل والتقليد التي تمنع من البحث، وهو أغلال العجز الحقيقي التي تشلُّ الفكر عن الحركة!

مع أن الفكر يحتاج أكثر من مجرد (الحركة)، فالفكر يحتاج إلى تحليق في كل فضاءات الخيال، بأجنحة العلم، وبقلب الشجاعة الأدبية.. لكي يُبدع!

وإني لأعرف باحثين لا ينقصهم شيء لكي يكونوا من أصحاب التجديد والإبداع، من المعارف والذكاء؛ إلا هذه الشجاعة، فهي التي تنقصهم! فتجد أحدهم يخشى البحث فيما يظنه سيوصله إلى خلاف السائد، أو إلى رأي يعارض رأي كُهان المعرفة (بزعمهم)، فيمتنع عن البحث

قبل البدء فيه، ويخشى الحقيقة قبل أن تتبدَّى له، ولسان حاله يقول: لأن ألقى الله بعذر الجهل، أحب إلي من ألقاه بعذر من عرف الحق، فخذله، بالكتمان وعدم الإعلان!!

هذا هو الجزء الأول من الشجاعة الأدبية.

والجزء الثاني: هو إعلان الحقيقة، بعد الوصول للنتيجة، مهما كانت نتيجة صادمة، مهما كانت مخالفة للمألوف، مهما كانت عواقبها في الوسط العلمي، ومهما اشتدت هزتها للمعتقدات السائدة.

والجزء الثالث من الشجاعة الأدبية: هو الثبات على الدفاع عن تلك الحقيقة المكتشفة، مهما عصفت بك رياح النقد الجائر، أو أصابتك رُجومُ الهجوم، أو نالتك سهام التجهيل والتسخيف، من سدنة التقليد وجيش سفهائهم الكثيف.

الجزء الرابع من الشجاعة الأدبية: سهولة إعلان الخطأ، إذا تبيَّن لك أنك مخطئ. فيجب أن يكون فرحك بعلمك بالخطأ أقوى بكثير من حزنك على عدم إصابته أول مرة. ليسهل عليك إعلان التراجع، ولا تشعر بذل الاعتذار، بل بعز التصحيح وزيادة العلم.

وفي هذه المرحلة الأخيرة من الشجاعة الأدبية يجب أن لا تستحضر في نفسك المثل القائل: الاعتراف بالخطأ فضيلة! ولا أن تقوله عن نفسك إذا اعترفت بالخطأ، فما أقبح ذلك! فاحذره. ولا يصح أن يكون تحصيل فضيلة الاعتراف بالخطأ هو داعيك للاعتراف به، وكأنك تريد أن تزيد من رصيد ثناء الناس عليك بالفضائل، رغم خطئك.

وإنما اجعل إعلانك بالخطأ فرحاً بالصواب، واعتذاراً لمن اغتروا بغلطك. ودع الناس فهم الذين يُقدِّرون ما إن كنت تستحق فضيلة الاعتراف بالخطأ، أو لا تستحقها؛ إذ لا شك أنه ليس كل خطأ يكفي فيه مجرد الاعتراف به!!

كما أن عفو الناس عن الخطأ ليس واجباً دائماً بمجرد الاعتراف!! اعترف بالخطأ واعتذر من نفسك لنفسك وسامحها أوَّلاً، وللحقيقة ثانياً، ثم لا تنتظر من الناس جزاءً ولا شكوراً على ذلك.

هذه هي الشجاعة الأدبية، وهي كما ترون تبدأ من مرحلة البحث الأولى، إلى الوصول للنتيجة وإعلانها، إلى الثبات على تَبَنِّي هذا الإعلان، إلى الاعتراف بالخطأ فيما لو تبيَّن لك الخطأ.

وهذه الشجاعة لا تقل في ميزان الأخلاق عن شجاعة القتال، إن لم تفقها في بعض الصور!

فهي أولُ شجاعةِ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في دعوتهم، فأول شجاعاتهم كانت الصدع بالحق، والثبات عليه، رغم كل المحن والكروب والأذى الذي نالهم.

وكم من عالمٍ ومفكِّرٍ قتله عِلْمُه وسَجَنه فِكْـرُه، وكم أُوذي العلماءُ في النفس والرزق والسمعة، وكم ضُيق عليهم، من أجل شجاعتهم الأدبية، لما أعلنوا ما توصلوا إليه بلا خوف ولا مجاملة.

ومقابل هذه الشجاعة بأقسامها: (الجبن غير الأدبي) (المعنوي)، وهو يقابل كل قسم منها.

وأسوأ أنواع الجبن أن تنصر الخطأ، ولا تكتفي بالسكوت عن الحق، بل تعين على نصرة الباطل وخذلان الحق بالكلام؛ خوفاً من صولة الباطل!!

وللأسف! ما أكثر الجبناء وما أقل الشجعان!!

وعلى قلة شجعان القتال، فشجعان العلم أقل:

- لأن شجاعة القتال لا تحتاج إلى المعرفة، بخلاف شجاعة العلم، فتحتاج إلى العلم.

- ولأن الشجاعة القتالية ممدوح صاحبها، وما أكثر معظِّميه! بخلاف الشجاعة الأدبية، فمجهولة، وما أكثر الهجوم على أصحابها.

- ولأن شهيد القتال شهيد، وشهيد الشجاعة الأدبية مفتون، لا بواكي عليه!!

اللهم اجعلني ومن تحب ممن يهدون للحق وبه يعدلون.

* * * * *

(المُتَعَصِّبُ لا يَعتَرِفُ بِتَعَصُّبِه)

لا يوجد متعصب لمدرسة أو لشيخ يعترف على نفسه بالتعصب! حتى لو اعترف فقال: نعم أنا متعصب، فهو يريد أن يقول لك: لكنني تعصبت لمن يستحق التعصب له؛ أي هو يرى تعصبه اتباعاً لمن قام الدليل على وجوب اتباعه!

فمن لم يعرف متى يستحق الأشخاص وصف التعصب، أو ظن هذا الوصف لا يستحقه كل من زعم اتباع الدليل وترك المذهبية، أو انتظر أن يجد من يعترف على نفسه بالتعصب بالمعنى المقصود للتعصب؛ فلن يجد شخصاً متعصباً، في واقع إسلامي يموج بالتعصبات!

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

(لَيسَ كُلُّ مُقَلِّدٍ مُتَعَصِّباً)

التعصب ليس هو تقليد العالم أو تقليد المدرسة التي تنتمي إليها، وإنما التعصب هو حصر استحقاق التقليد في عالم أو مدرسة، وقد يصحب هذا الاعتقاد إنكار من المتعصب على من قلد غير العالم الذي يتعصب له أو غير مدرسته، وإنكاره على من خالفهما اتباعاً لـما رجحه الدليل.

فمن قلَّد عالـماً أو مدرسة، لكنه لم يحصر استحقاق التقليد فيهما، واحترم اختيار غيره ممن اختار تقليد عالم آخر أو مدرسة أخرى، ولذلك لم يُخرجه تقليده إلى الإنكار على تقليد غيره ولا إلى الإنكار على من مال إلى ترجيح ما رجحه الدليل؛ فليس متعصباً.

فليس كل مقلد متعصباً، ويكاد يكون كل متعصب مقلداً!

ومن هنا حصل الاشتباه الظالم بين التقليد والتعصب! فهوجم التقليد جملة وتفصيلاً!!

ومن هنا أيضاً تسور من لم يبلغ مرتبة الاجتهاد مرتبة المجتهدين؛ فراراً من التعصب؛ لأنهم ظنوا أن كل تقليد تعصب، وهم ينبذون التعصب، فنبذوا التقليد الذي كان هو الواجب على مستواهم العلمي.

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

(إعلانُ الرَّأيِ يَفتَحُ المَجَالَ لِتَمْحِيصِه)

من الكلمات المأثورة عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه (وفي سندها انقطاع)، أنه كان يقول: (مَنْ أرادَ الحقَّ، فلينزل بالبراز)، يعني يُظهر أمره. والبَرَاز (بفتح الباء) المكان والفضاء البارز الظاهر.

وهي كلمة حكيمة تدل على أمور:

الأول: أن الدعوات الباطنية السرية غالباً ما تنطوي على باطل، تخفيه تحت ستار الخوف والتكتم.

الثاني: أن من ظهر له رأي فعليه أن يعلنه، فلعله مخطئ؛ لأن إعلانه من دواعي مناقشة الناس له وتداولهم له بالتمحيص، مما يجعله سبباً لبيان غلطه أو تأكيد صوابه.

الثالث: أن أجواء الحرية الفكرية وحرية التعبير هي أحسن أجواء لتمحيص الآراء، فبغير ضمان هذه الحريات سيتكتم أهل الباطل على باطلهم، بحجة الخوف، وسيبني الواهمون على وهمهم قصوراً من الأوهام، ما كان لها أن تنبني لو أعلنوها وفضحتها أشعة شمس الحق، وزيَّفتْها مطارقُ النقدِ العلمي.

* * * * *

مِنْ جُنُونِ العَظَمَةِ إلى جُنُونِ اتِّبَاعِ الدَّلِيل

اعتدنا أن نصف الغرور والتعالي الذي يقع من طواغيت الحكام والقادة كفرعون وهامان وهتلر وموسيليني بأنه جنون العظمة؛ لأنه تعاظم بلغ حد الجنون!

ولكننا قد نغفل عن صور من الجنون أخرى، والجنون فنون!

فهناك أيضاً جنون العدالة، وهو جنون من يظن نفسه أشد عدلاً من رسول الله صلَّى اللهُ عَلَيه وسَلَّم، كذلك الأعرابي (حرقوص بن زهير التميمي) الذي كان يظن نفسه أدرى بالعدل

وأحرى به من النبي صلَّى اللهُ عَلَيه وسَلَّم، فقال للنبي صلَّى اللهُ عَلَيه وسَلَّم: (اعدل يا محمد فإنك لم تعدل)!! حتى قال له النبي صلَّى اللهُ عَلَيه وسَلَّم: (ومن يعدل بعدي إن لم أعدل)؟!

وهناك جنون التعبُّد والتنسُّك، كذلك الأعرابي (وقيل إنه هو ذلك التميمي نفسه)، فقد مر على مجلس فيه النبي صلَّى اللهُ عَلَيه وسَلَّم وبعض جلة أصحابه فيهم أبوبكر وعمر وعلي رضي الله عنهم، فأراد النبي صلَّى اللهُ عَلَيه وسَلَّم أن يبين لأصحابه هذا النوع من الجنون، فسأل ذلك الأعرابي قائلاً: (نَشَدْتُكَ الله؟ هَلْ قُلْتَ حِينَ وَقَفْتَ عَلَى المَجْلِسِ: مَا فِي القَوْمِ أَحَدٌ أَفْضَلُ مِنِّي وَخَيْرٌ مِنِّي)؟ فقال الأعرابي: اللهم نعم!! ثم ذهب يصلي!! أرأيتم أعظم جنوناً من رجل يظن نفسه أفضل عبادة من سيد الأولين والآخرين صلَّى اللهُ عَلَيه وسَلَّم؟! ومن سادة أصحابه؟! أليس هذا جنوناً خالصاً؟!

وهناك جنون العلم، أن تظن نفسك أعلم ممن هم أعلم منك بمراتب عظيمة. أرأيتم الخوارج الذين كفَّروا علي بن أبي طالب رضي الله عنه، في مسألة الحاكمية، وهم لا يبلغون كعب قدمه في العلم!

بل كفَّروا كل الصحابة وكل من لم يدخل في جنونهم، وهم أعراب أجلاف لا عرفوا للعلم دروباً، ولا شاهدوا من أنوار مجالسه بصيصاً، ولا عرفوا من أدواته ما يسلك بهم شيئاً من دقيق طرائقه، وإنما تساهلوا الفهم من ظواهر القرآن، وظنوا أنفسهم أولى بالقرآن ممن نزل فيهم القرآن ونزل عنهم وبينهم، من صحابة النبي صلَّى اللهُ عَلَيه وسَلَّم المتتلمذين عليه رضوان الله عليهم!! أرأيتم جنوناً أوضح من هذا الجنون؟! وهو جنونٌ في العلم.

وهناك جنون التشيُّع وحب آل البيت، والذي بلغ حد تأليه علي بن أبي طالب رضي الله عنه، كما عند السبئية، الذين يكفِّرهم أهل السنة والشيعة كلهم، فحتى الإمامية الجعفرية يكفرون السبئية.

وهناك في المقابل جنون التسنن، والذي بلغ حد تأليه يزيد بن معاوية، كما عند اليزيديين. والذين كانوا من أهل السنة، ثم قادهم الجهل والغلوفي الرد على الشيعة حد تأليه حاكم كيزيد بن معاوية.

وهناك جنون اتباع الدليل: وهو ما نشاهده اليوم من الشباب المتحمس الذي لا يردعه عن الاعتراض على العلم وتسخيف المعارف شيء، ولو كان يخالف أعلم العلماء وإجماع الأئمة، بدعوى اتباع الدليل!! ولا يدري هذا المسكين أنه لا يعرف من الدليل إلا حروفه، وهوأبعد ما يكون عن إدراك ظاهره، فضلاً عن باطنه، أومراد المتكلم به الذي قد يتجوّز إليه (مستعملاً المجاز).

لقد رُبي جيل من الشباب المتدين على سطحية اتباع الدليل، حتى تمردوا (أول ما تمردوا) على شيوخهم الذين ربوهم على دعوى اتباعه.

وعندها فقط سيعلم أولئك الشيوخ ماذا جنوا به على ذلك الجيل، عندما تفلَّت عليهم تلامذتهم بالتخوين والتكفير، لـما أوهموهم أن اتباع الدليل يستطيعه كل أحد في كل وقت، عندما أسسوهم على سطحية التعامل مع نصوص الوحي، فعادوا إليهم بها تخويناً وتكفيراً!!

إن أنواع الجنون كثيرة، وكلها لا تنشأ إلا بسبب أخلاقي (وهوالغرور)، أو معرفي (وهو الجهل)، وكثيراً ما يجتمعان: الغرور والجهل، فيُنتجان لنا ألواناً من الجنون، يعجز العقلاء عن تصورها، حتى يرونها بأم أعينهم!

فالحذر الحذر من فنون الجنون، بأن نعلم أن الوقاية من هذه الفنون يكون بتزكية النفس، وبتنمية العقل والفكر. فبهذين يتحصن المرء من الجنون بأنواعه، وبغيرهما يصبح عرضة لأنواع من عدوى الجنون، تفتك بالنفوس أشد من فتك جنون البقر!!

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

لَيسَ هُنَاكَ مَا نَخشَى مِنه!!

عبارة سمعت من يرددها كثيراً، حتى أولئك الذين ارتعدت فرائصهم من شدة الخشية، ودارت أعينهم من غشية الخوف.

لكن يميز الصادق من غيره: الاستعداد للمواجهة الصريحة، والوضوح، وعدم التستر وراء الحجب.

وقد يخشى الحقيقة صاحبها؛ لأنه لا يملك القدرة على إثباتها! كما قد يخشاها خصمها؛ لأنها تقوض عليه بنيانه من الأساس.

* * * * *

(الفَرقُ بَينَ جِيلِ التَّابِعِينَ وَالجِيلِ الذِي نَعِيشُ فِيه)

أن يكون القول الغريب في مدرسة ما أو مجتمع معين مرفوضاً؛ لمجرد غرابته عليهم وخروجه عن مألوفاتهم ولمخالفته لرؤساء علمهم؛ لا يكون مفهوماً، ولا يكون مقبولاً عقلاً؛ إلا لمثل جيل التابعين، أو لمن كان قريباً منهم شبيهاً بهم؛ لأن التابعين كانوا متيقنين من أن أي شيء في الدين يخالف ما أجمع عليه الصحابة فهو باطل، ولن يكون حقاً.. يقيناً.

ولذلك: ففي حالة التابعين نفهم ونعقل لماذا رفضوا مجرد سماع الأقوال المبتدعة، بعد أن رفضوها هي نفسها وأنكروها؛ لأنهم كانوا واثقين من أن هذه الأقوال لو كانت حقاً، أو لو كان في ذكرها والخوض فيها خير، لوجب أن يسبقهم الصحابة رضي الله عنهم إليها؛ لأن جيل الصحابة معصوم بمجموعه، لا بأفراده؛ ولأن إدراك التابعين لما عليه الصحابة كان عن معايشة لهم ومخالطة، ولا يعتمد مجرد النقل، ولا يعتمد الدعاوى المتناقضة من الخصوم المختلفين على أن قولهم واعتقادهم هو قول واعتقاد الصحابة والسلف الصالح.

أما اليوم، وبعد أكثر من ألف ومائتي سنة من انقراض الأجيال الفاضلة، وبعد ظهور هذا الحجم الواضح من الاختلاف بين المسلمين، والذي تدعي فيه كل جماعة أن ما هي عليه هو الإسلام الأول السالم من مخالفة الإسلام الصافي؛ لم يعد مفهوماً ولا معقولاً للباحثين عن الحق الصادقين في طلبه (وليس للمقلدين من عموم الناس) أن يصموا الآذان، وأن تمتنع قلوبهم عن الإصغاء لآراء طوائف المسلمين في مسائل الدين؛ لأنك لا تملك دليلاً علمياً واحداً يجعل من مجرد مخالفة مألوفات مدرستك دليلاً على سقوط المقالة، فإنك لم تدرك الصحابة والسلف، بل بينك وبينهم عصور سحيقة، ولا تملك في ذلك إلا الأدلة الخاصة بكل مسألة مسألة، وهذه الأدلة الخاصة وحدها هي التي تميز لك الدعاوى الصحيحة من الدعاوى الباطلة.

مما يجعلك ملزماً علمياً بل عقلياً في أن تدرس المقالات كلها، بأدلتها، مسألة مسألة، ومن كتب المختلفين واستدلالاتهم، لا بواسطة نقول خصومهم، وبموضوعية تامة، تحتمل في كل مسألة أن يكون القول السائد لديك هو الغلط، أو تحاول أن تتجرد من عاطفة يقينك بصواب القول السائد، وإن بقيت متيقناً من صوابه، لتستطيع البحث الموضوعي المتجرد من المؤثرات السلبية على البحث العلمي الحقيقي.

ولا تخف من هذا المنهج، ما دمت باحثاً صادقاً، وعندك آلة البحث: من العلم والإصرار وحب معرفة الحقيقة؛ لأن اليقينيات الحقيقية لا يزيدها هذا البحث إلا رسوخاً، ولا ينكشف زيف شيءٍ بهذا البحث إلا زيف اليقينيات الموهومة بسبب الإلف العلمي والعادة المعرفية.

والتجرد المؤقت من عاطفة يقينك بصواب القول السائد ليس هو التجرد من معتقدك السابق، فهو كمن يفكر بتفكير الخصم، لكي يعرف كيف يحضر للجواب عن شبهه. وليس في ذلك شك يخل بالإيمان، ولا ما يستحق التشنيع عليه. بل هو أساس صحيح للمعرفة الحقيقية، وهو نفسه: التجرد والموضوعية.

ولا شك أن مثل هذا التجرد من العاطفة لليقين أو المعتقد السابق، رغم كونه مؤقتاً، فهو صعب جداً على أكثر الناس. إلا على كان حبه للحق بلغ مبلغاً عظيماً، يفوق كل شيء، وأوتي عقلاً كبيراً. كما أن هذا التجرد مما يُرتاض عليه، ويقوى بالتدرب والمران.

أما دعاوى التجرد والموضوعية التي تخلو من ذلك، فلا تعدو أن تكون نفاقاً بحثياً ودجلاً معرفياً، لا يقدم للمعرفة إلا التقليد.. وبدعاوى الاجتهاد!!

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

(الشَّجَاعَةُ في مُوَاجَهَةِ الرَّأيِ السَّائِد)

من الممكن أن تقنع بعض الناس برأي يخالف الرأي السائد؛ لكن من غير الممكن أن تقنعهم بإعلانه والدفاع عنه؛ ما لم يكونوا شجعاناً!!

والشجاعة في مواجهة الرأي السائد ومخالفته من أعظم أنواع الشجاعة، وهي أولى شجاعات الأنبياء والمصلحين.

فما أكثر ما أقابل أناساً يصرحون بموافقتهم لي في كثير مما يخالفني فيه الآخرون، ولكنهم لا يجرؤون على إعلان قناعاتهم. وكثيراً ما يقتنع طلبة العلم بكثير مما كانوا يخالفونني فيه، بعد لقائهم بي، ومناقشتي لهم وتفنيدي قناعاتهم القديمة، لكنهم يستمرون في الصمت!

* * * * *

(تَطَوُّرُ الإمَامِ ابنِ تَيمِيَّة في تَفَقُّهِهِ)

تطور شيخ الإسلام ابن تيمية في تفقهه وعمقه فيه لا ينكره إلا الغلاة فيه؛ إذ هذا أمر طبيعي لا يخلو البشر منه.

ومن ذلك: تطوره في التعامل مع النصوص: من الظاهرية إلى المقاصدية (النظر في مقاصد النصوص).

وكمثال لذلك: رأيه في جواز سفر المرأة بغير محرم: فبينما كان شيخ الإسلام يرى التحريم مطلقا، في (شرحه للعمدة)، ويشدد في التمسك بظاهر الحديث: (لَا يَحِلُّ لِامْرَأَةٍ تُؤْمِنُ بِالله وَاليَوْمِ الآخِرِ تُسَافِرُ مَسِيرَةَ يومٍ ولَيلَةٍ إلَّا وَمَعَهَا ذُو مَحْرَمٍ). ويقول شيخ الإسلام في التشديد على التمسك بظاهر هذا الحديث: (فاشتراط ما اشترطه الله ورسوله أحق وأوثق، وحكمته ظاهرة... (إلى أن يقول:) وأمر النساء صعب جداً؛ لأن النساء بمنزلة الشيء الذي يُذب عنه..).

هكذا يحسم ابن تيمية القول، ويمنع من النظر المقاصدي، بحجة ظاهر النص.

ثم يتغير اجتهاده، ليقول بجواز سفر المرأة بغير محرم في سفر الطاعة إذا كانت في رفقة آمنة، كما في أحد أواخر كتبه (تفسير آيات أشكلت)، وكما نقله عنه تلميذه ابن مفلح في (الفروع)، على أنه هو اختيار شيخ الإسلام وترجيحه.

فأصبح حسب قوله الأخير ترك ظاهر النص لأجل النظر في مقصده هو (ما اشترطه الله ورسوله أحق وأوثق، وحكمته ظاهرة)، على الضد من موقفه الأول!!

ليعطي شيخ الإسلام ابن تيمية لمن يدعون اتباعه درساً مقاصدياً، يخالف (كل المخالفة) سطحيتهم التي فاقت في الظاهرية خطأ الفقيه في إهمال المقاصد تمسكاً بالظاهر!

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

(الفِتنَةُ نَائِمَةٌ، لَعَنَ اللهُ مَنْ أيقظَهَا)!

هو وإن كان حديثاً لا يصح عن النبي صلَّى اللهُ عَلَيه وسَلَّم، إلا أنه كلمة حكيمة، إذا فُهمت فهما صحيحا، ونُزلت في موقعها.

فلقد وجدت ناساً يُطلقون هذه الحكمة في غير موضعها، لتكون بذلك هي الفتنة التي تستحق اللعن!!

إذ قد تكون الفتنة كل الفتنة في السكوت عن الفتنة القائمة، وقد يكون إيقاظ الفتنة هو عدم إزعاجها والرضا باستقرارها، وقد يستحق اللعن من لم يَـقُضّ مضجعَ الفتنة ويشرد بها من خلفها!!

ولطالما وصف المشركون كل دعوة لخلاف القول السائد بأبشع الأوصاف، كما قالوا: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ مُّفْتَرًى وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَـمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ سبأ: ٤٣. فهم يعدون الآيات فتنة، تصدهم عن استقرار شركهم الذي وجدوا عليه مجتمعهم!!

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

(الثَّبَاتُ يَتَّصِفُ بِهِ طَائِفَتَانِ)

الثبات يتصف به طائفتان من الناس، فتُمدح به الطائفة الأولى، وتُذم به الطائفة الثانية!

يُمدح العالم بثباته، ولذلك يُلقب العلماء حقاً بـ(الراسخين)، من الرسوخ كالجبال الرواسي الثابتة.

ويُذم المقلدون بثباتهم؛ لأنه قد يقلد على الباطل دون أن يعلم، كقول المشركين: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ الزخرف: ٢٣.

لكن تنبه إلي أن ثبات العالم ليس ممدوحاً مطلقاً، وإلا لكان جموداً. ولكنه ثبات على القطعيات والأصول العامة، لا يلزم من الثبات في غيرها، بل صفة العالم الحق هو أن تتغير اجتهاداته وآراؤه في كثير من المسائل الجزئية وفي كثير من تفاريع الدين.

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

(مَا أصعَبَ نَقْدَ الذَّاتِ)

لا يمكن أن يقبل أحد بنقد منهج اتبعه متعلماً ومعلماً؛ إلا قليلاً: وذلك إذا ما استطاع النجاة من سلبياته، وأن يكتشف خطأه.

لأن نقده له أو قبوله لنقده دون نجاته هو من الاغترار به سيكون نقدا لذاته. وما أصعب نقد الذات، خاصة إذا كان نقداً لاذعاً، يتهم الواقع في غلط منهجه بالسطحية وضعف الفهم وضمور الخيال والعجز عن الإبداع.

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

(مَجَالِسُ السَّمَاعِ)

عندما ينشغل المسلم بقراءة القرآن عن الصلاة حتى يخرج وقتها، نقول: إنه مفرط ومذنب، مع أن قراءة القرآن من أجل العبادات وخير الأذكار.

ولا يصح أن يقال في هذه الحالة: هو خير ممن لعب حتى فاتت الصلاة؛ لأن هذا فيه تهوين من الخطأ، وتبرير له؛ ولأنه لو كان قرأ القرآن بالفهم المقصود من الحث على تلاوته، لكانت تلاوته تلك هي أول ناهٍ له عن ترك الصلاة!

وللأسف فإن الأمة كلما كانت تمر بأزمة حقيقية، توجب وقفة حقيقية وعزيمة صادقة وتخطيطا حكيما؛ هرب بعض المسلمين من واجب الوقت (كصلاة الوقت)، لكن إلى شيء يخادعون به أنفسهم (كقراءة القرآن حتى يفوت الوقت)!!

ومن هذا ما يسمونه بمجالس السماع، ودروشة حضورها الملفت.

لا شك أن هذه المجالس خير من تضييع الوقت في المحرمات أو بعض المباحات، لكنها ليست هي واجب الوقت، ولا علاقة لواجب الوقت بها، فليست كالوضوء والغسل للصلاة، ولكنها كتلاوة القرآن حتى يفوت وقت الصلاة!

* * * * *

(أَبرَزُ صِفَاتِ الخَوَارِجِ فِي السُّنَّة)

وردت صفات الخوارج في السنة، ولم تشترط السنة أن لا يوصفوا بهذا الوصف إلا إذا كفَّروا بالذنوب، بل كانت عامة أوصافهم وأظهرها في السنة هي:

١ـ كثرة العبادة.

٢ـ مع قلة العلم.

٣ـ مع الغلو والتنطع.

٤ـ مع الاستخفاف بالدماء المعصومة واستباحتها.

هذه أبرز صفات الخوارج في السنة.

وأظهر صفاتهم على الإطلاق: استباحة الدماء؛ لأن كثرة العبادة والغلو وقلة العلم أمور نسبية، وقد تختلف المعايير فيها. أما استباحة الدم: فهي أمر ظاهر، لا يختلف فيه اثنان.

فمن اشترط في الخوارج: التكفير بالذنب، ورفض إطلاق وصف (الخواوج) إلا على من كان يكفر بالذنب، فقد أخطأ، وخالف إطلاقات نصوص السنة، التي لم تشترط ذلك الشرط.

ومع ذاك ما زال المتعاطفون مع خوارج العصر يجادلون عنهم، وينفون عنهم وصف الخوارج، بحجة أنهم ليسوا ممن يكفِّر بالذنب!

ومع أن لديهم خللاً كبيراً في التكفير، لا كما يقال عنهم، ومع أن المجادلة عنهم في ذلك لا تصدر إلا ممن وافقهم في التكفير، ولذلك فهو لا يعترف بكونهم مكفرين بالباطل؛ فليس مناط إلحاقهم بمن حذرتنا منهم النصوص هو هذا، بل هو اجتماع تلك الصفات، وعلى رأسها: استباحة الدم المعصوم.

فهؤلاء هم خوارج العصر، وهم بلاء الأمة، كما كانوا بلاء سلفها من قبل.

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

(قِلَّةُ الأدَبِ مَعَ العِلْم)

قلة الأدب مع العلم هي: انتهاك حرمة العلم بالكلام فيه بجهل! هي: عدم التزام قواعد العلم الصارمة في البحث والنظر! هي: المجازفة في إصدار أحكام في العلم بلا اتباع منهج الاجتهاد الصحيح لإصدار الأحكام العلمية!

فقلة الأدب مع العلم: هي استخفاف بالعلم، وانتهاك لعرضه وتمريغ لهيبته في التراب!!

وخطورتها: أنها تصد عن العلم أعظم الصد، وتشيع الجهل باسم العلم، لتكون قلة الأدب مع العلم بهذا المعنى من أكبر بناة أسوار الجهل المركب في العقل، وهو جهل من لا يدري ولا يدري أنه لا يدري، فأنى لمثله أن يدري!

وبالتالي: ستكون قلة الأدب مع العلم مختلفة عن قلة الأدب مع العالم؛

والفرق بين قلة الأدب مع العلم وقلة الأدب مع العالم: أن بينهما عموماً وخصوصاً: فقلة الأدب مع العالم قد تكون قلة أدب مع العلم، وقد لا تكون.

فعندما تكون قلة الأدب مع العالم ناشئة عن قلة الأدب مع العلم، استخفافا بالعلم، وانتهاكا لحرمة ساحته، تكون هذه قلة أدب مع العالم والعلم معاً!

وأما إن كانت قلة الأدب مع العلم، من دون إساءة أدب مع العالم، فتكون صورة مختلفة، لا علاقة لها بإساءة الأدب مع العالم. كما أن قلة الأدب مع العالم قد لا تكون قلة أدب مع العلم، إذا كانت ناشئة عن خصومة شخصية معه!!

* * * * *

(اجتِهَادَاتُ الإمَامِ ابنِ تَيمِية لَيسَتْ هِيَ نهايَةَ المطَاف)

بعضهم يظن أن اجتهادات بعض الأئمة (كشيخ الإسلام ابن تيمية) هي نهاية المطاف وغاية التحرير ومنتهى المقالات، وأن من يخالف هذا الإمام فهو لا يخالفه إلا لأنه: لم يقرأ كلامه، أو لم يفهمه، أو فهمه لكن أعماه الهوى عن رؤية الحق!!

ولا يَرِدُ عنده احتمال أن المخالف لهذا الإمام خالفه بعد أن قد قرأ كلامه وفهمه تماماً وأنه خالفه عن علم، كما نُخالَف الأئمة كلهم، ومع ذلك لا يكون سبب خلافنا معهم محصوراً في جهلنا بكلامهم أو عدم فهمه أو اتباع الهوى.

فلماذا كان خلافنا لهذا الإمام خاصة لا ينشأ عندهم إلا من هذه الأسباب؟! وكأن شيخ الإسلام مثلاً حدث ما عرف الإسلام مثله! وكأنهم صدقوا عبارات الغلو التي قيلت فيه، كقول منقول عن أحد الأئمة أنه قال عنه: (ما كنت أظن أن الله بقي يخلق مثلك)!!

مع أن هذه العبارة أيضاً لا تنفي أن يكون شيخ الإسلام كالأئمة السابقين تصح مخالفته، بل تجب إذا أخطأ وتبين لنا خطؤه كما يتبين لنا خطأ غيره من أئمة الإسلام، وأنه لذلك لن يكون خلافنا له ولا خلافنا لهم خلافاً غير ناشئ إلا من جهل بكلامهم أو هوى يمنع من قبول قولهم.

وصار بعض أدعياء اتباع الدليل يذكرون كلام شيخ الإسلام ودليله وفهمه للدليل: وكأنه هو الدليل نفسه! ولا يفرقون بين الدليل حقاً، وفهم العالم للدليل! ولا يفرقون بين الدليل وقيامه بالمدلول!! ولا يفرقون بين الدليل وصحة الاستدلال!! ولا يفرقون بين دلالة الدليل وما يُلحق بها من استدلالات لا يكفي في الدلالة عليها!!

لو كانوا يعترفون بتقليد شيخ الإسلام، لكانوا كغيرهم من مقلدة المذاهب، لا ننكر عليهم هذا التقليد، إذا لم يكن بتعصب. لكنهم يدعون اتباع الدليل، وهم أجلاد التقليد، ولا يدرون أنهم مقلدون.

ملحوظة: لو كانت عبارةً: (ما كنت أظن أن الله بقي يخلق مثله) قيلت في غير شيخ الإسلام ابن تيمية، هل كانت ستمر دون إنكار وتشنيع وتعليق في الحواشي يصفها بالغو ويستعيذ الله من مثلها؟!

هذا هو الكيل بمكيالين، وهو أكبر أدلة اتباع الهوي، لا الدليل!!

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

(الكَرَامَةُ الإنسَانِيَّة)

عندما تتأمل عدم جواز السخرية من القاتل المحكوم عليه شرعاً بالقتل، والزاني المحكوم عليه بالرجم، وعدم تجاوز العقوبة الشرعية لإجرام كل المجرم، بإهانة كرامته الإنسانية، بالسب والشتم، أو صور التعذيب النفسية، مع كونه سوف يُقتل أو يُجلد أو يُسجن.

هذا مما يدل على سمو الكرامة الإنسانية فوق كل المعايير، وأنه لا يستبيح حرمتها ذنب ولا إجرام؛ لأن مؤاخذة الذنب وعقوبة الإجرام يمكن استيفاؤها دون مساس بالكرامة الإنسانية؛ ولأنها حق ملازم للإنسان لا يزول ما بقي الإنسان إنساناً!!

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

(الفَهْمُ الغَالِي لِلتَّعَدُّدِيَّة الدِّينِيَّة)

جاء خطر الفهم الغالي للتعددية الدينية، جاء خطر نسبية الحق المطلقة باسم حقوق المواطنة، جاء خطر التجريم المطلق لوصف الكافر بأنه كافر باسم احترام الأديان.

ينفخ في نار هذا الخطر ثلاث جهات:

١ـ دعاة الباطل وأعداء الحق وخصوم الإسلام، تمهيداً لإقصائه من الواقع الإسلامي ومن حياة المسلمين. فهم يخلطون عن عمد بين أمرين:

الأول: عدم الإكراه على الدين، واحترام المقدسات، وعدم ظلم المخالف والعدالة معه وإعطائه حقوقه الوطنية (إذا كان في بلد فيه أديان متعددة).

والثاني: صوابية الأديان كلها، واعتقاد صلاحيتها كلها للاتباع، واعتبارها كلها حقائق نسبية لا يقين فيها، فالإسلام واليهودية والمسيحية والبوذية والإلحاد كلها عقائد متساوية في ميزان الحق النسبي.

٢ـ غلاة المتحدثين باسم الإسلام وجهالهم، ممن لا يفرقون بين الحق المظنون والحق المتيقن، فيجعلون المظنون متيقناً. ولا يفرقون بين وصف الكفر بالكفر وإعطائه حقوقه الإنسانية والوطنية (إذا كان في بلد فيه أديان متعددة)، ولا بين وصف الكفر بالكفر وعدم الإساءة للمقدسات في الأديان الأخرى، ﴿وَلا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ الله فَيَسُبُّوا اللهَ عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ الأنعام: ١٠٨.

٣ـ مسلمون لم يتعمقوا في فهم الإسلام، كما لم يتعمق فيه بعض المتحدثين باسم الإسلام قبلهم! ثم أخافهم التطرف الذي شاهدوه من بعض الإسلاميين، ونفروا من ذلك الخلط المشار إليه عندهم، فظنوا الخلاص منه يكمن في مثل هذا الدعوات، هروباً من تطرف باسم الإسلام: لا إنسانية فيه، ولا حرية.. بل لا إسلام فيه!!

أما الفئة الأولى: فهي عدو مفضوح، وأما الفئة الثانية: فهم المجني عليهم، وأما الفئة الثالثة: فهم الخطر الحقيقي الذي يذبح الدين في محرابه، ويطعنه باسم شريعته!!

* * * * *

فُرُوسِيَّةُ السُّنَّة

لتكون من فرسان السنة، فليس عليك إلا أن: تتكلم بوثوقية مطلقة، وكأنك الرجل الذي يمتلك ناصية الحقيقة، ويحتكر الصواب في جعبته، تقيم العلماء، وتحكم في مؤلفاتهم، وتزن قربهم وبعدهم من السنة! وكيف لا؟! فأنت من فرسان السنة!!

ولا تنسَ دائماً أن تختم ردودك بنحو قولك الذي يدل على الثقة واليقين: لا يقول بهذا أحد يعظم السنة! وهذا كلام أهل البدع! وذاك عنده ضلالات!

هذه هي فروسية السنة عند بعضهم!!

لكن هذه ليست فروسية سنة النبي صلَّى اللهُ عَلَيه وسَلَّم، بل هي فروسية سنة (الخوارج): الجهل والسطحية، مع التعالم والتعالي! في خلطة سرية، تفسد القلب، وتمرض النفس.

ولقد كان (الخوارج) فرساناً بحق، فرسان قتال، لكن في ساحة الجهل والضلال.

ولا تظنوا أن (الخوارج) كانوا يدركون أنهم (خوارج)، بل لقد كانوا يظنون أنفسهم أيضاً أنهم هم (فرسان السنة).

* * * * *

(الوُقُوعُ فِي الخَطَأ)

أذكر مرة أني وقعت في خطأ علمي، وكتب عن هذا الخطأ أكثر من شخص. وفوجئت ببعض المحبين قد حزن لذلك، وبعضهم أراد الدفاع والرد، فأخبرتهم بأني قد أخطأت فعلاً، ولست أتنزه عن الخطأ، فلا داعي للحزن.

وصرت أنا الذي يعزيهم ويصبرهم على وقوع هذا الغلط مني؛ لأني موقن بأن ما لدي من الأخطاء أكثر من الأخطاء التي قد يكتشفها الآخرون، ولولا أني موقن من وقوعي في الخطأ، لكنت طالباً العصمة، وهي مستحيلة، ولكنت بذلك منتهياً عن الاجتهاد والكتابة والتأليف؛ خوفاً من الخطأ!! وهذا العجز والخمول وترك العمل هو أكبر خطأ!!

ولقد وجدت المبدعين هم أكثر الناس خطأً، وأما من سواهم: فهم تابعون لأهل الإبداع: لا يُنسب لهم شرف الصواب والإبداع، في حين أنهم واقعون في أخطاء من قلدوهم.

* * * * *

(بَيْنَ التَّألِيفِ قَدِيماً وحَدِيثاً)

كان التأليف قديماً (قبل عصر الطباعة) لا يكاد يقوم به غير العلماء؛ لأن المؤلف يكتب نسخة واحدة (في الأعم الأغلب)، فإذا كان المؤلف معروفاً بعلمه وإمامته تنافس الطلاب والوراقون والناسخون على نسخه وكتابته، ليستفيدوا منه.

وإذا كان المؤلف غير معروف، لكن كتابه أثبت وجوده بجودة التأليف، شاع ذلك بين طلاب العلم فنسخوه أو استنسخوه من الوراقين والنساخ.

أما إذا لم يتحقق في المؤلِّف والمؤلَّف (بفتح اللام وكسرها) شيءٌ من ذلك، فلم يكن المؤلف ولا كتابه مما يستدعي النسخ والاستنساخ؛ مات الكتاب، وأهملته الأمة، ولا يكاد يعرفه أحد.

أما في عصر الطباعة: فقد أصبح التأليف حرفة يمكن أن يتسلقها كل أحد. فيمكن لكل أحد أن يكتب ما شاء، وأن يطبع منه عشرات ألوف النسخ، وأن يقوم له (ربما) بدعاية وإعلان؛ فإذا به كتاب منتشر بين الناس، يصوغ فكرهم، ويشكل ثقافتهم بمحتواه، والذي قد يكون حسناً وقد يكون في غاية السوء من الفوضى الفكرية والسطحية.

ولقد ابتلينا ببعض كتاب منتديات الإنترنت، لم يكن بينهم وبين دخول نادي المؤلفين (في عصر الطباعة) إلا أن يشاؤوا ذلك!

وبالطبع: فقد شاؤوا! ودخلوا نادي المؤلفين الذي لا يحرسه بواب، بل ليس له باب أصلاً.

والمشكلة أن هؤلاء، من حين أن يطبعوا كتاباً يظنون أنفسهم مؤلفين حقاً، والمشكلة الأكبر: أنهم يجدون من يصدقهم!

ولربما انخدعت أنا نفسي بهم، فأقتني الكتاب، فإذا بمضمونه لا يتجاوز قفزات لوحة المفاتيح (الكيبورد) التي نشاهدها في مواقع الشبكة الدولية (الانترنت). فأتألم لواقع الأمة، وأخاف على عقول شبابنا، وأغار على العلم وأغضب له.

لكني أعود مطمئناً، إلى حفظ الله تعالى لهذا الدين، وإلى جيل جديد من الشباب نفض غبار التقليد، ولربما بالغ بعضهم فتدثر بغبار الفوضى الفكرية، لكن الأمل ما زال معقوداً عليهم بتمييز الصواب من الخطأ، والمؤلِّف (بكسر اللام) من المستألف.

أقول هذا وأنا أستحضر في نفسي كتاباً اقتنيته مؤخراً، لأحد كتاب النت، شاء أن يكون مؤلفاً، فتحقق ما شاء! فأخرج كتاباً من جنس فوضاه الفكرية التي كان يصول ويجول بها في صفحات المنتديات.

* * * * *

(يَرمِي قَبلَ أَنْ يَتَعَلَّمَ سَدَادَ الرَّمي)

في البيتين المشهورين:

أُعَلِّمُهُ الرِّمَايَةَ كُلَّ يَوْمٍ ... فَلَمَّا اسْتَدَّ سَاعِدُهُ رَمَانِي

وَكَمْ عَلَّمْتُهُ نَظْمَ القَوَافِي ... فَلَمَّا قَالَ قَافِيَةً هَجَانِي

والصواب (استدَّ) بالسين، لا بالشين، من سداد الرمي ودقة التصويب فيه.

وهل تعلمون ما الأقبح من ذلك في حق صاحبه: أن يتعجل الغدر، فيرميك من أحسنت إليه قبل أن يتعلم سداد الرمي، ويهجوك ولما يُحسن بعد نظم القوافي.

فلربما رمى فعاد الرمي إليه، أو أصاب من لا يود إصابته. ولربما هجا، فكان هجاؤه هجاء له، من سخف لفظه، ودلالته على ضعف عقله.

* * * * *

(الشِّعَارُ الذي يَمنَعُ الوَاقِعُ مِنْ تَطبِيقِه)

لم أرَ شعاراً أشد ما يؤذي: رافعَه، من شعارٍ الواقع هو الذي يمنع من تطبيقه، فإذا سُلمت لرافع هذا الشعار سلطة اتخاذ القرار، ووجد نفسه عاجزاً عن اتخاذه، سيكون هو أول المتأذين من رفع ذلك الشعار.

لأنه إنما تجمع الناس حوله تحت شعاره هذا، وهو أول من ترك العمل به، وسينفض عنه من تجمعوا حوله بدعوى رفع ذلك الشعار، مهما حاول إقناعهم بالتدريج والضرورة!

لأنه لو كان صادقاً في دعوى الضرورة، لماذا لم يعذر بها من سبقه؟! لماذا لم يبين للناس من حين رفعه للشعار أن الخطأ لا يكمن في عدم التطبيق، وإنما يكمن في عدم تهييء فرص التطبيق؟!

لماذا لم يبين لهم صعوبة تهييء تلك الفرص، وأنها تحتاج وقتاً طويلاً محفوفاً بالمخاطر، وقد ننتهي مع طول المحاولة بالعجز أيضاً عن التحقيق؟!

أسئلة كثيرة ستدور في ذهن الأتباع والملتفين حول الشعار، سيجدون بعدها أنهم قد خُدعوا، أو أنهم وقادتهم دون مستوى القيادة!!

* * * * *

(مَنْ تَكَلَّمَ فِيمَا لا يَعرِف)

من كلف نفسه قول الحق فيما لا يعرف، فهو ممن يقول الباطل الذي يعرف.

ومن تحمل مسؤوليةً تفوق قدرته، فقد خان أمانتها من حين أن تحملها.

* * * * *

ذكر محمد بن الحسن في الأصل (٧/ ٣٩٩) مسألة، وهي لو أن رجلاً أُكره فقيل له: أنت مخير بين ثلاث: إما أن نقتلك، وإما أن تكفر، وإما أن تقتل المسلم الفلاني عمداً.

فذكر أنه لو اختار قتل المسلم، فإن القياس يقتضي قتله به قصاصاً؛ لأنه كان يقدر على أن يكفر بلسانه وقلبه مطمئن بالإيمان، فلا يكون عليه بذلك شيء.

ثم قال: (لكني أستحسن أن أدرأ عنه القتل، وأضمنه دية المقتول في ثلاث سنين، إن لم يكن عالماً بأن الكفر يسعه في هذا الوجه).

وفيه فوائد:

الأولى: سماحة الإسلام برفع التكليف بما يتعسر، والإكراه عسر يرفع التأثيم في الأمر الذي أكرهتَ عليه.

الثانية: أن النطق بكلمة الكفر قد تكون واجبة، فيمن أكره بمثل هذا الإكراه، وعجز عن الصبر على القتل. مما يشهد لواقعية هذا الدين، وعدم إغراقه في المثاليات البعيدة عن الواقع.

والواقعية معلم واضح من معالم سماحته؛ لأن عالم المثاليات ينفع في المدينة الفاضلة الخيالية، لا في المدينة الفاضلة الواقعية.

الثالثة: حرمة دم المسلم، وعظم هذه الحرمة، إلى درجة أن من استباحها بحجة عدم النطق بكلمة الكفر، وهو الكفر أعظم الذنوب، يكون آثماً إثماً كبيراً، يجعله معرضاً للقتل قصاصاً في اجتهاد مطرد مع القياس، ومعرضاً لدفع الدية في اجتهاد آخر درءاً للحد بالشبهة!!

فما أعظم إثم من استباح دماً يكون النطق بكلمة الكفر أهون من إراقته.

* * * * *

(الفَرقُ بَيْنَ البِيئَةِ العِلْمِيَّةِ لِلمُحَدِّثِين في زَمنِ الإمامِ البخاريِّ وزَمَانِنا)

رأيت في المنام أني أقول لأحدهم مبيناً له الفرق الكبير بين البيئة العلمية للمحدثين في زمن الإمام البخاري وزماننا، ولماذا يعيى كثيرون ويعجزون في فهم مراد الإمام البخاري وطريقته في التصنيف في صحيحه وتاريخه الكبير وغيرهما..

فقلت له (في المنام): مثل الإمام البخاري ومثلنا، مثل أفصح فصحاء البدو الأوائل، وأخطب خطباء أعراب العرب، إذا جاء لمدينة لدينا اليوم، وخطب فيهم بلغته العربية الفصيحة، وخاطبهم ببيانه العربي المبين، وتعمد أن يظهر براعته في الخطابة، وسعة ثروته اللغوية من المفردات والتراكيب، وهو يظن نفسه يخاطب قومه، ويُفهم أهل زمانه.

هل سيفهمه الناس؟ وهل سيعوا عنه مراده؟

فقال لي الذي كنت أخاطبه في المنام: لا.

فأعجبني هذا المثال في المنام، والذي لم يخطر ببالي أن أضربه في اليقظة لهذا الموضوع، وعزمت في المنام أيضا أن أنشره في الفيس!

والآن استيقظت على أذان الظهر، وعزمت على نشره، كما رأيته وكما عزمت على نشره في منامي!!

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

(خُصُومَةُ المَذَاهِبِ الفِقهِيَّةِ مُمتِعَةٌ ومُفِيدَة)

خصومة المذاهب الفقهية في لذتها أعظم من لذة خصومات برنامج (الاتجاه المعاكس) لفيصل قاسم! بل ألذ من حلقة أجمل لقطاته خلال عام، وأعوام!!

أما في الإفادة، فلا يجتمعان في ميزان واحد!!

فخصومة المذاهب الفقهية:

خصومة إثراء وذكاء!

هي خصومة تزيد من العلم وتعمق الفقه!!

هي خصومة توسع الأفق وتجعل النظرة أكثر شمولية!

هي خصومة توسع الصدر، وتجعل عدد المتربعين في قلبك أعداداً غفيرة، تكاد تستوعب المسلمين كلهم!

هي خصومة حفظت علينا فقهنا وشريعتنا، وأبقتها حية في الدرس والفكر والقلب!

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

(دَرسٌ بَلِيغٌ مِنَ الإمامِ مَالِك)

عندما نهى الإمام مالك عن التحديث ببعض أحاديث الصفات المشكلة، كحديث (خلق آدم على صورته)، وحديث الكشف عن الساق، ونحوها، وأنكر ذلك إنكاراً شديداً.

ألا يدل ذلك على أن علمها عنده من فروع الدين التي لا تجب إلا على الكفاية؟!

ألا يكون أمره بعدم التحديث بها أمراً بأن لا تكون سبباً للخلاف والامتحان والتبديع؟!

وازنوا هذا بمن جعلوا نحو هذه الأحاديث فرقانهم بين السني والبدعي، وخصوها بالمؤلفات المفردة، وأقاموا عليها المعارك، وفرقوا الأمة بها!!

أعجب منهم: يجعلون كلام الإمام مالك في الاستواء حجتهم في فهم التفويض السلفي، ولا يجعلون كلامه في عدم روايتها حجة في ترك الخوض فيها وتحزيب الأمة عليها!!

فإن كان كلام إمام دار الهجرة معبراً عن رأي السلف في أمر، فليكن كذلك في الآخر.

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

(الشَّرِيعَةُ تَرَكَتْ مَجَالاً وَاسِعاً لِلاجتِهَاد)

من تأمل ترك الشريعة لتحديد عقوبة أكثر الجرائم، وانتبه لاكتفائها بتحديد قليل منها فقط (وهي الحدود):

١ـ يعلم مقدار ما تركته الشريعة من المجال الواسع للاجتهاد البشري في تحقيق العدالة وتقدير المصالح.

٢ـ كما يعلم معنى التعبد في اختيار تلك الجرائم دون غيرها بتحديد عقوباتها.

٣ـ كما يعلم أيضاً حجم الخطأ الذي تقع فيه بعض مدارسنا القضائية الشرعية عندما تظن أن تحديد الحدود يمنع من التفريق بين ملابسات الجرائم:

ـ فمثلاً: في الشريعة عقوبة للزنا، وفرقت الشريعة في العقوبة بين الزاني المحصن وغير المحصن. ولم تذكر فرقاً بين الزنا بالتراضي والاغتصاب، مع ظهور الفرق الكبير جداً بينهما، وقد يكون الفرق بين الاغتصاب وزنا التراضي أظهر من الفرق بين زنا المحصن وغير المحصن. كما أن الشريعة لم تنص على فرق بين مطلق الزنا وسفاح المحارم المعارض للفطرة.

فقد يظن المتعجل أن هذا قصور في الشريعة، والواقع أنه سيكون هذا قصوراً فعلاً، لو لم تتح الشريعة للقضاة مجالاً رحباً للاجتهاد وتقرير العقوبات، أما وقد أتاحت الشريعة هذا المجال الرحب للاجتهاد فسيكون القصور في تصور من ظن أن تقدير الحدود يمنع من ملاحظة بقية الفروق التي تحيط بالجريمة، وسيتضح بذلك أن الشريعة منزهة عن كل قصور.

ـ ومثال آخر: عقوق الوالدين، جاء النص الدال على كونه من أكبر الكبائر، ومع ذلك لم يأت تقدير حد له. مع أن العقوق قد يصل حداً من إساءة المعاملة يدل على خبث نفس العاق، وأنه قد وصل مستوى من النفس الإجرامية تستدعي التأديب القاسي للاستصلاح، وربما تستدعي حماية المجتمع منه. ومع ذلك فقد تركت الشريعة وضع حد معين للعقوق؛ لأجل ترك المجال للاجتهاد.

وهذا المجال الكبير المفتوح للاجتهاد هو أحد أهم أسباب صلاحية الإسلام لكل زمان ومكان، ومن أكبر أدلة أن الإسلام يحث على التفكير والإبداع؛ لأن الاجتهاد لا يمكن أن يقوم به إلا الفكر القوي والعقل الإبداعي.

ومن رأيته يحاول الانتقاص من هذا الاجتهاد بالمنع الكلي أو الجزئي، فاعلم أنه عدو لحقيقة الإسلام، وإن ظن أنه يدافع عنه؛ لأنه يمنع من صلاحية الإسلام لكل زمان ومكان.

* * * * *

(مَتَى يَكُونُ فَهمُ السَّلَفِ إلزامياً)؟

سأل سائل: ما المراد بـ(فهم السلف)؟ عندما نقول عن السلفية: إنها الرجوع للكتاب والسنة على فهم السلف.

والجواب:

إن هذه العبارة يقولها أناس كثيرون، ويريدون بها معاني مختلفة، منها الصحيح المتفق عليه، ومنها الخطأ المقطوع بخطئه.

أما المعاني الصحيحة لـ(فهم السلف)، والتي يكون فيها فهمهم إلزامياً:

الأول: إجماعهم: اليقيني والظني، السكوتي والمركب (بشرطها الصحيح، والذي بينته في كتابي اختلاف المفتين).

الثاني: منهجهم في الفهم. وهو الذي حرص العلماء على بيانه في كتب أصول الفقه. فهو منهج إلزامي، لا تجوز مخالفتهم فيه.

الثالث: ما كان له حكم الرفع إلى النبي صلَّى اللهُ عَلَيه وسَلَّم من كلام الصحابة رضوان الله عليهم.

أما ما سوى ذلك، مما لا يُعد إجماعاً ولا له حكم الرفع ولا كان من قبيل منهج الفهم: فليس حجة تمنع الاجتهاد!

وإيراد أقوال بعض السلف، وهي خارجة عن المعاني الثلاثة السابقة، وإلزام الناس بها، باسم أنه منهج السلف؛ بدعة منكرة تخالف منهج السلف، في عدم إلزام الناس إلا بالكتاب والسنة والإجماع والقياس!!

ومن أشد أنواع البدع: مخالفة السلف في مصادر التلقي؛ لأنه خلافٌ منهجي خطير وكبير.

ومن مخالفتهم في مصادر التلقي: جعل أقوال آحاد السلف حجة، وادعاء هذه الأقوال منهجاً لهم (أي إجماعاً)، وهي بخلاف ذلك، أو لا دليل على إجماعهم عليها في أقل تقدير، وإلزام الناس بها، وامتحانهم عليها.

فتجد أحدهم يقول مثلاً: من منهج السلف هجر المبتدع، وعدم مجالسته، وعدم مجادلته، وحرمة توقيره...إلى آخره.

ثم تسأله: هل أجمعوا على هجره، على عدم مجالسته.. إلى آخره؟ فإن كان عاقلاً: قال: لا.

فتسأله: فمن أين صارت عبارات بعضهم إجماعاً، وفي عبارات آخرين وتصرفاتهم خلافها؟

وعلى هذا فقس!!

فالعجب من أناس بدَّعوا قوماً بحجة عدم التزامهم بمنهج السلف في مصادر التلقي وطريقة التعامل معها، ثم هم خالفوا إلى ما نهوا عنه ووقعوا فيما بدعوا فيه غيرهم!

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

(مَا أوسَعَ هَذِه الدَّعوَى)

أن تعتقد نفسك معيارَ الحق، ولسانَ ميزان السنة، والمنهجَ السلفي بكل تفاصيله: فهو غرور عظيم؛ لأن نقصك الكبير وقصورك الهائل عن السلف في العلم والإيمان، وقروناً من الانقطاع عنهم، وقيامَ خلافات ومعارك فكرية وعلمية (على مر العصور) تؤثر في تكوين التصورات وتغيير المناهج وتجييش المشاعر تجاه المخالف؛ كل ذلك كان يجب أن يجعلك مدركاً أنه لا يمكن أن تكون سلفياً (على كل ما كان عليه النبي صلَّى اللهُ عَلَيه وسَلَّم وأصحابه)!!

ما أوسع هذه الدعوى وأشد غرورها: أن طائفة ما (على ما كان عليه النبي صلَّى اللهُ عَلَيه وسَلَّم وأصحابه)!!

وأشد من ذلك غروراً (بل هو من البغي): عندما تعتقد أنها الوحيدة الحريصة على (السنة) و(وفق فهم السلف)! وأن تكذب كل طائفة تدعيها مثلها!!

حسبك (أيها المسلم) أن تكون صادق النية في تتبع آثاره صلَّى اللهُ عَلَيه وسَلَّم وآثار أصحابه رضوان الله عليهم!

حسبك أن تكون واثقاً من أصول دينك (عقيدةً وفقهاً) أنها موافقة للكتاب والسنة.

حسبك هذا، ومن زاد فذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم!

أما أن تعتقد نفسك معيارَ الحق، ولسانَ ميزان السنة، والمنهجَ السلفي بكل تفاصيله: فهو غرور عظيم!!

وأشد غروراً من ذلك: أن تتجاوزوا كونكم على الحق المستبين إلى أن تعتقدوا أنكم قد أقمتم حجة الحق الذي لديكم على العالمين، فما عاد يخالفكم من الخلق أحدٌ إلا معاند مستكبر، عرف الحق وأصر على الباطل.

لله دركم! فقد بلغت (في العالمين) حُجتكم، وسطع برهانكم، وقرع القلوبَ خطابُكم، فما يعمى عنه بعدكم إلا متعامٍ!!

ولذلك فيغيب (عند هؤلاء) إعذار المخالفين من أهل الشهادتين، فهم معاندون الحق يكابرون عن عمد.

ولا يقتصر خطر هذا البغي عند إثم الظلم والتعدِّي على مسلم متأول، بل يتجاوزه إلى أن يصيب أصحابه بشؤم الغرور وعاجل عقوبة البغي: فيأمن أحدهم على نفسه من الخطأ، وينسى عبادة محاسبة النفس، ويتعالى على النقد؛ لأنه لا يتصور الضلال إلا ضلال الاستكبار، الذي وصم به خصومه المخالفين له، فصار لا يستحضر ضلالاً إلا ضلال الاستكبار، وهو يعلم أنه غير مستكبر، فلذلك فهو على يقين من كل آرائه ومعتقداته، لا يراجع نفسه في شيء منها.

فيعود بغيه على غيره غروراً في نفسه، وبُعداً عن اكتشاف غلطه، وعجزا عن قبول نقده!!

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

لَيسَ مِنَ التَّسلِيمِ لِلنَّصِّ:

ـ فهمه السطحي الذي يعارض (معارضةً حقيقية) العقل أو الحس والواقع.

ـ العمل بظاهره غير المراد منه.

ـ ضعف التفقه فيه بعدم محاولة إناطة حكمه بعلته.

ـ عدم مراعاة حكم الضرورة والحاجة العامة اللتين تجيزان وربما أوجبتا (بالنصوص أيضاً) ترك العمل بذلك النص.

ـ الاعتراض على من خالف في دلالته الظنية واتهامه بعدم التسليم، مع أن الدلالة تحتمل الاختلاف.

كل ذلك ليس من التسليم للنص ولا من تعظيمه، بل هو من الجهل أو البغي الذي يضر بعظمة النص، ويُنقص من هيبته، ويدعو إلى إقصائه عن الهداية!

* * * * *

(مِنْ لذَّاتِ الكُتُب)

كلنا يعرف أن لذة الكتاب تكمن في إشباعه المعرفي وكشفه للمجهول، في تزويدنا بالمعارف والخبرات والنصائح والحِكَم التي تعيننا على النجاح.

لكننا ربما لم نلقِ اهتماماً للذات أخرى في الكتاب، منها:

١ـ الإشباع العاطفي: الذي نجده في كتب الأدب ودواوينه وقصصه ورواياته، وفي غيرها.

في حكاية نجاح مؤلفه، حتى أتمه. في سهر الليالي، وعُزلة الأيام.

في عقله وفكره الذي حرص على إبراز أحسن ما لديه منه في الكتاب.

٢ـ السباحة في فضاء الخيال: والخيال الواسع نعمة من أكبر النعم، والسباحة فيه تزيده سعة، وتزيدك متعة بالسباحة فيه.

٣ـ متعة الحوار والحديث، وهو حوار صامت عميق، إلى درجة أنه يخرجك من الهموم، ويعزلك عن المشاكل، وينسيك ملل الانتظار، كل ذلك وأنت تتحاور مع الكتاب.

وفي ذلك يقول الإمام اللغوي الشهير أبو عبدالله ابن الأعرابي عن الكتب:

لنا جلساءٌ لا نملُّ حديثَهم ... أَلِبَّاءُ مأمونون غيباً ومشهدَا

يفيدوننا من علمهم علمَ من مضى ... وحكماً وتأديباً ورأياً مسدَّدا

فلا فتنةً نخشى ولا سوءَ عشرةٍ ... ولا نتقي منهم لساناً ولا يدا

فإن قلتَ: أحياءٌ، فلست بكاذب ... وإن قلتَ: أمواتٌ، فلستَ مفنَّدا

٤ـ ومن لذات الكتب أنك تقرأ المعلومة منقولة من كتاب، فإذا وقفت عليها في مصدرها الأصلي وقرأتها منه، وجدت لها لذة أخرى؛ وكأنك ساويت ناقلها لك في قراءتك الأولى في اكتشاف منجمها. فمتتبع الأقوال في مصادرها الأصلية كمتتبع مناجم الذهب والفضة ومخابئ الكنوز والآثار القديمة. فقد تجد لذة عندما تجد الكنز معروضاً في متحف، لكنك عندما تقف عليه في حفيرته بنفسك ستكون اللذة مختلفة جداً.

٥ـ تجد لذة الكتب أيضاً: في فهم عبارة عويصة، عجز عنها شارح، أو استشكلها محقق. فتجد لذلك لذة الفوز والظفر، وتستشعر التميز والثقة بدقة فهمك.

٦ـ حتى تصحيح الخطأ المطبعي (أو النسخي)، هي عملية ترميم دقيقة، وعملية إنقاذ، قد تصل في لذتها حد إحياء الموات، أو الإنعاش.

٧ـ ومن لذات الكتب: أن لكل كتاب لذته الخاصة. فكل كتاب فاكهة مختلفة الطعم واللون، وقد تتشابه الفواكه، لكن الطعوم تختلف كل الاختلاف، ﴿وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ﴾ الأنعام: ١٤١.

ومَنْ رزقه الله مكتبة عامرة، فهو في بستان لا موسم لثمره، فموسمه لا ينقضي: ربيعه دائم، وثماره دانية في كل حين، وفيه من كل الثمرات، بقدر ما فيه من كل الكتب.

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

(لَيسَ مِنْ شَرْطِ الصِّحَّة: عَدَمُ توجُّهِ الإشكالات)

ليس من شرط صحة التقرير أن لا تتوجه إليه إشكالات، فالإشكالات لا تنحصر، ولا يمكن النهاية منها؛ لأن منها الشبهات والتوهمات والفهوم الخاطئة والتصورات المختلة، وهذه لا يمكن حصرها، ولا استقصاؤها، فهي متجددة بتجدد العقول.

وإنما شرط التقرير الصحيح: أن يقوم على ما لا دافع له، كالمحكمات المتيقنة. فإذا توجهت إليه الإشكالات لا تبطله، ولكنها تطلب توجيهها لتوافقه.

ومن خلط بين الإشكال المشتبه، والمحكم المتيقن، لن يثبت على رأي أبداً؛ إلا بالهوى.

* * * * *

(لا تَخَافُوا مِنَ الحُرِّيَّة)

لا تخافوا من الحرية، ولكن عليكم أن تخافوا من خوفكم من الحرية.

قيود الحرية ليست خالدة، لأنها صنيعة الإنسان. ولا يمكن أن يكون المصنوع أبقى من صانعه. هذه حقيقة، وليست فلسفة.

فهل يدركها صانعوا القيود؟ وهل يعيها الفرحون بخشخشة مفاتيح القيود في أيديهم بعد أن كبلوا بها الحريات؟

الحرية تتسع الجميع، حتى من أخطأ فاستبد فترة، ولكن الخوف منها هو الشيء الذي يجعلها تضيق عليك.

لا تُحذروا من الحرية، لكن حذروا ممن خانكم فربط وجودكم بسلب الحرية، وخوَّفكم منها.

لا تعرف الحرية الانتقام، لا والله، إنما تنتقم العبودية من ظلم الأسياد، أما الأحرار فشيمتهم العفو والتغاضي.

كلمات وجدها صديقي مكتوبة خلف باب زنزانة، أو باب حمام عام (يوم كانت أبواب الحمامات العامة من الداخل هي لوحة التغريد العربية قبل الانترنت)، أو في تغريدة تحت اسم مستعار.. لا أدري!

* * * * *

(الصَّرَاحَةُ قَدْ تَكُونُ مُؤلمة، لَكِنَّها مهمَّة)

لا يتألم المجروح إلا إذا وضعت يدك على الجرح! حتى لو كنت إنما تضع بها كفَّ الراقي أو مسحة الطبيب!!

وأصعب من ذلك: أن يتألم المريض ويغضب إذا صارحه الطبيب بمرضه العضال؛ لكي يتمكن من علاجه! فهذا المريض لا يريد أن يسمع الحقيقة، حتى ولو كان في سماعها شفاؤه.

وعندما يتألم بعض الناس من صراحتي في النقد، فهذا ليس أمراً غريباً؛ لكن رفض النقد لمجرد هذا الألم هو الغريب: فهو كرفض ألم قبضة الراقي، وكالنفرة من لذعة المسحة الطبية.

* * * * *

(إعجابُك بالمعلُومَةِ لا يَعنِي صِحَّتَهَا)

يقول الإمام الغزالي: (الإنسان يلتذ بعلم ما لم يكن علمه، وسماع ما لم يكن سمعه، إذا لم يكن مشغولاً عن ذلك بما هو أهم عنده منه، كما قد يلتذ بأنواع من الأفعال التي هي من جنس اللهو واللعب).

فلا تغتر بمجرد إعجابك بالمعلومة، حتى تفحص صحتها وأهميتها وأثرها عليك؛ فربما كان إعجابك بها إعجاب الملتذ بالجديد، كما يلتذ اللاعب بجديد لعبه.

* * * * *

مِنْ أمثِلَةِ غَلبةِ الجَدلِ بِغَيرِ حَقٍّ:

ما حُكي أن رجلاً قال لآخر يجادله: أليس الباطل مخلوقاً، فهو لا يخرج عن السماء والأرض وما بينهما؟ فقال الآخر: بلى، هو كذلك. فقال له: فاعلم أن الباطل لم يخلقه الله تعالى، ألم تسمع الله تعالى يقول: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً﴾ ص: ٢٧، فانقطع خصمه!!

فهذا من أمثلة الحجج التغلبية بغير حق!!

والصواب: أن الآية تخبر أن خلق السموات والأرض لم يكن عبثاً ولا لأجل نصرة الباطل، وليس في الآية أن الباطل غير مخلوق.

ولو أجاب أحد بهذا الجواب الصحيح، فقام ذلك المشاغب، وقال: ما هذا التكلف في التفسير! وكلام الله واضح لا يحتاج إلى تعسف في التفسير، وحاشا الله تعالى أن يخلق الباطل، هذا يعارض العقل، وينقص من قدر ربنا، وما نقص من قدر ربنا، ودل القرآن على تكذيبه، فهو كذب وباطل!!

ألن تجدوا في الناس من يصدقه! ومن يعتبرونه محرر الفكر من ربقة التقليد وقيود الجمود!!

مع أن كلامه كله باطل، وكون الله تعالى وحده هو الخالق أظهر يقينا وأثبت رسوخاً من هذه التمويهات!

والباطل إن كان موجوداً، وهو موجود، فلا بد أن يكون من خلق الله تعالى؛ لأنه لا خالق إلا الله تعالى.

وأما دعوى الانتقاص فكلام فارغ! فمن خلق الشيطان؟! ومن خلق الطغاة والفراعنة؟!

فخلق الباطل هو من حكمة الله تعالى، ليتم الابتلاء، ويقع الاختبار، ويميز الحق من الباطل والخير من الشر، وينقسم الناس فريقين: أصحاب الجنة وأصحاب السعير!!

وللحديث في هذا الموضوع ذيل طويل، ليس هو مقصود هذه الخاطرة.

وإنما مقصودها ينحصر في التنبيه على أغلوطات الجدل، وخدع الكلام، والتي قد تنطلي على كثير من العقول.

وما أحسن قول عمر بن عبدالعزيز: من جعل دينه غرضاً للخصومات أكثر التنقل!!

أي جعل مصدر تلقيه وتعلمه لدينه هو حوارات القنوات وجدال الاتجاهات المتعاكسة وصراع الديكة والتحريش بين العقول!!

فالدين أجلُّ وعلمه أكبر من أن يكون مصدره مماراة المتجادلين وصراخ المتناقشين وتغالبهم، مع نقص العلم وقلة الورع وضياع الأخلاق الكريمة!!

* * * * *

(حُرِّيَّةُ التَّفكِيرِ لا تَعنِي التَّمَرُّد)

حرية التفكير وحرية اختيار القناعة هما حق إنساني، يستحقهما الإنسان بمجرد إنسانيته، لا بمال ولا منصب ولا علم ولا جهل. ولا يجوز المساومة فيهما، بل لا يحق للإنسان التنازل عنهما برضاه، كما لا يجوز للحر أن يبيع نفسه.

لكن هاتين الحريتين لا تعني التمرد على واجب العقل، من مثل:

١ـ عدم التسليم فيما تجهل للعلم الذي يعلمه غيرك. فتسليمك هذا ليس تسليماً لفلان، وإنما هو تسليم للعلم الذي يعلمه، وتجهله.

واتباع الأعلم المأمون فيما لا تستطيع أن تعلمه، هو كاتباع الأعمى للقائد المأمون: نقص، لكنه واجب العقل، من حيث هو نقص. وما من البشر أحد (إلا المؤيد بالوحي) إلا وهو قائد ومقاد، مرة ومرة؛ مركب النقص البشري الذي لا ينجون منه.

٢ـ لا تعني رفض كل ما لم تحط به علماً، وإن كنت تعلم أنك لست مؤهلاً للعلم به. فرفض ما تجهل، كقبول ما تجهل: كلاهما خلل في منهج التفكير.

فالموقف مما تجهل: يكون بالتوقف فيه، لا قبول ولا رد.

٣ـ أن تظن أن قناعتك الخاصة تبيح لك أن ترفض مناقشتها، فتجعل من دعوى حرية القناعة سياجا يحجز القناعة عن المناقشة. فرب قناعة باطلة كانت أشد استعبادا لصاحبها من استعباد الحرية، تأسره وتمنعه من انطلاقة الحق وفسحة الصواب ونزهة الصحة.

* * * * *

(بَينَ حُرِّيَّةِ الفِكْرِ، وحُرِّيَّةٍ بِلا فِكْر)

هناك (حرية الفكر) و(حرية بلا فكر)، فالأولى مطلوبة، ولا يمكن أن تؤدي إلا إلى خير.

فإن أدت إلى شر وكفر وفساد فهذا المؤدَّى وحده دليل على أن هذه الحرية كانت حرية بلا فكر، وليست حرية فكر.

وتدل على أن هناك خللاً فكرياً وثغرات علمية في تسلسل بنائها، وهو ما جعلها توصل صاحبها إلى غير الحق وتثمر له القناعة الباطلة.

ولذلك أكَّد القرآن الكريم على أن الهداية ومحبة الحق والإيمان به هو من خصائص ذوي العقول والألباب في آيات كثيرة، وأن عدم التعقل هو سبب الضلال: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ الملك: ١٠.

فما أعجب قوماً هذا هو دينهم ثم هم يخافون من حرية الفكر، وينابذون الدعوة إليها!!

هذا من جانب، ومن الجانب المقابل: ما أعجب آخرين منهم يكفرون بهذا الدين أو يتمردون على تعاليمه بحجة حرية التفكير، بسبب عدم تفريقهم بين حرية الفكر وحرية عدم الفكر، فمثل هؤلاء كمثل الذي فكَّرَ وقَدَّرَ، نعم ﴿إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ. فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ. ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ. ثُمَّ نَظَرَ. ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ. ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ. فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ. إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾. المدثر: ١٨ـ٢٥.

ولذلك كان وعيد من ادعى أن التفكير هو ما أدى به إلى الكفر وعيداً شديداً وتهديداً بعد تهديد: من جنس قوله تعالى: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً﴾ المدثر: ١١، و ﴿سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً﴾ المدثر: ١٧ و ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾ المدثر: ٢٦.

كل هذا جاء عقاباً على دعواه بأن فكره هو ما أدى به إلى الكفر، ولم يعترف بالحقيقة وهي أن التقليد هو حجته الحقيقية على الكفر، والاستكبار أو الحسد هما سبب إصراره على الباطل.

واستحق الذي ادعى أن تفكره هو ما قاده إلى الكفر هذه العقوبة المضاعفة؛ لأن مدعي الكفر بالتفكير ضمَّ إلى الكفر كذباً بدعواه هذه؛ ولأنه كفر نعمة التفكُّر حينما نسب إليها

الإضلال، وهي التي لا يمكن إلا أن تهدي وأن تدل على الخير؛ ولأنه يضلل الناس بهذه الدعوى الكاذبة الآثمة، حيث أوهمهم أن كفره كفر ناتج عن تفكر وتدبر وعلم ومعرفة!

* * * * *

(تَحرِيكُ الذِّهنِ)

تحريك الذهن للتفكير خدمة أحرص على تقديمها مجاناً لطلبة حفظٍ وتلقين وتقليد ورهاب فكري، جنت عليهم هذه الأساليب في التعليم.

وتحريك الذهن هذا الذي أحرص عليه هو في الحقيقة رياضة ذهنية مهمة، تزداد قوة مع كثرة التمرين، كزيادة البدن قوةً بالتمارين الرياضية تماماً!

ولتحريك الذهن للتفكير أساليب عديدة أسلكها مع الطلاب، ويعرف ذلك طلابي في الدراسات العليا خاصة:

ـ منها: أن آتي لوهم كبير أعلم أنهم يظنون أنهم منه على يقين، وأجعلهم يتفاصحون في تقريره، ولربما ذكرتهم بأدلته، وجوَّدتُ لهم استدلالهم عليه. ثم بعد ذلك أنقضه عليهم نقضاً كاملاً، حتى لا يبقى للمتعالي منهم إلا الصمت والتحيُّر!

هذه الهزة العلمية: مهمة جداً في تحريك الذهن، وفي إخراجه من نمطية التفكير التي تسد عليه آفاق الأفكار وفضاء المعاني.

وقد أكرر هذه العملية معهم، فأجعلهم يقتنعون بفكرة، ثم أنقضها، ثم يقتنعون بأخرى، ثم أنقضها... مرتين أو أكثر، فتكون هزتها وتمرينها في غاية القوة، قد يسبب لهم شداً ذهنياً (على غرار الشد العضلي).

ـ ومنها: السؤال الذي يصل إلى صلب الموضوع وحل النزاع الدقيق، فأطرح السؤال، ولا أذكر الإجابة. فكثيراً ما تتجاوز العقول السطحيةُ وطرائقُ التفكير التقليدية مواطنَ الإشكال، ولا

تقف عند أعماق المسائل، وتتساهل البت في قضايا من محارات العقول، ومن أغلوطات المسائل، وهي لسطحيتها تظن القول فيها واضح، لا يحتاج لكل هذا العناء.

فيأتي السؤال الذي يحدد موطن الإشكال كافياً لهز ذلك الذهن، ليعلم أنه: إما أن يتعمق، أو أن يترك المسألة للمتعمقين، فليقل خيراً (عميقاً) أو ليسكت عن الجهل والسطحية ووثوقيتهما المغترة.

ـ ومنها: أن أطلب منهم شرح مسألة عويصة، وأطلب منهم تأمل الكتب، وأدلهم على أهم من تعرض لها. فإن فهموها بعد تعب وجهد فقد استفادوا تمريناً ذهنياً مهماً، وإن فهموها خطأً، يأتي التصحيح ليحدث لهم تلك الهزة العلمية، التي تحثهم على مراجعة طريقة تفكيرهم التقليدية التي أُنشئوا عليها.

طبعاً لن أحتاج لهذه الأساليب مع الطلبة المبتدئين، لأن عقول هؤلاء في يد المعلم منذ البداية، فيجب أن يقوي فيها انطلاقتها.

وإنما أحتاجها مع طلبة رُبوا على طريقة محددة في التفكير، تجعلهم عاجزين عن الانطلاقة الفكرية المبدعة.

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

(العَقلُ الطَّلِيقُ والعَقلُ الأسِير)

الأفكار ليست وليدة المعلومة؛ لأن المعلومة هي الوليدة للأفكار. ومن نكس هذا الأمر، سيبقى أسير معلومات غيره، ويظن أنه كلما كان سياج المعلومات التي يجمعها أكبر أصبح أوسع علماً، وهو لا يعلم أنه بهذه الطريقة سيكون قد أوسع السياج فعلاً، لكنه قد وسع به سياج سجن أفكاره، فصار فكره حبيس سجن.. لكنه سجن كبير!! فهنيئاً له سعة السجن!!

المعلومة مبذولة لطالبها، ولا تحتاج فكراً لتحصل عليها، تحتاج فقط غريزة كغريزة النملة ومثابرتها عندما تجمع مخزونها من الطعام.

أما الأفكار: فهي الإبداع الذي يلد المعلومات المبذولة، والتي تكون سائحة في فضاء الكون: في سنن الطبيعة، وفي جمال الخلق وتناسقه، وفي هداية الله تعالى في وحيه محجوبةً بستار يحفظها عن أن لا يقف عليها إلا من يستحقها.

والمعلومات التي أنتجها الفكر الإنساني، وجميع الجهود البشرية في جمع المعلومات، لا يساوي شيئا أمام عظمة الكون، وفضاء الفكر.

ولذلك فسوف يبقى فضاء الفكر أوسع بكثير من سجن المعلومات!

ولا مات الاجتهاد إلا عندما أصبحنا نأسر الفكر في سجن المعلومات، وعندما أصبحنا نظن المعلومة هي التي تلد الأفكار، لا أن الأفكار هي التي تلد المعلومات.

وحتى ندرك الفرق بين عقل طليق من أسر المعلومات وعقل أسير لها: تأملوا الفرق بين نص واحد مبذول لكل الناس، وهو القرآن الكريم: كيف يهيم صاحب العقل الطليق في استنباط هداياته، والتي يجدها تتزاحم عليه حتى يخشى من سرعة تفلت بعضها، ومن أن لا تسعفه قيود الحروف في تقييدها.

وكيف يقف العقل الحبيس عند الآية والسورة ضيق النفَس ثقيل الحركة، لا يكاد يفهم منها إلا ما تعود أن يسمعه؛ لأنه حبيس المعلومات! جعل منها الفكر، وما علم أن المعلومات التي يعرفها ما هي إلا نتاج فكر طلقاء العقل وأحرار الاجتهاد.

* * * * *

(الفِكْرَةُ السَّوِيَّةُ تَكْبُرُ وتَنْمُو)

تبدأ الفكرة صغيرة، فإذا كانت فكرة سوية تكبر وتنمو، لتصبح مقالاً عميقاً، أو كتاباً كبيراً، أو اكتشافاً خطيراً، أو اختراعاً عظيماً.

أما إذا كانت فكرة غير سوية، فلا تنمو، ولا تقبل التولد. وستكون كل محاولة لتنميتها محاولة فاشلة، ولن تنمو أبداً؛ إلا بقدر ما يقربها نموها هذا من الوفاة والاضمحلال؛ لأن نموها هذا يزيد من تشوهها تأثيراً على بقائها، ويزيد من عيبها ظهوراً وتنفيراً منها!

إن ارتباط البقاء والنمو والاستمرار بالحق، حتى في مجال الأفكار، لهو من أكبر دلائل أن الكون مخلوق بالحق وللحق وإلى الحق، ولم يُخلق للباطل والعبث والصدفة البلهاء؛ ولولا ذلك لـما كان البقاء للحق، حتى في مجال الفكرة!!

* * * * *

(الأفكَارُ الحَيَّةُ هِيَ التي تُوحِي إليك بِغَيرِهَا)

إذا لم توح إليك الفكرة التي تقرؤها أفكاراً، وإذا لم تستولد لك المعلومة معلومات جديدة، فإما أن الفكرة ميتة، والمعلومة عقيم لا خير فيها، وإما أنك أنت ميت الإبداع عقيم الخيال، وإما أنك تقرأ ما لا تفهمه وتحفظ ما لا تتقنه.

فاحذر من أن يكون حظك من الفكرة والمعلومة حفظها فقط، فهذا سيفاجئك في نهاية مطاف التحصيل أفكاراً ميتة وعلماً عقيماً جامداً.

* * * * *

(الحِفظُ بِغَيرِ فَهمٍ)

سئل الإمام مالك: عن صبي ابن سبع سنين جمع القرآن (أي حفظه)؟ فقال: ما أرى هذا ينبغي.

قال الإمام أبو بكر الأبهري (ت٣٧٥هـ) في شرحه لهذا الجواب: إنما كرهه مالك؛ لأنه إذا تعلمه على هذه السرعة لم يحكم أخذه، ويعرف حدوده، وسبيل من تعلم القرآن: أن يتعلمه، ويتبين أحكامه وحدوده، حسب طاقته، والصبي لا يمكنه هذا في الأغلب. وقد كان أصحاب رسول الله صلَّى اللهُ عَلَيه وسَلَّم يبقون في السورة الطويلة يتعلمونها، ويتبينون ما فيها من الأحكام).

شرح الجامع لابن عبد الحكم (١٥٩- ١٦٠).

رحم الله الإمام مالكاً وشارح كلامه أبا بكر الأبهري، إذ كانا قد كرها لابن سبع أن يحفظ القرآن لأنه حفظ بغير فهم، ولم يقولا: دعوه يحفظ، وسيفهم بعد ذلك؛ لأنهما يعلمان ضرر ذلك على الذهن وعلى تنمية ملكة الفهم فيه! ولأن هذا خلاف منهج السلف من الصحابة والتابعين، يا أتباع منهج السلف!

لو قال اليوم قائل عن صبي حفظ القرآن: لا ينبغي ذلك؟! لو قال لكم ذلك أستاذ علم نفس تربوي؟! لو قال وزير التعليم ذلك؟! ماذا كان المشايخ والدعاة وطلبة العلم سيقولون؟!

سوء فهمنا لديننا، وسوء ظننا بإخواننا، مع عقدة المؤامرة؛ سيجعل من هذا المعاصر (لو قال هذا الكلام) عدواً لكتاب الله!!

ثم تأملوا هذا الكلام مرة أخرى، لتقولوا: ما أشرف الفهم! حتى القرآن (وهو خير محفوظ) يُنهى عن حفظه بغير فهم؛ لأن هذا الحفظ يخل بملكة الفهم؛ إلا مع إعطاء الفهم حقه المضاعف من الجهد والوقت مع الحفظ. وهذه هي طريقة السلف في حفظ القرآن، لا طريقة الخلف!

والحفظ بغير نية العمل هو الحفظ بلا فهم؛ لأن العمل لا يمكن بغير فهم ما يستحق العمل. فإذا حفظ الصغير لغير نية، ألف هذا المحفوظ بغير تدبر، وتبلد شعوره تجاه مثانيه، فلا تكاد يقشعر جلده ولا يلين قلبه لسماع أو قراءة آياته؛ إلا الفينة بعد الفينة، بسبب ذلك الحفظ الذي لم يكن بفهم، بل الذي لم يكن بنية الفهم أصلاً؛ بحجة: الحفظ قبل الفهم والعمل!!

* * * * *

(حَتَّى يَعْلَمُوا مَا فِي هَذِهِ مِنَ العِلْمِ وَالعَمَلِ)

صح عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه (قارئ الصحابة وفقيههم)، أنه قال: (كَانَ الرَّجُلُ مِنَّا إِذَا تَعَلَّمَ عَشْرَ آيَاتٍ، لَمْ يُجَاوِزْهُنَّ حَتَّى يَعْرِفَ مَعَانِيَهُنَّ وَالعَمَلَ بِهِنَّ).

وثبت عن التابعي الجليل المقرئ أبي عبد الرحمن السلمي: (حَدَّثَنَا مَنْ كَانَ يُقْرِئُنَا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَنَّهُمْ كَانُوا يَقْتَرِئُونَ مِنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَشْرَ

آيَاتٍ، فَلَا يَأْخُذُونَ فِي العَشْرِ الأُخْرَى حَتَّى يَعْلَمُوا مَا فِي هَذِهِ مِنَ العِلْمِ وَالعَمَلِ، قَالُوا: فَعَلِمْنَا العِلْمَ وَالعَمَلَ).

كنت أظن هذين الأثرين المشهورين معلومين عند من سيقرأ المنشور السابق، فلا يعترض على كلام الإمام مالك والإمام الفقيه أبي بكر الأبهري؛ لأنها يبينان منهج النبي صلَّى اللهُ عَلَيه وسَلَّم ومنهج أصحابه من بعده (وبعد تمام القرآن) في تعليم القرآن.

هذا هو منهج أعظم أساتذة البشرية عليه الصلاة والسلام، وأعرف الناس بفضل القرآن الكريم وبتلاوته وحفظه!

وهذا منهج أفضل أجيال هذه الأمة، وأوعاها علماً، وأقواها إيماناً، وأحرصها على كل خير!!

ما كنت أظن أحداً نرفع عنه الغشاوة بمثل هذه الحجج، يستمر في الدفاع عن مناهج أوصلتنا إلى ما نحن فيه من ضعف الفقه، ونقص التخلق بأخلاق القرآن!!

* * * * *

(مَاذَا تَفعَلُ العُقُولُ العَاجِزَة)!

تميل العقول العاجزة عن إدراك أعماق العلوم وعن فهم دقائق الفهوم إلى قبول أي قول يشجعها على التمرد على تلك الأعماق والدقائق وعلى السخرية منها، وليس مجرد التوقف فيها أو مجرد رفضها؛ لأن الاعتراف بالعجز العلمي (وهو الجهل) أو العجز الفكري (وهو ضعف الفهم) أمر صعب جداً على النفس، وقد يكون الاعتراف به سبباً لسخرية بعضهم وانتقاصهم.

ولذلك يصبح المرء مخيراً بين السخرية مما لا يعلم ومما لا يفهم أو السخرية من نفسه! أو هكذا يتصور هو المسألة، فلا يكاد يقبل الاعتراف بالعجز والتقصير إلا نادراً!

ولذلك تجد هؤلاء متهافتين على السخرية من عميق العلم ودقيق الفهم، معجبين بمن يدلهم على شبه ومغالطات توهمهم أن لديهم أدلة لذلك الرفض الساخر؛ لأنه ينقذهم بتلك الشبهات والمغالطات من ذلك الاعتراف الثقيل على أنفسهم.

مع أنه من الممكن ومن السهل أن يعترف بذلك العجز: مع ثقة شديدة في النفس، وبعقل كبير يجعله مدركاً أن العلوم بحر لا عيب على من جهل كثيراً من فنونه، وبإيمان يزكي النفس من الغرور والعجب.

هذا ما أراه من بعض المعجبين بعبارات التمرد على العلوم باسم إعمال العقل، والمغترين بأمزجتهم في القبول والرفض باسم الانعتاق من التبعية ومن عبودية التقليد الأعمى.

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

(بَينَ العَقلِ والمزَاج)

(ما يرفضه العقل) و(ما يرفضه المزاج) أمران متباينان تماماً، لكن كثيراً ما يختلطان على بعض المفكرين الإسلاميين المعاصرين، ممن يدعون العقلانية والتحرر من التقليد. فتجد أحدهم يعبر عن مزاجه في القبول والرفض: بأن امراً ما مقبول عقلاً، وأمراً آخر مرفوض عقلاً.

و(العمق والتدقيق في العلم والفهم) و(التعسف والتكلف في العلم والفهم) أمران متباينان تماماً، ومع ذلك تجد كثيرا من الناس يقول عن العميق: هذا تعسف! ويقول عن التدقيق: هذا بعيد عن الفهم!

فبالخلط الأول يُرفض الحق بالأمزجة! وبالخلط الثاني يُرفض العمق والتدقيق بالسطحية والظاهرية! والمصيبة أن هذه الخطايا تتم باسم الاجتهاد واحترام العقل!!

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

(التَّسلِيمُ مَنهَجٌ يُوجِبُهُ العَقل)

التسليم منهج يوجبه العقل السليم، نعم.. يوجبه العقل، لكن إذا كان تسليماً في محله.

ومحله هو أن يكون تسليماً لمن هو أعلم منك وأحكم فيما تعجز أنت عن إدراكه، فحينئذ العقل نفسه يوجب عليك التسليم.

ألا ترى أنك تسلم للأطباء نفسك وأعز الناس عندك، ولا تعترض عليهم، ولربما قرروا بتر عضو أو استصال أحد أجهزة الجسد، وتسلم لهم ذلك.

ألا ترى أنك تسلم لمستشاريين هندسيين مشروعاً ضخماً، وتنفذ مخططاتهم وتمولها من حر ما تملك، بلا اعتراض.

ألا ترى أن الجندي يموت في أرض المعركة؛ تسليما لخطة القائد.

وصلحت شؤون العباد في الدنيا بهذا التسليم، بل لن تصلح إلا به! مما يدل على أن منهج التسليم هذا منهج صالح، ولا يمكن أن يخالف العقل السليم منهجاً يحقق المصالح؛ إلا العقل الفاسد.

فإذا كان التسليم للأعلم والأحكم من موجبات العقول، فكيف بالتسليم لخالق العقول سبحانه وتعالى، ومن ملأ الكون: أسراراً نقف أمامها عاجزين، وإتقاناً نخضع لبليغ حكمته فيه.

وبهذا ظهر الفرق الكبير بين التسليم والتقليد المذموم، وبين التسليم وإلغاء العقل، حتى تبين بذلك أن التسليم لن يكون في محله، ولن يفارق التقليد المذموم وإلغاء العقل؛ إلا أن يكون تسليماً موافقا للعقل!!

وإظهار التسليم على أنه ضد التعقل، وأنه لا يجتمع وموجبات العقل، بل إنه لا يتم إلا بإلغاء العقل: أحد جرائم بعض المتحدثين بلسان الشرع، وهو أحد أسباب تفريخ الإلحاد قديماً وحديثاً في عقول ذوي العقول!

* * * * *

(الدَّعوَةُ بَينَ أشوَاكِهَا وأشوَاقِهَا)

ما أصعب أن يكتم الحقيقة من عرفها عمن يحتاجها خشية من أن يرفضها ويعجز عن تقدير حاجته إليها.

ما أشد أن ترى من يجهل ويرفض أن يعلم ما يجهل؛ لأنه يظن أنه يعلم!

أن لا تحدث الناس بما لا يعقلون خشية أن يُكذب الله ورسوله، وهم في أمس الحاجة لكي يعلموه: هذا هو الثقل العظيم.

أن يكون الحق فتنة لبعضهم فتكتمه عنهم، يكاد يكون فتنة وابتلاء لك.

فاصبر: فالدعوة والهداية طريق طويل، هذه بعض أشواكه وأشواقه.

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

(الطَّعنُ في عُلُومِ الإسلام)

أعجب ممن يحلم بأن يهدم قواعد علوم الحديث أو أصول الفقه أو غيرها من العلوم الإسلامية بحجة أنها علوم بشرية، وكأن بشرية العلم يلزم منها أن تكون قواعده ومسائله ظنيةً ترجيحية فقط، وأنه لا يمكن أن يكون فيه علمٌ يقيني تدل عليه الأدلة اليقينية من أدلة الحس أو العقل!!

وكأن كل علم بشري ستجعله بشريته حمى مستباحاً لكل طاعن! وأخيراً: كأن معول هدم هؤلاء بحجة بشرية العلم هو المعول الرباني؛ فهو يجيز لهم الضرب يميناً وشمالاً، في صرح علمي كبير، تعاون على بنائه أذكياء الخلق وأزكياؤهم من جلة علماء هذه الأمة على مر القرون.

ولا يعني شيء من هذا عدم قبول هذه العلوم للإضافة والتجديد، فضلاً عن تحرير مقالاتها وتخليصها من ركام كبير من الأخطاء. لكنه يعني أن يكون التوجه إليها للإكمال والتحسين، لا للإبطال والتشويه.

والتجديد والتكميل له شروطه، والتي تبدأ من احترام جهود علماء الفن، وأن يكون الذي يتوجه إلى العلم بالتجديد عالما فيه، عنده أهلية النظر فيه والبحث والاجتهاد.

ومهما حاول المتطاولون التسور على علوم الإسلام، فستبقى علوم الإسلام حصناً منيعاً أمام هذا الهجوم، ما بقي الدين!! وستنتطح بصخرتها قرون الطاعنين فتنكسر عليها!

ولو عقلوا، لوفروا قرونهم لطعون الطاعنين فيها!

* * * * *

(عِلمُ الرَّاسِخِينَ بِالْمُتَشَابِهِ هُوَ مِنَ الْمُتَشَابِهِ)

ذكر الإمام المازري (ت ٥٣٦هـ) في كتابه (المعلم) اختلافَ العلماء في علم العلماء الراسخين بمتشابه القرآن الكريم، واختلافهم بناء عليه في الوقف في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي العِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾ آل عمران: ٧، وهل يقف القارئ بعد ذكر اسم الجلالة، ليشهد وقفه هذا على عدم علم الراسخين بالمتشابه، وعلى انفراد الله تعالى وحده به.

أم أن القارئ يُتمم قراءته، ولا يقف إلا بنهاية لفظ (في العلم)؛ ليدل ذلك على أن العلماء الراسخين يعلمون المتشابه بما علمهم الله تعالى.

ثم قال بعد حكاية هذا الاختلاف: (ويكاد يكون علم الراسخين في العلم بالمتشابه من المتشابه)!!.

وإذا كان علم الراسخين بالمتشابه من المتشابه، أو يكاد يكون كذلك، فلا يمكن أن يؤسَّس على المتشابه أمرٌ يقيني، يجيز الإنكار على من يخالفه!

وقوله (يكاد) فيه إلماح إلى منزلة من اليقين، هو اليقين الذي قد يتوصل العالم إليه بعد طول نظر وبحث، ولذلك فلا يجيز وصوله إليه إنكاره على مخالفه فيه. وقد ذكرت هذا النوع من اليقين، في كتابي (اختلاف المفتين).

وبمثل هذه العبارة تعرف عظمة العالم؛ لأن إدراك سعة العلم، واستيعاب أدلة المختلفين بعمق، تمنع صاحبها من ادعاء اليقين والقطع في كثير من الأحيان.

* * * * *

(لِـمَاذا يُصبِحُ عَدُواً لِلمُصلِحِينَ بَعدَ أنْ كانَ مَعَهُم)!

كنت أستغرب ممن ارتد عن الإسلام في حياة النبي صلَّى اللهُ عَلَيه وسَلَّم، خاصة من كان منهم قد نجا من الاضطهاد بمكة، كعبيدالله بن جحش، الذي تنصر في الحبشة.

وأستغرب ممن ينقلب خصماً للمصلحين ويتحول عدوا لهم، ممن كان يمشي في ركابهم قبل ذلك.

فتنبهت أن سبب ذلك أنهم ممن خارت قواهم:

ـ فإما خارت قواهم النفسية، بالعجز عن الصبر على تحمل تكاليف الإصلاح من أنواع الأذى.

ـ وإما خارت قواهم العلمية، عن إدراك مقدار ما يحتاجه الإصلاح من هدم حصونٍ للجهل، كان يظنها حصوناً للعلم وثوابت؛ فإذا معول الإصلاح يبدأ بهدمها وبيان خراب أُسُسها، فلا يصبر على ذلك؛ لعجزه العلمي عن التجرد للحق، أو لعجزه العقلي عن إدراك حقيقة تلك الحصون الموهومة.

إذن لا يترك الإصلاح بعد السير في ركابه ممن صدق في مسايرته أول مرة؛ إلا من أصيب في مقتلين:

الأول: الجزع وعدم القدرة على الصبر، فمسيرة الإصلاح شاقة، ولها تكاليفها الكبيرة. فقد تستهوي الرجل فكرة الإصلاح، ثم يتفاجأ بأذى ما كان قد حسب له حساب، فتنخذل قواه، وتفتر عزيمته.

فلا يترك الإصلاح مصرحاً بعجزه وجزعه؛ لأن هذا التصريح لن يكف عنه الأذى؛ إلا أن يصرح بأنه ضد الإصلاح، بل ربما كلفه وجوده مع الإصلاح يوماً أن يكون من أشد أعدائه؛ لكي يبرئ ساحته منه تبرئةً تنفي عنها الشكوك.

الثاني: أن الإصلاح قد يستهوي بعض العقول عندما يوافق ما كانت تلك العقول تستنكره، لكنها كانت لا تجرؤ على إصلاحه، فإذا وجدت من يصرح بالإصلاح فيه، أيَّدته عليه ومشت في ركابه إليه.

ثم بعد فترة: يصل الإصلاح إلى مواطن فساد ما كانت تخطر على بال هذا الماشي في ركاب المصلحين، وربما مست قضايا ثقيلة على إدراكه وعلمه، أو تؤثر في بعض مصالحه ومنافعه، فيعود منقلباً على الإصلاح؛ لأنه عجز عن التجرد في طلبه، أو عجز عن فهمه؛ لجهله وعدم وصول مقدرته العلمية إلى إدراكه.

فإما أن تمشي في ركاب الإصلاح من أوله لآخره، أو دعه، فالإصلاح إذا انقلبت عليه كنت أشد تعويقاً له ممن كان وما زال عدواً له، فكان إثمك أكبر من العدو الدائم، بقدر سوء أثرك عليه.

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

(إرجَاعُ نُـقَطِ الجَهلِ إلى نُقطَةٍ وَاحِدة)

لئن كان العلم نقطة، كَثَّرها الجاهلون. فقد أصبح العلم اليوم يبدأ من إرجاع نُـقَط الجهل إلى نقطة واحدة، هي نقطة العلم.

وهو ما يُسمى بالجمع بين الأقوال المتنازعة في الظاهر، المتوافقة في الحقيقة.

على عكس ما يفعله الجاهلون من السعي لتكثير المقالات واختراع الخلافات، سعياً في إظهار سعة الاطلاع!

فإن تبين أن هناك نزاعاً حقيقياً، في مسألة لا يصح فيها التنازع (قطعية المأخذ)، والذي خالف فيها عالم، فلابد أن تجد في مقالاته هو نفسه ما ينقض أصله، فبين ذلك؛ لتلزم الناس بهجر مقالته؛ لأنه لا يُنسب لمضطرب مذهب فيما اضطرب فيه، إنما المذهب ما اطرد طرداً وعكساً، وصح البناء عليه والتأسيس عليه.

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

(لَـمْ يُعَاقِبْ صبيغاً لِبدعَتِه، وإنما لِنَشرِ مُغَالطَاتِه وتَعَنُّتِه)

عجبت من قوم يحتجون بفعل عمر رضي الله عنه بصَبيغ بن عِسْل، عندما ضربه وغرَّبه وأمر بهجره، على أن هذا هو حكم أهل البدع مطلقاً.

وينسون حكم علي بن أبي طالب رضي الله عنه في الخوارج، عندما تركهم دون عقوبة، ولا قطع عنهم حقَّهم في بيت المال، ولا أمر بعزلهم عن المجتمع؛ حتى تجاوزوا الرأي واستباحوا الدماء، فعندها قاتلهم.

فما الذي جعل فعل عمر رضي الله عنه حجة، دون فعل علي رضي الله عنه؟!

مع أن فعل علي رضي الله عنه أشهر، وواقعته مع الخوارج لا تخفى على أحد. بخلاف موقف رجل واحد (هو صبيغ)، لم يكن له ذكر، ولا شهد موقف عمر رضي الله عنه منه كالذين شهدوا من الناس مع علي رضي الله عنه موقفه من الخوارج ووافقوه عليه.

والحاصل: أن عمر رضي الله عنه لم يعاقب صبيغاً لبدعته، وإنما عاقبه لسعيه في نشر مغالطاته وتعنته في السؤال تعنتاً يدل على هوى، لا على تأوُّل جهل. هذا ما تدل عليه الروايات، وهو ما نص عليه الذين حرروا هذا الموقف من أهل العلم، كابن عبدالبر والخطيب وغيرهما.

ويبقى موقف علي رضي الله عنه محرجاً غاية الإحراج لمن ينسب للسلف ما يوافق هواه، ويترك ما يخالفه!!

* * * * *

(الجِدَالُ في الظَّنِّيَّات يُفَرِّقُ المُسلِمِينَ غَالِباً)

قد يظن البعض أن دعوات التعايش بين المسلمين، والمناداة بالتسامح في تفاريع العقائد، دعوات لا تصدر إلا عن ضعف في حجة عند أصحابها، وأنهم لا ينادون بذلك إلا لعجزهم عن الدفاع عن معتقداتهم، وأنهم لولا ذلك لجادلوا وناقشوا حتى تظهر قوة حجتهم وقدرتهم على غلبة الدليل والبرهان.

وكل طائفة تظن ذلك في نفسها، وتظن ضده في مخالفيها.

ولذلك يستمر الجميع في الجدل، ولا ينتهون منه، حتى يزداد تمزق المسلمين تشتتاً، وضعفهم ضعفاً!

لكن الواقع أن الجدل في هذه التفاريع لا يعجز عنه أحد؛ لأن الفروع الظنية ما كانت ظنية إلا لكون أدلتها كذلك، والظني تجري العادة أن الناس لا يتفقون على دلالته، ولظنيته لا يكاد يمكن جمعهم فيه على دلالة واحدة.

ولذلك كان الجدل فيه غالباً: جدلاً عديمَ الجدوى؛ إلا من إيغار الصدور، وتفريق الصف.

ولذلك كان النبي صلَّى اللهُ عَلَيه وسَلَّم يحث على ترك المراء (الجدل الشديد)، في مثل قوله صلَّى اللهُ عَلَيه وسَلَّم: (أنا زعيمٌ ببيتٍ في ربَضِ الجنَّةِ لمن ترك المِراءَ وإنْ كَانَ مُحقّاً).

فقوله صلَّى اللهُ عَلَيه وسَلَّم: (وإنْ كَانَ مُحقّاً)؛ ليبين أن ترك المراء لا يلزم منه عجز التارك عن بيان الحجة؛ ولكي يشفي من داء هذا المراء؛ فظن كل واحد أنه هو الذي على الحق، وأن غيره هو الذي على الخطأ، هذا الظن هو وقود الجدل الذي لا تخمد ناره ولا يهدأ شراره، ولذلك بين النبي صلَّى اللهُ عَلَيه وسَلَّم أنك لو كنت على الحق حقاً، وتركت المراء مع ذلك، فأنت مأجور موعود بالجنة.

كما أن هذا الوعد بالجنة جاء لبيان استحقاق تارك المراء هذا الثواب؛ لأن ترك الجدل صعب جداً، خاصة ممن يظن نفسه على حق!

فاستحقَّ مَنْ قاوم شهوة الغلبة هذه، لصالح صلاح الأنفس واستبقاء مودة الأخوة الإسلامية؛ أن يُتعهد له بمثل هذا الثواب الأوفى، جزاء له، وتشجيعاً لأمثاله.

* * * * *

(لو كَانتْ أمراً خطيراً لجاءتْ نُصُوصُ الوَحيِ يَقِينيَّة فيها)

الدخول في التفاصيل الدقيقة والنقاش حولها غالباً ما يؤدي إلى النزاع والخصومات؛ لقلة من يعرف أدب النقاش فيها، ولقلة من يسمو على حظوظ النفس بالحرص على الغلبة والإفحام.

وهذه التفاريع ليست أصلاً شيئاً يستوجب النزاع؛ لأنها لم تكن تفاريع إلا لكونها ظنية ليست يقينية، والخطأ فيها ليس خطيراً.

ولو كانت معرفة الحق فيها أمراً خطيراً، لجاءت نصوص الوحي يقينية في بيانها وصريحة في منع الاختلاف فيها!

ولذلك كان ترك الخوض في هذه الدقائق غالباً هو الأسلم والأبعد عن نزاع البغي وعن خصومة التفرق والانقسام.

* * * * *

(لِـمَاذَا جَاءَ النهي عن هذا السَّبِّ)؟

قال تعالى: ﴿وَلا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ فَيَسُبُّوا اللهَ عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ الأنعام: ١٠٨.

ولا شك أن شتم الكفار لله تعالى لن يضر الله شيئاً، ولن يضر المؤمنين ضرراً مادياً أيضاً.

فلماذا جاء هذا النهي عن فعل طاعة (وهي إنكار ألوهية الأصنام بشتمها) من أجل أن لا يشتم الكفار ربنا عز وجل، ما دام شتمهم لا يحقق لهم أيا من الهدفين السابقين؟

الجواب: أن لذلك سببين:

الأول: لأن تجرؤ الكفار على شتم الله تعالى فيه إذلال وإهانة للمؤمنين، بشتم ربهم الذي يعبدونه. ولذلك يتعمد الكفار إسماع المسلمين هذا الشتم، لكي ينالوا به من عزة المسلم.

الثاني: أن شتم الكفار لله تعالى والذي جر إليه شتم المسلمين لآلهة الكفار المزعومة الباطلة يزيد الكفار بُعداً عن الله تعالى، فهم يزدادون بشتمهم لله تعالى ضلالاً وغياً، ونحن منهيون عن صد الناس عن الهداية، ولا بأي حجة. منهيون عن أن نكون السبب في إصرارهم على الباطل، مأمورون باللطف بهم.

وهذا المعنى الأخير ذكره الجبائي المعتزلي، ونقله الرازي في تفسيره.

* * * * *

(الثَّبَاتُ عَلَى الحَقِّ وَلَيسَ عَلَى كُلِّ مَا نَشأتَ عَلَيهِ)

سؤال الله تعالى الثبات على الحق ليس هو سؤاله الثبات على كل ما نشأت عليه، وإنما هو سؤاله تعالى أن يثبتك على ما نشأت عليه إن كان حقاً، وأن يدلك سبحانه بفضله وتأييده على الحق الذي يخالف ما نشأت عليه ويثبتك عليه!!

واستعاذتك الله تعالى من الافتتان والتبديل ليس معناها: الافتتان عن كل تصوارتك الدينية السابقة، ولا الخوف من كل تبديل لكل آرائك الشرعية السابقة.

ومن تصور من طلبة العلم أن كل ما عليه شيوخه هو الحق، فلا يخرج الحق عن مجموع آرائهم! فقد جعل شيوخه حجة شرعية، ومصدراً من مصادر التشريع، التي تضاف إلى الكتاب والسنة والإجماع والقياس!! وهذا باطل من القول، وبدعة من بدع الضلال!!

ومثل طلبة العلم هؤلاء هم من سيدعون الله تعالى بالثبات على كل ما نشؤوا عليه؛ لأنهم يظنون الحق لم يخرج عن مجموع آراء مشايخهم. وسيستعيذون الله تعالى من التبديل والافتتان عن كل ما تعلموه من شيوخهم؛ لأن شيوخهم (في تصورهم) معصومون بمجموعهم من الخطأ!!

ألا في الفتنة سقطوا، وعلى الباطل ثبتوا!! فالحق أكبر من شيوخهم، والأثارة النبوية لا تنحصر في مدرستهم، وعدم النطق إلا بالوحي ليس موجوداً منذ أن وارت الأمة رسولها بالتراب، بأبي هو وأمي صلَّى اللهُ عَلَيه وسَلَّم.

فكيف وبيننا وبين تلك الفترة أكثر من ألف وأربعمائة سنة، نزداد فيها كل يوم بُعداً عن ذلك النور، ويختفي علينا (بكل جهالة وقعنا فيها، وبكل خلاف للحق) خيطٌ من خيوط ذلك الضياء الرباني!!

فهنيئا لمن سأل الله الثبات على الحق الذي كان عليه النبي صلَّى اللهُ عَلَيه وسَلَّم، لا الحق الذي عليه الآباء والمشايخ. واستعاذ الله تعالى من فتنة التبديل عما كان عليه رسولنا صلَّى اللهُ عَلَيه وسَلَّم، لا ما أدرك أهله وشيوخه عليه!!

* * * * *

(مَنْ أنكَرَ هَذِهِ الأُمُور أنكَرَ ما يَتَرَتَّبُ عَلَيهَا)

يقول الإمام الفقيه أبو العباس ابن القاص الشافعي (ت٣٣٥هـ): (من أنكر بينةَ الحسِّ أنكر نفسه، ومن أنكر العقل أنكر صانعه، ومن أنكر عموم القرآن أنكر حُكمه [وقيل: حكمته]، ومن أنكر خبر الآحاد أنكر الشريعة، ومن أنكر إجماع الأمة أنكر نبيه، ومن أنكر اللغة أُسقطت محاورته، ومن أنكر العبرة أنكر أباه وأمه).

هذا لأن دلالة الحس تثبت الوجود.

ودلالة العقل تثبت أن هذا الوجود لابد له من موجد.

وعمومات القرآن ودلالة ظواهره (غير النصية) هي غالب آيات الأحكام.

وعامة الشريعة مبنية على الأخبار غير المتواترة.

والقرآن والنبوة إنما ثبتا بنقل الأمة جيلاً بعد جيل.

وبدلالة اللغة يتفاهم المتحاورن.

وبالقياس (الاعتبار) عرفنا أن تحريم التأفف من الوالدين يقتضي تحريم ما هو أشد منه إيذاء!

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

(عِلمُكَ مِنه هُوَ الذي طُبخ واحتَرَق)

يا طلبة العلم: من سمعتموه يقول لكم:

(إن علم كذا ـ لعلم من العلوم ـ طُبخ، واحترق)، كناية عن أنه بلغ النهاية ولا مزيد عليه، فقولوا له: علمُك منه هو الذي طُبخ واحترق، أما العلم نفسه فلا يزال غضاً طرياً!!

فلا يكون علماً إلا إذا كان يقبل الإبداع والتفريع عليه وتنقيحه وتخليصه من الأخطاء!!

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

(ظُلْمُ الحَقَائِق)

ظلم الحقائق كظلم الأشخاص: فكما أنه من الظلم أن تُنزل شخصاً عن منزلته أو أن ترفعه فوقها، فكذلك الحقائق: من الظلم لها أن تنزلها دون منزلتها أو أن ترفعها فوقها.

ومنزلة الحقائق: لا يبينها غير الألفاظ، ولا يوضحها غير الكلمات، والألفاظ فقط.

فمن أرادك أن تصف الحقائق بغير وصفها بأي حجة فهو يريد منك ظلمها. وعندما وصف الله تعالى حقائق بإنها إيمان وإحسان وهداية وصلاح، وصف أخرى بأنها كفر وظلم وضلال وفساد.

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

(عِندَمَا يَتَحَمَّلُ مَا يَعجزُ عنه)

عندما تكون الدعوة أكبر من الداعية، ولا يقتصر الداعية على تحمل ما يقدر عليه منها، بل يدعي تحمل ما يعجز عنه؛ فسوف يُفسد بقدر عجزه.

وإذا ترك هذه الدعاوى الزائفة، واقتصر على إصلاح ما يقدر عليه: فلا لوم عليه، مهما قلَّ إصلاحه، ومهما تضاءلت آثاره.

وسيجد في الناس من يريد تحميله أعباء إصلاح هو يعجز عنه، وسيجد فيهم من يلومه على عدم قيامه بمهمات ينتظرونها من مثله (حسب تصورهم المبالغ فيه عنه)، وسيجد من يستخف بإصلاحه الذي اكتفى به حسب مقدرته؛ فلا يسمحن لشيء من هذه الضغوط بأن تسحبه إلى ساحة من الإصلاح هو عاجز عنها، وليقل لهم بكل فصاحة وصوت عال وبكل ارتياح واعتزاز: لا أدري! لا أدري!! نعم.. لا أدري!!

فـ(لا أدري) ليست منجاة للمفتي فقط، بل هي منجاة لكل من أُريد منه أن يقفو ما ليس له به علم.

وعلى المسلمين أن لا يُحملوا هؤلاء الدعاة فوق قدرتهم، وأن لا يفتنوهم عن دينهم بمطالبتهم بما يعجزون عنه.

نعم.. قد يكون من المؤلم أن يعجز المصلحون عن بعض نواحي الإصلاح الواجب والضروري، لكن هذا العجز لا يعني أن نحملهم أعباء لا يقدرون عليها؛ لأنهم بذلك سيُفسدون ولا يصلحون، وسيَفسدون بعد أن كانوا من المصلحين.

ولكن الواجب هو البحث عمن يقوم بهذه الواجبات الإصلاحية، فلن تخلو الأمة منهم بحمدالله.

وقد يستفيد الناس من التنبه لهذا الأمر إلى خطأ قديم لهم، عندما جعلوا من بعض الدعاة علماء، وعندما جعلوا منهم قادة، وعندما جعلوا منهم محللين سياسيين، وعندما جعلوا منهم مختصين نفسيين واجتماعيين، وعندما سمحوا لهم بالتسلط على عموم آرائهم وتصوراتهم لمختلف القضايا في مختلف شؤون الأمة!

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

(الوَاقِع ومَا أدرَاكَ مَا الوَاقِع)!

عندما يقف بعض المشايخ ضد الواقع نلومهم على جهلهم بالواقع، ولكن ماذا نقول إذا أصبحت بعض قنوات الإعلام مصادمة للواقع؟! مع أن الإعلام ألصق شيء بالواقع، بل هو من صناع الواقع.

وأسوأ منهم جميعاً السياسي الذي لا يفرق بين أمنياته والواقع، فيحاول السباحة عكس تيار الواقع، وهو الذي كان يجب أن يكون أستاذ الجميع في فقه الواقع!!

وأعتذر عن تكرار (الواقع)؛ لكن هذا مما ألزم به الواقع!

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

(مَنْ ظَنَّ أنَّ الحقَّ يَخذله)

من ظن الباطل ينصره، فقد أساء الظن بربه.

ومن ظن الحق يخذله، فما عرف الحق.

ومن فجر في الخصومة، فقد خصمه (غلبه) فجوره.

ومن فجر في الخصومة باسم التقوى والدفاع عن الدين، فقد جعل الفجور تقوى، وهذا شر أنواع النفاق: أن تفجر، وتجعل فجورك إيماناً.

* * * * *

(الآرَاءُ لا تُنصَر بِقُوَّةِ السُّلْطَة)

لم يعد من الممكن أن تنصر الآراء بقوة السلطان، وذهب زمن المراهنة على الحاكم في تأييد مذهب على مذهب، كما وقع في فترات كثيرة على امتداد في تاريخنا الإسلامي؛ لأن انفتاح العالم بعضه على البعض: من خلال وسائل الإعلام والفضائيات والشبكة الدولية (الانترنت) أتاح لمن يعيش في أقاصي الدنيا أن يجادل ويحاور ويبرز حجته، والشباب المثقف يقرأ ويسمع ويشاهد، ويحكم لمن كان أكثر إقناعاً وأبين حجة.

ولذلك: فمهما استقطبت السلطة مذهباً معيناً، ومهما استغل مذهب ما تحالفاً له مع السلطة لفرض آرائه ومبادئه بالقوة، وبالإرهاب الفكري؛ فلن يستطيع أحد منهم ذلك؛ إلا بإسكات بعض الأشخاص الذين يقعون تحت حكم تلك السلطة.

أما الأشخاص البعيدون عنها، فلا مجال للرد عليهم والدفاع عن المذهب تجاههم؛ إلا بالأدلة والبراهين، ومقارعة الحجة بالحجة.

بل سيكون الاعتماد على سلطة الحاكم في تأييد المذهب، دون سلطة العلم والإقناع؛ هزيمة للمذهب، إن لم تكن على المدى القريب، فعلى المدى البعيد.

فإن كان هناك صادق في اعتناق مذهب ما، ويريد نصرته حقاً، فلا يعتمد على غير الحجة والبرهان.

وأما الذي ما زال يتمسك بالأسلوب القديم في نصرة المذاهب فهو واهم، وفوق وهمه فهو غير صادق في نصرة مذهبه، بل هو ينصر نفسه، ونفسه فقط، فهو يريد انتصاراً لمذهبه في حياته وحسب، فهو يريد تأخير هزيمة مذهبه إلى أن تنقضي حياته مستفيداً من دعم السلطة له،

فإذا ما انقضت حياته لا يهمه أن تنتهي مع انتهاء حياته صلاحية مذهبه، ولا يعنيه أن يلفظه من بعده الناس!!

* * * * *

(اتِّهَامُ أبي الحسنِ الأشعري بالتَّمَسُّكِ بِظَوَاهِرِ القُرآن)

نقل الإمام أبو محمد ابن عطية في تفسيره: المحرر الوجيز، في تفسير سورة التحريم: أن جمهور أهل السنة على أن توبة المسلم العاصي من معصيته لا يُقطع بقبولها، بخلاف توبة الكافر من كفره. ثم قال: (وروي عن أبي الحسن الأشعري أنه قال: التوبة إذا توافرت شروطها قُطع على الله تعالى بقبوله؛ لأنه أخبر بذلك.

وهذا تمسك بظواهر القرآن، وعلى هذا القول أطبقت المعتزلة).

الذي استوقفني اتهام أبي الحسن الأشعري بالتمسك بظواهر القرآن!! وقد ينسحب هذا الاتهام إلى المعتزلة أيضاً!!

* * * * *

(موقفٌ عظيمٌ مِنَ الإمامِ الجُوَيْنِيِّ)

نقل تاج الدين السبكي عن إمام الحرمين أبي المعالي الجويني أنه قال: (لقد قرأت خمسين ألفاً في خمسين ألفاً، ثم خليت أهل الإسلام بإسلامهم فيها وعلومهم الظاهرة، وركبت البحر الخضم، وغصت في الذي نهى أهل الإسلام عنها، كل ذلك في طلب الحق!

وكنت أهرب في سالف الدهر من التقليد، والآن قد رجعت عن الكل إلى كلمة الحق: عليكم بدين العجائز؛ فإن لم يدركني الحق بلطف بره، فأموت على دين العجائز، وتختم عاقبة أمري عند الرحيل على نزهة أهل الحق وكلمة الإخلاص: لا إله إلا الله، فالويل لابن الجويني)!!

ثم علَّق السبكي بقوله: (ظاهر هذه الحكاية عند من لا تحقيق عنده البشاعة، وأنه خلى الإسلام وأهله! وليس هذا معناها، بل مراده: أنه أنزل المذاهب كلها في منزلة النظر والاعتبار، غير متعصب لواحد منها؛ بحيث لا يكون عنده ميل يقوده إلى مذهب معين من غير برهان. ثم توضح له الحق وأنه الإسلام، فكان على هذه الملة عن اجتهاد وبصيرة، لا عن تقليد.

ولا يخفى أن هذا مقام عظيم، لا يتهيأ إلا لمثل هذا الإمام، وليس يسمح به لكل أحد؛ فإن غائلته تخشى؛ إلا على من برز في العلوم، وبلغ في صحة الذهن مبلغ هذا الرجل العظيم، فأرشد إلى أن الذي ينبغي عدم الخوض في هذا واستعمال دين العجائز.

ثم أشار إلى أنه مع بلوغه هذا المبلغ، وأخذه الحق عن الاجتهاد والبصيرة، لا يأمن مكر الله. بل يعتقد أن الحق إن لم يدركه بلطفه ويختم له بكلمة الإخلاص فالويل له، ولا ينفعه إذ ذاك علومه، وإن كانت مثل مدد البحر.

فانظر هذه الحكاية: ما أحسنها! وأدلها على عظمة هذا الإمام! وتسليمه لربه تعالى! وتفويضه الأمر إليه! وعدم اتكاله على علومه! ثم تعجب بعدها من جاهل: يفهم منها غير المراد، ثم يخبط خبط عشواء)!!

في هذه القصة فوائد:

١ـ أن النظر الديكارتي سبق إليه علماؤنا، وأن الموضوعية العلمية والتجرد في البحث عند علمائنا بلغ القمة.

٢ـ أن هذا النظر المتجرد لا يستطيعه كل أحد، ولئن كان الأمي الجاهل عاجزاً عن الاستدلال الواضح، ومن يفوقه علماً بقليل سيقدر على شيء من الاستدلال ويعجز كعجزه في غيره، وهكذا يتفاوت الناس في القدرة على البحث بقدر تفاوت علومهم وسلامة قرائحهم وشدة ذكائهم، حتى يصل العقل البشري كله إلى العجز الكامل: فإما أن يكون عنده علم من الوحي يسلم له، وإما أن يخبط خبط عشواء!

ومعنى ذلك: أنه ليس كل تجرد في البحث محموداً؛ إلا تجرد القادر على البحث، دون غير المؤهل.

٣ـ أن التسليم في موطن العجز، وهو المعبر عنه بدين العجائز: علم وعقل؛ لأن ما سوى التسليم في موطن العجز لن يكون غير كلام بجهل وخبط عشواء.

* * * * *

الشَّرِيعَةُ مَبنِيَّةٌ على عَقلِيَّتين:

الأولى: عقلية لغوية: فالوحي خطاب لغوي، فيعتمد عمق فهمه على عمق فهم اللغة. ولذلك كانت اللغة الأساس الأول والأكبر لفهم خطاب الوحي، وعلى قدر تقصير الناظر في خطاب الوحي في اللغة يكون مقصراً في فهمه.

والثانية: عقلية مصلحية تدركها من خلال العلم بالواقع؛ لأن الشريعة جاءت لتحقيق المصالح وتكثيرها ومنع المفاسد وتقليلها، وتوقع المصلحة والمفسدة في الواقع لا يمكن إلا بالعلم بالواقع. ولذلك كان العقل الذي يدرك موضع المصلحة، ويقدر أرجح المصالح، ويميز المفاسد، ويفرق بين أخفها وأثقلها؛ هو العقل الأقدر على حسن تطبيق خطاب الوحي، وعلى التنزيل الصحيح للشريعة في الواقع.

فلله زمن يكون فقهاؤه جهلة بأساليب العرب، بل أعداء الأدب، وغاية علمهم باللغة متن صغير في النحو ومثله في البلاغة الصناعية!!

ولله زمن يكون فقهاؤه أبعد الناس عن الواقع، فلا اطلاع لهم على ما يطلع عليه عموم الناس من حولهم.

كيف سيكون هؤلاء غير حملة فقه، لا فقه عندهم؟! وهم قد فقدوا العقليتين الشرعيتين الوحيدتين التي تتيح التفقه في الدين!!

* * * * *

(كَثرَةُ النُّقُولِ وقِلَّةُ الإبدَاع)

تأملوا الأئمة المجددين، والمؤلفات المؤثرة (بعد الوحيين): ستجدونها من أقل الكتب نقلاً، ومن أكثرها إنشاء لرأي غير منقول، ومن أزخرها ذكراً لاجتهاد أصحابها ونتاج فكرهم الخاص. (ولن أسمي أحداً من هؤلاء الأئمة، حتى لا تنصرف الأذهان إلى المثال عن الفكرة نفسها).

ولئن كانت كثرة النقل يوماً تدل على سعة الاطلاع، ومع أن سعة الاطلاع لا تدل على فقه النفس (وهو الفقه الحقيقي)، إلا أن كثرة النقل اليوم لم تعد تدل على شيء، ولا على سعة الاطلاع؛ لأن ضغطة زر في برنامج أو في موقع كفيلة بجمع أقوال ونقول كثيرة، يصبح الانتقاء منها والاختيار من بينها والتقليل لعددها هو الأدل على الفهم والمعرفة.

وكان الحفظ قديماً يقوم مقام هذه الضغطة للزر؛ لأن الحفظ يتيح استحضار الأقوال وقتما يحتاج إليها الناقل، فجاءت البرامج، وربت على أعظم الحفاظ، وأزرت بمحفوظهم أيما إزراء.

وبقي الفقه هو الفقه، لم تزر به ضغطة زر اليوم، ولا استطال عليه حفظ حافظ بالأمس: (مَن يُرِدِ اللهُ بِهِ خيْراً يُفَقِهْهُ في الدينِ).

ومع ذلك ما زلنا نرى أكثر المؤلفات تتنافس على كثرة النقول، ويكون مقياس الإجادة عند بعضهم كثرة الأقوال المنقولة، والتي لا تكاد تلمح بينها اجتهاداً حقيقياً، ولا رأياً ثاقباً، ولا حتى عبارة حرة من حر الكلام من إنشاء كاتبها!!

فمتى سيفيق هؤلاء النقلة من غفلتهم؟! ليعلموا أن نقلهم ليس من علم العلماء في شيء، ولا حتى من جهد النساخ الذين كانوا ينسخون الكتب بأيديهم، وأن عملهم لا يعدو كونه تشبعاً بما لم يعطوا، وأنهم صاروا كلابس ثوبي زور.

* * * * *

(الفِكْرُ السَّلِيمُ لَهُ بَرِيقُه، ولا يَحتاجُ إلى بَرِيقِ الذَّهَب)

الفكر الذي يكون له بريقه الخاص، لا يحتاج للإقناع به إلى بريق الذهب.

فإذا رأيتَ معتقداً يبالغ في الاعتماد على بريق المال لنشر دعوته، فاعلم أنه معتقد لا يملك بريقه الخاص، ولذلك فهو يستعير بريقه من الذهب.

والخلط بين سهم (المؤلفة قلوبهم) في الزكاة واستعارة بريق الذهب لتغطية فقدان البريق الخاص، هو الخلط الذي به استباح أهل الباطل استغلال حاجات الناس، أو أطماعهم لشراء ذممهم وإماتة ضمائرهم باستعباد قناعاتهم لها!

ولا يمكن أن يكون هذا المنهج هو منهج الإسلام في تشريع سهم (المؤلفة قلوبهم)؛ لأن هذا المنهج منهج إجرامي بكل معنى الكلمة، فشراء الذمم، وإماتة الضمائر، واستعباد القلوب: هو شر أنواع العبودية والقهر اللاإنساني، وكل حرب على رق العبودية كان يجب أن يتوجه أولاً إلى أشنع صورها، وهو هذا الاسترقاق للقناعات!

إذن ما هي حكمة سهم (المؤلفة قلوبهم) وفلسفة تشريعه، التي يفارق بها هذا الاسترقاق المذموم للقناعات؟

سؤال جوهري، سوف أجيب عنه لاحقاً بإذن الله، لكنني أريد فقط كشف سوأة منهج استعارة بريق الذهب لتغطية قتام الدعوات الزائفة [1]!

* * * * *

---

(1) ـ سألتُ الشيخ الشريف حاتم العوني عن جواب عن هذا السؤال: (إذن ما هي حكمة سهم المؤلفة قلوبهم وفلسفة تشريعه).

فأجاب فضيلة الشيخ العوني:

(سهم المؤلفة قلوبهم المقصود به أحد ثلاث حِكَم:

١ـ فتح القلوب لقبول الحق، فطالما صد عن الحق بغض أعمى، يحجب نور الحق.

فإذا استُلت أسباب العداء المانع من رؤية الحق أمكن لمن لا يحجبه عن الحق إلا أن يراه: أن يراه.

٢ـ تحييد أناس من رؤوس المدعويين وملوكهم عن عداوة الإسلام، ومحاربته، ليسمحوا لدعوة الإسلام من الانتشار في قومهم.

٣ـ الاكتفاء من رؤوس الكفر بعدم معاداة الإسلام وعدم محاربة المسلمين وعدم إعانة محاربيه، عند الحاجة لذلك).

(التَّفكِيرُ بِصَوتٍ مَسمُوع)

التفكير بصوت مسموع: هو أن تتحدث بما يجول في فكرك، وأن تخبر بمراحل تطور رأيك قبل انتهائها.

وهذا التفكير لا عيب فيه بشرطين:

الأول: إذا كنتَ تتحدث به وأنت تعلم أنه مجرد فكرة في مراحل التشكل، فكرة قابلة للتغيير والتبدل.

الثاني: إذا كنتَ بحضرة الشخص القادر على توجيه فكرك وتصحيحه.

لكن تقع المشكلة بسبب التفكير بصوت عالٍ: عندما تصبح كل فكرة طيارة عقيدة راسخة، ويطرحها صاحبها على أنها نتيجة بحث وتأمل، وهي مجرد فكرة انقدحت في ذهنه، فبادر إلى اعتناقها!

ومثل هذه النوع من التفكير بصوت عال والذي يبادر صاحبه بطرحه على أنه نتيجة تفكيره، مع أنه أولى مراحل التفكير، كان العرب يصفونه بوصف معبر، وهو أنه (رأي فطير)، وضده بأنه (رأي خمير)، فخبز الفطير لا توضع فيه الخميرة، ولا يستأني به خابزه حتى يختمر، وكذلك شأن تلك الأفكار الطيارة.

ومشكلة هذا الرأي الفطير: أنه شديد العرضة للخطأ، بسبب العجلة في تبنِّيه، ومع ذلك فتراجع صاحبه عنه صعب؛ لأن التراجع اعترافٌ بالخطأ والتقصير، وهو اعتراف يصعب على النفوس الإقرار به، خاصة مع تكرره وكثرته.

مع أن ألم الاعتراف بالخطأ وضريبة هذا الإقرار هي (في الحقيقة) السبيل الوحيد والعلاج الناجع المنفرد بمداواة هذا الداء: داء التفكير بصوت مسموع!! لأنه يؤدب صاحبه، ويجعله يترك العجلة في تناوش الأفكار الطيارة دون روية بحث وأناة درس ودون أمانة استنفادِ الجهد في النظر والتأمل.

وشيوع هذا النوع من التفكير المسموع والرأي الفطير، حتى عند من يُسمون بـ(النخبة): يدل على فشو قلة العلم وضحالة الثقافة، ويدل على غرور فكري يجعل صاحبه يظن نفسه

أعجوبة زمانه، وأنه لا يحتاج إلى طول تأمل وبحث، فضلاً عن حاجته لمعرفة بأصول البحث وطرائق التأمل.

وتتضخم خطورة هذا النوع من التفكير بصوت مسموع عندما تتعرض لأصول الدين وقواعد المعتقد، فتجعل الكفار مسلمين، وأهل الخلود في النار ناجين!!

* * * * *

(كَيفَ يَكُونُ الأمرُ بِالمَعرُوف)؟

يكون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر صورة من الصور المذمومة للوصاية على المجتمع:

١ـ إذا أُلزم الناس بالقول الظني الذي فيه خلاف معتبر بين العلماء، وإذا أُنكر على من عمل بأحد أقوال هذا الاختلاف المعتبر اجتهاداً أو تقليداً.

٢ـ إذا أُمر بالمعروف ونُهي عن المنكر بإهانة كرامة الإنسان وإيذائه، بما لا يجوز أو بما يفوق حد المخالفة.

٣ـ إذا تم الأمر والنهي بعد التجسس والتدخل في خصوصيات الآخرين، والكشف عن معاصيهم التي يتسترون بها.

* * * * *

(الغَضَبُ لله، لَيسَ هو القُربَى الوَحِيدَة لله)

الغضب لله: قد لا يتحقق إلا بالصمت لله، وقد لا يتحقق إلا بالعفو لله، وقد لا يتم إلا بالإحسان؛ وذلك إذا ما لم تتحقق محاب الله، ولم تندفع مساخطه عز وجل إلا بالصمت أو العفو أو الإحسان.

كما أن الغضب لله ليس هو القربى الوحيدة لله تعالى، ولا ينحصر ابتغاء رضا الله تعالى فيه. فهناك أيضاً: الحب في الله، والرحمة لله. وإذا أردنا أن نعرف الأحب لله تعالى والأقرب إليه فلنذكر قوله تعالى في الحديث القدسي: (إن رحمتي تغلب غضبي).

* * * * *

(الذِي يَخَافُ مِنَ الاعتِرَافِ بِالخَطَأ)

ليس ضعفاً أن تخشى من غضب صاحب الحق، بل الضعف كل الضعف أن تخشى من استجابتك لمطالبه العادلة لكي لا يظن بك الضعف.

فالقوي والشجاع حقاً، من لا يخاف الاعتراف بالخطأ والاعتذار منه، ويقدر أن يتحمل تكاليف التصحيح، أما من يخاف توهم الضعف فيه من اعترافه بالخطأ فهو الضعيف حقاً؛ لأنه يشك في كونه يمتلك قوة حقيقية ولا يثق في قدرته على الإصلاح.

* * * * *

(الفَرَحُ بِمَعصِيَةِ الخَصمِ هُوَ انتِصَارٌ للنَّفْسِ وليس للدِّين)

من فرح بمعصية خصمه، ولو كانت خصومته معه دينية (فيما يزعم)، أو استبشر عند سماعه بوقوعه في بدعة أو إثم، أو شعر أنه سوف يتشفى منه لعبارة كفر قالها؛ فقد تجاوزت عداوته له العداوة لله (وهي العداوة التي يدَّعِيها) إلى عداوة تحزب لغير الله، وإلى انتصار للنفس!

فوالله لا يفرح المؤمن بفجور فاجر، ولا بطغيان كافر؛ لأن ذلك كله يُغضب محبوبه ومولاه عز وجل! فكيف يفرح مؤمن بما يغضب الله تعالى؟!

ثم بعد هذا انظروا إلينا، واسمعوا لعباراتنا:

(هذا كفر وردة وزندقة وإلحاد) وكأن واحدة منها لا تكفي!

(هذا رافضي خبيث مجوسي صفوي).

(هذا ناصبي كافر).

(هذا علماني لبرالي تغريبي ملحد).

(هذا صوفي قبوري مشرك).

(هذا وهابي مبغض للنبي صلَّى اللهُ عَلَيه وسَلَّم).

(هذا أشعري جبري معطل عقلاني).

(هذا سلفي تيمي حشوي كرامي مجسم).

(هذا مبتدع ضال مضل يجوز قتله لبدعته)...!!!

قلها لتكون الغيور على الدين، ولا يكفي أن تقولها، بل لا بد أن تصرخ بها، ولو انتحبت وبكيت فهو أفضل!!

ولست أتحدث هنا عن أن تقال هذه العبارات في محلها أو في غير محلها، إن كان لبعضها محل أصلاً؛ لكنني أنكر على حالة أراها متفشية، وهي أن إطلاق هذه الأوصاف حتى وإن كانت في محلها، لكنها في بعض الأحيان لم تخرج من قلب يريد بها وجه الله؟! فستكون كضربة سيف في الجهاد ما أريد بها وجه الله!!

وأكبر دليل على ذلك أنها كثيراً ما يظهر فيها:

ـ التعجل في إطلاقها بغير حق، والتهافت إليها بغير علم ولا تثبت.

ـ اعتداؤها وخروجها عن حد الاعتدال، بالغلو في الذم والتجاوز في التنفير من الخطأ.

ـ جمعها بين المتناقضات التي لا تجتمع أصلاً في شخص واحد.

إنه تنافس محموم، وأشهد أنه ليس هو التنافس على القربات.

ولذلك فلا يكفي أن تطلق تلك الأوصاف أحياناً قليلة، وبعد التريث والتثبت، فقد يسبقك في سباق الغيرة المحموم هذا سابق، فلا بد أن تكثر منها، وأن تتعجل هذا السباق الذي سقنا المجتمع إليه، حتى صار الجهلة والعوام وصغار طلبة العلم يمارسونه!!

لا والله، ما هذا بدين الله، وما هي أخلاق مدرسة القدوة المحمدية على صاحبها صلوات ربي وسلامه!

فهذه مدرسة مبنية على:

- أخلاق غضبية وحشية!

- وعلى عجلة في الأحكام!

- واعتداء في الأوصاف!

- ورحمة منزوعة!

- وحب انتقام ورغبة في التشفي!

- وحب هداية غائب!

- وفرح بالخطأ والزلة والمعصية إذا وقعت من خصم.

اللهم رحماك بهذه الأمة!

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

(المَعلُومَةُ كَالدَّوَاء)

المعلومة كالدواء، كما أن دواء شخص قد يكون هلاك آخر، كذلك المعلومات: فقد تكون معلومة ما سبباً في نفع شخص، وفي إضرار بآخر، إما لكونها فوق قدرته على الفهم والهضم، وإما لكونه متشبعاً بمعلومات أخرى تفسد عليه تقبله لأخرى.

ولذلك قال السلف: (حدثوا الناس بما يعقلون، أتريدون أن يكذَّب الله ورسوله)، وقالوا: (إنك لست محدثاً قوماً بحديث لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة).

ويبدو أن الأخلاق كذلك: فالإنصاف صعب أصلاً، لكن جرعته أحياناً قد تفوق قدرة كثير من الناس، تفوق تقواه، أو تفوق عقله.

فعندما تجد شخصاً يقول صراحة: ليس هذا وقت الإنصاف، فاعلم أن قواه الأخلاقية قد خارت أمام الموقف؛ لأن الإنصاف لا يغيب وقته أبداً ولا يتعطل وجوبه في كل موقف.

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

(كَانَ صُلْباً فِي السُّنَّة)!

(فلان من الناس كان صلباً في السنة شديداً على أهل البدع، ومن صلابته في السنة كان يضع الحديث [يكذب على النبي صلَّى اللهُ عَلَيه وسَلَّم] لنصرة أهل السنة).

هذه العبارة ونحوها التي تجدها عند بعض أئمة الحديث ونقاده، وإن كانت تدل على الموضوعية والإنصاف وعدم إغضائهم عمن كذب ولو كان في نصرة السنة، فهي تتضمن ثناء مبطناً (وقد لا يكون مقصوداً من أئمة الحديث) للغلو والتعدي باسم (الصلابة على السنة).

فإنه إن كان هذا الكذاب صلباً في السنة، ومن صلابته كذب، فسيكون الأمين الصادق رخواً مداهناً في السنة!!

التعبير الصحيح أن يقال عن هذا وأمثاله: كان غالياً متنطعاً باغياً معتدياً في السنة؛ لكي نضع الأمور في نصابها، ولكي ننفي كل إيهام بمدح الغلو. وقد فعل ذلك بعض أئمة الحديث أيضا، فوصفوا أمثال هؤلاء بالغلو والتنطع.

ومثل السابق تجد نحو قولهم:

- كان صلباً في السنة، وفيه نصب (بغض لآل البيت).

- كان صلباً في السنة: ثم يذكرون قصصاً من ظلمه وتعديه على المسلمين باسم الصلابة فيها!!

وهذا كله غلو مذموم وبغي وتعدي.

الصلابة في السنة: هي السنة نفسها، بعدلها وإنصافها ورحمتها وحبها الخير للناس وللمسلمين!

* * * * *

خُطُورَةُ تَسطِيحِ العِلمِ (جعله سطحياً) تتم بِطَرِيقَتين:

الأولى: الاستخفاف بالعلماء ونقض مناهجهم، وتشجيع الجهلة والعوام على التطاول على اجتهاداتهم باسم رفض الكهنوت وحرية الضمير وحرية التعبير وحرية التفكير.. وحرية الدخول في نار السعير!!

والثانية: بإلغاء أقوال أهل العلم المعتبرة وإسقاط اجتهادات أئمة الإسلام بترجيحات سطحية ظاهرية، حتى يصل هذا الإلغاء درجة الإلزام بتلك الترجيحات والتشنيع على من يفتي بخلافها ولو كان بقول أحمد والشافعي ومالك وأبي حنيفة؛ لأنه يخالف إفتاءهم المبني على تلك الاستدلالات السطحية.

وخطورة الطريقة الأولى: أنها صريحة ومباشرة في تسطيح العلم.

وخطورة الثانية: أنها خفية (نوعاً ما) فتؤدي بصاحبها إلى تسطيح العلم دون أن يشعر، وتفتن صاحب الطريقة الأولى وتزيده اغتراراً بصحة منهجه.

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

(العِلْمُ الذي تَأخذُهُ بِاجتهادٍ وإعمَالِ فِكْرٍ، أفضلُ ممَّا تحفظُهُ مِنْ غَيرِك)

أنْ تَعلَمَ ما تعلم باجتهاد، ولو كان شيئاً قليلاً من العلم، ينبغي أن يكون أحب إليك من أن تحفظ ما علمه غيرك، ولو كان علماً كثيراً! فعلم غيرك سيكون له علماً، ويكون لك نقلاً!

وإني لأن أشعر بإنسانيتي في إعمال فكري، ولو أخطأت، أحب إلي من أن أعير عقلي لغيري فأصيب، فإني بإعارة عقلي لن أصيب؛ إلا لأن غيري قد أصاب، لا لأني أنا مَنْ عرف الصواب.

ولذلك فلا يصيب المقلد (بغير فقه)؛ إلا على حساب حريته وإنسانيته وتعقله. وبئس الصواب الذي يكون ثمنه الإنسانية والحرية!!

(كُلُّ ابْنِ آدَمَ خَطَّاءٌ، وخَيْرُ الْخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ): حديث ضعيف، لكن معناه صحيح، دلَّت عليه الأدلة والأصول، وهو يعني أن الخطأ صفة من صفات الخيرية في الإنسان، إذا كان مشفوعاً بالتراجع عنه.

وهذا يعني أن موافقة الصواب بالتفريط بالإنسانية مناف لهذه الخيرية، لأنه (وبكل سهولة) مناف للإنسانية!

* * * * *

(مُطَالباتٌ صَحِيحة لأغراضٍ فَاسِدة)!

قد يطالب شخص باليقظة ويحذر من الغفلة العقلية، ويصرخ مطالباً بانتباهها؛ كل ذلك لكي يخدر العقول، فتقبل منه كل ما يقول.

ويطالب آخر بإعمال العقل وينادي بالتفكير، لكي يغرر بالعقل وينحرف بالفكر.

ويطالب غيره بكسر الجمود وبالثورة على صنم التقليد الأعمى؛ لكي يصنم الفوضى، فتكون الفوضى هي معبود الجماهير، باسم الحرية والاجتهاد.

وقد يحذر يحذر شخص من الانقياد لدعاة اليقظة، لكي يستمر الناس في سباتهم العميق.

ويحذر آخر من دعاة إعمال العقل، لكي تبقى العقول معطلة بالتقليد الأعمى.

ويحذر ثالث من الفوضى اللافكرية باسم الحرية الفكرية، لكي يستعبد الأفكار، ويسترق الاجتهاد لمذهبه وفكره.

* * * * *

(مَنْ يَفعَل ذلك هو التَّغرِيبيُّ حقاً)!

أكبر ورقة بيد الغرب يستعملها لتقسيم أوطاننا ولإنهاكها في صراعات لا تنتهي: هي الورقة الطائفية.

فمن يساعد الغرب في تحقيق هدفه الكبير هذا، بإشعال الفتنة الطائفية: فهو التغريبي حقاً، وهو أولى بهذا الوصف من كثيرين غيره.

* * * * *

(استثمارُ القَوَاسِمِ المُشتركةِ مَعَ المُخَالِف)

بعض الناس يظن أنه لا يمكن الرد على المخالف إلا إذا أظهرناه مخالفاً للحق في كل جزئية من جزئيات مسائل الاختلاف، ولا يفهم أن استثمار القواسم المشتركة بينكما هي أفضل وسيلة للانتقال منها إلى الحوار.

فكلما وسعنا بالحق هذه القواسم المشتركة، ووضعنا اليد عليها ولفتنا النظر إليها، باستيعاب كامل لها، وكلما انطلقنا في الحوار منها؛ كان ذلك أدعى للتفاهم والوصول إلى تقارب على الحق.

والعكس صحيح: فكلما ضيَّقنا القواسم المشتركة، بل ربما نفينا وجودها نفياً باتاً؛ استحال التفاهم، وتحول الحوار إلى صراخ وتشاتم.

* * * * *

(لَـمْزُ المُسلِمِ بِآيَاتِ الله)!

لو كان القرآن موجوداً في تراث أهل الجاهلية، ولو كانوا يستشهدون به حسب أهوائهم، كما هو حال بعض المسلمين (بل حال بعض الدعاة والوعاظ من المسلمين)، لقال أبو جهل لأبي طالب لـمَّا أن أصر أبو طالب على الشرك، وثبت على دين الآباء والأجداد، مادحاً إياه لثباته على الكفر، ولامزاً ابنه علياً ومن أسلم، بقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً. إِذاً لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الحَيَاةِ وَضِعْفَ المَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيراً﴾ الإسراء: ٧٤ـ٧٥.

إذ بغير التفريق بين الثبات على الحق، والجمود على الباطل تقليداً واستكباراً، سوف يستشهد بهذه الآية أهل الحق وأهل الباطل.

إن مثل هذا الاحتجاج بآيات الله ضد من يخالفك من المسلمين، بغير علم ولا إنصاف، لا يخرج عن كونه لمزاً وإيذاء لمسلم!

ومع حرمة لمز المسلم وإيذائه، فحرمة لمزه بكتاب الله أعظم جرماً وأكبر إثماً؛ لأن أذاها أشد، وتحريف لمراد الله بكلامه، وانتصار للباطل بالكلام الذي نزل للحق وبالحق، واستهانة بكتاب الله بتعريضه للخصومات.

* * * * *

(لِـمَاذَا يُصِرُّ أصحَابُ الغُلُوِّ عَلَى غُلُوِّهِم)؟

بعض مقالات الغلو لو تركها أصحابها، لكان ذلك سبباً في قبول الحق الذي لديهم، وفي هداية الناس إليه.

فلا بد أن يكون لغلوهم أثر كبير في نفور بعض الناس عنهم، وفي رفضهم للحق الذي لديهم، خاصة من خصومهم.

فلماذا يرفض أصحاب الغلو ترك غلوهم، رغم أن تركه هو الصواب الذي ليس ما عداه إلا الخطأ، ورغم أن تركه أهدى إلى الحق وأصلح للخلق؟!

قد تستغربون أن يكون من أسباب إصرار أهل الغلو على غلوهم: هو التحزب على هذا الغلو! والالتفاف عليه!!

فعندما يصبح الغلو هو شعار طائفة، يصبح التخلي عنه تخلياً عن الطائفة كلِّها (في ظنهم).

إذن: هناك شهوة خفية عند الغلاة، تمنعهم من ترك الغلو، وهي: التحزب على غلوهم الباطل.

ولذلك تجدهم يغضبون من نقد الغلو، ويجعلون نقده وقوفاً مع الباطل ونصرة له!

وتأتيك الأسئلة: لماذا تنتقد هذا الغلو؟! لماذا تقف مع الخصوم؟! ولا يدرون أن الوقوف مع الخصوم حقاً هو تأييدهم على الباطل (الغلو)، فهو ما يفتن بعض أهل الحق عن الحق، ويلحقهم

بالباطل وأهله؛ لأن الغلو تبغضه النفوس السوية، وهو ما يمنع الناس من الهداية؛ لأن باطل الغلو يمنع من رؤية الحق الذي ستره حجاب الغلو!!

لقد أخبرني أحد الدكاترة من معتدلي إحدى الجماعات عن واحد منهم، أنه سمعه يقول: من لم يرد أن يدخل الجنة من طريق الشيخ فلان (وذكر مؤسس تلك الجماعة)، فلا أنعم الله عينيه بالجنة!!

وهكذا يصبح التحزب للغلو مقصوداً لذاته؛ عندما يصبح هو الصفة الفارقة والمميزة لتلك الجماعة!! وتتحول الدعوات التي قامت أصلاً للإصلاح، إلى دعوات للإفساد، وبحمية جاهلية!!

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

(هَلْ فِي العِلْمِ مَسأَلَةٌ خَفِيفَة)؟

سئل الإمام مالك عن مسألة، فقال: لا أدري، فقيل له: هي مسألة خفيفة! فقال: ليس من العلم شيء خفيف!!

قد لا يفهمها البعض إلا على أن ما ستُسأل عنه يوم القيامة وستحاسب عليه لن يكون خفيفاً، ولا شك أن شيئاً كهذا ما هو بخفيف، بل هو ثقيل!

ولكن قد نضيف إلى هذا المعنى: أن ترابط الحق بعضه ببعض، وتوالد مسائله (مسألة من رحم مسألة) يجعل كل مسألة من الحق خطيرة الشأن، فالصواب فيها يفتح لك آفاقاً من الحقائق، والخطأ فيها قد يصدك عن الحق في مسألة غيرها، وغيرها عن غيرها..

وهكذا يتكرر الخطأ، حتى تتراكم الأخطاء سوراً يمنع رؤية آفاق الحق، بسبب خطأ واحد خفيف!!

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

(التَّرَابُطُ بَيْنَ مَسَائلِ العِلْم)

بين مسائل العلم ترابط شديد، فالحق فيها يدل على الحق.

كما أن الباطل فيها يصطدم بالحق، فإما أن ينبهك هذا التعارض على إبطال الباطل الأول، وإما أن يقودك إلى التمادي في الباطل، وأن تنتقل من باطل إلى باطل.

* * * * *

(لِـمَاذَا التَّخَوُّفُ مِنَ البُحُوثِ المُعَاصِرَة)؟

قال لي مرة أحد الدكاترة الشرعيين، وهو باحث جيد متميز: (إنه يتخوف من البحوث المعاصرة المتميزة)، واندهشت من هذا الشعور: والذي عبر عنه بـ(التخوف)؛ إذ لـماذا يتخوف الباحث من الحق؟! ولماذا يرعبه الإبداع؟!

ثم تكرر هذا المعنى مع باحث آخر، فوجدته يكره شراء البحوث المعاصرة القوية أو غير التقليدية، إلى درجة ظهور تغير لون وجهه من مجرد رؤيتها، وقد رافقني في أحد معارض الكتب، ولا يشتري شيئاً منها إلا بعد معركة نفسية شرسة، فيما يبدو لي!!

اندهشت لذلك؛ لأن الأصل في راغب الحق وطالب العلم أن يفرح بكل بحث جاد غاية الفرح.

ولا أظن السبب هو الحسد؛ لأن الحاسد لا يصرح بكرهه للمحسود وبخوفه من إنجازاته! فلو كانت المسألة من هؤلاء حسداً، لما عبر لي أحدهم مصرحاً بـ(التخوف).

ثم تكررت من هؤلاء وأمثالهم مواقف وكلمات في هذا الباب، حتى فهمت مشكلتهم: إنهم يتصورن أن للعلم حدوداً، أو يتمنون ذلك، ويريدون أن ينتهوا في عامة المسائل إلى قناعات محددة غير قابلة للتبدل، وتفاجئهم تلك البحوث القوية بما يستدعي تغيير بعض القناعات أو إعادة بحثها من جديد!! لذلك يتخوفون منها، ويتمنون أنها لم تكتب!! لكي لا تفتح عليهم أبواباً من البحث كانوا يظنون أنهم قد أغلقوها.

وهؤلاء ما عرفوا لذة العلم، فلذة العلم هي في سعته اللانهائية، وأن مجاهيله لا تنتهي، وأسراره لا تزال تتكشف، وكنوزه لا تنفد. فطالبه في مغامرة الاكتشاف ما استمر في طلبه، يستمتع بما يتجدد له كل ساعة فيه من معلومات، وما تتصحح له كل يوم من قناعات.

* * * * *

(مُعَالَجَةُ هذا الخَطَأِ لا يَكُونُ بِالمَنعِ والتَّحرِيم)

عندما يعجز الدعاة ويقصرون في الدعوة إلى الله على الوجه الصحيح القائم على تعميق معاني الإيمان الحقيقية، والتي تقوي الوازع الديني في قلوب الناس، وعندما يخطؤون في أسلوب دعوة الناس في العناية بالمظاهر ويسطحون الإيمان، فيتشوه المجتمع، ويكون معنى مراقبة الله غائباً عن قلوب أفراده.

لن ينفعهم أن يعالجوا هذا الخطأ وأن يكملوا هذا التقصير، بتحريم ما أحل الله، بحجة سد الذريعة، ولا أن يفرضوا على الناس مظاهر تدين لا تنبع من بواطنهم، ولا أن يضعوهم في سجون من فتاوى التضييق، بحجة فساد الناس وضرورة المحافظة عليهم!!

خاصة في هذا الوقت، الذي أصبح المنع وحده غير مُجْدٍ، وأصبحت سجون التضييق نفسها مرتعاً للفساد.

هذا كله لن ينفع، بل سيزيد الواقع خللاً؛ لأنه (وبكل سهولة) لا يعالج التقصير والخطأ إلا بالعودة إليهما، بتكميل جوانب التقصير وبتصحيح الخطأ.

* * * * *

(المَعصِيَةُ عِندَمَا تَقَعُ بِاسمِ الإسلام)

ـ عندما يبغي الخوارج على أهل المعاصي ويستبيحون منهم ما لا يستباح.

ـ وعندما لا يساند أهل السنة الخوارجَ في بغيهم، ولا يقفون معهم في ظلمهم.

ـ وعندما يرد أهل السنة على الخوارج ضلالتهم وينشغلون ببيان زيغ مذهبهم وبطلانه.

ـ هل تعرفون ماذا سيقول الخوارج؟

سيقولون: هؤلاء الذين يسمون أنفسهم بأهل السنة يتركون الفساق من أهل المعاصي، ويشتغلون بالخيرين من أهل التعبد والخشوع!!

ولا يدركون أن المعصية إذا وقعت باسم الإسلام كانت أخطر (بمرات كثيرة) من المعصية التي تقع مع العلم بأنها تخالف الإسلام، والبغي باسم الإسلام أجل خطراً من أضعافه مما يقع ظلماً صريحاً لا ينسبه أحد إلى الدين.

فالبغي باسم الدين بدعة وضلالة، بل أي بدعة تشوه صورة الدين؟! وأي ضلالة تقبِّح الإسلامَ عند أهله فضلاً عن غير المسلمين؛ أكثر من أن ننسب للإسلام تجويز الظلم والبغي!

فأين أنتم يا معشر محاربي البدع عن هذه البدعة؟!

إلا إذا كنتم لا ترون هناك بغياً ولا ظلماً من بعضكم على فضلاء أهل الإسلام، فضلاً عن عصاتهم!!

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

(المُزَايَدَةُ عَلَى الدِّين)

أسهل طريق لتزكية النفس وللتحايل عليها بإرضائها عن تدينها وتقواها: هو أن تزايد على الدين والغيرة، حتى على من هو أولى بالغيرة منها وأقوم بالدين.

لقد مارس ذلك حرقوص بن زهير مع النبي صلَّى اللهُ عَلَيه وسَلَّم، عندما زايد على التقوى والعدل أفضل الخلق صلَّى اللهُ عَلَيه وسَلَّم!!

واتبع الخوارج منهجه في ذلك، فزايدوا الصحابة على الدين أيضاً!!

وما زال الحراقصة يمارسون الحيلة نفسها، رغم مرور ألف وأربعمائة سنة على هذه الحيلة! ألم تنكشف هذه الحيلة رغم هذه القرون؟! ألم تصبح ليست من التحايل في شيء بافتضاحها الطويل هذا؟! فالحيلة لن تكون حيلة مع انكشافها وافتضاحها!! بل ستكون مناداة عليها: فيمن يزيد!

والمزايدة على التدين ممقوتة، ولو كانت مع من هو دونك؛ لأنها تزكية للنفس، وقد قال تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾ النجم: ٣٢.

* * * * *

(العَدْلُ هُوَ قَانُونُ الفَضِيلَة)

قد ندافع عن العصاة الفسقة، وننتقد بقوة ووضوح العباد الخاشعين؛ إذا كان العباد الخاشعون خوارج يكفرون أهل المعاصي، أو كانوا قساة يتجاوزون شرع الله في أهل المعاصي.

وقد نفعل ذلك مع كل مخطئ ومخالف:

فقد ندافع عن المبتدع الزائغ، وننتقد صاحب المنهج السني؛ إذا كان السني مستبيحاً من المبتدع ما لا يجوز، من قهر أو اضطهاد دنيوي أو ديني بالتكفير.

وقد ندافع عن الليبرالي المسلم، وننتقد الإسلامي؛ إذا بلغت حرب الإسلامي معه حد تأييد الإسلامي للاستعباد وتشريعه الاستبداد.

وقد ندافع عن التغريبي المسلم، وننتقد حراس الفضيلة؛ إذا صار حراس الفضيلة بناة سدود للذرائع أقسى من سجون الطغاة.

ولن نكون بشيء من ذلك كله: خوارج مع الخوارج، ولا مبتدعة مع المبتدعة، ولا ليبراليين مع الليبراليين، ولا تغريبيين مع التغريبيين؛ إلا عند أصحاب منهج البغي وغياب العدل أنفسهم الذين كنا ننتقدهم!

ولم أذكر أننا قد ندافع عن أهل الخشوع والعبادة وعن أهل السنة وعن الإسلاميين وعن حراس الفضيلة؛ لأن كل مسلم (ليس منافقاً) لابد أن تكون حياته كلها مع تلك المبادئ، بل إنه لم ينتقد بعض من يدَّعي تلك المبادئ ويتسمَّى بها؛ إلا من شدَّة وفائه لها.

وكما لم يكن ليشفع للخوارج تعبدهم وخشوعهم في أن أنتصف للعصاة منهم، كذلك لن يشفع للسني تسننه، ولا للإسلامي حمله للهم الإسلامي، ولا لحراس الفضيلة حراستهم لها.

وهكذا كل مَنْ خالف العدل، لا يشفع له شيء؛ فالعدل هو قانون الفضيلة، والقانون فوق الجميع، ولا يعلو على القانون أحد!

وتأمل كيف أبغضنا تخشع الخوارج (ولم نبغض الخشوع مطلقاً)، وصارت صورة خشوعهم عندنا صورة خشوع المرائين؛ لأنه لم يحجزهم عن البغي والاعتداء، مع أنه لا يلزم أن يكونوا مرائين.

كذلك لا تلوموا الناس إذا أبغضوا تسنن بعض المتسننين، ونأوا بأنفسهم عن صف بعض الإسلاميين، وتركوا المشاركة في بناء سدود الذرائع؛ لأن غياب العدل يشوه الحالة الحسنة؛ لأنه يجعل تلك الحالات الحسنة كأنها مجرد شعارات حق يراد بها باطل، كما كان تعبد الخوارج وخشوعهم هو شعارهم ودعايتهم لأنفسهم والتي بها انتهكوا به حرمة المسلمين.

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

(أدوَاء قَدِيمَة)

نُسب الشافعي للترفض، لميله إلى مسائل فقهية فرعية قليلة جدا توافق الشيعة.

ونُسب الدارقطني والسمعاني للتشيع، لأنهما كانا يحفظان ديوان السيد الحميري، وهو شاعر متقن لكنه شيعي.

ونُسب النسائي للتشيع، لأنه كان يضعف كل الأحاديث الخاصة بفضل معاوية رضي الله عنه، أو لكونه أفرد فضائل علي بن أبي طالب رضي الله عنه بكتاب خاص في ديوانه الحديثي الأصيل (السنن الكبرى).

وغيرهم كثيرون من العلماء، ممن اتهم بالتشيع لأمور لا تدل عليه، لا من قريب ولا بعيد!!

إنها إذن: فوبيا التشيع، واصطفاف التسنن ضد أهل السنة، والمزايدة على المنهج السلفي.

كلها أدواء قديمة، لم ينج من آثارها حتى سادة الأمة وأئمة السنة.

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

(حَملاتُ التَّشْويهِ ضد المُصلِحِينَ تَبُوءُ بالفَشَل)

لـمَّا ذهب الإمام الشافعي لمصر، وبدأ ينشر علمه، انفض عنه الناس أول الأمر، لعدم معرفتهم به، ولكونه كان مجتهداً يخالف مذهب الإمام مالك الذي كان مذهب الأكثرين من أهل مصر.

فأراد أن يثنيهم عن غلوهم في الإمام مالك، فكتب كتاباً يتتبع فيه أخطاء الإمام مالك، قست فيه عبارته جداً في مواطن على الإمام مالك، وهو كتاب مطبوع.

مع أن الإمام الشافعي كان من أكثر الناس تعظيماً لشيخه الإمام مالك، وهو القائل: لولا مالك وابن عيينة لذهب علم الحجاز، والقائل: إذا جاء الأثر فمالك النجم، والقائل: ما بعد كتاب الله أصح من كتاب مالك.

فازداد الغلاة في الإمام مالك غلواً، حتى كان أحد جلة فقهاء المالكية وهو أشهب بن عبدالعزيز (فيما صح عنه) يدعو على الشافعي في سجوده، ويقول: اللهم أمت الشافعي، فإنك إن أبقيته اندرس مذهب مالك!!

ولم يكفهم هذا، فوجدوه قد وافق الشيعة في بعض الفروع الفقهية، كالجهر بالبسملة والقنوت والتختم في اليمين، فوصفوه بالتشيع والرفض!!

ولم تنته حملة تشويه سمعته رحمه الله، حتى انتقلت للعراق، فتكلم فيه يحيى بن معين وأبو عبيد القاسم بن سلام، وهما إمامان كبيران، الأول تكلم فيه لكونه حنفياً، والثاني للغيرة والحسد. وتكلم فيه العجلي بالتشيع، مما سمعه من أهل مصر.

فلما مات الشافعي حتى اجتمع الناس عليه، وغلب مذهبه في مصر، وبقي الشافعي هو الشافعي، وأذهب الله تعالى عنه أذاهم حياً وميتاً.

فلا أدري؟ كيف لا يعتبر المعتبرون بذلك؟!

* * * * *

(كُنْ مُستَقِيماً ولا تكن مُتَطَرِّفاً)

صح عن الإمام التابعي الفقيه الجليل عامر الشعبي أنه قال: (حِبَّ أَهْلَ بَيْتِ نَبِيِّكَ، وَلَا تَكُنْ رَافِضِياً، وَاعمَلْ بِالقُرْآنِ، وَلَا تَكُنْ حَرُورِياً، وَاعْلَمْ أَنَّ مَا أَتَاكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللهِ، وَمَا أَتَاكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ، وَلَا تَكُنْ قَدَرِياً، وَأَطِعِ الإِمَامَ، وَإِنْ كَانَ عَبْداً حَبَشِياً).

ولعله لو كان معنا لقال:

- كن سلفياً، ولا تفرق الأمة، ولا تتكبر على الآخرين.
- كن إخوانياً، ولا تستبح أذية غير الإخواني، وتبرأ من حزبية لغير الإسلام.
- كن تبليغياً، ولا تنتقص العلماء وطلبة العلم، ولا تكذب لصالح الدعوة.
- حارب الخرافة والتعلق بالقبور، لكن لا تكفر أهل الشهادتين، ولا تغلظ على جاهل المسلمين.
- زَكِّ نفسَك واعمل على صلاح قلبك، مع تمسُّكٍ شديدٍ بالسُّنَّة وبهدي السلف.
- اعتز بدينك، من غير اعتداء على غير المسلمين.
- كن إصلاحياً، ولا تحصر الإصلاح فيما سوى الدين.
- وقاوم التغريب، ولا تقاوم التطور.
- احرس الفضيلة، ولكن لا تسجن المرأة بسياج سد الذريعة.
- عَظِّم النقلَ، مِنْ غير انتقاص العقل.
- عَظِّم العقلَ، ولا تعترض به على الوحي.
- عَظِّم العلماءَ، ولا تخص بالتعظيم من يوافقك منهم.
- ذب عن أعراض أهل العلم، لكن لا تجعل مجرد تخطيئهم وقيعةً فيها.
- انتقد، ولكن لا تقف عند النقد، بل أنشئ بناء جديداً، أو رمم البناء الذي يصلح للترميم.
- تحرر من التقليد، لكن لا تسقط في الفوضى الفكرية.
- ناد بالحرية، لتتمحض العبودية لله تعالى وحده، لكي لا تعبد نفسك.

ـ حافظ على القيم والتقاليد، لكن لا تخلطها كلها بالدين، ولا تعترض على تحسينها وتطويرها.

* * * * *

(لِـمَاذَا كَانَ مَنهَجُ الخَلِيفَةِ عَليٍّ رضيَ اللهُ عنه في قِتَالِ أهلِ القِبلةِ مُعَلِّماً لنا)

استوقفني قول الإمام أبي حنيفة رحمه الله: (لولا ما سار به علي بن أبي طالب في قتال أهل القبلة، ما علم أحد كيف المسير فيهم)، حيث إنني وجدت سيرته رضي الله عنه فيهم مؤيدة بدلائل الكتاب والسنة، ولا سار هو رضي الله عنهم تلك السيرة الشرعية الممدوحة إلا مستدلاً بتلك الدلائل الموجودة في نصوص الوحي.

فما الذي جعل فقيهاً غوَّاصاً في المعاني، بل من أشد فقهاء الإسلام غوصاً وتدقيقاً يرى أنه لولا منهج علي رضي الله عنه في قتاله أهل القبلة لخفيت على الأمة معالم ذلك المنهج؟!

إنه تأثير العداوة والخصومة والقتال على النفس في تقرير العدل، وفي رؤية الحق، وفي فهم النص، وفي استنباط الحكم، وفي تقرير هذا الباب من الفقه: باب الموقف من الخصوم!

لقد استطاع علي رضي الله عنه أن يتجرد غاية التجرد في استنطاق نصوص الوحي للتفقه في حكم الله تعالى في التعامل مع الخارجين، استطاع أن يطبق هذا الفقه تطبيقاً مثالياً في أرض الواقع يليق بخليفة مهدي راشد على منهاج النبوة، استطاع أن يعلم فقهاء الأمة كلهم كيف يكون المسير في قتال البغاة والخوارج من أهل القبلة.

فإذا كان فقهاء الإسلام من الرعيل الأول، وعلى رأسهم أبو حنيفة رحمه الله، كانوا مفتقرين أشد الافتقار لتجرد علي رضي الله عنه ولضبط نفسيته في تقرير فقه باب العداوات والخصومات، فماذا سيقول من هو دونهم؟!

وماذا نتوقع ممن لا يبلغ عشر معشار ذلك الجيل من فقهاء الأمة وأئمة الإسلام علماً وتقى إذا جاؤوا لتقرير الموقف من المخالفين؟!

* * * * *

(إذا كانتْ هذه صُورَة النَّقْد، فهو لا يرجعُ إلى سَبَبٍ علميٍّ)

١ـ عندما تنتقد أسلوب النقد وتزعم قسوته، ولا تذكر خطأ علمياً في هذا النقد.

٢ـ وعندما تنتقد تخصيص الناقد لجماعة معينة، ولا تذكر خطأ علمياً في هذا النقد.

٣ـ وعندما تنتقد توقيت النقد، ولا تذكر خطأ علمياً في هذا النقد.

٤ـ وعندما تدخل في نية الناقد وتتهم مقاصده، ولا تذكر خطأ علمياً في هذا النقد.

٥ـ وعندما تتهجم على الناقد بالشتم والانتقاص، ولا تذكر خطأ علمياً في هذا النقد.

٦ـ وعندما تقابل النقد بنقد مقالات لا علاقة لها بالناقد ولا بنقده، ولا تذكر خطأ علمياً في نقده.

فأقل الناس فهماً سيفهم أن رفضك للنقد لا يرجع إلى سبب علمي، وأن مشكلتك مع النقد ليست علمية أبداً، بل لا علاقة لرفضك بشيء من تلك الأعذار.

وسيفهم الجميع أنك تريد رد النقد فقط.. لأنه نقد، وبأي طريقة وبأي ثمن!!

فالغاية تبرر الوسيلة، ولو كانت بالكذب والبهتان وأذية المسلم.

ولذلك فلا يلزم أن يكون شيءٌ من أعذار رفضك صحيحاً:

١ـ فلا يلزم أن يكون أسلوب النقد كان قاسياً.

٢ـ ولا يلزم أن يكون تخصيص تلك الجماعة قد وقع فعلاً، ولو وقع لا يدل على فساد نية الناقد ولا فساد سياسته النقدية.

٣ـ ولا يلزم أن يكون توقيت النقد خاطئاً.

٤ـ ولا يلزم أن يكون اتهام النيات مما يستند إلى أدلة أو قرائن تشهد له، فضلاً عن جواز ذلك من عدم جوازه.

٥ـ ولا يلزم أن شتمك وانتقاصك كان توصيفاً للحق، ولا غيرة حقيقية على الشرع.

٦ـ ولا يلزم أن يكون نقدك لمقالات لا علاقة لها بالناقد ونقده ناتجاً عن اعتقادك أن الناقد واقع فيها.

لا يلزم شيء من ذلك، وسيبقى النقد علمياً، لا تستطيع رده عند العقلاء المنصفين.

* * * * *

(العَقْلِيَّةُ المُتطَرِّفَة)

مَنْ لا يحقق التوحيد إلا بتكفير كثير من أهل التوحيد.

ومَنْ لا يعرف هداية النقل إلا إذا انتقص هداية العقل.

ولا يكون أثرياً إلا إذا أصبح ظاهرياً سطحياً مع النصوص.

ولا يحارب حملة تغريب المجتمع من خلال المرأة إلا إذا انتقص حقوق المرأة بحجة سد الذرائع.

ولا يواجه الإلحاد إلا بمحاكم التفتيش.

ولا يتمسك بالسنة إلا إذا فرَّق أهل السنة وبدَّع مخالفيه منهم.

ولا يحفظ سيادة الشريعة إلا باستبداد الحكام واستعبادهم الشعوب.

ولا يحافظ على هيبة العلماء إلا إذا سمم لحومهم وشحومهم وآراءهم بالتقديس المانع من التخطيء.

ولا يعرف عن عقيدة الولاء والبراء إلا (البراء والبراء)، وينسى الولاء للمسلمين.

ولا يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر إلا إذا بتبغيض الناس في المعروف وتحريشهم على ارتكاب المنكر.

ولا يحث على العبادة والزهادة إلا بترك الحضارة والتقوي بالعلم الدنيوي والإعداد به لنصرة الإسلام ورفع رايته.

ولا يرد على خطأ مخالفيه إلا بالدخول في النيات وقراءة ما بين السطور وادعاء قياس حرارة الغيرة.

فهذا متطرف العقلية، لا يرى في الدنيا إلا خيراً محضاً أو شراً محضاً.

وفي نحو هذا قال الإمام الذهبي: (وعن أيوب عن أبي قلابة قال: إذا حدثت الرجل بالسنة، فقال: دعنا من هذا، وهات كتاب الله، فاعلم أنه ضال.

قلت أنا (أي الذهبي): وإذا رأيت المتكلم المبتدع يقول: دعنا من الكتاب والأحاديث الآحاد، وهات العقل، فاعلم أنه أبو جهل.

وإذا رأيت السالك التوحيدي يقول: دعنا من النقل ومن العقل، وهات الذوق والوجد، فاعلم أنه إبليس قد ظهر بصورة بشر أو قد حلَّ فيه، فإن جبنت منه فاهرب، وإلا فاصرعه وابرك على صدره واقرأ عليه آية الكرسي واخنقه)!!

* * * * *

تَأمُّلاتٌ يُثريهَا مَزِيدُ التَّأمُّل

كلما عَظُم الباطل: تحاقرت حجتُه، وخفَّت على العقول شبهتُه؛ لأن الباطل لا يزداد بطلاناً إلا بما زاد من البعد عن الحق، وكلما زاد الباطل بعداً عن الحق ازداد ضعفاً وتهافتاً، فظهرت بذلك أدلةُ بطلانِه، واتَّضح للناس تهافتُ بنيانِه.

ولذلك فسوف يكون الخطاب الذي يفضح هذا الباطل الكبير خطاباً سهلاً، يفهمه عامة الناس، كما كان خطاب الوحي في هدم الوثنية؛ لأن باطل الوثنية كان هو من أكبر الباطل!

وكلما صغُر الباطل: تعاظمت حجته (وهي حقيرة)، وثقلت على العقول شبهتها، حتى ظنتها بعض العقول أدلة؛ لأن الباطل لا يصغر إلا بسبب اقترابه من الحق، وكلما اقترب من الحق ازداد قوة، فخفيت أدلة بطلانه، وأوهم تعالي بنيانه. ولذلك سيكون الخطاب الذي يكشف مستوره خطاباً ليس سهلاً، وقليل من الناس من يفهمه. كالرد على المقالات الباطلة لأهل القبلة، فليست في سهولة الرد على الوثنيين.

وهذا من رحمة الله: أن الباطل الكبير، مهما انتشر وذاع، يسهل دحره بالحجة التي يفهمها عامة الناس.

وأما الباطل الصغير، فصغره يجعل خطره أخف، ولئن كان خطاب إبطاله لن يفهم عمقَه إلا قلة من الناس، فإن قلة من الناس من سيقتنعون به أصلاً.

وهنا مفارقات عدة:

١ـ شدة البطلان لئن سهلت خطاب الإبطال، وعممت جمهور المدركين لحجج الإبطال: فلن يصبح هذا الباطل هيناً بذلك!

وخفة البطلان التي صعبت خطاب الإبطال، وخصصت جمهور المدركين لحجج الإبطال: لن يصبح هذا الباطل أخطر من الأول بذلك. سيبقى الأول أخطر، والثاني أهون.

فما أشرف الحق! حتى الباطل يشرف بقربه منه، وهو باطل!

٢ـ ظهور حجج إبطال الأول، وكثرة المدركين لها: لم يجعل وضوحها ذماً لها. وخفاء حجج إبطال الثاني، وقلة من يفهمونها: لم يجعل خفاءها ذماً لها.

وكما أن الظهور في الأول، والخفاء في الثاني: ليس ذماً، فهو ليس مدحاً لذاته؛ إلا بقدر وفائه بمهمته.

فالوضوح ممدوح إذا اجتث أصول الباطل من أعماقها، كما في خطاب الوحي. والخفاء ممدوح، إذا كان عمقه أبلغ من عمق شبهة الباطل، فاقتلعها من أصولها.

٣ـ كثرة المدركين للحجج وحده ليس دليلاً على صحتها، وإلا فإن أهل الباطل أكثر من أهل الحق.

وقلة المدركين للحجج ليس دليلاً وحده على خطئها، ولا فساد أسلوبها، وإلا لكانت حجج الرد على الفلاسفة خطأً؛ لأن قليلاً من الناس من يفهمها.

فدليل صحة الدليل هو الدليل نفسه، ولا ميزان لصحة الدليل إلا العقل المجرد من المؤثرات الأجنبية عن الحق وموازينه.

* * * * *

(عِندَمَا يَصفُو عِندَكَ حُبُّ الحَقِيقَة)

عندما يصفو حب الحقيقة في نفسك، حتى تحبها أكثر من نفسك، عندها ستعمل لها وحدها وتقدمها على حظوظ نفسك، وعلى عوائق رؤيتها من عوائد ومألوفات علمية.

لن تجد الحقيقة إذا كنت لا تراها إلا من حيث تحقق لنفسك مكسباً، لن تراها إلا إذا كانت هي مكسبك، ولو كنت تخسر بمعرفتها نفسك أو حظا من حظوظها.

كم من ذكي واسع الاطلاع، يحسن اختراع الأقوال وتفصيل الآراء؛ لكنه قليلاً ما يحسن الإبداع؛ لأنه يريد مكاسب نفسه، لا مكاسب معرفة الحقيقة؛ لأنه يريد أن يذكره الناس ببصمته الخاصة، ولم يرد أن يعرف بصمة الحقيقة الخاصة.

أعرف ذكياً يبحث عن نفسه من خلال الوصول إلى الحقيقة، فلا وجد نفسه إلا من خلال خداع الجمهور الذي يصفق له، والذي كما صفق له سيصفق لغيره، فلن يدوم تصفيقه له، ولذلك فلن يستمر في الشعور بنفسه من خلال تصفيقه دائماً، وسيفقد نفسه حالماً يقف احتفال التصفيق له. فالمؤلم حقاً: أنه ما عرف الحقيقة أيضاً! فهو قد خسر نفسه، وخسر معها الحقيقة.

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

(كُلَّمَا عَظُمَ الخطأ صَعُبَ الاعترافُ به)

كلما عظم الخطأ عظم على النفس الاعتراف به، فإذا وجدت نفسك ترفض النقد بشدة أو تنفر من النصيحة نفوراً كبيراً، فاعلم أن شدة رفضك وقوة نفورك قد تكونان دليلاً على عظم الخطأ عندك، وقد تكونان أيضاً دليلاً على خطأ النقد وعدم توجه النصيحة.

وما أصعب التفريق بين سببي الرفض هذين؛ لأن هوى نفس يصل إلى درجة عدم رؤية الخطأ الكبير، لن يجعل من نفسك حكماً منصفاً على نفسك.

تأمل شدة نفور الكفار من هداية الأنبياء، في هذا التشبيه المفزع المخيف: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ. كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ. فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ﴾ المدثر: ٤٩-٥١، حمار وحشي، هارب من

أسد يهاجمه؛ إلى هذا الحد يصل النفور من النقد والنصيحة، كلما عظم الخطأ، فهل تعقل نفس تنفر هذا النفور؟!!

* * * * *

(التَّشَدُّدُ هُوَ قَرِينُ الجَهل)

متى أصبح التشدد بيننا صفة مدح، حتى إنك لتجد كثيراً مما يقرون بخروج الشيخ الفلاني أو الداعية الفلاني عن حد الاعتدال إلى التشدد، يذكرونه بهذه الصفة على وجه الثناء، وكأن التشدد عندهم يساوي: الورع.

غافلين عن أن سيد الورعين محمداً صلَّى اللهُ عَلَيه وسَلَّم كان أبعد الناس عن هذا التشدد، وما أكثر ما حذر منه وحارب أسبابه.

وناسين أيضاً أن أئمة التشدد في تاريخنا كانوا هم الخوارج، وما ورد في فرقة من التحذير والتنفير ما ورد فيهم!

فمتى أصبح التشدد ممدحة؟ ومتى اختلط لدى البعض بالورع ومتانة الديانة؟

والحق أن هذا التشدد قرين الجهل، كما هو حال الخوارج في الجهل، فكان ينبغي أن يكون هذا التشدد صفة ذم؛ لأنه قرين الجهل، وأي وصف ذم أشد من الجهل؟!

* * * * *

عِيشُوا مَعَ أفكَارِكُم!

اسمحوا أن أحدثكم عن نفسي اليوم، لكونه حديث من جرب فعرف!

حيث إني لأعيش مع أفكاري أهنأ عيش وأغناه عن الخلق؛ إذ إن حقيقة التفكير لا تقبل الشراكة أصلاً، ولذلك فلا يمكن أن تعيش مع أفكارك عيشة حقيقية؛ إلا وحدكما!

ولذلك فإني لا أقول: إنك لا تحتاج أحداً يفكر معك؛ لأن وجود أحد سيعكر فكرك.. لن أقول ذلك؛ لأن الصواب هو أن أقول: لا يمكن لأحد أن يفكر معك أصلاً!!

يمكن لغيرك أن يعطيك أسباب التفكير في شيء ما، يمكنه أن يزودك بالمعلومات التي تجعلك تصيب أو تخطئ؛ لكنه لا يمكنه أن يفكر معك، ولا يمكنه أن يؤثر في مسار التفكير؛ إلا إذا سمحت له أنت بذلك، بأن يطلب منك الانقياد لأفكاره بغير تفكير (التقليد الأعمى)! فحتى المعلومات الخاطئة التي قد يزودك بها الآخرون، أنت قادر بالتفكير أن تتثبت من صحتها وخطئها.

لكني (مع ذلك) أحتاج الناس حولي، لا لكي أدفأ بحبهم فقط (على الأهمية البالغة لذلك)، ولكن لكي يكونوا رافداً مهماً للأفكار، ولكي لا أجنح في أفكاري بعيداً عن واقعي وعمن أحببتهم وأحبوني.

والحمد لله، فعملي في الجامعة يتيح لي هذه العزلة، ورتبت لقاء المحبين والطلاب في يوم محدد، ليكون رافداً للأفكار، لا مانعاً ولا مكدراً.

وهكذا أجد دائماً في خلوتي سلوتي، وفي وحدتي أنسي، وبين مكتبتي (المتراكبة الكتب) وأفكاري جنتي وحياتي.

أجد في أفكاري حياة قلبي بالتفكير في ربي! في تأمل حبه ورحمته وعظيم جلاله وكمال جماله عز وجل.

أجد فيها القيام بواجب نصح أمتي وتصحيح أخطائها، في محاولة اكتشاف الداء، ووصف الدواء.

أجد فيها مركزاً لتحرير مذاهب العلماء وفهم مآخذ الفقهاء والتفقه في الدين.

أجد فيها معملاً لتحليل المقالات، وتنقية التراث من ركام الأخطاء التي تراكمت على صواباته.

أجد فيها لذة مشاعر الشعراء، وأحاسيس المرهفين، وثاقب نظر الأدباء.

أجد فيها سعة فضاء العلم، وتواضع قدرات الإنسان عن احتوائه.

أجد فيها ملجأ من وحوش انعدام الإنسانية وسوء الأخلاق، وروضة يستريح فيها المحارب من ساحة مصاولة الغلاة وفضح جهالات المتعالمين وكشف زيفهم.

أجد فيها كل ما يدعوني لكي أتشبث بهذه الخلوات، ولا أرضى بها بديلاً.

جربوا الحياة مع الأفكار؛ إنها جنة الله في أرضه، وهي جنة تتسع كلما توسعت في إعطائها أكبر وقت في حياتك.

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

(السَّلَفُ نَاقَشُوا بِالْحُجَجِ الشَّرعِيَّة: العَقلِيَّة والنَّقلِيَّة)

ناقش السلف المقالات المبتدعة والعقائد الضالة بالحجج الشرعية كلها: عقليها ونقليها، وجادلوا أصحابها بالبراهين التي تتجاوز المطالبة بالتسليم إلى الإقناع العقلي، ما استطاع أحدهم إلى ذلك سبيلا.

وفي نفس الوقت ورد عنهم التحذير من شبه العقل ومثارات سقطاته، وصح عنهم أيضاً المنع من جدال أهلها، والمطالبة بالتسليم للنص بلا (لِمَ؟) ولا (كيف؟).

فكان التقرير الذي يقرره أهل العلم ويشيعونه بين طلبته وشداته: أن لكل مقام مقالاً، وأنه لا تعارض بين الموقفين؛ لأنهما يتحدثان عن محلين متباينين وصورتين مختلفتين.

وبغض النظر عن وجه هذا الجمع الذي يفصل وجه تباين الحالتين ويوضح الفروق بين الصورتين، ما يزال بعض المصطفين مع حزب أو تيار إسلامي يمارسون ازدواجية المعايير الظالمة في هذا الموضوع:

ـ فإذا جاء الجدل العقلي بما يوافق مقلداتهم أيدوه، وذكروا أنه امتداد لجدل السلف. وإذا جاء بما يخالفهم، أو صدر ممن خرج عن حدود تحزباتهم؛ اعترضوا عليه وشنعوا عليه، بأنه يخالف منهج السلف في ترك الجدل العقلي وفي المطالبة بالتسليم.

ـ وإذا طالب من يوافقهم باستعمال العقل، أو جادل بالدلالة العقلية؛ أشادوا به، واستدلوا بتصرفه هذا على أنهم لا يعادون العقل. وأما إذا طالب بذلك مخالفوهم أو من يخرج عن حدود تعصباتهم الضيقة؛ عدوه منه دليلاً على تقديم العقل على النقل، وعلى ضعف التسليم عنده، وما يستتبعه ذلك من صنوف التبديع والانتقاص!!

وكل هذا قد يحصل جهلاً منهم بالمنهج الصحيح الذي سار عليه السلف، والذي يجمع بين اختلاف موقفهم منه. كما أنه قد يحصل أيضا تحزباً وتعصباً مقيتاً، وبغياً وتشغيباً على الخصوم.

ولا شك أن الأول من هذين: أهون خطأ، وأصغر إثماً. لكنه ليس منزها عن التأثيم مطلقا؛ لأنه ما دام يعلم باختلاف مواقف السلف من الجدل، فلا يصح أن يستدل بمواقفهم المختلفة بناء على موافقته ومخالفته، بل إما أن يستدل بمواقفهم في محالها (تأييداً أو اعتراضاً)، وإما أن يترك الخوض في هذه المسألة (موافقة أو اعتراضاً)، وأن يدع الاحتجاج بالسلف بالكلية، حتى يعرف متى كانوا يجادلون ويحتجون بالحجج العقلية، ومتى كانوا ينهون عن ذلك، يطالبون بالتسليم.

وأجهل من هذين كليهما: من لم يعرف إلا قولاً واحداً للسلف، فتعصب ضد كل ما يخالفه، وهو لا يعلم أنه تعصب ضد السلف بحجة التعصب لهم! فهذا أجهل الثلاثة، لكنه قد يكون أعذرهم!!

* * * * *

(لَيسَ كُلُّ مَا أجمَعُوا عَلَيهِ هُوَ مِنْ أُصُولِ الدِّين)

حكى شيخ الإسلام ابن تيمية إجماع أهل السنة، بالتخصيص، وإجماع علماء المسلمين بالتعميم: على كروية الأرض، وعزاه إلى الصحابة والتابعين، ونقل استدلالهم عليها ببعض آيات الكتاب العزيز، كما في مجموع الفتاوى (٦: ٥٦٦، ٥٨٦، ٥٩٥)، ونقل حكاية الإجماع أيضاً عن أبي الحسين ابن المنادي وابن حزم وابن الجوزي.

ومع استغرابي من نقل إجماع أهل السنة والجماعة والسلف على هذه المسألة، التي ربما لم تخطر على بال الكثيرين منهم! إلا أني لا أتردد في إعلان اعتزازي بهذا التقرير العلمي لأئمة المسلمين والسبق النسبي فيه، والذي هو الممهد الديني والمقدمة الشرعية الأولى لعدم تكذيب دوران الأرض:

فهل مجرد حصول الإجماع على كروية الأرض يصير هذه المسألة من أصول الدين؟! وهل أصبحت هذه المسألة بذلك الإجماع من أصول معتقد أهل السنة والجماعة؟! فيكفر أو يبدع مخالفها؟!

وهل من مات وهو يجهل كروية الأرض، أو يخالفه اجتهاداً، سيكون معرضاً للحساب والعقاب؟!

إذن ليس كل ما وقع عليه الإجماع سيكون من أصول الدين، بل قد لا يكون من الدين أصلاً، إلا بقدر أن لا يؤول إلى مناقضة النص بالتكذيب الصريح.

وإلا فقد أجمع المسلمون قديماً وحديثاً أن الصين في الشرق، وبحر الظلمات (المحيط الأطلسي) في الغرب، فهل ستصبح هذه المعلومة اليقينية من أصول الدين؟! لمجرد الإجماع عليها!!

إذن فقد ينعقد الإجماع على ما لا يبدع عليه، وإن كنا نقطع بخطأ المخالف.

وإنما أقصد بهذا التنبيه: أن أوضح بأنه لا تلازم بين انعقاد الإجماع وكون المسألة مما يمتحن بها الناس ويكفر أو يبدع المخالف فيها، ولا تلازم بين القطع فيها والتكفير والتبديع!

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

(مُفَارَقَةٌ بَيْنَ مَنْ لا يُرِيدُ أَنْ تُخطِّئه، ومَنْ يَكتفِي بِعَدَمِ البَغي)

من لا يريد أن تخطئه سيراك بمجرد تخطيئه منحازاً ضده، بحجة أنك تذكر أخطاءه، ولو كنت منه وهو منك، ولو لم يقدك خطؤه إلى التبرؤ منه.

فهو يراك منحازاً ضده، مع أن وصفك له بأنه من أهل السنة، ووصفك لخصمه بأنه مبتدع ليس من أهل السنة: هو أعظم انحياز له ضد خصمه.

وأما من لا يريد منك إلا أن لا تبغي عليه فقط، فربما سيراك منصفاً غاية الإنصاف إذا اكتفيت بتخطيئه، ولم تظلمه بتكفير أو بغي، حتى لو كنت تعده من طائفة أخرى غير طائفتك، ولو كان هو يعدك كذلك.

فمع أن قربك من الأول أشد، حتى كنتما من طائفة واحدة؛ إلا أن ذلك لم يشفع لك عنده؛ لأن سقف مطالبه عالٍ جداً، تجاوز الحدود الموضوعية والعادلة: وهو أن لا تخطئه!!

ومع أن قربك من الثاني أبعد من الأول، حتى عددته من طائفة غير طائفتك؛ إلا أنه ربما رضي منك بذلك، وقبل أن تقف مع خصمه في صف واحد.

لأن سقف مطالبه توقف عند المطالب الموضوعية غير المتطرفة، وهو أن لا تظلمه بتكفير وبغي عليه، وأن لا تسلبه حقوقه الإنسانية والإسلامية.

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

(تَنتَقِدُ السَّلَفِيَّةَ أكثر مِنَ الشِّيعَةِ فَهَلْ هُمْ أعظَمُ خَطَأً مِنَ الشِّيعَة)؟

مرة قال لي أحد طلابي المحبين: مسألة فيك تشتبه عند خصومك، يقولون:

ألا يدل نقدك لبعض مقالات السلفية المعاصرة أو لبعض مواقف دعاتها الذي يفوق نقدك للشيعة أن السلفية عندك أعظم خطأً؟!

فقلت له: هل سمعتني يوماً وصفت الشيعة إلا أنهم ضالون عن السنة؟ و هل سمعتني يوماً وصفت السلفية إلا أنهم من أهل السنة؟

فقال: اللهم نعم، لم أسمع منك إلا ذلك.

فقلت له: ألا يكفي هذا لبيان من هم أصحاب الخطأ الأكبر عندي في أقل تقدير؟ فضلاً عن أنه يبين أين أصف قدمي وأقف في أي صف؟

انظروا إلى كتب العقيدة: تجدون ردودهم على طوائف المسلمين يفوق أضعاف المرات ردودهم على اليهود والنصارى والملاحدة والمشككين في أصل الدين وفي صحة النبوة.

فهل كان ذلك منهم دالاً على انحيازهم للكفار ضد أهل القبلة؟!

فالمسألة لا تقاس بكثرة النقد ولا بقلته، وإنما تقاس بالأحكام النهائية. فقد أؤلف كتاباً ضخماً في نقد طائفة إسلامية أو جماعة سنية، وأقول عن جماعة أخرى كلمة واحدة، تفوق كل ذلك

الكتاب قوة، فلو قلت عنها: (إنهم كفار)، ألن يكون هذا أقوى من مجلد تخطيء لا تكفير فيه؟! بل من مجلد يصرح بإسلام الطائفة التي أنتقدها؟! بل يصرح بكونها من أهل السنة؟!

* * * * *

(لِـمَاذَا يَمِيلُ إلى تَأكِيدِ الاختِلافِ الحَقِيقِي)!

وجدت بعض العلماء قديماً والباحثين حديثاً إذا خاض غمار معركة معرفية تراثية (عقدية أو فقهية)، يميل إلى تأكيد وجود الاختلاف الحقيقي فيها.

وإذا اتضح له أن خلافها لفظي (بسبب اشتباه الألفاظ)، ضاقت نفسه، وكأنه خسر معركته بظهور الاتفاق فيها! حتى إنه ربما افتعل وجود الخلاف الحقيقي بالقوة، وحاول إيجاد الفروق بين المقالات بالتعسف، وبتصيد العبارات غير المحررة للخصوم، ويترك العبارات المحررة لهم!!

فعجبت من ذلك، لأن الأصل هو الفرح باتفاق المسلمين، والحزن على تفرقهم.

وتأملت هذا، فوجدت أن سببه هو الصراعات المذهبية، وما تشيعه من رغبة نضالية، ومن شعور بلذة الانتصار على الخصوم.

فهذا هو ما يذكي الرغبة في تأكيد الفرقة والاختلاف، ليتحقق للشخص التباري مع الفريق الآخر، وتسجيل الأهداف ضده.

* * * * *

(مَسؤُولِيَّةُ الأحزَابِ الإسلامِيَّة)

فشل الأحزاب الإسلامية في تحقيق الإصلاح المنشود لو حصل (ونسأل الله عدم حصوله) سيكون خسارة لا يحتملها المسلمون، ونخشى أن يكون تهمة للإسلام ذاته.

والعالم كله يمر بأزمة اقتصادية، والبلاد العربية والتي فازت فيها تلك الأحزاب ورثت إرثاً ثقيلاً من فساد أكل اللحم ونخر العظم فيها استمر لعشرات السنين، أفسد الاقتصاد والسياسة، بل أفسد منظومة القيم والأخلاق.

وإصلاح ذلك كله لو قيل إنه يحتاج معجزة، لم يكن مستغرباً.

والشعوب لا ترحم، ولن يطول صبرها.

أتمنى أن تعلن الأحزاب الإسلامية حزمة من الإصلاحات المحددة، وفق الوقت المقدر لها في الحكم، ووفق الإمكانيات المتاحة، وتعد الشعوب بالتزامها.

وتطالب الشعوب أن لا تحاسبها على غيرها من الإصلاحات التي لا تتيحها المرحلة الحالية (وقتا وإمكانيات).

والمهم في هاتين اللائحتين من الإصلاحات: تحديدها بوضوح، وأن لا تكون تعميمات يدعيها كل حزب، فما كانوا ولن يكونوا كأي حزب.

فهم قد جاؤوا باسم الإسلام وممثلين للإسلام، أو هكذا يفهم الناس، فلن تكون محاسبتهم كأي حزب، ولن تكون أخطار خطئهم أو أخطار الدعاية المغرضة ضدهم كأي حزب.

وسوف نعين الشعوب ونحصنها من التغرير بها: بالوضوح الكامل والشفافية التامة.

* * * * *

(مَتَى تُصبِحُ الحَقَائِقُ خَطرَاً)؟

هل تعرفون متى تصبح الحقائق خطراً في نظر بعض النفوس؟! ومتى يكون مجرد ذكر أدلتها وبيان قوة دلالتها إرهاباً فكرياً؟!

عندما تكون الحقائق تكشف ستار الجهل عند صاحبها، وعندما تفضح الأدلة بطلان مقالات عاش يظنها ثوابت لا تحتمل التشكيك.

عندها سيحذر من سحر الحقيقة الخطير! وسيصف ذكرك الأدلة بأنه ممارسة لترهيب فكري وخداع وجداني.

إن للحقيقة سحراً أخاذاً فعلاً؛ لكنه سحر يستمد قوته من فطرية الحقيقة وخضوع النفوس السوية لها.

والأدلة القوية ترهب إرهاباً حقيقياً فعلاً؛ لكنه إرهاب للتقليد ولقداسة لغير المقدس.

* * * * *

(إسلامُ مَا يَعجزُ عَنهُ المُستَمِعُون)

إسلام (ما يطلبه المستعمون)، كما يقولون: بمعنى تحريف الإسلام ليوافق أهواء الناس، ليس أسوأ من إسلام (ما لا يقدر عليه المستمعون)، وهو ما لا يمكن أن يطبق بسبب العجز عنه.

فهو صورة أخرى من صور التحريف بالغلو والتشديد المخالف لسماحة الدين، أو بعدم مراعاة واجب الواقع في التدرج في التطبيق، أو بهما معاً!!

والأول: قد يكون منافقاً، أو مهزوما نفسياً أمام رغبات الجماهير.

والثاني: قد يكون مرائياً يزايد بالتشدد على التدين، ويتباهى بتزمته، أو جاهلاً ضعيف الفقه في الدين.

* * * * *

(عِندَمَا تَعلُو الهِمَم)

عندما تعلو الهمم، تحب التشبه بصفات الكمال، ولو كانت صفات للمخلوقات النورانية (الملائكة)!

ولا تجد هذه النفوس العلية في تباين أصل خلقة الملائكة عن أصلها، ولا في طبعهم على الطاعة، ما يعذرهم في حسن التأسي بهم، ولذلك فيكفيهم أن يقال لهم: (ألا تصفون كما تصف الملائكة عند ربها)؟ كما قال صلَّى اللهُ عَلَيه وسَلَّم، ليكون ذلك من أكبر الحث لهم على العمل!!

لو كانوا غير أولئك السادة، لقالوا: ما لنا وللملائكة، أولئك قوم خلقوا من نور، ولا يعصون الله ما أمرهم! لكنهم ربوا على حب السمو والرفعة، فكانوا لا يقبلون بالأعذار دون الجد في التسامي للمعالي.

وأما إذا دنت الهمم: فسوف تجد لها الأعذار عن الاقتداء، في كل قدوة:

ـ فبالنبي صلَّى اللهُ عَلَيه وسَلَّم، ستقول: أنه رسول الله، وأين نحن منه!

ـ وبأصحاب رسول الله رضي الله عنهم: بأنهم أصحاب رسول الله وتلامذته!

ـ وبالأئمة من أهل العلم والعمل: بأنهم الأئمة!

فهو دنو الهمة، يخاف القمم، ولا يريد إلا حياة الحفر.

يذكر العلماء أن سجدة قوله تعالى عن الملائكة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾ الأعراف: ٢٠٦، شُرعت حثاً للاقتداء بالملائكة، فبعد أن ذكرت الآية سجودهم، ناسب أن يسجد المؤمنون تشبهاً بهم.

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

(الإلزَامُ بِأحكَامِ الشَّرِيعَة)

لا وجود لعاقل يقول بأن مطلق الإلزام بالأحكام والتنظيمات مرفوض؛ بدليل أنه لا وجود لعاقل يرفض الأنظمة والقوانين وتشريع العقوبات على مخالفتها رفضاً مطلقاً، وكل دول الأرض وعلى مر التاريخ لابد وأن تلزم بحزمة كبيرة من الأحكام والتنظيمات.

ولذلك سيكون من تكلم عن أن في الإلزام بأحكام الشرع تشريعاً للنفاق، لابد أنه يريد بعض صور الإلزام، لا كلها؛ وهذا ما يلزم به كونه عاقلاً فقط، دون حاجة إلى اعتبار كونه مسلماً.

ومن صور تشريع النفاق بالإلزام بأحكام الشريعة: عندما يكون إلزاماً لا يعتني إلا بمجرد الإلزام، ولا يضع من ضمن برنامجه في الإلزام فكرة الإقناع وإحياء مراقبة الضمير، مكتفياً بالإكراه القسري.

لقد أيد الله الإسلام بدلائل عقلية على صحته، كإعجاز القرآن، من أجل التصديق بالنبوة والتسليم للوحي. فلا يصح أن نغفل عن ضرورة الدلائل العقلية والإقناع، لكي لا نشرع للنفاق حقاً.

ومن صوره أيضاً: الإلزام والإنكار في مواطن الخلاف المعتبر، لغير مصلحة عامة توجب الإلزام. فعندما نلزم المسلمة بستر وجهها، وهي تدين لله بجواز كشفه، لمجرد أنه ترجيحنا نحن، فقد شرعنا للنفاق.

إذن هناك صور يتحقق فيها أن يكون الإلزام بأحكام الشريعة تشريعاً للنفاق.

* * * * *

(خُطَّة وَاقعيَّة للتطبِيق)

إذا لم تعتن جماعة إسلامية بوضع خطة واقعية لتطبيق أحكام الإسلام فإن أي خطة بديلة لها ستكون خطة علمانية!

حيث إنك إذا كنت ممن يضع تصوراً للإسلام غير قابل للتطبيق، فقد ساهمت في فصل الدين عن الحياة، وهذه هي العلمانية بعينها، لكنك تمارسها دون وعي، والأشد: أنك تمارس العلمانية باسم الإسلام.

كما أن هذه الأحزاب بهذا الخلل تمارس (الإرجاء) بامتياز، فـ(الإرجاء) الذي يعرفه أرباب العقائد يتضمن عدم الاهتمام بالعمل، وهذه الأحزاب قد وقعت في ذلك، بل في شر منه؛ حيث تكتفي في تنظيرها الإسلامي بالمعرفة النظرية، دون السعي للتطبيق، بل دون اهتمام بإمكان التطبيق، بل ربما مع التصريح بأن التطبيق ليس مهماً أصلاً، وإنما المهم هو التقرير النظري المعرفي البحت!!

فليس من شروط كون التقرير صحيحاً عندها (ولو مرحلياً) أن يكون مما يمكن تطبيقه!!

وبذلك يتبين أن حزب العدالة التركي أو النهضة التونسي ليست هي الأحزاب العلمانية، بل الأحزاب العلمانية حقاً هي الأحزاب المنغلقة التي لا يهمها إمكان التطبيق، وتصرح بذلك مقالاً أو حالاً.

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

(مَنْ يُنَادِي بِالإصلاح)

من ينادي بالإصلاح لا بد أن يكون له مشروعٌ إصلاحي عملي (ولو كان مشروعاً صغيراً)؛ لكي يثبت لنا أن مشروعه قابل للتنفيذ، وليس مشروعاً لأحلام الإصلاح التي لا علاقة لها بالواقع.

لأن عدم وجود مشروع إصلاحي عملي ظاهر (ولو كان صغيراً)، قد يدل على أن سقف الإصلاح المنشود يتجاوز أرض الواقع إلى أرض الأحلام، أو قد يدل على أنه مشروع دعاية للإصلاح، وليس مشروعاً حقيقياً للإصلاح.

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

(عَدَمُ تَسلِيطِ الفَردِ حَتَّى لَوْ كَانَ قَاضِياً)

(لا يحكم القاضي بعلم نفسه) تقرير ذهب إليه كثير من الأئمة، خشية من تسلط القاضي على رقاب العباد، مع أن علم نفسه قد يكون يقيناً يقابله ظنون البينات!

هذا الحكم فيه تأسيس لتشريع عدم تسليط الفرد في تطبيق الشرع، ولو كان قاضياً شرعياً، وأنه لا بد من خضوعه لقانون رقابة يحمي المسلمين من ظلمه واستبداده، وأن فائدة حكمه بعلمه اليقيني تستحق التفويت والإهدار مقابل حماية الخصوم من استبداده.

فإذا راعى الإسلام الأفراد من استبداد القاضي الشرعي، فمنع الإسلام القضاة الشرعيين من أن يكونوا فوق القانون، ألا يحمي الإسلام الأمة كلها من استبداد الفرد بتشريع رقابة عليه؟!

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

(مِنْ شُؤمِ الطَّائِفِيَّة)

من شؤم الطائفية على أصحابها: أن الطائفيين (مع أنهم متحمسون للدين) إلا أنهم من أكثر من يكره الاعتراف بمخاطر الإلحاد والتنصير في البلاد الإسلامية، ويتعامى عن مشاهدتها حتى لو تعاظمت؛ فالطائفيون (خاصة منهم الذين يتقوتون على الطائفية)؛ يعلمون أن الحديث عن مخاطر الإلحاد والتنصير يتضاءل أمامها خطر طوائف أهل القبلة، ويبين ما هي أولويات المواجهة الحقيقية!

حكى لي أحد المشايخ أنهم كانوا في مجلس، وهم يتحدثون عن خطر التشيع، والمد الشيعي في البلاد العربية. ومعهم عالم مغربي معروف. وتطرق بهم حديثهم عن المد الشيعي في المملكة المغربية، وهذا العالم ساكت لا يجاريهم.

فقال له أحد المبالغين في حماسهم: لماذا لا تتكلم؟!

فقال ذلك العالم المغربي: التشيع شأن مشرقي أكثر منه مغربي!

فاستغرب منه ذاك المتحمس، وسأله: كيف تقول ذلك، وهناك أكثر من ثلاثة آلاف تشيعوا في المغرب؟!

فقال له ذلك العالم: عندنا سبعون ألف متنصر، ومليون ملحد، فماذا يعني ثلاثة آلاف فيهم؟!

فسكتوا، ولم يحيروا جواباً!

وهذا ذكرني بلقاء كان منذ سنوات بالشيخ راشد الغنوشي (رئيس حزب النهضة التونسي)، وكان يدور معه جدل حول بعض الآراء والمواقف، فما زلت أذكر رده عندما قال: يا جماعة، أنتم في السعودية تتعاركون بين إسلام وإسلام، فاضل ومفضول، سنة وبدعة، ضمن الإسلام، أما نحن في تونس فمعاركنا بين الإسلام والكفر!

* * * * *

(الإلحَادُ يَحتَقِرُ العَقلَ البَشَرِيَّ)

لا أعرف رأياً يزري بالرأي وهو نفسه رأي، ويحتقر العقل البشري كله وهو نفسه من نتاج عقل بشري: من (الإلحاد)!! فغالب البشر قديماً وحديثاً، علماؤهم قبل جهلائهم، ومن كل الأعراق والديانات، يؤمنون بوجود خالق للكون. ولن تجد عقيدة اتفق البشر عليها مثل هذه العقيدة: عقيدة الإيمان بالخالق.

واعتقاد خطأ البشرية مع مثل هذا الاتفاق، هو أعظم احتقار للبشرية، وأشد انتقاص لقواها العقلية.

وهذا وحده كان يكفي الملحد في أن يعرف جنوحه عن الصواب..

فإنه إذا كان العقل البشري بهذا العجز، الذي جعله يتفق على اليقين بمثل هذا الاعتقاد الباطل، فما الذي يجعل هذا الملحد واثقاً من دعواه ومن نتاج عقله هو؟!

فإن كان العقل البشري بهذا القصور، فستكون الفكرة التي آمن بها الغالبية الساحقة بل الجميع (إلا شذاذاً من الملحدين) ستكون أولى بالصواب (في أقل تقدير) من فكرة ينفرد بها أشخاص معدودن.

* * * * *

(مِنْ أسبَابِ ظُهُورِ الإلحَادِ)

لاحظت أن ظهور الإلحاد بين بعض الشباب المسلم (والذي لا أستطيع تقدير حجمه) لا ينشأ إلا في حالة عزلة فكرية، وصدوف (وإعراض) عن محاورة أهل العلم في الشكوك التي قادت صاحبها إلى الإلحاد.

وهذا الانعزال وذلك الصدوف لا يمكنان الباحث عن الحق من الوصول إليه، خاصة في مثل هذا القرار الخطير، الذي يحدد المصير في الحياة وبعد المات.

فيجب أن نتفق بأن قرار الإلحاد لن يكون اختياراً حراً في ظل نقصان الخيارات المتاحة، والتي يجهلها ذلك الشاب بسبب عزلته وإعراضه عن محاورة العلماء.

أعلم أن من أسباب إعراض الشباب عن محاورة أهل العلم قد يكون بسبب أولئك المسمين بأهل العلم: إما بسبب تنفيرهم وغلظتهم، أو بسبب عجزهم عن الجواب المقنع، وغالباً ما يجتمع السببان فيهم.

لكن هذا لا يبيح للشاب اتباع منهج خاطئ في اتخاذ قرار بهذه الخطورة البالغة، دون استكمال بحثه عن الحق، ولن يعدم وسيلة لذلك: عالـماً أو كتاباً أو موقعاً يعينه على اتخاذ القرار الصحيح!

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

(كَيفَ نُوَاجِهُ الإلحَاد)؟

عندما نظن أننا نواجه الإلحاد بمزيد من الانغلاق، فنحن نواجهه بمزيد من الضعف والهزيمة؛ لأن الانغلاق لو أمكن (وهو غير ممكن) ليس سوى تحصن المنهزم الضعيف، ولم يكن الانغلاق يوماً هو مواجهة القوي القادر على الانتصار.

وعندما نظن أننا نواجه الإلحاد بمزيد من الانغلاق، ونترك تثبيت المحكمات ودلائل النبوة العقلية ودحض الشبه بالأدلة المقنعة، ونكتفي بلعن الحرية التي جلبت علينا الهرطقة، نكون قد وافقنا الكنيسة في عصر قوتها، عندما لم تواجه الخروج عنها بغير مزيد من الانغلاق ومحاكم التفتيش، فانهزمت وانتهت.

وعندها سوف يلعن التاريخ ويلعن اللاعنون من لعنوا الحرية؛ لأن أرض الحرية ما كانت لتنبت الباطل فيها، إلا إذا لم يبذر أهل الحق بذور الحق؛ فهل كان أصحاب رسول الله صلَّى اللهُ عَلَيه وسَلَّم إلا سادة الأحرار؟! وهل حارب دين العبودية للخلق كما حاربها الإسلام؟!

فالإلحاد لا يواجه بالانغلاق، ولا بلعن الحرية، كما لا يواجه بفتح الباب له وبتشجيعه، الإلحاد لا يواجه إلا بدحضه بالأدلة اليقينية المقنعة.

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

(تَفتَحُونَ أبوَابَ الإلَحَاد)!

سيأتينا متعجل بغير روية، ويقول: تفتحون أبواب الإلحاد، باسم الانفتاح! لأننا سنقول له: يا أخانا، الباب مكسور، فلم نفتحه نحن، ولن تغلقه أنت.

فابحث لك عن وسيلة أخرى غير سد ثقوب الباب المكسور الساقط بالأرض؛ لأن الانشغال بسدها مع انكسار الباب عمل المغفلين!

بل الباب مكسور، والجدار مهدوم، والسقف ساقط، فالأمة تتوسد الأرض وتلتحف السماء، في فضاء مكشوف وعالم مفتوح، وهي نعمة كبرى لو كنا قد استعددنا لها، وأخونا ما زال منشغلاً بسد ثقوب الباب المطروح على الأرض!!

هي حيلة نفسية، لكي لا يعترف بعجزه العلمي والعقلي عن مواجهة الإلحاد، فهو يصرخ: سدوا الثقوب، ولا يقول:

اهزموا الإلحاد بالأدلة والقناعات اليقينية الراسخة؛ لأنه هو نفسه يجهلها.

وأعود وأقول: لا يعني ذلك أن لا نحذر جهلة الناس ومن قصرنا في تعليمهم من قراءة كتب الشبه والإلحاد، فضلاً عن أننا يجب أن لا نحثهم على قراءتها؛ إلا من حصناه منهم بالأدلة والمحكمات الراسخة، ليتبين هو نفسه بطلانها، ويزيف شبهها، وتزيده قراءتها يقينا بحقه وعلماً بدينه.

لكن المقصود هو أن نعلم أن التحذير وحده والتحريم لن يمنع الانفتاح، لن يمنعه أبداً، وأنه لا يجوز التقصير فيما نملك، وهو تثبيت المحكمات ودلائل الحق اليقينية، ولا نجتهد إلا فيما لا نملك، وهو الانغلاق.

* * * * *

(كَيفَ نُوَاجِهُ هَذَا الخَطَرَ)؟

إن نشر الفكر الإلحادي عبر منافذ العلم والفن والفكر ليكاد يستولي على عقول المسلمين:

ـ فمن قناة علمية وثائقية في غاية الإتقان والدقة العلمية، لكنها بُنيت على فلسفة لا دينية، تبدأ من هز الثقة بالدين، إلى التشكيك في ثوابته، إلى الطعن الصريح.

ـ إلى أفلام انتقلت من نقل القيم الغربية، بما فيها التنصير، إلى التشكيك في الأديان كلها.

ـ إلى كتب فكرية وقصص وروايات وبرامج حوارية تلفزيونية تثير أسئلة تشكك في الدين وتخادع شباباً كان لا يعرف عن الدين إلا تقليداً، ومعلومات مفرقة لا تبني فكراً.

هذا الخطر العظيم هو ما ينبغي مواجهته ببناء عقول قادرة على التفكير السليم، محصنة بالدلائل العقلية على صحة النبوة، معززة بروح إيمانية لا تبعدها عن توفيق الله تعالى.

نحتاج أن نكون قادرين على أن ننتج برامج علمية، في غاية الدقة والإتقان، تعيد العلم لمساره الصحيح، وهو أنه أحد أوسع أبواب الإيمان.

نحتاج إلى فنون منافسة تستطيع أن تدخل بيوت الناس كما دخلت الفنون الموجهة للإفساد، أكثر بكثير من فتاوى التحريم التي يعلقها الناس بجوار الفضائية التي تشكل تصوراتهم وتغير قيمهم وتبلغ حد تبديل عقائدهم.

نحتاج إلى حوارات فكرية تكشف زيف الفكر الإلحادي المتناقض، وتفضح قفزاته غير العلمية على الحقائق.

هذه هي مشاريع الدولة الإسلامية، التي نتمناها!

* * * * *

(الجَوَابُ عَنِ الأسئِلَةِ المَصِيرِيَّة)

حاجة الإنسان للجواب عن أسئلته المصيرية (من الذي خلق الكون؟ ولِمَ خُلق هذا الكون؟ وما المصير بعد الموت)، هي الدليل على أن الإنسان مفطور على الإيمان، مفطور على الإيمان بالغيب خاصة؛ لأن إلحاح هذه الأسئلة عليه، تدل على أنه مخلوق للبحث عن أجوبتها.

وعندما لا يجد الإنسان جواباً حسياً لتلك الأسئلة، ولا يعطيه عالم المادة المشاهد جواباً مقنعاً لها، يفر الإنسان مرغماً لعالم الغيب! لأن الجواب الضروري لا يمكن أن يبقى حائراً، وإذا كانت المحسات والماديات لا تعطي الجواب، لم يبق إلا ما وراء الحس وما وراء المادة.

ولذلك كان عامة البشر (على مر التاريخ البشري وامتداده السحيق، قديماً وحديثاً) كلهم يؤمنون بعالم الغيب، حتى الوثنيون والبوذيون والهندوس والمجوس، فضلاً عن أتباع الملل التي تؤمن بالنبوات.

لأنهم وجدوا أن العالم المشاهد وعلومهم المادية كلها ومهما تطورت عاجزة عن الجواب عجزاً نهائياً على الأسئلة الكبرى والمصيرية!

ولم تتفق البشرية على إحالة أمر إلى الغيب، كما اتفقت في جوابها عن أسئلتها المصيرية؛ لأنها علمت علم اليقين أن علومها وقدرتها على الإدراك وعوالمها المادية جميعها عاجزة كل العجز عن بيان ذلك الجواب. هذا وحده هو الذي يفسر اتفاق عامة البشر على إحالة جواب الأسئلة المصيرية على عالم الغيب، وعالم الغيب وحده!

وهذا يبين أن عالم الغيب ضرورة إنسانية، لا يمكن للإنسان الانفكاك عنها.

واعتبار الإيمان بعالم الغيب جهلاً (كما يدعي الملاحدة) هو أشنع احتقار للجنس البشري؛ لأن الأمر الضروري للبشرية والفطري للإنسان إن عددناه جهلاً؛ فقد اتهمنا جنسنا البشري بأنه كائن أحمق مركب على الجهل وليس مؤهلاً لمعرفة حقيقة!

وحينها إما أن يسقط الإلحاد قبل سقوط الإيمان مع سقوط البشرية كلها في حضيض الجهل ومركب الحقارة الساقطة في أوحال الغباء وعدم استحقاق التكريم، وإما أن يسقط الإلحاد وحده دون سقوط البشرية؛ ليبقى الإيمان بالغيب منجاة للإنسان من السقوط في وحل الحقارة!!

وإذا كان عالم الغيب ضرورة إنسانية، فالإيمان ضرورة إنسانية؛ لأن الإيمان إن هو إلا الإيمان بالغيب ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ البقرة: ٣.

وإذا كان الإيمان بالغيب ضرورة إنسانية، فالإلحاد والمادية جريمة شنيعة؛ لأن الإلحاد يريد أن يمنع الإنسان من أمر ضروري، كمن يمنعه الماء والهواء، كمن يمنعه حق الحياة!!

فحق الإلحاد أن يكون الخيانة الكبرى للبشرية، وأن تكون عقوبته عالمياً أشد العقوبات!

وإن عالماً يقبل بالإلحاد باسم الحرية، رغم ندرة أدعيائه وقلتهم في العالم كله، ورغم كونه مبدأ يحول بين البشر وإحدى ضروريات وجودهم؛ لهو عالم مجرم، يستحق عقوبة الله تعالى؛ لولا رحمة الله تعالى! ولولا بقايا المؤمنين.

* * * * *

(مَعرِفَةُ المُمكِنِ مِنْ غَيرِ المُمكِنِ)

فرق بين من يتكلم ليعمل، ومن يتكلم بلا عمل، وبلا تفكير في العمل.

والفرق لا يكمن فقط في معرفة الممكن حصوله في أرض الواقع وغير الممكن؛ إذ الأمر غير المستطاع لا يتعلق به التكليف (كما يقول الأصوليون)، أي خارج عن نطاق المطلوب شرعاً، ولذلك لا يصح السعي إليه، ولا تصح المطالبة به.

ولئن كان هذا هو الفرق الأول بين من يتكلم ليعمل ومن يتكلم بلا عمل..

فالفرق الثاني: هو أن محاولة معرفة الممكن من غير الممكن يعين على معرفة الحكم الشرعي الأصلي أيضاً، ويساعد على التحرير الفقهي العميق والتقرير العلمي الدقيق؛ لأن الأصل في الشريعة صلاحيتها للعمل في كل زمان ومكان، ولذلك كان تكاثر ما لا يمكن تطبيقه من الشريعة، قد يكون بسبب سوء فهمنا للشريعة وأخطائنا الفقهية التي نسبت للشرع ما ليس منه.

هذا بعض ما استحضرته من بعض النقد الذي يوجه لحزب النهضة التونسي، من أناس فشلوا في تحقيق مشروع إصلاحي صغير؛ إلا من مشاريع خيالية، لا تصمد للخيال فضلاً عن أن تصمد للواقع.

* * * * *

(عِبَارَاتٌ يُرَدِّدُهَا بَعضُهُمْ بِدُونِ عِلْمٍ)

الحق واضح!!

وماذا بعد الحق إلا الضلال؟!

رد العلماء عليه وبينوا بطلانه!!

ارجع للحق فالرجوع للحق فضيلة!!

وإن كان هناك خلاف، لكن ماذا هو الحق الذي يدل عليه الكتاب والسنة!!

هذه الجمل (وقائمة طويلة معها) يكررها كثيرون بغرور وسطحية، لقنها لهم شيوخهم في الغرور والسطحية، فهم على آثارهم يهرعون.

يذكرونها في غير موطنها، فتخدر عقولهم عن التفكير، وضمائرهم عن محاسبة النفس.

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

(حِجَابُ المُعَاصَرَة)

ما هي الخلطة السرية لـ(حجاب المعاصرة) الذي يمنع من إنصاف المعاصرين؟

هما خلطتان، الأولى بمكون واحد، والثانية بثلاثة مكونات.

فالأولى: تتكون من الحسد وحده.

وأما الثانية: فمن ١ـ الجهل بعلم المعاصر ٢ـ مع الكبر عن التعرف على علمه بحجة الاستغناء بعلم السابقين عن علمه ٣ـ مع عدم الإنصاف الذي لا يجيز الحكم على علم شخص مع الجهل به.

وقد يخالط هذه الثلاثة رابع، هو الحسد أيضاً.

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

(مَعرِفَتُهُم بِلَحْنِ القَوْلِ)

عندما تجد شخصاً يريد منك أن تحكم على قلوب الناس والدخول في نياتهم، من خلال الظنون التي تحتمل العديد من الاحتمالات، فاعلم أنه حاقد يغلي من الحقد، يريد التشفي من عدو له، فهو يريد أن يجيش الناسَ ضده، ولا يجد عليه سبيلاً؛ إلا بادعاء الاطلاع على دخائله، والعلم بحديث نفسه.

إن معرفة أهل النفاق بلحن القول، لم يجز لنا محاكمتهم بالكفر، ولا وصفهم على التعيين بالنفاق؛ إلا بقيام الدليل القضائي على ذلك. فحجة (لحن القول) المطلقة هذه هي حجة من نعرفهم بـ(لحن القول) للدخول في علم الغيب واتباع ظن الإثم.

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

(عَدَمُ الإفصَاحِ عَنْ بَعضِ السِّيَاسَاتِ المُؤَجَّلَة)

لو أن النبي صلَّى اللهُ عَلَيه وسَلَّم أخبر قريشاً في مكة أنه سوف ينظم الجيوش ويغزوهم بعد حين، وأنه سوف يؤذن له بجهادهم، ما كان لتأخير تشريع الجهاد (الذي لم ينزل إلا في المدينة) سيؤتي الثمرة المرجوة منه.

إن هذه الحكمة الربانية لأصل أصيل في وجوب عدم الإفصاح عن بعض السياسات المؤجلة، لعدم إمكان تطبيقها، وأنه قد يجب التصريح بخلاف ما نعجز عنه باعتبار عجزنا، لا باعتبار ما سيكون عند التمكين.

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

(لَـمْ نُلْغِ الحُكمَ الشَّرعِيَّ)

عندما نقرر أن المنكر قد يجب عدم إنكاره، إذا كان الإنكار سيؤدي إلى منكر أكبر؛ فنحن لم نلغ الحكم الشرعي بوجوب الإنكار، ولكننا طبقنا الحكم الشرعي المنطلق من القاعدة الشرعية: دفع أعظم المفسدتين بأخفهما.

وكذلك عندما نقرر أن بعض أحكام الشرع يجب التدرج في تطبيقها؛ لكون التطبيق سيؤدي إلى مفاسد تفوق مفسدة تأجيل التطبيق، فنحن إنما أجَّلنا التطبيق لحين التمكن منه، وذلك الحين هو الذي لا يسبب فيه التطبيق مفسدةً أعظم من مفسدة التأجيل.

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

(قَدْ نَسْتَاءُ ونَحنُ سَبَبُ الاستِيَاء)

قد نستاء، وقد نستاء جداً، ومع ذلك نكون نحن المخطئين!! وهذا مما يصعب الاعتراف: بأننا نحن من أساء لنفسه ونحن سبب استياء أنفسنا!!

وعندما يصبح استياؤنا وغضبنا هو دليلنا على تخطيء من سبب لنا الاستياء، فقد رضينا حينئذ باتباع هوانا، وسوف نستاء من الطبيب الذي يصارحنا بمرضنا، وسوف نقرب الطبيب الكاذب الذي يغشنا ليرضينا.

يجب أن نحذر من مشاعرنا إذا لم نكن قد تدربنا على الموضوعية ومحاسبة الذات ومواجهة الحقائق الصعبة، يجب أن نحذر تلك المشاعر ونتهمها حتى تثبت براءتها، ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ يوسف: ٥٣.

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

(مَن الذي يُحَدِّد الغُلُوَّ والتَّوَسُّعَ في مُراعَاةِ المَقَاصِد)

لا شك أن الغلو في دعوى مراعاة مقاصد الشريعة على حساب الالتزام بدلالة النصوص الشرعية خطأ كبير، وتكرر هذا الخطأ من بعض المعاصرين.

وبما أن مراعاة المقاصد في فهم النصوص لا يخالف في أهميته نظرياً أحد، إنما يتوجه الإنكار على من غلا في ذلك؛ يبقى السؤال المتوجه: من هو الذي يستطيع ادِّعاء وقوع هذا الغلو من أحد المعاصرين؟ من هو الذي يمكن أن نقبل منه مثل هذا الادعاء؟

ـ هل هو السطحي الظاهري، الذي لا يراعي علل الأحكام، فضلاً عن أن يحاول إدراك حكمها؟

ـ هل هو من لا يحسن فهم حتى ظاهر النص، فيفهم التحريم من ظاهر لا يدل على التحريم أصلاً؟ (ولن أذكر التحليل؛ لأن خطأهم في التحليل نادر في مقابل أخطائهم في التحريم)!!

لا شك أنه ليس هو الأول ولا الثاني؛ لأن هذين في غلو السطحية وسوء الفهم، كغلو راعي المقاصد في دعواه التعمق والتدقيق، على حساب التسليم للنص والاعتراف بالعجز عن إدراك كل أسرار التشريع.

فكلاهما ليس أهلاً أنْ يكون حكماً في تحديد الوسطية المحمودة والاعتدال المطلوب في الموقف من ظاهر النص ومقصده.

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

(لَنْ يَصْلُحَ المُسلِمُونَ بِغَيرِ الإسلام)!

أذكر أن أحد المتدينين الصادقين، مع ضعف في العلم، كان يتحدث عن مآسي المسلمين، في مجلس كل من فيه من الأخيار، وفي أثناء حديثه أصبح يحلف بالله أغلظ الأيمان، ويكرر الأقسام، ثم جاء جواب قسمه، ليقول فيه: (إنه لن يصلح المسلمون بغير الإسلام)!!

فقال له أحد كبار السن في المجلس، بكل هدوء ورزانة: (وما الداعي للقسم؟! وهل هناك أحدٌ يشك في ذلك)؟!.

هذا الموقف قد يحصل من رجل بسيط ساذج بغير قصد، لكن إذا جاءنا ممن ليس بهذه البساطة، ليقرر مواطن الاتفاق بهذه الطريقة، وكأنها محل خلاف؛ فهو حينئذ يزايد على الثوابت، ويتعالى على غيره ممن هو مثله أو أولى منه إيماناً بتلك الثوابت، ويسيء الظن بالآخرين، أو يريد أن يتهمهم بباطل هم أحرى بالبراءة منه!!

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

(الفِتنَةُ الطَّائِفِيَّةُ خَلاقةُ الفَوْضَى)

الفتنة الطائفية ليست فوضى خَلاقة، لكنها خَلاقةُ الفوضى. فمن كان يطمع من إثارتها إذابة جليد الجمود على الحقوق المزعومة لطائفته، وأن يحرك ساكن بحيرة المظالم التي يدعيها لفرقته، لكي يصطاد منها الحقوق ويسترد المظالم ويصفي حساباته؛ ستفاجئه تلك البحيرة بأنها تحولت إلى فيضان كبير، يصطاده هو وأطماعه، وتبتلعه هو وخصومه معاً.

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

(السَّيْرُ مَعَ التَّـيَّارِ وعَكسِ التَّـيَّارِ)

يذم بعض الناس ذماً مطلقاً السير مع التيار، بحجة أنه ضعف وتنازل عن المبادئ. وتجدهم أنفسهم يتهمون من يسير عكس التيار اتهامات مطلقة بأنه إما يريد الشهرة، أو أنه متهور.

فالمشي مع التيار في إطلاقاتهم مذموم مطلقاً، والمشي عكسه مذموم مطلقاً أيضاً!!

فإذا وافقتهم فقد: مشيت عكس تيار الخضوع والهزيمة، وفي الوقت نفسه فأنت قد مشيت مع تيارهم فلا تتهم بحب الشهرة والتهور.

وأما إذا خالفتهم فأنت قد انهزمت، فماشيت تيار الكفر والنفاق والتغريب، وفي الوقت نفسه فقد مشيت عكس تيار المؤمنين والمصلحين.

إذن فالتيار الممدوح عند هؤلاء هو رأيهم، والمذموم هو المشي عكس رأيهم.

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

(مَتَى يَزدَادُ تَطَرُّفُ الغَربِ ضد الإسلام)؟

كلما ظهر الوجه المشرق للإسلام وحضارته، وكلما استطاع المعتدلون من المسلمين إظهار حقيقة الإسلام الحضارية الراقية؛ ازداد تطرف الغرب ضد الإسلام؛ لأن الإسلام حينها سيكون أخطر على حضارتهم، حسب ظنهم. مع أنه حينها لن يكون خطراً على الشيء الحسن في حضارتهم، وإنما سيكون خطراً على الشيء السيّءِ منها فقط.

لكنهم في ظل الغرور الذي يغشى قلوبهم وعقولهم لا يرون لديهم شيئاً يستحق أن يصححوه من غيرهم، بل ربما رأوا الشيءَ السيءَ عندهم حسناً، كحضارة العُري والتفسخ وانعدام الغَيرة على الأعراض!!

* * * * *

(يَحتَجُّ لِعَدَمِ إنصَافِه)

من وجدته يحتج لعدم إنصافه بأن خصمه قد سبقه لعدم الإنصاف، فاعلم أنه لا يعرف الإنصاف، ولذلك فلا تصدقه في دعواه بأن خصمه قد سبقه إلى الظلم؛ لأن من لم يعرف الإنصاف سيكون عاجزاً عن نفيه وإثباته!

ذلك أن ظلم الخصم لا يجيز لأحد ترك الإنصاف، فالإنصاف هو العدل وعدم الظلم، والعدل واجب حتى مع أظلم الظلمة: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَن لَا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ المائدة: ٨، وهي نازلة في أعدائنا من الكفار.

* * * * *

(تَخلِيصُ العَدلِ مِنَ الجَوْرِ في هَذِهِ الحَالات)

إذا دافعتَ عن مجرم يتهمه الناس بجريمته التي اقترفها وبجريمة لم يقترفها، وإذا نصرته من أن يعاقَب بما يزيد على جرمه، وإذا كذبتَ المجني عليه إذا زاد في التظلم على مظلمته، وإذا منعته من أن يعاقب الجاني بما يزيد على جنايته؛ لا تنتظر من أكثر الناس أن ينصفوك، فهذا خلاف العادة.

فتخليص العدل من الجور في نحو هذه الحالات شديد بعيد، ولا تستغرب أن لا ينجو من الجور فيها حتى كثير من ذوي الفضل.

* * * * *

(إقصَاءُ المُتكَلِّمِ بِاسمِ الدِّين)

إقصاء من يتكلم باسم الدين أشد على قلب المسلم وأعنف من إقصاء اللادينيين؛ لأن المتكلم باسم الدين يتهمك في أعز ما لديك، وهو دينك وإيمانك، بخلاف إقصاء اللاديني الذي يتهمك في علمك أو فكرك.

وبعض الذين نصبوا أنفسهم موقعين عن رب العالمين لا يكتفون بالحكم عليك بالإعدام في الدنيا، كأقصى ما يمكن أن يفعله اللاديني، بل حكمهم عليك بالإعدام حكم مؤبد: في الحياة والبرزخ وفي اليوم الآخر، فيتبعونك في هذه لعنة ويوم القيامة!!

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

(الوُضُوحُ لَيسَ مُرَادِفاً لِلصِّحَّة)

الوضوح ليس دائماً علامة على صحة القول أوسلامة المنهج، والسهولة ليست دائماً تدل على الصواب؛ وإلا لأصبح الفقه أسهل مطلوب، ولاستحق رتبة العلماء كل أحد.

ولا ضل الخوارج إلا بسبب ظنهم أن وضوح فهمهم دليل على صحة قولهم، وظنوا عمق فقه الصحابة تأويلاً وتكلفاً.

ولا اغتر بعض الشرعيين المعاصرين إلا لما ظنوا السهولة هي دليل صحة منهجهم، وعابوا غيرهم بالتفصيل والتدقيق!

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

(التَّوْقِيعُ عَن رَبِّ العَالِمين)

التوقيع عن رب العالمين ليس رتبة يمنحها الخلق لأحد، ولن يكون كذلك أبداً بعد اختتام النبوة، فلم يوكل رب العالمين أحداً بمنح هذه الرتبة لأحد، ولو اجتمع على منحها الخلق كلهم.

وإنما يذكر المخلصون توصيف (التوقيع عن رب العالمين) تخويفاً لمن ظن علمه يخوله بلوغ تلك الرتبة، ولكي لا يغلو أحد في اجتهاده الظني فيجعله في رتبة يقين ما يوقعه عن رب العالمين، فلا توقيع عن رب العالمين إلا فيما وقعه رب العالمين يقيناً.

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

(القِلَّةُ لَيسَتْ دَليلاً عَلَى البُطلان، والكَثْرَةُ لَيسَتْ دَليلاً عَلَى الصَّوَاب)

الأصل أن يكون تكاثر الناس على رأي قرينةً (وليس دليلاً) على الصواب، بدليل أن إجماعهم كان دليلاً على الصواب. إلا فيما كان الأصل فيه الخفاء، فعندها يصح أن تكون القلة هي القرينة على الصواب. فالاحتجاج بالقلة على الصواب مطلقاً خطأ، بل هو خلاف الأصل.

ومن الخطأ فهم مثل قوله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ سبأ: ١٣ أنه قاعدة في تصويب القلة، وإنما هي وأمثالها دليل على أن القلة ليست دليلاً على البطلان.

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

(النَّبِيُّ عَلَيهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ هُوَ مِعْيَارُ الحَقِّ والاعتِدَال)

لما كان رسول الله صلَّى اللهُ عَلَيه وسَلَّم هو معيار الحق للثقلين، كان هو صلَّى اللهُ عَلَيه وسَلَّم معيار التوسط والاعتدال. ولما كان ما يُنسب إليه صلَّى اللهُ عَلَيه وسَلَّم منه الظني ومنه اليقيني، فاليقيني منه وحده هو ما يصح اعتماده معياراً للاعتدال.

وأما الظني فإدخاله في المعيار هو ما يسبب التفرق الواقع، وهو ما أدى إلى خفاء المعيار وعدم وضوحه، وهو ما يسهل كثرة دعاوى الاعتدال المتناقضة!

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

(لَوْ تَخَلَّصَ المُعتَدِلُون مِنْ أنْ يَتَحَدَّثَ الغَالُون)

في كل جماعة إسلامية وطائفة غلاة، فلو تخلص معتدلوهم من أن يتحدث غلاتهم باسم الجماعة أو الطائفة، أو لو تبرأ المعتدلون تبرؤاً صريحاً من غلو غلاتهم، لوجدت الطوائف الإسلامية المتعددة أن قربها إلى بعضها أكبر من قرب بعض غلاة المنتسبين إليها.

ولكن مما يؤسف أن يختطف الغلاة اسم الجماعة والحديث باسم الطائفة، ومن المؤسف أكثر أن يداهن المعتدلون الغلاة لمجرد انتسابهم إليهم على حساب الحق ووحدة المسلمين.

* * * * *

(وَسَيَعُودُ غَرِيباً)

حديث (بَدَأَ الْإِسْلَامُ غَرِيباً، وَسَيَعُودُ غَرِيباً، فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ)، جاء حثاً لأهل الإسلام قاطبة على أن يصبروا عند تكاثر الكفار عليهم.

وهم حال هذه الغربة سيكونون محتاجين للوحدة وعدم التشرذم أشد حاجة؛ ومع ذلك فيأبى بعض الناس إلا أن يجعل هذا الحديث محصوراً في فرقته وطائفته، دون بقية أهل الإسلام.

مع أن الحديث صريح في أنه يتحدث عن غربة ستقع لكل أهل الإسلام، لا لطائفة خاصة منهم، ولو كانت أقرب الطوائف للحق.

* * * * *

(إذَا نَصَرتَهُ بِالحَقِّ يُرِيدُ مِنكَ أنْ تَنصُرَهُ بِالبَاطِلِ)

بعض الناس إذا نصرته بالحق على عدوكما، يريد منك أن تنصره عليه بالباطل أيضاً!

فإذا منعته من ظلمه له بعد ذلك، اتهمك بأنك تحابي العدو وتقسو عليه. وهذا منهج إسرائيلي أصيل، فقد نصر موسى عليه السلام رجلاً من قومه على عدوه، فلما منعه من ظلم آخر، وصف هذا الرجل موسى عليه السلام بقوله: ﴿إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّاراً فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ﴾ القصص: ١٩.

* * * * *

(الكَبَائِرُ مَفسَدَتُهَا ظَاهِرَةٌ)

لا توجد كبيرة لا تظهر مفسدتها، إما بنص الشرع في العبادات، وإما بوضوح مفسدتها في الدنيا، وذلك في غير العبادات.

في العبادات: كترك ثلاث جُمع (لورود النص فيها).

وفي أمور الدنيا: كظهور مفسدة القتل والسرقة والخمر والزنا والسحر والقذف وعقوق الوالدين وشهادة الزور.. وكل الكبائر.

فإن وجدت نصاً في السنة ينهى عن أمر بما ينطبق عليه تعريفك للكبيرة، وليس هو في العبادات، وإنما من شرائع الدين المصلحة للدنيا، ولا تظهر في هذا الأمر المنهي عنه مفسدة ظاهرة لأمور الحياة التي جاءت الشريعة لإصلاحها، فيجب عليك أن تتوقف في فهمك لهذا النص (بعد التثبت من صحته)؛ لأنه خرج عن فقه الباب، ولم يطرد معه.

ولك ثلاثة أنظار:

الأول: إما أن تعيد النظر في فهمك للكبيرة، وفي تعريفك لها. لكي يطرد عندك الباب، ولا يتناقض. فقد يكون تعريفك لها غير صحيح، خاصة إذا كان تعريفك لها يضع ضابطاً يخرج عن التزام الموصوف نصاً بكونه كبيرة.

والثاني: وإما أن تفهم النص بما لا يعارض تعريف الكبيرة، فتتأوله بما يوافقها. كما فعل ابن الجوزي والطاهر ابن عاشور في فهمها لحديث (لعن الله النامصة والمتنمصة..)، إذ تأولاه بأنه خاص بالعرف الذي كان فيه النمص (وبقية المذكورات في الحديث) من سمات البغايا والمومسات.

وكما حمل الجمهور حديث التوعد على إسبال الثوب بالنار على إسباله مخيلة؛ لأن مجرد إسباله بغير مخيلة لا مفسدة ظاهرة فيه تقتضي كونه كبيرة من الكبائر.

والثالث: وإما التوقف عن الاحتجاج بهذا الحديث؛ إذا أشكل عليك ولم تستطع فهمه بما لا يتناقض مع تقريراتك وتأصيلاتك العلمية.

* * * * *

(لَنْ يَجِدَ التَّزَمُّتُ في الشَّرِيعَةِ مَا يُؤَيِّدُه)

لن يجد التزمُّتُ في مصادر التشريع ولا في قواعد الاستنباط ولا في عقله الشرعي ما يؤيِّده، فكيف سيجد المتزمِّتون المتشدِّدون حجةً لهم على هذا الغلو الخارج عن حقيقة الإسلام من الإسلام؟!

عندها سيقومون باستحداث قواعد أصولية بلا دليل، ولا قال بها أحد من أهل العلم، وبابتداع مصدر تشريعي لا يعرفه أحد من السلف.

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

بُغضُ أهلِ الصَّلاحِ وعَلامَةُ الانتِكَاسَة

بغض أهل الصلاح علامة الانتكاسة، لا شك في ذلك.

لكنه لا يكون كذلك إلا بشرطين:

الأول: أن يبغض فيهم ما يَعرف هو أنه من الصلاح:

ـ أما إذا أبغض فيهم شيئاً آخرَ غير الصلاح؛ فلا علاقة لهذا البغض بالانتكاسة عن الدين.

ـ وإذا أبغض فيهم ما لا يعلم كونه من الصلاح، كمن لا يعلم باستحباب إعفاء اللحية وتشمير الثوب، ويبغض ذلك في أهل الصلاح؛ فلا علاقة أيضاً لبغضه هذا بالانتكاسة عن الدين؛ لأنه لم يبغض الدينَ في اعتقاده، وإنما أبغض ما يعتقده أجنبياً عنه.

والشرط الثاني: أن يبغض أهل الصلاح حقاً، لا من انتسبوا للصلاح بمجرد تقصير الثوب وإعفاء اللحية، مع غرور وإعجاب، وغدر وخيانة! فهؤلاء ليسوا من أهل الصلاح؛ حتى ولو حرصوا على بعض ظواهر الأعمال، مع خراب قلوبهم، وهو الخراب الذي يظهر في أخلاقهم وتعاملهم وانتهاكهم ما يظنونه يخفى على الناس من حرمات العباد ورب العباد.

بل بغض ما عند هؤلاء من فساد: هو الدين، وإن التزموا ببعض ظواهر الأعمال!

والذي يعين الشخص في محاكمة نفسه: هل كان بغضه لبعض المنسوبين للصلاح بداية بغض لأعمال البر وبداية نفور من الصلاح؟ أم لا علاقة له بذلك؟

هو التدقيق في تَحَقُّقِ الشرطين السابقين فيه، فإن لم يتحققا، فليطمئن، ولا يلتفت للتهم الموجهة ضده، فلم تصبه انتكاسة ولا نفورٌ عن الدين! وقد يكون (مع ذلك) محتاجاً إلى تصحيح تصوره عن أحكام الدين، فيما لو كان هذا هو سبب غلطه وبغضه لبعض أهل الصلاح (كما سبق).

والذي يميز من أصابه نفور عن الدين، فظهر عليه ذلك ببغض أهل الصلاح، ممن ليس كذلك، ممن لم يتحقق فيه الشرطان السابقان: أنك تجد من لم يتحققا فيه يحب أناساً من أهل الصلاح حقاً، أو من هم كذلك في ظنه، بل ربما كان يبالغ في حبهم!

فمثل هذا لا يمكن أن يكون بغضه لآخرين من المحسوبين على أهل الصلاح (بحق أو بغير حق) علامةً على بداية إدبار القلب عن الدين؛ لأنه ما زال يحب من الصالحين ما يدل على عدم بغضه للصلاح.

لكن بعض الناس يريد أن يقهر قلوب العباد على حبه وحب من ينتمي إلى حزبه (عبوديةً قلبية، بعد أن استعبدوهم فكرياً)، باعتباره نفسه وحزبه هم أهل الصلاح حصراً، ليكون حبهم هو علامة الإيمان، ويكون بغضهم هو علامة النفاق! ولذلك فهو يطلق القول: بأن بغض أهل الصلاح علامة إدبار القلب، بعد أن أشاعوا بين الناس واسترهبوهم: أنهم هم أهل الصلاح حصراً!

ونتيجة هذه المغالطة أن صاحب هذه الدعوى سوف يكسب منها مكاسب حزبية (لا دينية):

١ـ بمزيد انكفاء أتباع حزبه على أنفسهم، واستمرار اغترارهم باحتكارهم للإيمان. فيضمن بذلك عدم تناقصهم، وبقاء تناصرهم على الحزبية.

٢ـ بمزيد تنفير للناس ممن يخالفونهم، ويبغضون فيهم غرورهم وتعاليهم وجهلهم وسوء أخلاقهم.

ولو كان كلام هؤلاء غيرةً على الدين، لحرصوا على ضبط كلامهم، بما لا يكون عوناً للشيطان على إخوانهم المسلمين، بإيهامهم واتهامهم بالنفور عن الدين، استناداً إلى دليل لا يدل على ذلك، إمعاناً في الانتصار للجماعة والحزب!

فكم من مسلم لم يتحقق فيه الشرطان السابقان عند بغضه لصالحيهم، فرموه بعظائم التهم، وتتبعوا منه السقطات، حتى صدّق أو كاد أنه كافر أو منافق!! وشعر أنه مدفوع للاصطفاف مع الخصوم الحقيقيين للدين، ووجد نفسه قد تخندق مع أعداء الصلاح!!

ما أسوأ هذه السياسة على الدين، وما أبعد تلك الموعظة الجاهلة من الحث على حب الصلاح والصالحين!!

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

(لِـمَاذَا نَنقدُ أخطَاءَنَا)؟

أخطاؤنا مهما صغرت فهي كبيرة؛ لأنها صادرة منا، ولأننا نحن وحدنا الـمسؤولون عنها، ونحن وحدنا القادرون على تجنبها؛ ولأنها قد تكون هي سبب أخطاء غيرنا، أو وجد فيها غيرنا تحججاً لأخطائه.

هذا ما أقوله لإخواننا من الشرعيين (علماء وطلبة علم)؛ وأضيف سبباً آخر لاستحقاق أخطائنا للاهتمام بالنقد والتصحيح، وهو أننا إذا لم ننسبها نحن للشرع، فسوف ينسبها الآخرون إليه، ولذلك فستكون سبباً لانتقاص الشرع، وتبريء الشرع منها من أوجب الواجبات.

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

(بَيْنَ تَقرِيرِ القَاعِدَةِ وتَنزِيلِهَا عَلَى الوَاقِع)

فرق بين تقرير القاعدة وتنزيلها على الواقع، فالتنزيل يحتاج علماً حقيقياً وفقهاً عميقاً، يدرك أن الواقع لا يكفي فيه ملاحظة قاعدة واحدة، بل لا بد فيه من نظرة شاملة، قد تصبح معه تلك القاعدة المقررة واحدةً من عشرات القواعد التي يجب أن تصوغ الفتوى، فلا تنفرد قاعدة واحدة بصياغة الفتوى.

وشأن الجهلة المتسورين على العلم: الالتفات إلى قاعدة واحدة، والفرح بفهمها، والتشدق لا بتقريرها فقط، بل بتنزيلها على الواقع، بكل جهل وسطحية.

* * * * *

(الغَزَلُ الصُّوفِيُّ)

في الغزل الصوفي من الإيغال في الرمزية، ما لا يمكن أن يحكم فيه غير الأديب الكبير، ولا يمكن للفقيه الذي لم يبلغ درجة الإمامة في الأدب أن يحكم فيه، فكيف بعوام المتمشيخين وطلبة العلم.

ومع غلوه في الرمزية، والتي قد يُنتقد بعضها، فإني أجد فيه أيضاً: فكرةَ إيجاد البديل عن غزل الغرائز ووصف العشق البشري، فكأنهم يقولون للشعراء: وفِّروا حبكم، وأخلصوه لله تعالى، فهو أعظم محبوب، وأجمل موجود، وأقرب قريب.

كل جميل هو من جماله جمَّله، وكل لطيف بلطف منه لطَّفه، وكل روحين تلاقيتا وأنفاس هناك تخالطت فهو منها أقرب من الأرواح للأرواح، وألذ أنفاس هي أنفاس المناجاة!

ولذلك كان هذا الغزل من أسرار التصوف، التي تفتن من يقترب منها ممن يجهل رمزيتها، ولو كُتمت احترقت قلوب العاشقين!

وهي نموذج للاستبدال بالتشوُّق إلى الفاني تشوُّقاً إلى الباقي عز وجل!!

* * * * *

(مَا أدقَّ هذا الميزَان)!

لقد حزن المسلمون لهزيمة الروم أمام الفرس؛ لأن الروم مع كفرهم أخف كفراً من المجوس.

ولم يعتب الله تعالى على المؤمنين هذا الحزن، بل صحَّحه لهم، وكافأهم على هذا الميزان العادل في الموقف من مخالفيهم في الدين بأن بشَّرهم بانتصار قريب للروم على الفرس.

وسمى ذلك الانتصار الموعود بـ(نصر الله)، فقال تعالى: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ. بِنَصْرِ اللهِ﴾ الروم: ٤ـ٥. فما أجلَّ هذا العدل، وما أدقَّ هذا الميزان!

* * * * *

(مُطَالَبَةُ المُجتَمَعِ بِالمِثَالِيَّة وهُوَ بَعِيدٌ عَنهَا)

مطالبة المجتمع الذي يعيش وضعاً بعيداً عن المثالية، بجزئيات الحياة المثالية، هي مثال من أمثلة الورع البارد الذي يقع في فخه قليلو الفقه، كالتورع عن دم البعوضة مع استباحة دماء البشر.

مع أن هذا التورع لن يكون مرفوضاً إذا حصل ممن كان تدينه في متانة الوصول إلى هذا الحد من التدقيق.

وكذلك المجتمع المسلم اليوم، مطالبته بمستحبات وتفصيلات المجتمع المثالي، وهو غارق في مخالفات كبرى: ورع بارد.

* * * * *

(حِمَايَةُ سَفِينَةِ الْمُجتَمَع)

قد تغرق سفينة المجتمع والأمة بخرق يخرقه فيها مرتكب المنكر قبل أن يأخذ أحد على يديه وينكر عليه هذا المنكر، نعم ستغرق بذلك.

لكنها قد تغرق أيضاً إذا حُملت فوق حمولتها الممكنة، من خلال التشديد والغلو وتحريم ما أباح الله.

وكما وجب حماية سفينة المجتمع من سبب الغرق الأول، فلا تجوز الغفلة عن سبب الغرق الثاني، فكلاهما منكران يجب الاحتساب فيهما والأخذ على أيدي مرتكبيهما.

* * * * *

(إصمَامُ الآذَانِ عَنْ كَلِمَاتِ التَّخذِيل)

قد يكون إصمام الآذان عن كلمات التخذيل أو التحقير سبباً للنجاح.

وقد يحتاج المصلحون إلى سنين عدداً من إصمام الأذن، لكي تنضج ثمار إصلاحهم، ولكي يظهر لمجتمعهم صواب منهجهم وصحة دعوتهم.

ولست دائماً مضطراً لإصغاء السمع لكل ما يقال لك وعنك، ما دمت على يقين وبرهان؛ فقد استجاب الله دعاء أصحاب الكهف: ﴿رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَداً﴾ الكهف: ١٠، فقال: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الكَهْفِ سِنِينَ عَدَداً﴾ الكهف: ١١، فقد كانوا في حاجة لهذا الضرب الشديد على الآذان.

* * * * *

(يُحسِنُ الاعتِرَاضَ ولا يُحسِنُ الاستِقلال)

بعضهم يحسن الاستشكال والاعتراض أيما إحسان، ولا يحسن الاستقلال بمعرفة الحق، فتجده يصول ويجول في الاعتراض على الأقوال والمذاهب، ولن يعدم استشكالاً وشبهة حتى على أحق الحق.

فإذا جاء لإبداع القول الحق أو اختياره بدليله تبلَّد ووقف عند هذه العقبة، فإما قلَّد دون أن يشعر، وإما ابتدع باطلاً جديداً.

واستشكال هؤلاء يدل على ذكائهم، لكنهم استعجلوا ثمرة الذكاء قبل قيام شجرة العلم فيهم على سوقها، لتثمر لهم اكتشاف الحق باستقلالية.

* * * * *

(يُدَافِعُونَ عَنْ شَيءٍ قَد تَجَاوَزَهُ الزَّمَن)

الحرس القديم مصطلح سياسي وفكري: وهم المدافعون عن النظام البائد أو الفكر الذي تجاوزه الزمن.

وهنا تظهر المشكلة: أن هؤلاء يدافعون عن شيء قد انتهى، فكأنهم لا يستطيعون العيش إلا مدافعين عن شيء يتعصبون له، ولا يستطيعون الحياة باستقلالية.

كالعبد المملوك، يعتقه سيده، فيبقى تحت قدميه خادماً كما كان قبل العتق!! بل عبوديته بعد العتق أشد؛ لأنها عبودية اختيارية.

* * * * *

(كَالصَّقرِ إذا كَانَ حَبِيساً)!

الحرس القديم فيهم أذكياء ومثقفون ومطلعون، لكنهم لا يستطيعون الخروج عن الفكر الذي يحرسونه، ويعجزون عن التفريق بين المقدَّس وغير المقدَّس في ذلك الفكر، والذي قد يكون خليطا من وحي رباني واجتهاد بشري.

فالجيد منهم كالصقر حبيس القفص، ومهما كان القفص كبيراً، فسيكون العصفور الصغير أعظم منه تحليقاً في فضاء العقل والإبداع.

ولا تستغرب حينئذ من سقطات وراء سقطات لذلك الصقر، فلن يستطيع التحليق، ولو كان صقراً.

* * * * *

(صَانِعُو أَسْوِجَةِ التَّفكِير)

صانعو أسوجة التفكير من الحرس القديم يذكرونني بقصة تقول: إن أحد الأمراء كان يحكم إمارة واسعة الأرجاء، تضم مدينة كبيرة وغابة شاسعة.

وكان يتمتع بسعة إمارته، هو ورعاياه الكثيرون.

وكان يعتمد في الحفاظ على أمان إمارته على عدله وحب رعيته له، ولذلك كان لا يخشى الأعداء، ولم يفكر يوماً ببناء حصن؛ لأن قوته وانفتاح إمارته هو الذي كان يهدد الممالك والإمارات التي تعاديه، بسبب تماسك شعبه وقوة إمارته!

فتوفي ذلك الأمير، وورث الإمارة خليفة له. فكان أول خطاياه أنه بنى حصناً على مدينته، خشية من الأعداء (بزعمه)، وخشية من نفور رعاياه عنه (بحسب زعم معارضيه).

فكان بذلك قد أخرج حكم الغابة عن إمارته، وخسر جزءاً مهماً منها.

ثم وجد أن الحصن الأول يضم طرف المدينة الأخير الذي يقطنه الفلاحون والفقراء، وهؤلاء في نظره هم مصدر الخيانة والتخاذل في الدفاع عن إمارته، فصنع حصناً أضيق من الأول، أخرج بها أطرافها البعيدة.

ثم إنه ما زال يخسر بحصونه قطعة من إمارته ومن شعبه، حصناً وراء حصن؛ حتى انحصر في قصره، ثم ابتنى حول مقصورته الخاصة حصناً أيضاً، فصار هو المسجون، وغيره هو الطليق، وخسر بحصونه أكثر بكثير مما خسر بأطماع وحيل أعدائه!

هذا حال صانعي أسوجة التفكير وحصوننا المهددة من الداخل، فلا ينفكون يبنون حصناً أضيق، فيزدادون تشرذماً وتفرقاً، وسجناً لهم ولأفكارهم! فلا دفعوا العدو، ولا حموا أنفسهم!!

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

(تَأسِيسُ القُدرَةِ عَلَى مَعرِفَةِ الحَقِيقَة)

أكثر ما يخافه المؤطَّرون فكرياً، أن ينكسر هذا الإطار، أن ينطلق التفكير حراً طليقاً خارجاً عنه!

ولذلك يقيمون المحاضرات والدروس عن المنهج (يعني الإطار)، يقيمون الملتقيات للتحذير من الخروج عن المنهج، وللحديث عن أسبابه؛ ليخوفوا الأتباع من حرية الفكر، لكي يدعموا سياجهم على التفكير!

لكنهم لا يعلمون أن الزمان ليس زمان الأطر والأسوجة، كما كان سابقاً، ليس الزمان زمان التخويف من اكتشاف الحقيقة، وإنما هو زمان تأسيس القدرة على معرفتها بدليلها، ليتركوا العقل هو من يستدل عليها بنفسه، دون حاجة لغيره يفكر عنه.. بالنيابة!!

ستبقى عقول جامدة (ولا شك)، ستبقى عقول مقلدة تعودت الراحة، لكنها لن تكون بكثرتها السابقة!!

لقد اندهشت بعقول منفتحة، في أكثر المجتمعات انغلاقاً!! ويبدو أن اندهاشي سيزداد، فالعالم مفتوح بمعنى الكلمة!!

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

(كَمَا يُوجَدُ تَغرِيبِيُّون يُوجَدُ ظَلامِيُّون)

كما يوجد تغريبيون يريدون إفساد الأمة، فيوجد ظلاميون يريدون تخلف الأمة.

وإذا كنا نجد أنه من الواجب التحذير من التغريبيين، فالتحذير من الظلاميين واجب آخر.

أما إذا أنكرنا وجود الظلاميين، وهم الموجودون منذ جيل الصحابة متمثلين في المتزمتين من الخوارج ونحوهم، فهذا الذي ينفي وجودهم سيكون واحداً منهم؛ لأنه لا يمكن أن يراهم إلا من كان ينظر إليهم من خارجهم. وإذا أثبتنا وجودهم، فلا تجوز الغفلة عنهم.

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

(مَا الدَّلِيلُ عَلَى ذَمِّ هَذَا الاتِّبَاعِ)؟

حديث (لتتبعن سنن من كان قبلكم) هو إخبار بأمر سيقع، على وجه التحذير منه. وهنا استفهامان:

الأول: ما الدليل على ذم هذا الاتباع؟

الدليل الأول: أن اليهود والنصارى قد حرفوا دينهم وخالفوا أمر ربهم، وفي اتباع هؤلاء ذم وأي ذم؟!

الدليل الثاني: أن الحديث جاء دالاً أن هذا الاتباع سيكون اتباعاً مطلقاً (شبراً بشبر وذراعاً بذراع)، والاتباع المطلق مذموم لغير المعصوم، فكيف باتباع المغضوب عليهم والضالين.

الدليل الثالث: أن الحديث تضمن وصفاً يدل على أن هذا الاتباع بغير تعقل (حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه)، فهو اتباع وتقليد حتى فيما لا يصح فيه عقلاً الاتباع، وهودخول جحر الضب: كناية عن العمل السخيف الذي يرفضه العقل.

الثاني: إذا كان خبراً ونبوءة، كيف يمكن الحذر منها؟

والجواب: أن هذا ككثير من علامات الساعة، لم يذكر النبي صلى الله عليه وسلم زمن وقوعها، فعلى كل جيل من الأمة أن يسعى لعدم تحقق هذه النبوءة فيه، ولن تتحقق في جيل من الأجيال إلا إذا قصر ذلك الجيل في هذا الحذر وفرط في التوقي منه!

وهذا كحديث الافتراق، وغيره من الإخبار بانتشار الجهل والاقتتال، ونحو ذلك.

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

(الْمُزَايَدَةُ عَلَى التَّدَيُّنِ والثَّبَات)

المزايدة على التدين بمكابرة عدم الاعتراف بأخطاء بعض المحتسبين، ولو أدت أخطاؤهم إلى منكر أكبر، والمزايدة على صدق الانتماء بالاصطفاف مع صف خاص من الإسلاميين، وحصر التدين فيهم وحدهم، والمزايدة على الثبات بالإصرار على الخطأ القديم، لمجرد أنه رأي بعض من نعظمهم؛ كلها أدواء ظاهرية لداء خفي واحد، وهو: التعالي والغرور.

وهذه الأنفس حين تتظاهر بتقديس الدين لا تقدس الدين نفسه، وإنما تقدس نفسها التي تدعي لها حمل الدين!

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

(رُبَّ خَطَأٍ يَسِيرٍ أصبَحَ كَبِيراً، ورُبَّ خَطَأٍ كَبِيرٍ أصبَحَ صَغِيراً)

ربما كان الخطأ يسيراً، وبالاستكبار عن الاعتراف به يصبح كبيراً، ويستفحش جداً إذا صار بالعناد صواباً!

وهكذا ربما استكثرنا ردوداً على خطأ، بالنظر إلى أصله اليسير، وربما غفلنا عن أن العناد قد جعله ركاماً من الأخطاء الكثيرة.

وربما كان الخطأ كبيراً، وبفضيلة الاعتراف بالحق صار صغيراً، وربما اعتذر المخطئ وتاب فتنقلب سيئاته حسنات.

وهكذا ربما جاء الرد الواحد على الخطأ الكبير كثيراً عليه؛ لأنه غفل عن أنه قد تحول إلى فضيلة وحسنة بالاعتراف والتوبة.

* * * * *

(الإبدَاعُ لا يَنحَصِرُ في المُخَالَفَةِ والتَّفَرُّد)

كثيراً ما ينحرف حب الإبداع إلى أن يصبح حباً في المخالفة، وذلك عندما يظن الباحث عن الإبداع أنه ينحصر في الانفراد بفكرة.

فإذا أضاف هذا المدعي للإبداع إلى حب الانفراد: نقصاً في آلة الإبداع، فما عليك أن لا تراه بعد ذلك إلا في أودية الآراء الباطلة راتعاً، وبعُرى شواذِّ الآراء المنفصمة متمسكاً، وكل هذا باسم الإبداع وبجريرته!!

فاحذر من أن تظن الإبداع منحصراً في التفرد، ومن أن تسعى لإبداع يفوق قدرتك.

* * * * *

(المَدحُ أمَانَةٌ)

إن المدح أمانة، وأمانة ثقيلة، وليس بذله بغير حساب كرماً، ولا لطفاً ورقة طبع.

فما رأيت أسوأ على الشخص من مدحه بما ليس فيه مما يظنه فيه.

فمثل هذا المدح خيانة للممدوح بقدر خيانة سلبه ما عنده؛ فإن مَنْ أوهمك أنك تملك ما لا تملك، كمن سلبك ما كنت تملك، أو أشد؛ لأنك بالسلب تعرف النقص وتسعى لإكماله، وبالمدح بما ليس فيك لا تسعى لاستكمال نقصك.

* * * * *

(الجُمُودُ الفِقْهِيُّ)

ليس الجمود الفقهي هو (التمذهب)، خاصة إذا كان تمذهباً لا يصل إلى درجة عدم مخالفة المذهب حتى فيما اتضح ضعفه.

إنما الجمود هو ظاهرية الاستدلال: إن كانت ظاهرية الرجوع للكتب والسنة (كما عند السلفية المعاصرة)، أو كانت ظاهرية الرجوع لمذاهب الأئمة (كما عند غيرهم).

فلا الأول قادر على الغوص في فقه النص واستنطاق الأحكام منه التي تحقق مراد الله تعالى في جلب المصالح ودرء المفاسد.

ولا الثاني قادر أن يعرف مأخذ إمامه، ليخرِّج عليه تخريجاً صحيحاً.

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

(أيُّ الصَّدِيقَيْنِ أَوْلَى بِالنُّصْحِ)؟

لو كان لك صديقان لهما زلات ومعاصي، أحدهما: لا يعترف بأخطائه، أو يرفع نفسه على من هو مثله أو دونه في الخطأ، بل ربما وصل تعالبه إلى درجة أنه أصبح يجعل أخطاءه صواباً ومساوئه محاسن.

والثاني: يعترف بأخطائه، وقد لا يعترف لكنه لا يرفع نفسه على من هو مثله أو دونه في الخطأ، أو ربما يقف عند كونه لا يدعي بأن مساوئه محاسن؛ أي الصديقين سيكون أولى بالنصح؟!

هذا بعض شأني مع بعض المنتسبين للسلفية، ولهم عندي شأن آخر ومثل آخر.

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

(كَثْرَةُ الاطلاعِ مَعَ نَقصِ القَرِيحَة)

وجدت كثرة الاطلاع مع قوة القريحة مشكلة، إذا انشغل المرء بالمنقولات الكثيرة وترتيبها وتوجيهها، عن تجويد رأيه وتنقيح فكرته.

فكيف بكثرة الاطلاع مع نقص القريحة؟!

يصبح فكره حينها مجمعاً للمتناقضات، وهو لا يدري، ويكون عقله مثل كُناشته (كشكوله)، نقولات مختلفة وطرائف متفرقة، تزيده تشتيتاً، لا توضح له التصور، ولا تصحح له الحكم، ولا تدله من حيرة، ولا تحقق له الرأي.

* * * * *

(التَّفرِيقُ بَينَ الأحكَامِ الشَّرعِيَّةِ والعَادَات)

مِنْ أشد دلائل انغلاق العالِـم (أو مَن يسمِّيه الناس عالِـماً): أن يعجز عن التفريق بين الأحكام الشرعية والعادات والتقاليد.

لأن هذا فوق دلالته على ضعف التأصيل العلمي، فهو يدل على قدر كبير من الجمود على الواقع الضيق والمحيط القريب، فهو لا يستطيع الخروج من دائرة العادات والتقاليد، حتى أنه ليلحقها بالدين!!

* * * * *

(استِدلالٌ لَطِيفٌ)

من ألطف الاستدلالات على عدم وجوب صلاة واحدة فوق الفروض الخمسة (كصلاة الوتر) قوله تعالى: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لله قَانِتِينَ﴾ البقرة: ٢٣٨.

ووجه الدلالة: أن الآية نصت على أن للصلوات الواجبة صلاةً وسطى، وبإيجاب صلاة سادسة لا يكون هناك صلاة وسطى أصلاً!

* * * * *

(يَنتَقِمُ مِنَ الإسلام)

بعض المسلمين ينتقم من (الإسلام) بسبب ظلم بعض المسلمين لهم، أو حفاظاً على حظوظ أنفسهم من اغترار بعض أبناء المسلمين بهم!!

فتجده كل يوم يزداد بُعداً عن الحق، وكل يوم يزداد إمعاناً في نصرة الباطل، وكلما ردَّ عليه أحدٌ باطله بحق أو بباطل بإنصاف أو بظلم (لأن رد الباطل قد يكون بباطل وظلم أيضاً)، قال لسان حاله لهم:

(والله لأغيظنكم بنصرة باطل جديد! والله لأولمنكم بقول جديد أهدم به علوم دينكم).

ولا يعلمون أن الباطل لا ينصره أهل الأرض كلهم، وأن للحق رجالاً، يتلذذون بتجريد حجج الحق، وتصويب أدلته إلى قلب الباطل ولسانه.

ووالله! لن يجدونا أمةَ محمد صلَّى اللهُ عَلَيه وسَلَّم عن علوم ديننا ناكلين ولا متوانين! ولن يحلموا باليوم الذي يغلب فيه باطلهم حقها!!

* * * * *

(عِندَمَا يَتَحَدَّثُ فِيمَا لا يَعلَم)

الدعاوى الواسعة للكشف والمزاعم العريضة للعلم اللدني: ليست وقفاً على أهل الخرافة من المنتسبين للتصوف فقط، كما يتوهمه كثير من السلفيين؛ إذ بعض أدعياء السلفية ينسبون إلى شيوخهم كشوفات وعلوماً لدنية لا تقل خرافة عن كشوفات أدعياء التزهد:

فعندما يكون شيخ منهم لا يعرف غير مسجده ودرسه ومكتبته، وليس له الاطلاع على الواقع الظاهر الذي عند عموم الناس، فضلاً عن الواقع الخفي، ثم يدعي أتباعه: أنه عالم بالواقع.

فهذا (ولا شك) علم لدني، وكشف صوفي بامتياز!!

وعندما يتدخل هذا الشيخ في الآراء السياسية المعقدة، أو الاجتهادات الاقتصادية المتداخلة، أو القضايا الاجتماعية العميقة، والتي يكون منطلق الحكم فيها ليس نصاً شرعياً، وإنما العلم بالمصالح والمفاسد، وهو لا يعرف شيئاً عن تلك العلوم وواقعها..

ثم يأتينا من يقول لنا: المرجع في معرفة المصالح والمفاسد فيها هو هذا الشيخ وأمثاله؛ فهذا لا يصح إلا مع تصحيح الكشوفات، والتي تجعل هذا الشيخ يعلم ما لم يتعلم، وتجعله يدري ما لم يطلب درايته!

بالطبع أنا لا أنكر الإلهام ولا التوفيق الرباني للحق، ولا كرامة انكشاف البصيرة على الحقائق الغائبة التي قد تحصل لأولياء الله تعالى. وإنما أنكر دعاواها الباطلة ومزاعمها المكذوبة، وخاصة من أن تقع من أشد الناس إنكاراً لها!!

فالرجاء من أدعياء السلفية: أن لا يأتوا ما نهوا عنه، وأن لا يثبتوا لشيوخهم ما أنكروه على غيرهم.

* * * * *

(تَبدِيلُ الدِّينِ بِاسمِ الدِّينِ)

أكبر خطر للمبتدع هو تبديله الدين باسم الدين! ولكننا للأسف تكلس فهمنا لهذا الخطر على مسميات البدع التراثية (المذكورة في كتب التراث)، فلا نعرف هذا الخطر إلا إذا سمينا الجهمية والخوارج و...، في قائمة ليست قصيرة، كنا حريصين على أن تبلغ اثنين وسبعين اسماً، بالتحديد، ومنذ زمن بعيد!!

لكننا نسينا أن هذا الخطر متحقق حتى من بعض المتسبين للسلف، إذا تكلموا بجهل، وأصلوا ببغي وتعال، ونسبوا للسلف ما لا يصح عنهم، بل ما يتبرأ منه عقلاء الخلق من السلف والخلف! فهؤلاء بدلوا أيضاً الدين، وباسم الدين كذلك، بل بدلوا صورة السلف وشوهوها.. وباسم السلف!

فما الفرق بين خطرهم وخطر المبتدعة الذين يرى بعض الغيورين أنهم أولى بالنقد وأحق بالتحذير من خطرهم؟!

هل الفرق هو أن هؤلاء تسموا بـ(السلفية) وانتسبوا لتصوراتهم المختلة عن منهج السلف؟!

إن منهج السلف هو منهج الإسلام الذي يسعى جميع المسلمين إليه، فمنهم من قارب، ومنهم من ابتعد، ومنهم من ابتعد كثيراً جداً. ولا توجد جماعة تحتكره بحذافيره، ولا توجد طائفة تتمثله بكامله؛ إلا بالدعاوى، وهؤلاء ينسبون أخطاءهم التي خالفوا فيها السلف (والتي بالضرورة سيقعون فيها) إلى السلف، بسبب هذا الاغترار بأنفسهم، فوقعوا في أكبر أخطار المبتدعة، وهو ارتكاب الخطايا باسم الدين، بل باسم منهج السلف!!

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

(مَنْ كَذَبَ لِنُصرَةِ الدِّين)

من كذب لنصرة الدين فهو خنجر يطعن الدين، ومن افترى دفاعاً عن السنة فهو أشد ضرراً عليها من الطاعن؛ لأن الكذب والافتراء حجج أهل الباطل.

فإذا كذب أهل الحق دفاعاً عن حقهم، تشبهوا بأهل الباطل، فكانوا دعاة تنفير من حقهم الذي عجزوا عن الدفاع عنه.

وما كان الحق يوماً محتاجاً للباطل كي ينتصر؛ إلا عند الجهلة.

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

(مَا زِلْنَا بَيْنَ التَّطَرُّفِ و التَّطَرُّفِ المُقَابِل)

في عصرنا الحاضر ابتلينا بالجمود ويضده، بالتفلت والفوضى وبعكسها، وما زلنا بين التطرف والتطرف المقابل، حتى يكاد يخفى الاعتدال.

إذ كما يطعن وجودُ أهل الجمود في ظهر دعوة التجديد الحق، لأنهم مع جمودهم يوفرون سبباً للطعن في المجددين لاتفاقهم معهم في الثبات على بعض ما لا يجوز فيه التحوُّل والتبدل؛

فيطعن أهل التفلُّت والفوضى في ظهر دعوة التجديد الحق أيضاً؛ لأنهم بتفلتهم وفوضاهم يوفرون سبباً للطعن في المجددين لاتفاقهم معهم في التحول فيما لا يجوز فيه الثبات!

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

(الفَرقُ بَينَ غُلاةِ الظَّاهِرِيَّةِ وغُلاةِ المَقَاصِدِيَّة)

الفَرقُ هو أن غلاة الظاهرية أكثر دخولاً في الشرعيين، وأكثر اشتباهاً بالمعظمين للنصوص، ولا يجد أكثر الصف الإسلامي خللاً عندهم (إما مطلقاً وإما إلى حد كبير).

لذلك كان بيان خطرهم مهماً، والتحذير من خللهم واجباً، ليكونوا في موضعهم المنصف: وهو الجهة المقابلة لغلاة المقاصدية، في تطرف الموقف، وغلو الرأي، ونمنعهم من التأثير في الذهن الشرعي ومن تشكيل العقلية الإسلامية.

ولكي لا يستمر كثير من الشرعيين على التعاطف معهم، وكأنهم الأكثر تعظيماً للنص، وهم ممن يسيئون للنص باسم تعظيمه. كمن يسيئون للشريعة من غلاة المقاصدية، باسم الدفاع عن الشريعة!

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

(يُنِيرُونَ طَرِيقَ التَّمَرُّدِ عَلَى التُّرَاث)

بعض مَنْ يسمون أنفسهم بـ(التنويريين)، ينيرون طريق التمرد على التراث وسبيلَ الفوضى الفكرية، مستغلين ظلمة التقليد الديني التي تغشى الأمة، وقيودَ الجمود الفكري التي تكبلها.

نعم.. لقد كسبوا كثيراً من الشباب الذي ما عاد يحتمل تلك الظلمة وثار على تلك القيود.

لكنهم سيخسرونهم مرة أخرى، وسيخسرونهم بالشعارات نفسها التي يرفعونها؛ إذا ما أبصر هؤلاء الشباب بالعلم، لا بمجرد التمرد.

وإذا ما تعلموا كسر قيود الجمود على الفوضى الفكرية، فالفوضى الفكرية حرية حقاً، لكنها حرية الهدم والعبث، لا حرية البناء والجد.

* * * * *

(المُتَنَاقِضُ لا يُنسَبُ إلَيهِ أحَدُ قَوْلَيْه؛ إلا بِمُرَجِّح)

المتناقض لا يصح أن يُنسب إليه أحد قوليه؛ إلا بمرجح يقدم أحد قوليه على الآخر في استحقاق أن يكون هو المنسوب إلى صاحبه.

كتأخره في الزمن، فيكون من باب تغير الاجتهاد، أو يكون هو الأكثر دوراناً في تقريره، مما يمكن معه أن يكون هو المذهب.. ونحو ذلك من المرجحات.

* * * * *

(التَّرَخُّصُ بِأقوَالِ العُلَمَاءِ اتِّبَاعاً لِلهَوى)

عندما يختلف علماء العلوم الدنيوية، لا أعلم أحداً يصحح منهجاً يُجيز أن يكون منهج الترجيح بين اختلافهم يقوم على الاحتجاج باختلافهم لاختيار كل شخص من أقوالهم ما يحب ويشتهي، بلا أي وجه من وجوه الترجيح، ولو كان ترجيح المقلد، الذي يعتمد دلائل التقليد: كأولوية عالم على عالم في قوة العلم.

فلماذا يزعم بعض الباحثين والمفكرين أنه يحق لهم اتباع هذا المنهج المرفوض بالاتفاق مع علوم الشريعة: وهو الترخُّصُ بأقوال العلماء اتباعاً للهوى والشهوة!! مع اتفاق العقلاء على رفض هذه الطريقة في كل العلوم؛ لظهور بطلانها ببداهة العقل وسلامة الفطرة.

ولا فرق في اتباع الهوى بين أن تحتج بخلاف الفقهاء لاختيار ما تشتهي من أقوالهم، وأن تحتج بخلاف المحدثين في حديث أو راو لاختيار ما تحب. وأن تحتج باختلاف المفسرين، لاختيار ما تريد..

كل ذلك: اتباع للهوى، لا اتباعاً لدلائل العلم ولا لمنهج التقليد المعذِر، بل هو اتباع لمزاجك الخاص، ثم أنت تريد تزييف حقيقة موقفك، بنسبته لعالم من العلماء غشاً وخداعاً! وهذه سوأة أخلاقية، وجريمة إنسانية، تستحق الإسقاط والتشهير والعقوبة!!

* * * * *

مِنَ الحِيَلِ البَحثِيَّة
(التي تَجعَلُ الأحكَامَ الانطباعيةَ والاستباقيةَ تَبدُو وكأنَّها أحكامٌ عِلمِيَّة)

كثيراً ما يلجأ الباحثون في مجال نقدهم للأفكار والعقائد والعلوم إلى ادعاء ضرورة النظر في دوافعها وأصولها المنهجية التي تقوم عليها، وهذا اللجوء كثيراً ما ينحرف عن سياقه الصحيح، وينحو بالبحث منحى غير علمي، فيتجه به اتجاهاً انطباعياً، مبنياً على الأحكام الاستباقية غير الموضوعية.

ولنبدأ إثارة هذه الإشكالية، من خلال التنبيه على أمرين مهمين:

الأول: أن هناك فرقا كبيراً بين (الدوافع) و(الأصول المنهجية)؛ إذ لا يصح أن نجعل النظر في الدوافع أكثر من مؤشر يعين على الدراسة، وليست منطلقاً علمياً لنقد الأفكار والعقائد؛ لأن الدوافع أجنبية عن الفكرة نفسها وعن المعتقد نفسه وعن أدلته التي بُني عليها، وليست كالأصول المنهجية والمنطلقات الاستدلالية في علاقتها بالفكرة.

والذي يوضح انفصال الدوافع عن الأفكار والقناعات الناتجة عنها: أنه ربما كانت دوافع البحث في اتجاه ومع ذلك تنتج عن هذا البحث قناعة في الاتجاه المعاكس تماماً لدوافعه، فكم من كافر وملحد أراد نقد الإسلام، فعرفه وأحبه وربما دخل فيه!! كقوله صلَّى اللهُ عَلَيه وسَلَّم: (عجب ربنا عز وجل من قوم يقادون إلى الجنة في السلاسل)، وهم أسرى الكفار، يؤسرون، وربما قيدوا بالسلاسل، ثم يدخلون بلاد المسلمين، ويعيشون بينهم، فيطلعون على دلائل صحة دين الإسلام، وعلى محاسن تشريعاته، فيدخلون في الإسلام، فيدخلون الجنة، وكأنهم أجبروا عليها بسلاسل الأسر وقيوده.

وكثيراً ما نغفل عن هذا، فنجعل الدوافع (وهي مجرد دوافع) دليلاً على بطلان الفكرة والمعتقد والفن من فنون المعرفة!

الثاني: أن النظر في الأصول المنهجية التي تنطلق منها الفكرة ضروري ولا شك، وهو أساس مهم لنقدها. لكن ينتابها في كثير من الأحيان النظر الانطباعي والأحكام الاستباقية القائمة على المصادرة والتحكم، بل على مناقضة المصداقية والأمانة البحثية، بنحو ادعاء الدخول في المقاصد والنيات.

فلا يصح مثلاً: أن أرد الكلام الصريح في تحديد أصل الفكرة عند صاحبها، بدعوى النظر في أصوله الفكرية، وأنا أقصد بـ(النظر إلى أصوله الفكرية) النظر إلى دوافعه للبحث، بسبب الخلط بين الدوافع والأصول المنهجية (كما سبق). فالخلط بين (الدوافع) و(الأصول المنهجية) هو أحد أكثر ما حرف البحث عن مساره العلمي الصحيح.

ومن جهة أخرى: لا يصح أيضاً أن أخلط بين أصول فكرية خاطئة وأصول فكرية صحيحة قادت إلى فكرة خاطئة. فالدليل العقلي حجة صحيحة، لكن كونه قد أضل قوماً من الناس بسبب غلط في استعماله، لا يجعل الدليل العقلي نفسه أصلاً خاطئاً.

فإذا أراد صاحب دليل عقلي منحرف عن مساره الصحيح أن يصحح مساره، ومن خلال الدليل العقلي نفسه، لا نجعل مجرد خطئه السابق دليلاً على خطأ دليله اللاحق، ولا خطأ منهجه فيه؛ لأن الدليل العقلي دليل صحيح، لا إشكال في صحته.

وهذا كمهندس كان يستعمل مقياساً صحيحاً ودقيقاً جداً للأطوال، لكنه كان يستعمله بطريقة خاطئة، فلا يصح أن نعتبره خاطئاً مطلقاً مادام يريد استعمال المقياس نفسه، ولو صحح طريقة القياس به.

وهذا كأبي الحسن الأشعري، فمع كونه خرج من الاعتزال، وناقضهم ورد عليهم؛ لكن أصوله الاعتزالية جُعلت لعنة تصاحبه دوماً، واستدلاله العقلي الذي لا إشكال في أصله صار سُبةً عليه، رغم كل ذلك النزاع الذي بدأ بداية حادة، بلغت حد البراءة المعلنة الصريحة من الاعتزال.

وكمثال عملي على ذلك أيضاً: عندما يكتب أبو الحسن الأشعري رسالة (استحسان الخوض في علم الكلام)، ليبين فيه أن علم الكلام ليس إلا السعي لإظهار الاستدلال العقلي للعقائد مع الاستدلال النقلي، وأنهم لا يريدون به إلا بيان أن الشريعة مؤيَّدة بالعقل، وأنها ليست منافرة للدلالات العقلية، بل ليست مفتقدة لها.

ثم يُظهر أيضاً أن أصول الاستدلال العقلي موجودة في أدلة الشرع، ويستدل لذلك بنصوص الكتاب والسنة؛ نترك هذا التقرير الواضح الصريح، ونزعم أنه لابد من عدم الاغترار بذلك، وأنه لابد من النظر في الأصول العقدية للأشعرية، وهذه الأصول العقدية لا نأخذها من تقريرهم هم لأصولهم، وإنما من الجزئيات محل النزاع، أو من عبارة خاطئة لأحدهم فنعممها، مع أن صاحب العبارة نفسه له ما يصححها أو يخفف خطأها، فنخطئ في هذا الإطلاق والتعميم خطأين:

أننا نسبنا خطأ عالم إلى الذين لا يوافقونه عليه، وأننا لم ننصف صاحب المقالة نفسها، بالنظر في بقية تقريراته.

بل فوق ذلك: نبدأ ممارسة عملية بوليسية، في التنقيب عن أدلة الاتهام، والتي تصل درجة الدخول في اتهام النيات، وأن فلانا من أهل العلم لم يقرر التقرير الصحيح إلا ليخادع أهل السنة!

ويفعل الأشعرية الشيء نفسه: فيتركون تصريحات المحدثين أنهم لا يلغون الدلالة العقلية، وأنهم لا يجيزون تشبيه الله تعالى بخلقه. فيقولون عن المحدثين: هؤلاء حشوية، لا يقيمون للعقل وزناً، وهم من أعداء العقل.

وأما التشبيه: فانظروا إلى فلان منهم كيف شبه (ويذكرون غلاة أهل الحديث ممن شبه فعلاً)، أو من استدل منهم بحديث ضعيف أو موضوع في أصل من أصول الدين، فيجعلون مقالته هي مقالة جميع أهل الحديث، أو الكاشفة عن حقيقة مذهبهم وأصولهم المنهجية في الفهم والاستدلال.

إذن فالنظر إلى الدوافع والأصول المنهجية أصابه الخلل في كثير من الأحيان من جهة أنه أصبح مسوغاً للإسقاط غير العلمي، وللدخول في دعاوى العلم بالمقاصد والنيات، وفي المصادرة على المطلوب بأحكام استباقية غير موضوعية.

فإلى أن نصحح مسار الدراسات من هذه المناهج، يجب أن نتوقف في كثير من نتائج دراسات سابقة، وقناعات بنيناها عليها، إلى أن تثبت براءتها من هذا الخلل!

* * * * *

(الأَمْنُ الفِكْرِيُّ)

الفكر: هو نتاج العقل من التصورات والأحكام، المبني على مجموعة المبادئ والمعلومات والأخلاقيات والتجارب التي تحويها ذاكرة الإنسان الحاضرة والغائبة.

وإذا دقَّقنا في مكونات الفكر ومحدداته ومنتجاته: وجدناها تشمل كل ما يدخل في مسمى الدِّين والقيم والعلم والثقافة والحضارة.

فسلامة الفكر هي سلامة للدين والقيم والعلم والثقافة والحضارة، واتحاد الفكر (وليس الأفكار) في أي أمة من الأمم يمثل أساس وحدتها، لأنه يمثل اتحادها في الدين؛ فإن لم يتحدوا في

الدين: ففي القيم، فإن لم يتحدوا في القيم: ففي العلم والثقافة والحضارة؛ فإن لم يتحدوا في شيء من ذلك: فلن يكونوا أمة واحدة أبداً.

ولذلك كان الأمن الفكري لأي أمة هو القوة التي تحميها من أي خطر يهددها بالهزيمة النفسية وبالاستلاب الحضاري للآخرين.

فالأمن الفكري هو: طمأنينة الفكر وثباته على يقينية عقائده وقيمه وأخلاقه.

وبعبارة أخرى: إن تحقق الأمن الفكري في أي أمة من الأمم يعني يقينها واطمئنانها بأحقية عقائدها وقيمها وأخلاقها لا في البقاء فحسب، بل في التأثير في الآخرين، وفي قيادة أمم الأرض إلى القناعة بفكرها.

والأمة التي تحقق هذا الأمن لا شك أنها آمنة من الذوبان في غيرها ومن التبعية للآخرين، ولو كانت أفقر اقتصاداً أو أضعف قوة أو أقل تحضراً، بل حتى لو كانت مهزومة عسكرياً محتلة من عدو خارجي، كما حصل للمسلمين الأوائل إبان غزو المغول والصليبيين.

فقد أثر المسلمون فيهم وغيَّروا من فكرهم، حتى وصل بالمغول حد الدخول في الإسلام واعتناق عقائده، ووصل بالنصارى حد الانبهار بالحضارة الإسلامية والتتلمذ عليها، مما على أساسه قامت حضارة الغرب الحالية.

* * * * *

أَثَرُ المُحكَمَاتِ المُبَاشر في تَحقِيقِ الأمنِ الفكريِّ والعقديِّ، وذلك يتَّضح من خلال أمور:

الأول: أي خلل يصيب هذه المحكمات سيعني السقوط في جُبٍّ من الأوهام والشكوك، والضياع تحت جُنح الظلام الدامس من الحيرة وفقدان القدرة على التفكير واتخاذ القرار، كما حصل ويحصل مع الشُّكاك والمصابين بالوسوسة.

حيث إن أُسس المحكمات هي المبادئ العقلية الضرورية الفطرية، لأن المحكمات يقينية، ولن يكون شيء يقينياً؛ إلا إذا اتفق مع مبادئ العقل الفطرية، بل إذا انطلق منها.

فهذه المبادئ الأولية هي الأساس الأكبر للمحكمات.

ولا شك أن العقل البشري لا ينطلق في كل تصوراته وأحكامه المبرهنة الصحيحة إلا من هذه المحكمات الفطرية.

ولذلك إن أي خلل يصيب هذه المحكمات سيعني السقوط في جُب من الأوهام والشكوك والضياع تحت جُنح الظلام الدامس من الحيرة وفقدان القدرة على التفكير واتخاذ القرار، كما حصل ويحصل مع الشُّكاك والمصابين بالوسوسة.

وخطورة الخلل في التعامل مع محكمات الكتاب والسنَّة أنه خلل منهجي في طريقة عمل العقل، ومثل هذا الخلل إذا طرد (وهو الأصل) سينتهي بالخلل في التعامل: من الخلل في التعامل مع محكمات الكتاب والسنَّة، إلى الخلل في التعامل مع المحكمات الأولية الفطرية؛ لبناء محكمات الكتاب والسنّة عليها (في إثبات النبوة). وأي خلل وخطر أشد من مثل هذا الخلل والخطر؟!!

وفي المقابل: ما أعظم انتصارنا في معركة الغزو الحضاري والفكري، وما أشد تحصيننا لفكرنا وعقائدنا: إذا ما ضمنا سلامة عمل العقل الإسلامي، وعلى قدرته على التفاعل الإيجابي مع معطيات التفكير، وعلى إصابته في أحكامه! من خلال سلامة التعامل مع المحكمات الإسلامية.

الثاني: أن تحكيم المحكمات هو الذي سيؤدي إلى الثبات على المبدأ، والثبات هو سبب الاستقرار النفسي، وهو سبب الشعور بالأمان والطمأنينة.

ذلك أن المحكمات ثابتة يقينية، فتحكيمها والتحاكم إليها سيكون من لوازمه الثبات واليقين، والطمأنينة هي الثبات واليقين به.

وقد ذكرت آية المحكمات ذلك، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ آل عمران: ٧ فالرسوخ في العلم كما يعني العمق والتمكن من العلم، فهو قبل ذلك يعني الثبات أيضاً.

قال ابن فارس (ت٣٩٥هـ): (رسخ: الراء والسين والخفاء أصل واحد يدل على الثبات. ويقال رسخ: ثبت، وكل راسخ ثابت).

وقال الراغب الأصبهاني (ت٥٢٤هـ): (رسوخ الشيء ثباته ثباتاً متمكناً، ورسخ الغدير نضب ماؤه، ورسخ تحت الأرض، والراسخ في العلم المتحقق به الذي لا يعرضه شبهة).

فالراسخون في العلم هم الموصوفون بقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾ الحجرات: ١٥، وكذا قوله تعالى: ﴿لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ النساء: ١٦٢.

الثالث: أن المحكمات هي العاصمة من تخطُّف الشبه والأهواء، وهي العاصمة من الغلو والتطرف: بالتشدد والتزمت، أو بالانحلال والتفلت.

فالمحكمات هي وحدها القادرة على صد شبهات الانحراف الفكري بكل صوره؛ لأنها يقينية، وأما الشبهات فأقصى ما يظنه العاقل فيها أن تكون ظنية، والعاقل لا يقدم ظنه على يقينه.

بل التحاكم إلى المحكمات سيكشف خداع الشبهات، وسيفسر الخطأ في فهم المشتبهات.

ولذلك قال عمر بن عبدالعزيز رحمه الله: (من جعل دينه غرضاً للخصومات، أكثر التنقل).

ومقصوده: أن من دخل ساحة الجدال مع أهل الأهواء والذين في قلوبهم زيغ، مُعَرِّضاً دينه لشبههم، بل جاعلاً من دينه هدفاً ومرمى لتلك الشبه، فلن يثبت على مبدأ ولن يدوم على عقيدة؛ لأنه جعل دينه مكشوفاً لهجوم الشبهات المختلفة لكل مبدأ، ولأي معتقد، والدين لا ينكشف للشبهات هكذا؛ إلا إذا خلا من تحصين المحكمات.

الرابع: أن الثبات على المبدأ وعدم الخشية من تخطف الشبهات هما أهم ضروريات بقاء المسلم المعاصر.

فلئن قيلت سابقاً عبارة صححتها العقول: إذا لم تكن داعياً، فأنت مدعو، ولا ثالث لهذين؛ ولئن قبلت العقول هذا القول قبل عصر الانفتاح العالمي الذي نعيشه، فماذا سنقول اليوم، وقد أصبح العالم كله في كل بيت، وفي يد كل شخص، وفي أي لحظة، من خلال وسائل الاتصال والإعلام المرئي والمسموع والمقروء (ويكاد يكون ملموساً ومذاقاً)!

وفي ظل هذا الانفتاح العالمي الهائل: لم يعد للمسلم الخيار في ألا يكون داعية؛ لأنه إذا لم يكن داعياً فسيكون مدعواً بضخ هائل من الشبهات والشهوات.

وفي هذا الوسط الواسع من شبهات المخالفين الذي يحيط بالمسلم في كل جهة، وفي كل وقت، حُق لنا أن نقول: يجب على المسلم المعاصر الذي لا يريد أن يكون داعياً أو محصناً بما يتحصن به الدعاة من العلم بالمحكمات وبأدلة أحكامها: أن يخشى على نفسه بأن لا يكون مسلماً!!

نعم، فعلى كل مسلم معاصر أن يحدد خياره الصعب هذا تحديداً واضحاً، محتملاً تبعات هذا الاختيار.

وعلى العلماء والمفكرين وأصحاب القرار في البلاد الإسلامية أن يعرفوا انحصار خياراتهم تجاه أفراد المسلمين وشعوبهم في هذين الخيارين: إما أن يكون المسلم المعاصر متحصناً بما يجب على الداعية أن يتحصن به، ومتسلحاً بمبادئ الحجج والبراهين التي تجعله داعياً لا مدعواً ومؤثراً لا متأثراً؛ وإما أن يستعدوا لموجة هائلة بين أبناء المسلمين من الإلحاد والكفر أو الإعراض عن الإسلام والتدين جملة وتفصيلاً.

الخامس: أن تثبيت المحكمات الإنسانية هو في الحقيقة إرساء لقواعد التعايش الإنساني؛ لأنه لن يحصل التفاهم بين بني البشر، ولن يتم الالتقاء بينهم على أرضية مشتركة بغير الرجوع إلى تلك المحكمات.

فما الذي يمكن أن يصيب البشرية من الدمار لو أن قيم العدالة والحرية والمساواة أصبحت شعارات قابلة للتشكيك في إحكامها، وفي يقينية كونها الحق الذي لا يمكن التهاون في اعتقاد حقَّانيته والدفاع عنه.

وأولى من كان ينبغي أن يتولى الدعوة إلى هذه المحكمات الإنسانية هم المسلمون؛ لأنهم أعرف الناس بها، ولأنهم الوحيدون من أُمم الأرض القادرون على تخليص هذه المحكمات من شوائب الغلو والتطرف فيها، والذي شان بعض تطبيقاتها لدى الحضارات الأخرى، وأدخل في أصولها اليقينية جزئيات من الفروع الظنية، لا مع الإقرار بظنيتها، بل مع اعتقاد يقينيتها.

ولا شك أن من سلبيات هذا الخلط بين الأصول اليقينية والفروع الظنية لتلك القيم الإنسانية المحكمة لدى تلك الحضارات غير المسلمة: أنه جعل أرض التشكيك في المحكمات أرضاً خصبة، تقبل بذور الشك، وتُنبت شجرة الباطل الخبيثة التي لا تعيش ولا تتمدد فروعها إلا على دعوى نسبية الحق.

ولذلك اشتد عود تلك الفلسفات، والتي كانت على مر التاريخ البشري من قبيل السفسطات والوساوس الممقوتة لدى عموم العقلاء، فإذا بها في الحضارة الغربية الحديثة يُنظر إليها على أنها فكر يستحق الإجلال، وتقوم عليها كثير من التفسيرات النظرية والتطبيقات العملية في مجال الحريات والأخلاقيات وبقية القيم الإنسانية الأخرى.

فَمَنْ مِنْ أُمم الأرض غير المسلمين أقدر على تخليص البشرية من أسر هذه الانتكاسة، وبتخليص المحكمات الإنسانية (وهي تلك الأصول القِيَميَّة) من تسلط فروعها الظنية عليها؟

ومَنْ أولى منهم بالدعوة إلى تلك الأصول المحكمة؟ ومن أحق منهم بإقناع الناس بأن تفسيرات الإسلام لتلك الأصول وتفريعاته عليها هي الأصلح والأولى بإسعاد البشرية جمعاء؟

هذا إن كانت تلك التفسيرات والتفريعات يقينية في استمدادها من الوحي.

فإن كانت تفسيرات اجتهادية من علماء الإسلام وتفريعات ظنية لهم ففي أقل تقدير: ينبغي أن تقتنع أُمم الأرض (من غير المسلمين) بأن تلك التفاريع الإسلامية لتلك الأصول البشرية تفاريع تقبل اختلاف وجهات النظر، ولا يحق فيها التشنيع ولا انتقاص الشعوب التي تلتزم بها.

هذه بعض آثار تثبيت المحكمات، وهي آثار كلية، تنطوي تحتها آثار تتفرَّع عنها.

فكما أنَّ المحكمات أصول تتفرع عنها جميع التصورات والأحكام، كذلك تكون آثارها: تتفرع من أصول آثارها جميع الآثار الحسنة والثمار الطيبة.

* * * * *

أَهَمُّ نَتَائِجِ كتيبِ المُحكَمَات:

١ـ المحكمات هي: كل ثابت بأدلَّة يقينيَّة، يكون عاصماً للفكر من الانحراف، لشدَّة إتقانه وقوة بنائه الفكري، ويكون الخلل فيه سبباً في إفساد التفكير.

٢ـ سمات المحكمات:

ـ الثبات وعدم قبولها للزَّوال ولا للتبدُّل.

ـ أنها محلُّ اتفاقٍ بين العقلاء، وموضعُ ائتلافِ قلوبٍ بين الأسوياء.

ـ أن أدلتها قطعية يقينية، وليست ظنية.

ـ أنها أصول كلية يُـحتكم إليها.

ـ أنها عاصمة للفكر من الانحراف.

٣ـ أثر المحكمات في تحقيق الأمن الفكري والعقدي:

ـ أي خلل يصيب هذه المحكمات سيعني السقوطَ في جُبٍّ من الأوهام والشكوك والضياع تحت جُنح الظلام الدامس من الحيرة وفقدان القدرة على التفكير واتخاذ القرار، كما حصل ويحصل مع الشُّكَّاك والمصابين بالوسوسة.

ـ أن تحكيم المحكمات هو الذي سيؤدّي إلى الثبات على المبدأ، والثبات هو سبب الاستقرارِ النفسي وهو سبب الشعور بالأمان والطمأنينة.

ـ أن المحكمات هي العاصمة من تخطّف الشبه والأهواء، وهي العاصمة من الغلوِّ والتطرُّف: بالتشدد والتزمُّت، أو بالانحلال والتفلُّت.

ـ أن الثبات على المبدأ وعدم الخشية من تخطُّف الشبهات هما أهم ضروريات بقاء المسلم المعاصر.

ـ أن تثبيت المحكماتِ الإنسانيةِ هو في الحقيقة إرساءٌ لقواعد التعايش الإنساني؛ لأنه لن يحصل التفاهم بين بني البشر، ولن يتم الالتقاءُ بينهم على أرضيةٍ مشتركة بغير الرجوع إلى تلك المحكمات.

٤ـ مقترحات عملية لتثبيت المحكمات:

ـ تثبيت أصول الدين في قلوب أبناء الأمة بالأدلة اليقينية، لتكون هي المحكمات التي يحاكمون إليها كل فكر أو عقيدة أو رأي.

ـ تكثيف الحديث عن المحكمات، واتخاذ كل الوسائل لكي تكون مِلْءَ العينِ والسمع عند كل مسلم، لتصل إلى أن تكون مِلْءَ القلبِ منه.

ـ تنويع وسائل إثبات المحكمات (كالحديث الوجداني، والفنون الأدبية والجمالية وأعمالِ الـمِشْجاة: الدراما).

ـ عدم إغفال الخطاب العقلاني في كل فتاوى العلماء وخُطبهم وحديثهم وجميع أُطروحاتهم.

ـ بيان المنهج العقلي الصحيح تجاه المحكمات والمشتبهات، بعد تثبيت المحكمات بأدلتها اليقينية.

ـ إشاعةُ الحريةِ المنضبطةِ غير الفوضوية، وعدم تجريم الفكر المعتبر، وإحسان التعامل حتى مع الفكر غير السائغ الذي يُمكن التعايشُ معه، وتقنينُ القوانين ووضع الخطط وتنفيذ البرامج التي تجمع بين أمرين ضروريين:

الحماية من سياسة قَمْعِ الحريات الفكرية، والحماية أيضاً من إفساد عقائد الناس بالترويج للعقائد الباطلة بالوسائل المجرَّمة: كالكذب، والخداع، والمغالطات، واستغلال حاجات المحتاجين.

* * * * *

قِصَّتِي الخَاصَّة مَعَ الشَّيخِ الألبَاني رحمه الله

من أوائل عنايتي بعلم الحديث وأنا في نحو الخامسة عشرة من عمري، تعرَّفت على الشيخ محمد ناصر الدين الألباني عليه رحمة الله من خلال كتبه، وأول ما وقفت عليه من كتبه المجلد الأول من سلسلة الأحاديث الصحيحة في المكتبة العامة بالطائف.

ثم تمكنت من شراء صحيح الجامع الصغير وضعيفه، وكانا بالنسبة لي كنزاً لا يُقدَّر بثمن؛ فقد بينا لي حكم كثير من الأحاديث كنت أودّ معرفة حكمها من جهة الصحة والضعف.

وأدهشتني سعة المكتبة الحديثية عموماً وعند الشيخ على وجه الخصوص، من خلال تخريجه وعزوه إلى كثير من الكتب المطبوعة والمخطوطة، ومنها مخطوطات لم أكن أسمع عنها في تلك المرحلة ولا أقرأ عزوا إليها إلا عند الشيخ.

وكان عزو الشيخ الغزير إلى المخطوطات التي كانت في المكتبة الظاهرية بدمشق ميزة لا تكاد تجدها عند غيره بهذا الوضوح!

كنت في بداية مراحل التعلُّم، فأعجبني في الشيخ قوة نفَسِه وجُرأته في القطع، والطالب الصغير يرتاح للذي يقطع له الأحكام؛ لأنه لا يفرق بين الحيرة المؤلمة والترجيح الظني، فهو يريد بلوغ اليقين في كل شيء؛ ولذلك فهو يرتاح لمن يوصله إلى هذا اليقين بحق أو بتوهم الوصول.

أحببتُ الشيخ حباً جماً، خاصة مع انفراده بغزارة الإنتاج، وبحضوره الكبير في علم الحديث. فلا أعرف على مر التاريخ العلمي من حكم على هذا العدد من الأحاديث التي حكم الشيخ رحمه الله عليها! حتى لا تكاد تقف على حديث مرفوع، إلا وللشيخ عليه حكم في شيء من كتبه.

أحببت في الشيخ استقلاليته، ونبذه للتقليد. وما كنت أفرق بين التقليد والتعصب المذهبي، ولا أننا نخرج من تقليد لنقع في تقليد أكثر تعصباً وأكثر أخطاء.

قلَّدت الشيخ في كل شيء تقريباً، حتى في تحريم الذهب المحلّق! وكنت أحسب نفسي متبعاً للدليل، لا مقلداً.

ثم زاد من محبة الشيخ عندي ما علمته من حياته من تعرُّضه لبعض صور الأذى والملاحقات الأمنية، وهذه وحدها كانت كافية لكي ترفع الشخص عند الشاب المتحمِّس إلى مصاف أهل القدوة في كل شيء!

دخلت بعد ذلك الجامعة، فكان أن حصلت من أحد الزملاء على شريط بصوت الشيخ، فلا تسألوا عن مقدار سعادتي به، وعن عظيم تلذذي بتكرار سماعه. وصوت الشيخ أجش غليظ، يزيد من مهابته في النفس. وطريقة مجادلته، وحضور حجته، وضعف من يجادلونه في العادة؛ كل ذلك يزيد من القناعة به وبمكانته العلمية.

واستمرَّ طلبي لعلم الحديث، واستمرَّت استقلاليتي تنمو، حتى في علم الحديث. وبدأت لا أكتفي بأحكام الشيخ رحمه الله، ولا أكتفي إلا بدراستي المستقلة.

حتى أصبحت كتبه التي لا تُفصِّل الأحكام شبه مهجورة عندي، كصحيح الجامع وضعيفه، حتى إن كتبه التي خرجت على هذا النمط (بعد ذلك) كصحيح السنن وضعيفها مع اقتنائي لها، إلا أني قليلاً ما كنت أرجع إليها، لكونها لا تستدلُّ لحكم الشيخ ولا تبين سبب ترجيحه.

وخلال مرحلة الاستقلال هذه كنت ألحظ بعض أخطاء الشيخ، وبعض تناقضات أحكامه من كتاب إلى كتاب، ولكني كنت أتجاهلها، وأتغافل عنها، مع مخالفتي له فيها؛ لكني كنت أمتنع عن وضعها في سياق ميزان مكانة الشيخ، ولم أفكِّر أن أُعدِّل من تصوري عنه بملاحظة تلك الأخطاء.

ولما جاء الشيخ إلى السعودية جيئته الأخيرة سنة ١٤١٠هـ، وسمعت بإقامته بعض المحاضرات في جدة، حرصت غاية الحرص أن أراه. فحضرت محاضرتين له في جدة، وكنت أنظر إليه بقلبي، فلا أرى إلا نوراً!

ولما انتهى من محاضرته الأولى خرجت خارج المسجد الذي كان مزدحماً وممتلئاً تماماً، لأقابله وهو خارج من باب الجامع الخاص بالإمام. وقابلته، وسلمت عليه، وقبَّلت جبهته. وكانت سعادتي غامرة بذلك، لا أكاد أصدق حصول هذا اللقاء.

وكنت حينئذ منعزلاً، لا أعرف أحداً، ولا يعرفني أحد؛ إلا أني أعرف الناس من خلال كتبهم ونتاجهم العلمي. فكان هذا اللقاء العابر حدثاً عظيماً في نفسي، لا أنساه!

وأثناء كتابتي لرسالة الماجستير كنت قد خالفت الشيخ في أشياء عديدة منهجية في علوم الحديث، لكني ما زلت أرفض المساس بغلو مكانته في قلبي!

وفي مرحلة الماجستير كان المشرف على رسالتي الدكتور عويّد المِطرِفي رحمة الله عليه، وكان لي محباً وبي حفياً، ويقبل مني من الآراء ما لا يقبله من غيري. وكنت أعرف أنه يخالفني في عدد من القضايا، منها موقفي الغالي في حب رموز السلفية المعاصرة، وعلى رأسها الشيخ الألباني، ولكنه كان لا يُظهر لي كل ما لديه في ذلك.

وكان لي به لقاء أسبوعي لهذا الغرض، أقرأ عليه فيه ما كنت أكتبه في رسالتي.

فقلت في أحد المواضع من رسالتي: (وقال شيخنا الألباني)، فقاطعني الدكتور عويِّد قائلاً، وقد ظهر عليه أثر الانزعاج: هل تتلمذتَ على الشيخ؟ فقلت: تتلمذاً مباشراً.. لا، لكني تلميذه وجادة (على كُتبه).

فقال لي: يا حاتم أنصحك أن لا تنتسب لأحد من المعاصرين، أنصحك أن لا تتقيد باجتهاد أحد منهم، ولا تتحزَّب لأحدهم، وإن كنت ولابد فاعلاً، فاختر أحد الأئمة الماضين: سواء من أئمة الفقه أو أئمة الحديث.

فابتسمت، ولم أجادله، لكني عزوت هذا الموقف منه إلى خلافاته الفكرية مع منهج الشيخ الألباني!

وفي ذلك اليوم تحديداً، خرجت من غرفة الإشراف، ومررت (كعادتي) على المكتبات التي بجوار الجامعة، فكان ذلك اليوم هو أول يوم يصل فيه الجزء الأول من كتاب (تناقضات الألباني) لحسن السقاف، فبادرت بشرائه.

ولما وصلت البيت بدأت بقراءته بشغف، وتجاوزت النفسية غير العلمية التي كُتب بها الكتاب، لكني صببت اهتمامي على ملاحظة الحقائق العلمية، وهي وجود التناقضات الواضحة، والتي كنت ألحظها وأتجاهلها، وأرفض وضعها في ميزان التقويم، بسبب غلو الحب.

لقد استطاع هذا الكتاب (على ما فيه) أن يلحَّ عليَّ في ترك الغلو، إلى درجة لا يمكنني الانفكاك منه.

وأذكر أني مكثت أياماً بين الثلاثة أو الأسبوع، وأنا واجم، كثير التفكير، يحسبني من يراني مريضاً، أريد أن أصل إلى حكم عادل في الشيخ، حيث إني أخشى من الانتقال من الضد إلى الضد، من غلو الحب إلى غلو الانتقاص.

إلى أن توصلت إلى رأي في الشيخ يقوم على أربعة محاور:

١ـ فضل الشيخ عليَّ في أن أزداد تعلقاً بعلم الحديث، وأن أتعلم من كتبه وأستفيد من جهده، فهذا لا يمكن أن أنكره؛ إلا بجحود لا يستقيم في الأخلاق.

٢ـ فضل الشيخ على الجيل كله في توجيهه إلى علم الحديث وضرورة التثبت من صحة الأحاديث وتمييز صحيحها من ضعيفها، وقد كان للشيخ في ذلك جهده المميز، واستحق بذلك أن يكون محيياً لعلوم السنة.

بغض النظر عن صوابه من غلطه، فجهده كان له أثره الأكبر في العصر الحديث للتوجيه إلى العناية بالسنة وعلومها.

وقد شاركه في عملية الإحياء عدد من العلماء، لكنه كان الأبرز والأكثر حضوراً، بسبب غزارة إنتاجه.

وهذان الأمران هما أكثر مميزات الشيخ عندي التي لا تعارضها تلك الأخطاء والتناقضات، ولا يمكن أن تنسيني إياها.

٣ـ ترك الغلو في الشيخ، بالاعتراف بكثرة أخطائه، التي لم تبلغ غلبتها على صوابه، فما زال صوابه أكثر. لكنها أخطاء لا تجيز للمتخصص الاكتفاء بأحكامه، ولا متابعته بغير مباحثة ونظر.

وهي أيضاً أخطاء لا تُهدر جهده، وتجيز لغير المتخصص تقليده، بضوابط التقليد الصحيحة عند مخالفته لغيره من أهل العلم:

ـ بالترجيح بناء على الدليل: لمن فهم استدلال علماء الحديث على التصحيح والتضعيف.

فإن لم يفهم غير المتخصص (المقلد) استدلال المتخصصين أو لم يقف عليه، ينتقل للمرجح الثاني.

ـ بترجيح ما عليه جمهور علماء الحديث.

فإن تساووا في العدد من جهة عدم القدرة على الترجيح من خلال ذلك، ينتقل المقلد للخطوة الثالثة:

ـ بترجيح كلام الأعلم والأتقى، فمثلاً: إذا عارض الشيخ الألباني البخاري أو مسلماً أو أبا حاتم أو أبا زرعة، فغير المتخصص العاجز عن الاستدلال، والذي عجز عن المرحلتين السابقتين، عليه أن يرجح كلام الأعلم. ولا شك أن أولئك الأئمة كانوا أعلم وأجل.

تنبيه:

الشيخ الألباني ليس وحيداً في تكرر الأخطاء منه، فمن المعاصرين عددٌ من المعظمين عند تلامذتهم وأتباعهم مثله أو أكثر؛ كالغماريين الشيخين أبي الفيض أحمد وأخيه عبد الله رحمهما الله، فليسوا بأرفع من الشيخ الألباني في ذلك، بل هما عندي دونه منزلة.

ومذهبهما العقدي يفعل بهما أكثر مما يفعله نقص اطلاعهما على الطرق والأسانيد الذي تميز الألباني به عليهما. ولهذين الشيخين الغماريين رحمهما الله متعصبون يرفعانهما فوق منزلتهما، كما للشيخ الألباني من يفعل ذلك معه.

خاصة ممن يخوض العراك الطائفي بين الصوفية وغيرهم، وبين عقائد في التشيع مع معتقدات في التسنن.

٤ـ تحديد الأخطاء المنهجية أو المتكررة عند الشيخ، بدءا بــ:

أ ـ عجلة الشيخ في الحكم على الأحاديث، كما حصل في تخريج أحاديث مشكاة المصابيح وغيرها.

ب ـ تساهلٌ يتكرر منه في التصحيح والتحسين بمجموع الطرق، دون التزام بالقواعد الدقيقة لشروط ذلك. وهذا ليس دائماً، لكنه كثير ملحوظ، وهو أحد أسباب أخطائه المتكررة.

ت ـ قصور ملحوظ في الترجمة للرواة، فتوسعه في الترجمة قليل، مع الأهمية القصوى لذلك، خاصة في الرواة المختلف فيهم أو المقلين الذين يحتاجون إلى بذل وسع كبير للتعرف على حالهم.

ث ـ تهاونه وقلة حفاوته بتعليلات أئمة النقد كالبخاري وأبي حاتم وأبي زرعة والدارقطني وأمثالهم، فلا يتوقف عندها كما يجب، فإن هو نقلها، ما أسهل الاعتراض عليهم عنده بظواهر لا تكفي لصحة الاعتراض.

٥ـ ثم بعد ذلك بدأت بمراجعة عموم الآراء المنهجية للشيخ الألباني وغيره من مشايخ الدعوة السلفية، فمنها ما كان عندي صواباً، ومنها ماكان خطأ، كمحاربة المذهبية الفقهية، باسم اتباع الدليل. فما زادوا إلا أن أخرجوا الناس من تقليد المذاهب:

ـ إلى تقليدهم هم.

ـ أو إلى فوضى فقهية بحجة عدم التقليد.

هذه خلاصة قصتي مع الشيخ الألباني رحمه الله، كتبتها لأخذ العبرة، ولكي أفيد غيري من أخطائي.

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

الوَاقِعُ الدِّينِيُّ وَاتِّجَاهَات التَّمَرُّدِ فِيهِ

تنبيه: هذه الأفكار لا تخص طائفة دون طائفة من المسلمين، بل هي تعم المسلمين جميعاً.

ولا أريد أن أخوض فيها ببيان أي الطوائف كانت حظوظها منها أوفر ومن الصفات السلبية أكبر.

لقطات في توصيف الواقع الديني بين إيجابي وسلبي، وبين ما هو من جانب إيجابي ومن جانب سلبي:

١ـ أصول الدين محفوظة: من أصول العقائد (أركان الإيمان)، ومصادر التشريع (الكتاب والسنة والإجماع والقياس)، وأصول الفرائض والأحكام (أركان الإسلام، وتشريع الأخلاق، وتحريم الفواحش).

٢ـ تراث إسلامي اجتهادي ضخم في خدمة الدين: يتمثل في العلوم الإسلامية كلها، من علوم شرعية ولغوية وتاريخية (تخص التاريخ الإسلامي) وآداب وفنون.

ومع أن ناتج هذه العلوم ومفردات مسائله منها ما هو اجتهاد مقطوع به (يقيني)، فمنها ما هو مظنون (ترجيحي). ومع أن صواب التراث الاجتهادي كثير، وفيه الجميل والسامي والراقي، لكن خطأه أيضاً كثير، وفيه القبيح الهابط التافه، وقد يطغى في بعض الأحيان السيء فيه على الحسن، فيخفيه.

٣ـ تَراكُمُ الاختلافِ بعضِه فوق بعض وتزايدُه مع تزايد أعداد المشاركين في العلوم الإسلامية مع امتداد الزمن: وهذا الاختلاف منه ما هو اجتهادي معتبر وجيه (محمود غير مذموم)، ومنه ما هو اختلاف غير معتبر ولا وجيه (مذموم).

وكلَّما امتدَّ الزمن سيزيد هذا الاختلاف غير المعتبر وجوداً، وهو المقصود بالعبارة المعزوة إلى علي رضي الله عنه: (العلم نقطة كثَّرها الجاهلون).

حتى أصبحنا نقول: لئن كان العلم البشري بحراً فالجهل البشري بحور ومحيطات، يكاد يكون بحر العلم فيها بحيرة صغيرة تضيع في خارطة الجهل البشري.

٤ـ توريث التراث الاجتهادي لنا تاريخاً ضخماً من الصراعات العقائدية والفكرية التي أساءت.. لا إلى تاريخنا فقط، بل ما زالت تسيء إلى حاضرنا، وستستمر إساءتها إلى مستقبلنا، ولو بقدر أقل: إذا أمكن اعتبارها تاريخاً مطوياً.

لقد بلغت هذه الصراعات أقصى حدودها في معارك وحروب وسفك للدماء، إلى ما دون ذلك من صور الاضطهاد العقائدي والإكراه الفكري، والذي قد ينحط إلى درجة الكذب والافتراء على المخالف، بل وصلت حد الإسفاف وانعدام الأخلاق بالسب والشتم بأسفه الألفاظ.

وقليل مما وصلنا كان صورة حضارية من الحوار والنقاش بين المختلِفين، ولكن قلة ما وصلنا لا تمثل واقعنا المديد؛ إذ في العادة لا يُؤرَّخ إلا للمعارك، ولا يُسمع إلا الصراخ!

وهذا لا يعني عدم وجود تعايش وحوار هادئ، بل لا يلزم أن يكون التعايش والهدوء ليس هو غالبَ الحال!

٥ـ تدخُّل السلطات الحاكمة في الصراعات العقائدية والفكرية والعلمية تدخُّلاً جائراً (فليس كل تدخُّل لها خطأً وجوراً): إما قناعة (كما حصل مع المأمون العباسي)، وإما لتحصيل مكاسب سياسية، وقد تشترك الرؤيتان في التبرير للتدخُّل الجائر من قبل السلطات. وهذا التدخّل يبدأ بالإكراه الصريح على تغيير القناعات بالقوة، وينتهي بالاضطهاد الفكري الخفي غير الصريح.

والغريب: أن أهل الذمة من أهل الكتاب والملحقين بهم (كالمجوس) ربما كانت السلطات الحاكمة أكثر عدالة معهم، من موقفها مع أصحاب الأفكار والعقائد التي لم يخرجوا بها عن الحكم لهم بالإسلام.

وكأن شبهةَ كتابٍ محرَّف تشفع لأصحابها، بل إلحاق المجوس بأهل الكتاب في أحكام التعايش ولا شبهة كتاب عندهم قد شفعت لهم بالعدل معهم..

ولا شفع الإيمانُ بالرب الواحد والنبي الواحد والكتاب الواحد غير محرف في إعطاء حق العدالة مع المخالفين من أهل الإسلام!!

هذا يدل على أن الأمر تجاوز حدود الشرع: نقله وعقله.

ومن الصور المضيئة في تاريخنا لعدم تدخل السلطات في قمع الأفكار بالقوة:

ـ موقف علي رضي الله عنه من الخوارج.

ـ موقف المغيرة بن شعبة رضي الله عنه أول توليه إمرة الكوفة: فقد ذكر الطبري نقلاً عن أبي مخنف في أحداث سنة ٤٢هـ أنه ذكر بعث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه والياً على الكوفة، قال أبو مخنف: «فأحب العافية، وأحسن فِي الناس السيرة، ولم يفتش أهل الأهواء عن أهوائهم، وَكَانَ

يؤتى فيقال لَهُ: إن فلاناً يرى رأي الشيعة، وإن فلاناً يرى رأي الخوارج، وَكَانَ يقول: قضى الله أَنْ لا يزالوا مختلفين، وسيحكم الله بين عباده فِيمَا كَانُوا فِيهِ يختلفون، فأمنه الناس».

وأبو مِـخْـنَـف لوط بن يحيى (ت١٥٧هـ) ليس متهماً في هذا الكلام؛ لأنه مؤرخ شيعي ترجم له الملقب بـ(شيخ الطائفة) الطوسي في رجال الإمامية: رجال الطوسي (رقم٧٩٦) وفي مؤلفيها في فهرست كتب الشيعة وأصولهم (رقم٥٨٦)، وكذلك ترجم له النجاشي في مؤلفي الإمامية (رقم٨٧٣).

ـ ولَـمَّا كتب أبو إسحاق الشيرازي (ت٤٧٦هـ) إلى الوزير نظام الملك (ت٤٨٥هـ) يستحثه على الحنابلة، كتب إليه الوزير: «ورد كتابك بشرح أطلت فيه الخطاب، وليس توجب سياسة السلطان وقضية المعدلة إلى أن نميل في المذاهب إلى جهة دون جهة، ونحن بتأييد السنن أولى من تشييد الفتن، ولم نتقدم ببناء هذه المدرسة إلا لصيانة أهل العلم أو المصلحة، لا للاختلاف وتفريق الكلمة، ومتى جرت الأمور على خلاف ما أردناه من هذه الأسباب، فليس إلا التقدم بسد الباب.

وليس في المكنة إلا بيان على بغداد ونواحيها، ونقلهم عن ما جرت عليه عاداتهم فيها، فإن الغالب هناك وهو مذهب الإمام أبي عبد الله أحمد بن حنبل رحمة الله عليه، ومحله معروف بين الأئمة، وقدره معلوم في السنة.

وكان ما انتهى إلينا: أن السبب في تجديد ما تَجدَّد: مسألةٌ سئل عنها أبو نصر القشيري عن الأصول، فأجاب عنها بخلاف ما عرفوه في معتقداتهم.

والشيخ الإمام أبو إسحاق وفقه الله رجل سليم الصدر، سلس الانقياد، ويصغي إلى كل من ينقل إليه، وعندنا من تصادر كتبه ما يدل على ما وصفناه من سهوله يجتذبه، والسلام».

٦ـ ضمور العقل الإسلامي في العصور المتأخرة، والضعف في ترتيب الفكر ترتيباً سليماً منتجاً. فأنت بين غيابٍ للعقل، وحضورٍ ضعيف فوضوي.

وهو ما سبَّب تخلّفَ الأمة الإسلامية، وخفاءَ القدرة على الإبداع، منذ قرون (بدأت تتضح بقوة منذ القرن العاشر، مرورا بعصور الاستعمار). وهو ما يظهر في:

أ ـ شيوع الجمود المذهبي (وليس هو التقليد المبني على العلم بمآخذ الأقوال ومقاصد الشريعة وعلل الأحكام وإعمالها كلها في الفتاوى العلمية).

ب ـ ضعف الفهم في العلوم الإسلامية كلها (شرعيها ولغويها)، ببروز الحفظ والتلقين على حساب الفقه وإعمال الأذهان.

ت ـ السطحية (الظاهرية) في التعامل مع العلوم الإسلامية، لدى أكثر الموسومين بالتخصص فيها.

ث ـ غياب الخطاب العقلاني في العلوم عرضاً واحتجاجاً وحواراً: حتى أصبحتَ تجد أستاذَ المنطق غير منطقي في عرضه وحواره، وهو يُدرِّس المنطق ويحفظه! وأستاذَ الفلسفة ليس فيلسوفاً، ويعجز عن تكوين فكرة عميقة، وإن درَّس المناهج الفلسفية ومدارسها!

وشيخَ الفقه لا يحسن فهم الأدلة المتعارضة، إن استطاع الاطلاع عليها (ما يوافق مدرسته وما يخالفها)، رغم أنه ربما علا وتَسَامَى عن مجرد التلقين الفقهي إلى دعاوى التعليم العمليِّ لمناهج الاستدلال وقرائن الترجيح الفقهي!!

وأستاذَ أصول الفقه يغرق في دعاوى الاختلاف الأصولي، رغم أنه يزعم أن علمه هو آلة الفهم الصحيح، في حين أن دعاوى الاختلاف تلك قد أصَّلت لفكرة تعدُّد الحق وتَشعُّب الصِّحَّة ولو في أقوالٍ متناقضة، فهي دعاوى اختلاف تؤصل للفوضى الفقهية، وصاحبنا في غفلة عن ذلك، وما يزال يكرِّر: علم أصول الفقه هو آلة الفهم الصحيح، في حين قد جعله بسوء فهمه وسوء عرضه آلاتٍ لا آلة!!

ج ـ شيوع الخرافات والتمسك بالغيبيات الباطلة، وانتشار البطالة باسم التوكل والقبول بالدون باسم الزهد والذل باسم التواضع.. إلخ: من الأمور التي لا يقرها من الله وحيٌ ولا من الخلق هديٌ:

ـ بدءاً بالتمسح بالقبور وسؤال الأولياء والصالحين، إلى اللجوء للسحرة والعرافين، إلى الغلو والمبالغة في مسألة المس والسحر والعين حتى كأن هذه الأدواء وقف على المسلمين خاصة!

ـ وانتظار المخلِّص الغيبي كالمهدي الغائب عند الشيعة والمنتظر عند السنة، وأنا هنا لا أنكر المهدي، لكنني أنكر عقيدة العجز والتواني بسبب الانتظار والتمسك بالأوهام بحجة المهدي.

ـ والتواكل: ترك العمل باسم التوكل، وترك الإعداد للقوة بحجة الثقة بنصر من قصد نصر الله، أن فعل الفرائض العبادية وترك المناهي من المحرمات المنصوصة كاف لنهضة الأمة ولو لم تأخذ بأسباب النهضة المادية.

ـ الرضا بحياة القلة والفقر والعجز الاقتصادي والتأخر الحضاري: باسم الزهد في الدنيا وعمارة الآخرة.

ـ عُقْدَة المؤامرة: هي صورة من صور الخرافة. ولست أتكلم عن انعقاد المؤامرة إذا دل عليها الدليل، وعن أخذ الحذر من احتمال وقوع المؤامرة، وإنما أتحدث عن تعليق إخفاقنا على المؤامرات، والتعامل مع مجرد احتمال عقلي لوجود مؤامرة وكأنها قد وُجدت ووقعت !!

٧ـ الصدمة الحضارية: التي بدأت منذ عصر الاستعمار، ثم اتسعت جداً في العصر الراهن مع هذا الانفتاح العالمي من خلال الإعلام المفتوح والانترنت، ووسائل الاتصال والتواصل المتعددة، والاحتكاك المباشر بالحضارة الغربية من خلال الشركات وغيرها في العالم الإسلامي، ومن خلال السفر إلى الغرب للسياحة والتجارة والتعلُّم وغيرها.

وأدت هذه الصدمة إلى مواقف متباينة:

ـ من الرضوخ لها إلى درجة الاستلاب الفكري والهزيمة النفسية، قد يبدأ هذا الرضوخ من محاولة تطويع قيم الإسلام وأحكامه القطعية لقيم الغرب وأنظمته، وقد تصل حد الردة عن الدين بالانتقال إلى دين آخر أو الإعراض الكلي عن الدين (اللادينية أو الإلحاد).

ـ إلى الصدِّ عنها والهروب إلى منها، قد يبدأ بالمبالغة في تصور المؤامرة إلى درجة العُقْدَة، إلى ممانعة ورفض كل جديد، ولو كان أمراً في خدمة البشرية كالمخترعات والمكتشفات، إلى المواجهة الإرهابية بالاعتداء والقتل والإفساد.

ـ إلى محاولة التفريق بين خيرها وشرها، وموافق ومخالف للإسلام: متفاوتين في ذلك بين من يميل به الأمر إلى جانب الرضوخ أو إلى جانب الصدود والممانعة. ومع صعوبة هذا الانتقاء مع

عدم نقاء التصور الإسلامي عند المسلمين أنفسهم، مما يجعلهم مرات يرفضون ما يوجب القبول، أو يقبلون ما يوجب الرفض!! خاصة مع ذلك الخلل العلمي المشار إليه آنفاً.

٨ـ استغلال الغرب اختلافنا وصراعنا الديني في تمزيق الممزق وتفريق المفرَّق وإضعافنا، وأصبحنا كملوك الطوائف: نفرح بدعم الغرب لبعضنا على بعض، ونتصور أنه يمكننا أن ننتصر في نهاية المطاف.

مع أن ما يجمع طوائف المسلمين أكثر وأكبر مما يجمعه بالغرب، وإذا احتملت تصوراتُنا إمكانية التعاون مع الغرب لمصلحة متحدة، رغم تباين الدين، فكيف لم تسمح تصوراتنا بإمكانية التعاون مع بعضنا، مع اتحاد الدين، وإن اختلفنا في بعض أصوله التي لم تخرج بنا عن الحكم بالإسلام.

وقلت: «استغلال الغرب»، ولم أقل «إثارة الغرب»؛ لأن الغرب ليس مضطراً لإثارة النعرات الطائفية، فنحن من أسس لها بتراث طويل عريض، ونحن من أثارها. ويكفي الغرب أن يستثمرها، وربما أعان على تأجيجها، وربما أشعل فتيلها، لكن قابلية الاشتعال عندنا هي ما أنجحت مسعاه فينا.

التمرد الديني تعريفه وأنواعه:

هو رفض قاطع معلن لأمر ديني سائد تصعب مخالفته.

ولذلك فهو نوعٌ من الثورة وإعلانِ العصيان على ذلك الأمر:

ـ فلا يُسمى هذا الرفضُ تمرُّداً إلا إذا كان رفضاً لأمر له سطوة وسلطة تدعو للرضوخ له، ولذلك لا نسمي الرفض للاختيار الفقهي من المذاهب تمرداً، ولا نسمي مخالفة نظام جزئي تمرداً.

ـ ولا يُسمى هذا الرفض تمرداً إلا إذا كان رفضاً قاطعاً لا تردُّدَ فيها، وإلا كان شكوكاً وتحيرات.

ـ ولا يُسمى هذا الرفض تمرداً إلا إذا كان مصرَّحاً بها معلناً عنه من صاحبه، وإلا كان مداراةً أو مداهنة.

ولا يُستهان بالعقائد الخفية، فكثيراً ما ينفجر خفاؤها، وتصبح صراخاً وعداوة معلنة.

انقسام التمرُّد إلى محمود ومذموم:

ومن هذا التعريف نلحظ أن التمرُّد لا يمكن أن يكون كله مذموماً؛ لأن الحركات الدينية الإصلاحية كلها كانت رفضاً قاطعاً معلناً لأمر ديني كان سائداً منتشراً تصعب مخالفته، بل لولا أن مقام دعوة الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام أجلُّ وأشرف من تعريضها لبعض ظلال دلالة لفظ (التمرُّد) لصح وصف دعوة الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام بأنها من التمرد المحمود كل الحمد!

إذن التمرُّد: منه ما هو محمود، ومنه ما هو مذموم.

وعندها سيكون تعريف التمرد الديني المحمود هو: رفض قاطع معلن لأمر تسود نسبته القاطعة إلى الدين وهو مما قام الدليل اليقيني على بطلان نسبته إلى الدين.

واشترطت كون الأمر المرفوض مما تسود يقينية نسبته للدين؛ لأنه لو كانت نسبته للدين ظنية، لن تكون له سطوة وسلطة تستوجب أن يكون رفضه تمرُّداً، بل سيتقبل المجتمع فكرة رفض ما لا يقطع هو نفسه بصحة نسبته للدين.

وبذلك نخلص أن علاقة التمرد بالإصلاح: هو أنه جزء من التمرد، لكنه التمرد المحمود خاصة.

ولذلك فالتمرد المحمود يقي من الوقوع في التمرد المذموم، كما أنه يمنع التمردَ المذمومَ كثيراً من أسباب شرعية وجوده، حتى بعد وقوعه ووجوده.

لأن كثيراً من أسباب التمرد المذموم هي في حقيقتها: تلك الأخطاء المنسوبة للدين، وتلك التصورات الخاطئة عن الدين التي تشيع بين كثير أو أكثر المسلمين..

فإذا خرج الصوت الإصلاحي الذي يبين خطأ نسبة تلك العقائد والأفكار والأحكام للدين، كان هذا الصوت سبباً في منع التمرد على الدين.

وأما التمرد الديني المذموم، فهو: رفض قاطع معلن لأمر تسود يقينية نسبته إلى الدين، وهو كذلك (أي: وهذا الأمر المرفوض من يقينيات الدين).

أما إن كان الأمر الديني المرفوض من يقينيات الدين، لكن لجهل الناس أو انحرافهم لا يعدونه من يقينيات الدين، ولا يشيع بينهم أنه من يقينياته؛ فلن يكون رفضه تمرداً، وإن كان رفضاً مذموماً مقطوعاً ببطلانه؛ لأنه ليس فيه معنى الثورة على الأمر السائد التي تؤهله لوصف التمرد، وإن كان فيه وصف الضلال والانحراف الخطير الذي يوجب التحذير منه وتصحيحه.

أما أنواع التمرد المذموم: فهي تتعدَّد وتكثر بحسب كثرة وجوه أسبابه، ولذلك كانت الأمة الإسلامية من أكثر الأمم تعدُّداً لأنواع التمرد؛ لأن أسبابه فيها من أوفر الأسباب!

١ـ فهناك التمرد العقائدي: وهو التمرد على العقيدة الإسلامية كلاً أو أصولاً. فقد يصل التمرُّد الديني حد الكفر والإلحاد أو إعلان اللادينية، وقد يكون تمرداً على بعض أصول العقائد كإنكار الملائكة أو بعض قطعيات عالم الغيب كالجن والسحر.

٢ـ التمرد المرجعي: وهو إنكار مرجعية أحكام الإسلام في تنظيم أمور الحياة، كما في العلمانية الغربية. وكإنكار ضبط الحريات بالتشريعات الإسلامية الصحيحة (غير المحرفة)، بحجة الليبرالية الغربية.

٣ـ وهناك التمرُّد المنهجي: وهو التمرُّد العبثي على العلوم المنهجية من علوم الإسلام، باعتبارها التي تحدد مصادر التشريع وتحدد آلية الفهم والاستنباط: كعلم أصول الفقه (كما وقع عند الشيعة الأخباريين)، وعلم علوم الحديث (كالمنهج المسمى بالعقلاني أو القرآني في موقفه من الاحتجاج بالسنة)، وعلوم اللغة (كمنهج التاريخانيين الذين لا يجعلون للنص دلالة لغوية ثابتة، بل تختلف دلالته باختلاف المتلقِّين).

وقد يصل هذا التمرد بصاحبه إلى التمرد العقائدي، وقد لا يصل.

٤ـ وهناك التمرد القيمي والأخلاقي: وهو رفض القيم الإسلامية والأخلاقيات الدينية، بوصفها رجعيةً أو لا إنسانية.

كرفض الحرية بالإطار الديني الذي يجرم التطاول على المقدسات، تقديساً لحرية التعبير الغربية التي لا تحترم المقدسات الدينية.

وكرفض مفهوم الغيرة على الأعراض بالمفهوم الإسلامي (كخُلق إسلامي يقيني)، لكونه في الغرب رجعيةً ومعارضاً للحريات الشخصية.

وكرفض بعض العقوبات الإسلامية في الحدود، بحجة أنها وحشية لا إنسانية.

وكرفض بعض الأحكام اليقينية المتعلقة بالنساء، كتعدد الزوجات والحجاب والشهادة والإرث، بحجة المساواة بين الرجال والنساء.

٥ـ وهناك تمرُّد على التميز الظاهري للمسلم في هيئته ولباسه ومأكله ومشربه، لا يقف عند تركها، بل يصل حد بغضها وانتقاص الملتزمين بها وتشكُّل صورة نمطية عنهم (أنهم رجعيون أو متطرفون).

ولولا أن هذا التمرد له أثره على القلب والقناعات، لكان مما يجب اختفاؤه مع ما هو أخطر منه من أنواع التمرد الأخرى.

أسبابُ التمرُّد المذموم:

هي نفسها لقطات توصيف الواقع الديني السابقة، باستثناء الإيجابي منها.

١ـ الواقع الإسلامي المأزوم والضعيف والمهدَّد بما هو أسوأ من حاله: سياسياً وحضارياً ودينياً.. إلخ.

لا شك أن هذا الواقع لابد أن يدعو إلى التمرد بأنواعه، وليس من السهل ضبط النفس والواقع الذي نعيشه لا يضبط نفسه، وليس من السهل أن تكون العقول ذات حلم وأناة وعجلة الواقع وجهالاته تدع الحليم حيران.

فالهزيمة العسكرية، والهزيمة العلمية التِّـقْنيَّة، والهزيمة الأخلاقية (عندما يصبح الصدق والوفاء بالوعد على المستوى الشخصي عند الغربيين أظهر) والهزيمة الإعلامية (عندما يصبح إعلامنا وأفرادنا متأثرين بالإعلام الغربي ولا نستطيع أن نؤثر فيه، رغم قضايانا العادلة الكثيرة) والهزيمة الإنسانية (عندما يشعر المسلم أن كرامته الإنسانية محفوظة في الغرب أكثر منها في أكثر العالم الإسلامي).. إالخ؛ كيف لا يَنْـتُـجُ عن هذه الهزائم كلها تمردٌ، وكيف لا يكون غالبه تمرداً مذموماً في ظل هذه التأزُّمات ومع ضعف العلم والوعي والثقافة مما يأتي ذكره.

٢ـ الضعف العلمي لدى غالب المتصدرين للعلوم الشرعية، مما جعلهم:

ـ غير قادرين على مواكبة العصر باجتهاد علمي متجدد ومنضبط.

ـ غير قادرين على تخليص التراث من أخطائه، والتي قد يصل بعضها حد السخافات والتفاهات، وما زالت تُعرض على أنها صحيحة أو أنها خطأ لكنها وجهات نظر معتبرة في أحسن الأحوال، وهي بخلاف ذلك تماماً.

ـ غير قادرين على عرض الدين (دون تنازلات) لكن بما يوافق الذوق والمزاج والفكر العام.

مما جعل دفة القيادة في يد دعاة التجديد غير المؤهلين علمياً للقيام بعملية التجديد، وهذه إحدى أسباب ظهور دعاة التبديل والتحريف باسم التجديد والإبداع.

٣ـ ضعف القدرة على الإقناع، بل العجز عن الحوار العقلاني عند كثير من العلماء فضلاً عن طلبة العلم والدعاة.

مما مكَّن للانحرافات العقدية والفكرية وغيرها أن تشيع، لضعف القدرة على بيان تهافت شُبهها، بل لضعف تحصين أبناء المسلمين بالقناعات المبنية على الأدلة العقلية اليقينية.

٤ـ الغلو والتطرف والتشدد الذي يُنسب إلى الدين وهو منه براء، فلا أَدْعَى للنفور من الدين وأحكامه مثل أن يُنسب إليه الغلو والتطرف والتشديد الذي يعارض سماحته ويُسره.

٥ـ ممارسة الكهنوت باسم الدين: ستكون نتيجته الحتمية ما حصل في الغرب والمسيحية من التمرد على الدين ورجاله.

٦ـ عدم القدرة على التعايش بين الطوائف الإسلامية، بل عدم القدرة على التعايش مع اختلاف الرأي حتى بين أتباع الطائفة الواحدة، والعجز عن التفريق بين الخلاف الإسلامي الإسلامي والإسلامي مع غير الإسلامي، والعجز عن التفريق بين الخلاف المعتبر وغير المعتبر، بجعل المعتبر غير معتبر، وعدم التزام آداب الاختلاف.

مما أجج الصراعات الطائفية والمذهبية، والتي تبدأ بالحوارات التي لا تلتزم بأدب الحوار، وتنتهي بالتكفير والقتل وسفك الدماء.

لقد أصبحت العلمانية الغربية (على عدم توافقها مع الإسلام) تحت وطأة هذه الفتن الطائفية أقل مفسدة على الإسلام والمسلمين من إسلام الطائفيين؛ لأنها ستمنع سعار الطائفية التي تشتعل في العالم الإسلامي.

ثم ما الفرق عند الشاب أو المسلم الذي لم تَطْـرُق سمعَه يوما الأدلةُ اليقينية على صحة النبوة: بين واقع هذه الطوائف الإسلامية التي يُكفِّر بعضُها بعضاً وواقعِ المسلمين كلهم مع ملل الكفر (فكلهم عند كلهم كفار)، وما الفرق بين تكفير ملل الكفر للمسلمين وتكفير المسلمين لهم؟!

لن يجد هذا المسلم أي فرق؛ اللهم إلا أنه نشأ في بيئة مسلمة، فإذا تأثر بالانفتاح العالمي، واتصف بقوة الشخصية، ضَعُف عنده ضغط البيئة، فشكَّ في الأديان كلها، وآمن أن الأديان أفيون الشعوب (الشعار الماركسي).

٧ـ ضعف الوعي ونقص الثقافة لدى عامة هؤلاء المتمردين، فهم أبناء مجتمع يعاني من هذه الأدواء؛ إلا قليلاً.

فعندما يصبح العالم الإسلامي منكشفاً عقائدياً وفكرياً وحضارياً أمام أمم الشرق والغرب، لا يُحصِّنه شيءٌ أمام هذه العقائد والأفكار والقيم التي تأتيه مع الهواء والماء وأشعة الشمس، بسبب ضعف وعيه وثقافته وبنائه العقلي، وبسبب تخلخل قناعاته الدينية التي لم تُبنَ بناءً صحيحا لديه؛ ستكون النتيجة هي التمرد على الدين، بصوره المختلفة.

ولذلك نماذج كثيرة، منها ما يلي:

ـ فعندما يصدق المسلم أن النصرانية دين متسامح، لانخداعه بالواقع الغربي، غير مفرِّقٍ بين واقع علماني أقصى الكنيسة عن الحياة وواقع الكنيسة يوم كانت مسيطرة، وعندما لا ينظر في التاريخ الدموي للكنيسة ولمحاكم التفتيش وللمذابح التي قامت بها النصرانية في أسبانيا والأمريكتين والفلبين وغيرها، بل حتى في فرنسا وبريطانيا بين فرق النصرانية؛ سيتوهم هذا التوهم، الناتج عن ضعف الثقافة.

ـ وعندما يربط المسلم ربطاً غير علمي بين التقدم وصحة الدين وبين التخلف وخلل الدين، فيعتقد أن هذا دليل صحة غير دين الإسلام.

هذا سيكون خللاً فكرياً هائلاً؛ لأن الأمم المتقدمة اليوم في الشرق والغرب متباينة الأديان متناقضتها من بوذية وكنفشيوسية وهندوسية ونصرانية (يكفر بعضهم بعضاً) ويهودية؛ ولأن حصول هذا التقدم المادي كأي بناء مادي يحصل باتباع خطط وأعمال مادية وفق سنن الله في التقدم والعمران، ولا يمنع منها فساد الدين.

ـ وعندما لا يعرف أبناء المسلمين علومَهم الإسلامية ومتانة بنائها الأصلي، ولا يفرقون بين يقينياتها وظنياتها، ثم يجدون ما لا يقبلونه منها؛ إما لكونه من أخطاء التراث فعلاً، وإما لكونه من أخطائهم هم في فهم التراث، فيقومون بالتطاول على التراث كله، فسيكونون متمردين التمرد المذموم؛ لأنه تمرد غير علمي.

٨ـ ولن أذكر عداوة أعداء الإسلام وخططهم في نشر الشبه والشكوك، لا لعدم وجودها، ولكن لأن وجودها حتمي تحتِّم أبدية الصراع بين الحق والباطل؛ ولكن لأنها عداوة وخطط لولا وجود تقصير لدينا لما عملت فينا عملها.

وسائل مواجهة التمرد المذموم:

وستكون بمواجهة أسبابه، والتفصيل في سبل المواجهة هو تفصيل في مشاريع النهضة الإسلامية.

ولذلك فلن أتكلم عن وسائل مواجهة الواقع الإسلامي المأزوم والضعيف والمهدَّد بما هو أسوأ من حاله: سياسياً وحضارياً ودينياً... إلخ، ولن أتكلم إلا عما أراه ألصق بنا كمختصين شرعيين وأساتذة فكر وتوجيه:

وسأركز على واجب الإصلاح الديني وما يتطلبه من تسلح بالعلم الواسع والشجاعة الكبيرة والاستعداد للفداء، فسبيل الإصلاح صعب.

وهنا أذكر بواجب المصلحين الشيعة في تصحيح تراثهم بما يدعو للتعايش، محاولة مراجعة ذلك التراث بعلم وموضوعية، مما لا أشك أنه سيؤدي بهم إلى مراجعات كثيرة، وقد حصل كثير منها، لكن من أصوات قليلة، سرعان ما أُقصيت، وضعف تأثيرها.

التوقعات المستقبلية لواقع التمرد الديني، وإلى أين سيتجه:

أما الواقع القريب فلا يبشر بخير، وأما الأمل فأقوى من الواقع، وأما السعي فدون الأمل، لكن نرجو الإعانة عليه من الله.

ولن يحاسبنا الله تعالى بالنتائج، ولكن سيحاسبنا بما بذلناه وما قصرنا فيه، فالنبي يأتي يوم القيامة وليس معه إلا الرجلُ والرجلان، ويأتي النبي ليس معه أحد.

لا لنقص في الدعوة ولا في أساليبها ولا دلائل الإقناع بها، وإنما لسوء الواقع عن الاستجابة للإصلاح.

وأما الواقع البعيد فسيكون انتصاراً للحق والعدل، مهما طالت ظلمة الباطل!



في التقليد والاجتهاد

(تَقلِيدُ حُرِّيَّةِ الغَيْر)

التقليد عبودية، ولو كان تقليداً للحريَّة. فإن كنتَ مـخيَّراً بين تقليد ماضيك وتراثك، وتقليد حرية غيرك وحاضره، فلا تتردَّد في اختيار ماضيك؛ لأنك حينئذٍ سوف تتقن التقليدَ وتحسنه (أولاً)..

وثانياً: لأنك أن تكون عبداً لماضيك خيرٌ لك من أن تكون عبداً لحاضر غيرك؛ فماضيك منك؛ ولذلك كانت عبوديتك لماضيك أرحم بك من عبوديتك لحاضر غيرك. والانعتاق من العبوديتين كلتيهما هو الأفضل.

* * * * *

(مُقَلِّدٌ وهُوَ لا يَعلَمُ أَنَّه مُقَلِّدٌ)!

المشكلة الحقيقية لا من مقلد يعلم أنه مقلد (كالعقلاء من مقلدة المذاهب الأربعة)، ولكن من المقلدين الذين لا يدرون أنهم مقلدون، فهم كأصحاب الجهل المركب (ممن لا يدري، ولا يدري أنه لا يدري).

فهؤلاء: مقلدون ويحسبون أنفسهم يتبعون الدليل. وعلامة هؤلاء: أنهم يظنون أنفسهم وحدهم من يرجع إلى الدليل، وأنهم الناطقون الرسميون باسم الكتاب والسنة، ولذلك لا يوفرون سبيلاً لإسقاط من خالفهم؛ لظنهم أنه ما خالفهم إلا لأنه مضادٌّ للدليل.

* * * * *

(بِحُجَّةِ حُرِّيَّةِ الاجتِهَاد)

بحجة حرية الاجتهاد يمارسون الفوضى الفكرية!

وبحجة حرية الاجتهاد يستخفون باجتهاد أئمة الاجتهاد!

وبحجة حرية الاجتهاد لا يفرقون بين مخالفة المجتهدين وتحقيرهم!

وبحجة حرية الاجتهاد يتكلمون فيما يجهلون ويقفون ما ليس لهم به علم!!

لقد دعا العلماء المتحررون قبلكم للاجتهاد، وأوذوا قديماً وحديثاً بسبب الدعوة إليه من المتعصبين، وفرَّقوا بين حفظ مكانة الأئمة وتقليدهم (قبل أن يسمع آباؤكم بهذا التفريق)، وفرَّقوا بين التطاول على الأئمة ومخالفة اجتهادهم (قبل أن تكونوا شيئاً مذكوراً)..

لكن دعاة الاجتهاد من العلماء كانوا يدعون إلى حرية الاجتهاد بحق: بعلم، وبأدب!

فلستم أنتم دعاة الاجتهاد، بل دعا له أهله قبل أن تولدوا!! فارتاحوا من لباس الزور الذي تلبسون، وكأنكم أنتم من حملة راية الاجتهاد!

لقد حملها قبلكم أصحابها:

إذا مَا رايةٌ رُفِعَتْ لِمَجْدٍ ... تَلَقَّاها عَرابَةُ باليَمينِ

وأما أدعياء الاجتهاد المعاصرون ممن سبق الحديث عنهم، فهم عار على الاجتهاد، وسُبة للحرية الفكرية؛ لأنهم يدعون للكلام بجهل باسم الاجتهاد، ويمارسون الفوضى والتخبط الفكري باسم الحرية الفكرية!!

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

التَّقلِيدُ مِنْ وَاجباتِ حُرِّيَّةِ التَّفكِير

اعتدنا في السنوات الأخيرة الهجوم على التقليد، هجوماً كاسحاً ومطلقاً، دون رحمة ولا استثناء! تحت اسم اتباع الدليل، أو تحت اسم الحرية الفكرية، أو تحت شعار رفض الكهنوت الديني، أو الانتفاضة على فرض الوصاية من رجال الدين (كما يقال)!

وجزء من هذه الثورة صحيح، وكل تلك الأسماء والشعارات يمكن أن يصطفَّ تحتها الحق صِرْفاً، ويمكن أن يصطف تحتها الباطل صرفاً، فكيف بإمكان اصطفاف الحق والباطل جميعاً تحتها؟!

وقد كتبت كثيراً عن وجوب انعتاق العقول من قيود التفكير، وعن وجوب إسقاط المسلمات الموهومة، وعن أهمية نزع القدسية عن غير المقدس. لكنني من حين لآخر ألحظ الغلو في الجانب الآخر: جانب الانفلات والفوضى الفكرية، وتحت تلك الشعارات نفسها. فكنت (ولا زلت) أعيد وأكتب وأوجه بما يدل على أن الغلو في جانب الانفلات لا يقل خطأ وخطورة من جانب الغلو في الجمود والتقولب في قوالب المذاهب والمدارس.

وفي هذا السياق أذكر أن من التقليد ما هو واجب عقلي، ولا ينكره إلا مختلُّ العقل! فليس صحيحاً أن يُنكَر التقليد بالكلية، فهذا طرف من جنون العصر، وجزء من تقليعات حرية التفكير بمفهومها الفوضوي!

فمَنْ مِنَ الناس مَنْ لا يقلد فيما لا يعلم مَنْ يعلم؟!

أوليس غير الطبيب يذهب للطبيب فيسلمه نفسه أو أعز الناس لديه، لا يستطيع إلا أن يقلده، أو يقلد غيره، أو عددا من الأطباء، فيما لو ارتاب في تشخيص أو علاج أحدهم؟ فهو لن يخرج عن التقليد ما دام يجهل الطب.

أوليس غير المهندس يسلم المهندسين أغلى ما يملك من مال وعقار لكي يقيم مشروع عمره، ولا يستطيع أن يناقشهم فيما لا يعلمه من علمهم وعملهم.

أو ليس الطبيب نفسه يعتمد على نتائج مختبرات وتجارب قام بها غيره، ولا وقف عليها، ولا باشرها بنفسه؛ ثقةً منه بالسمعة العلمية لذلك المختبر أو المركز البحثي. فهو مقلد لهم، لا يخالفهم؛ إلا إذا أبدت دراسة أخرى نقدا أو تشكيكا في نتائج ذلك المختبر.

فلماذا يظن بعض أبناء المسلمين أن علوم الإسلام ليست كذلك؟! لماذا يظنون جواز التقليد في كل العلوم التي يجهلونها، وأن هذا ليس حجراً على الحرية الفكرية، ولا تكون حجراً عليها؛ إلا في العلوم الإسلامية؟! لماذا يقلدون كلام الفلاسفة والمفكرين، ويعتمدون مناهجهم

الفكرية، ولا يرون ذلك استلاباً فكرياً، ولا وصاية عقلية؛ فإذا قيل لهم في مسألة شرعية: هذه مسألة دقيقة ليس لكم فيها إلا التقليد، قالوا: ما هذا الاستعباد الفكري؟! مضى زمن فرض الوصاية على العقول!!

أعلم أن سطحية كثير من المتمشيخين ومن ادعياء العلم كانت فتنة لهؤلاء، حتى ظنوا العلوم الإسلامية بسببهم علوماً سطحية لا تحتاج تخصصاً، ولا تحتاج أكثر من ذكاء وذهن وقاد لكي يكون الشخص مجتهداً!!

لكن سطحية هؤلاء المتصدرين للتعليم والفتوى لا تُـمثِّـلُ حقيقة العلوم الإسلامية!

خذوا كتاباً أصيلاً من كتب أصول الفقه أو علوم الحديث أو النحو أو الصرف.. واقرؤوا فيه، لتعلموا أنه بالنسبة لكم طلاسم وأسرار وألغاز، بالنسبة لغير المتخصص، كما يقرأ غير الطبيب في كتب الطب المتقدمة، أو غير الفيزيائي في الفيزياء الدقيقة.

إن رجوع الإنسان فيما يجهله إلى من يعلم واعتماده عليه: هو منهج يُوجبه العقل السليم، بل لا يوجد عاقل إلا وهو يمارسه في حياته. ومَنْ قال غير ذلك، فقد كذب كذبة لا تخفى على أحد، فالتقليد يحيط بنا (بني البشر) من كل جانب، يحيط بنا بقدر ضعفنا البشري الشديد والبعيد كل البعد عن إدراك كل العلوم!

ولذلك كان من التقليد ما هو حرية فكرية؛ لأن الحريةَ الفكريةَ ليست الخوضَ بجهل فيما تجهل، وإنما هي الخوض بعلمٍ فيما تعلم، وتفويض ما لا تعلم لمن يعلم!

فلا تجعلوا دعوة الحرية الفكرية سبباً في أن تقعوا في أسر العبودية للفوضى، وفي أسر النرجسية والغرور؛ فهذا هو حال ادعياء الثورة المطلقة على التقليد: فروا من عبودية الاستلاب الفكري للآخرين، فوقعوا في عبودية استلاب لعدم الفكر؛ فما كانت الفوضى الفكرية يوماً عملاً فكرياً، فضلاً عن أن تكون حرية فكرية.

* * * * *

(لا يُقِرونَ بِالتَّقلِيدِ الأعمَى)

حتى أصحاب التقليد الأعمى إذا حذرتهم من التقليد الأعمى قالوا: هناك تقليد أعمى، وهناك اتباع بمعرفة الدليل الذي يرجح قول عالم على آخر!!

فالتقليد الأعمى لا يقر به حتى أشد الناس عمى به!!

وهم أنفسهم إذا سمعوا من يبين لهم بعض أخطاء معظميهم، تكلموا عن خطر الكلام بغير علم، وعن شؤم الاغترار والتطاول على العلماء..

لقد واجه فقهاء المالكية بمصر الإمام الشافعي بهذه التهم، وبها قوبل ابن تيمية من علماء عصره أيضا، فهذه سنة المقلدين.

* * * * *

(الأدَبُ مَعَ العِلْم)

الأدب مع العلم يقتضي عدم الاستخفاف باجتهاد العلماء، خاصة إذا كانوا عدداً من المجتهدين الأحرار غير المقلدين، ومن مدارس متعددة، كالأئمة الأربعة.

فإنه إذا لم يكن اجتهاد هؤلاء الأئمة يستحق الاحترام والتخوف من مخالفته، فضلاً عن التأدب معه بعدم الاستخفاف به، فاجتهاد مَنْ الذي يجب التأدب معه؟!

فحُكْمِ المرتد الذي خالف فيه بعض المعاصرين الأئمة الأربعة، بل عامة أهل العلم (فقد حكي فيه الإجماع)، هناك من يتكلم عن اجتهادهم وكأنه قول لا وزن له!!

فعجبت من جرأة الفوضى الفكرية: أن يصبح القول المستحدث، والرأي الجديد ليس فقط: الصواب، بل هو الحق، وقول أئمة الإسلام جهلاً وظاهرية ومخالفاً لقطعيات الدين بأن لا إكراه في الدين؟!

هذا الحد من الغلو أكبر دليل على الخلل الفكري والاضطراب في تقدير الأمور، والخروج عن نسق العلم وموضوعيته.

ومن استخف باجتهاد أئمة الإسلام حقه أن يبحث عن خلله ويسعى لعلاجه.

* * * * *

(البَاحِثُ الَّذِي نُرِيد)

قال لي: ماذا تريد؟! لا أنت مع من نظنهم من دعاة التجديد ولا مع التراثيين الذين نسميهم الجامدين! تعبنا معك!!

فقلت له: بسهولة أنشد الباحث الذي يكون له:

ـ فهمٌ يحاول التعمُّق بصدقِ نيةٍ وصدق عمل، ولا يكفي صدق النية وحده في الحرص على التعمق في الفهم، بل لا بد من توفُّر أسباب التعمق واتباعها عملياً.

ـ ومباحثةٌ وفحصٌ ينشد الاستقلال، ويتمرَّد على تَبعية الإمعية، ولا يَـجْبُنُ عن ردِّ مُسلَّمة مزعومة وثابتٍ مُدَّعى، فضلاً عن أن يجبن قبل ذلك أصلاً، كما أشاهده كثيراً عند بعض أذكياء الباحثين: حيث يَـجْـبُـنون عن عرضِ شيءٍ من ذلك على الفحص والنقد أصلاً، خشيةً من نتائج الفحص والتمحيص قبل الوصول إليها؛ خوفاً من احتمال الوصول إليها!!

فإن كان هناك في العلم حربٌ استباقية و(جهاد طلب)، فَـفِـعْـلُ هؤلاء إنْ هو إلا الضدُّ من ذلك: فإنْ هو إلا جُبنٌ استباقيٌّ وفرارٌ قَبْلِـيّ، وهزيمةٌ قبل التفكير في المعركة!!

ـ بمنهجية علمية صحيحة، لا تتغافل عن الثغرات، ولا تقفز فوق الحقائق للوصول إلى نتيجةٍ لا يؤيدها الاستدلالُ العلميُّ الصحيح، والذي قد تُـمارَسُ قفزاتُه البهلوانية: إن بحجة الانتصار للتراث، وإما بحجة التجديد والاستقلال.

* * * * *

(الذِي كَانَ تَمَرُّداً هُوَ اليَوم جُمُودٌ)!

كتبت مقدمة طويلة لرسالتي للماجستير، طبعتها بعد ذلك منفصلة عنها في مجلد سنة ١٤١٦هـ، باسم (المنهج المقترح لفهم المصطلح).

وانتقدت فيها أخطاء وقعت من بعض الأئمة في علوم الحديث، ومنها أخطاء وقع فيها الحافظ ابن حجر رحمه الله في تقريره لبعض مصطلحات علوم الحديث، بأدب وعلم، واصفاً إياه بما هو له أهل من الإمامة في العلم والدين، معتذراً عن تخطيئي له، بما لا يمنعني من تقرير ترجيحي بكل وضوح وصراحة، ولا يجرئ على التطاول عليه.

وكانت أقسى عبارة قلتها عن أحد أخطائه رحمه الله: إنها من (كيس الحافظ)، بمعنى أنه لم يُسبق إلى ذلك الخطأ، وأنه خالف فيه العلماء قبله بغير دليل يصحح المخالفة!

فكانت تلك المقدمة لرسالتي سبباً لعدد من المقالات والكتب للرد عليَّ، واتهامي بما ليس عندي، وبالتطاول على الأئمة!!

وهذا الآن أصبح تاريخاً، بل كان تاريخاً عندي من حين أن كُتب، فله الآن نحو عشرين سنة. كتبت بعده عشرات البحوث والكتب، وما ازددت إلا يقيناً من صحة نقدي، ومن خطأ الحافظ ابن حجر في تلك المواضع، ومن جمود وغلط المدافعين عنه بتعصب وجهل، وربما ببغي أيضاً يلبسون به ثوب الحمية للأئمة.

لكن الذي جعلني أذكر هذا الأمر اليوم: هو تذكري لمن كان يرد علي في ذلك النقد حينئذ، ويصفني بالتطاول على الأئمة، ماذا سيقول مع هذا كل هذا العبث والتطاول الذي ما بعده استخفاف واستجهال للأئمة والعلوم؟! ماذا سيكون موقفهم من عدنان إبراهيم وأمثاله؟!

وهل سأكون عندهم متطاولاً على الأئمة، وفي الوقت نفسه سأكون جامداً مقلداً عند أدعياء التجديد؟!

حقا.. إنها لسخرية الحدث: ما كان تمرداً وتطاولاً على التراث، هو اليوم جمود وتقليد وصدأ فكري!!

هي فتنة.. يضيع فيها المتعجلون المندفعون، ولا ينجو منها إلا الحلماء الرزينون الذين لا يخطون خطوة بغير تمام تثبُّتٍ وكمال تحرٍّ.

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

(التَّجدِيدُ المَقبُولُ هُوَ المَبنِيُّ عَلَى العِلمِ بِالتُّرَاث)

مما جرأ المتطاولين على علومنا الإسلامية، باسم البحث العلمي الحر، والمراجعة الفكرية للتراث، وتطبيق المناهج البحثية الحديثة عليه:

وجود ركام من الأخطاء في تراثنا، تكررت فيه، وترسخت في مؤلفات كثير من المتأخرين، وأصبحت كالمسلَّمات، وهي مجرد أوهام، أو فرضيات لا تقوم على دليل.

وللجمود والتقليد لدى كثير من الباحثين، ولنقص الشجاعة الأدبية لدى آخرين منهم، بقي ذلك الركام ركاماً، كما كان.. إذا لم نزده أخطاء وركمناه نحن بجديدنا منها!!

فوجد المتطاولون تلك الأخطاء، فجرأتهم على علومنا: صوابها وغلطها، مسلماتها وأوهامها، دون تفريق.

فعملية التصحيح والتجديد، إن لم تبدأ من علم عميق بتراثنا، فهي لا تقل خطراً عليه من الجمود والتقليد، بل ربما أخطر؛ لأن الجمود والتقليد وعاء يحفظ التراث بخيره وشره، وهذا التطاول لا يحفظ التراث، ولا يحرره من عبودية الجمود والتقليد ومن قيود الخطأ والوهم التي تمنع انطلاقة الاجتهاد من إصلاحها المنشود!

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

(أسوَأُ اجتِهَادٍ وأسوَأُ تَفكِير)

أسوأ اجتهاد: اجتهاد المتعصب للتقليد؛ فهو يجتهد فقط للدفاع عن مذهب الذي يقلده، فيأتي في اجتهاده هذا بالعجائب؛ لأنه لم يمرن على الاجتهاد، ولا اعتاد عقله وعلمه عليه، ثم فجأة: يريد أن يمارسه.

وأسوأ اجتهاد المتعصب للتقليد: اجتهاد من لا يدري أنه مقلد أصلاً؛ كأدعياء اتباع الدليل، وهم مقلدون متعصبون لحزبهم وشيوخه، فيأتي اجتهادهم بعجائب البدع المضحكة المبكية!

وأسوأ تفكير: تفكير الجامدين، فهم لا يفكرون إلا دفاعاً عن الجمود، فتخرج أفكارهم مسخاً بين الجمود والتفكير، فهو يفكر ليمنع التفكير!

وأسوأ تحليل سياسي (إن صح وصفه بأنه تحليل): تحليل العاجزين عن تحليله وتفكيكه، كالطائفيين، الذين لا يستطيعون فهم الواقع وتفسير حوادث التاريخ والحاضر والمستقبل إلا من خلال طائفيتهم.

لأن هؤلاء لا يستطيعون التحليل أصلاً، فالتحليل يحتاج عقلاً تفكيكياً، يفكك النظر للأشياء إلى أجزاء صغيرة، لينظر لها نظراً دقيقاً، ونظراً متجرداً.

وعقول هؤلاء عقل جمعي (ضد العقل التفكيكي)، وهو العقل الذي لا يحسن النظر إلا إلى المجموع: فكل حدث لا بد أن يفسره من خلال ارتباطه بطائفيته.

* * * * *

(كَيفَ يَكُونُ التَّقلِيدُ فِي هَذِه الحَالة)؟

إذا اتفق جميع الأطباء في قديم الدهر وحديثه على اليقين بأمر طبي، ثم وجدت نفسك (وأنت غير متخصص في الطب) تميل إلى إمكان تصديق شخص واحد يناقض قولهم جميعاً، فعليك مراجعة نفسك والتأكد من سلامة تفكيرك:

١- فأنت لست طبيباً يمكنك أن تعرف المعلومات الطبية، فلست مؤهلاً إلا للتقليد. وظنك أنك مؤهل للاجتهاد بعقلك وعلمك وأنت لست متخصصاً جريمة تعاقب عليها قوانين البشر جميعاً، كما تعاقب من فتح عيادة وهو لا يملك التأهيل الطبي.

٢- فإذا لم يبقَ لك إلا التقليد: فالتقليد المقبول، والذي يلزم به العقل: هو أن تعلم أن شخصاً واحداً لا يمكن أن يكون أولى بمعرفة الحق من ألوف الاختصاصيين والمراكز البحثية والمجامع العلمية من المتقدمين والمتأخرين.

* * * * *

(التَّجدِيدُ عِندَ البَعضِ)

بعض الناس حتى لو بُعث في الأمة عقل تجديدي تنظيري كعقل الإمام الشافعي، سيقول عنه: عقل كلاسيكي تقليدي، وسيتهم أيضاً فقهه المتجدد بأنه فقه جامد!!

فالتجديد عنده ينحصر في عدم الانضباط بقواعد العلم، وسيولة الاجتهاد (وعدم الجمود) تقتصر على أن يسيل في كل واد غير وادي الفقه.



الموقفُ مِنَ الأشعَرِيَّة

(قُرْبُ الأشعريةِ مِنْ أهلِ الحَدِيث)

من شدة تقارب الأشعرية من أهل الحديث لا يكاد يفرق بينهما كثير من السلفيين المعاصرين، حتى المتخصصون في العقيدة:

فيقوم الدكتور محمد سعيد القحطاني وفقه الله [وهو صاحب كتاب (الولاء والبراء) ومتخصص في العقيدة]، بتحقيق كتاب (الرسالة الوافية) لأبي عمرو الداني وهي على منهج الأشعرية، وهو يظنه من كتب العقيدة على المنهج السلفي!

ويظن كثير من السلفيين أن كتاب (الإبانة) لأبي الحسن الأشعري رجوعاً من أبي الحسن من طوره الثاني (الأشعري) إلى طوره الثالث (السلفي)، وهذا غير صحيح، فـ(الإبانة) للأشعري ما زالت على منهج الأشعرية، وإثبات الصفات الذي ورد فيها لا يخرج عن تفويض الأشعرية.

ولذلك فإن بعض المتخصصين في العقيدة، كالدكتور عبدالله بن محمد القرني وفقه الله صاحب كتاب (ضوابط التكفير)، ينكرون الأطوار الثلاثة لأبي الحسن الأشعري، ولا يثبتون له إلا طورين: (معتزلي) و(أشعري)، وهو الصحيح الذي يثبته الدليل.

فلولا التقارب الكبير بين الأشعرية والسلفيين ما توهم كثير من السلفيين أن أبا الحسن الأشعري بكتابه (الإبانة) أو بـ(رسالة أهل الثغر) قد تحول لمذهب السلف أو اقترب منه جداً، حتى صح أن يُنسب إليه.

ويحقق ويقرأ كثير من السلفيين كتب البيهقي العقدية كـ(الاعتقاد) و(الأسماء والصفات) و(القدر) و(شعب الإيمان) على أنها كتب على منهج السلف، ولا يستحضرون في أنفسهم أنها لمؤلف أشعري، يزعم التقرير النظري الذي تعلموه أنه معتقد مبني على أصول كلامية مبتدعة!!

ارجعوا إلى أنفسكم وتفكروا، أخشى أن يكون كثير من السلفيين أشعرية، وهم لا يعلمون!!!

* * * * *

(الإمامُ الشَّاطِبِيُّ الذي ألَّفَ كِتَابَ «الاعتصام» هو أشعري)

الذي عرفكم كيف تميزون البدعة من السنة، هو الإمام الشاطبي (ت ٧٩٠هـ)، في كتابه (الاعتصام)، فهو أهم كتاب في التعريف بالبدعة والتحذير منها.

وهذا الإمام في هذا الكتاب هو الذي عظم السنة واتباعها أكبر تعظيم، وشدد على اتباع السلف أقوى تشديد، واستدل لذلك بكل دليل نقلي وعقلي، وحشد في الخضوع للسنة وتبجيل اتباع السلف من النصوص ما يبهر، وصار كل من جاء بعده عالةً عليه، وتنافستم (معشر السلفية) على تحقيق كتابه.

وقد قال الدكتور سعيد الغامدي في رسالته للماجستير (حقيقة البدعة وأحكامها) متحدثاً عن كتاب الاعتصام: (فهو العمدة في هذا الباب، والمورد لكل من تكلم في البدعة بعده. فقد نزع الشاطبي في هذا الكتاب بقوة، فما رُؤي عبقري يفري فَرِيَّه، حتى ضرب الناس حول كتاب الاعتصام بعطن، وعلوا منه ونهلوا وحوموا ليدركوا شأوه، فما وصلوا... إلخ)، في ثناء جليل عليه (١: ٢١٥).

وقال سليم الهلالي في مقدمة تحقيقه للاعتصام: (وهو بذلك أول من قعّد أصول علم معرفة البدع؛ فإن كتاب الاعتصام لا ندَّ له في بابه، فهو واسطة عقده ونسيج وحده...)، مقدمة التحقيق (١: ٧).

ومع ذلك فالشاطبي عند عامة هؤلاء ممن تعلموا عنه السنة من البدعة، وحاموا حول كتابه فما بلغوا شأوه؛ ضال مبتدع؛ لأنه أشعري!!

فالشاطبي (أشعري في باب الصفات والقدر والإيمان وغيرها، ومرجعه في أبواب الاعتقاد هي كتب الأشعرية)، كما قال ناصر الفهد في كتابه (الإعلام: ٦).

فما أصح ما ينطبق عليكم في موقفكم من الشاطبي قول القائل في قلة المروءة ونكران المعروف:

أُعَلِّمُهُ الرِّمَايَةَ كُلَّ يَوْمٍ ... فَلَمَّا اسْتَدَّ سَاعِدُهُ رَمَانِي [٢]

وَكَمْ عَلَّمْتُهُ نَظْمَ القَوَافِي ... فَلَمَّا قَالَ قَافِيَةً هَجَانِي

وموقفهم هذا مع سوأته الأخلاقية فهو سوأةٌ علمية أيضاً، فهم يقررون أن مذهب الأشعري متأصل على أصول بدعية، تعتمد على استخفاف بالسنة، ولا تقيم لمذهب السلف وزناً!

فهل تأصل مذهب الأشعرية عند الشاطبي في الكتاب الذي عظَّم فيه السنة وأشاد باتباع السلف على الاستخفاف بالسنة أيضاً وعدم إقامة وزن لاتباع السلف أيضاً؟!!

أم سيكون هذا من جملة تناقضات الأشعرية؟! وهي أن الذي علمكم السنة من البدعة، هو نفسه مبتدع لا يعرف السنة من البدعة؟!!

* * * * *

(أفضَلُ مَصْدَرٍ يَعتَمِدُونَ عَلَيهِ في مَعرِفَةِ البِدعَة)

أفضل مصدر يعتمد عليه السلفيون في معرفة (البدعة)، وفي بيان خطورتها، وفي التحذير منها، وفي التشديد على أهل البدع: هو كتاب (الاعتصام) للإمام الشاطبي (ت٧٩٠هـ). وهو كتاب جليل، يفيض تعظيماً للاتباع، وتشنيعاً على الابتداع.

وهو كما ذكرت المنهل الأساس لتحرير معنى البدعة، وتقرير مسائلها، عند السلفيين.

ونظرة عابرة في عناوين كتاب (الاعتصام): تظهر مقدار تسننه وإجلاله للاتباع، فكيف بالدخول في مضامينه؟! تالله لا تكاد تشك أن هذا الكلام لا يخرج إلا من سني صرف، أثري قح، سلفي خالص.

---

(٢) ـ في درة الغواص في أوهام الخواص للقاسم بن علي الحريري: (فَالرِّوَايَة الصَّحِيحَة فِيهِ اسـتدَّ بِالسِّـين المهمـة، وَيكـون الْمُـرَاد بِـهِ السداد فِي الرَّمْي، وَقد رَوَاهُ بَعضهم بالشين الْمُعْجَمَة الَّتِي هِيَ بِمَعْنى الْقُوَّة). وفي الصحاح للجوهري: (قَالَ الْأَصْمَعِيُّ: اشْتَدَّ بِالشِّـينِ الْمُعْجَمَةِ لَيْسَ بِشَيْءٍ).

مع أن المؤلف عندهم (أشعري)! لا في مسألة واحدة، ولا في باب عقدي واحد. بل هو عندهم:

- مفوض تفويض الخلف في باب الصفات: تفويض الكيف والمعنى.
- وهو مرجئ في باب الإيمان، لأن الإيمان عنده عمل قلبي، وهو التصديق.
- وهو في باب القدر جبري.
- وهو معظم لعلم الكلام.

فليست موافقته للأشعرية في مسألة واحدة فقط، بل أضيف: ولا في باب عقدي واحد فقط من أبواب المعتقد، بل في أهم أبواب عقدية افترق فيها الأشعرية عن منهج أهل الحديث، حسب ما يقرره بعض باحثي السلفية المعاصرين.

فلا أدري هل دائماً أئمة الأشعرية مصابون بفصام في الشخصية؟! فهم بين: تعظيم للسنة والأثر وتشديد على للاتباع للسلف، مع استخفاف بالسنة واستهانة بالاتباع؛ بدعوى تقديمهم العقل على النقل!!

بل يكون كتاب أحد الأشعرية (وهو الشاطبي) هو الذي يفتح للسلفيين مغاليق باب البدعة، وهو الباب الذي لا تنفرج أبواب مغاليقه إلا للمعظم للنقل المتبع للسنة المقتدي بالسلف.

فبعض السلفية بعد أن يتعلموا معنى البدعة من الشاطبي، وبعد أن يتلقوا عنه تعظيم السنة ومنهج السلف في باب التحذير من البدعة، يعودون عليه هو بوصفه بأنه مبتدع (أشعري)، ليس من أهل السنة؟!

وهذا ليس فقط سوء أدب ونكراناً للجميل وعدم حفظ للمعروف، بل هو أيضاً تناقض: قد يكون تناقضاً من الشاطبي (كما يحلو لهم أن يقولوا)، وقد يكون تناقضاً أخلاقياً، قبل أن يكون علمياً، من هؤلاء المنتسبين للسلفية المعاصرة.

وأترك الحكم للقارئ، ليعرف أي التناقضين أولى بالتصديق!!

* * * * *

(مِنْ مُغَالَطَاتِ تَبدِيعِ وتَضلِيلِ الأشعَرِيَّة)

كلما ذكرنا لهم أساطين أهل العلم من الأشعرية، من أئمة السنة والدين، ممن تخضع لهم القلوب حباً، والعقول هيبة. لنذكرهم بأن تضليل هؤلاء وتبديعهم لا يستسيغه قلب ولا عقل ولا علم!!

ولا يعني ذلك أنه ليس لدينا نقاش علمي لحقيقة دعاوى الاختلاف، ولمسائل التبديع والتضليل. ولكننا نعلم أن تلك المسائل هي مسائل معارك علمية وتاريخية، وهي من دقائق العلم ومشكلات البحث العقدي، التي يندر من يحسنها من المتخصصين في العقائد، فضلاً عمن سواهم من طلبة العلم وغير المتخصصين فيها. فأردنا من التذكير بأمثال البيهقي وابن عساكر، وأمثال: العز ابن عبد السلام والنووي وابن حجر العسقلاني، وغيرهم في قائمة طويلة من الجم الغفير من أئمة الدين؛ لكي يختاروا أحد خيارين: إما تضليل هؤلاء السادة وتبديعهم؛ لأنهم أشعرية، وإما أن يكفوا عن ذلك؛ لأن تضليل هؤلاء وأمثالهم جريمة في حق الإسلام وطعن في حماة الدين.

فكانوا يدعون أن المذكورين ليسوا أشعرية، وإنما متأثرون بالأشعرية فقط.

وقد رددت عليهم سابقاً هذه الدعوى، وبينت أنهم أشعرية، ويوافقون الأشعرية في أهم أبواب المعتقد (في الأسماء والصفات، والإيمان، والقدر)، مع الانتساب الصريح لهم، والدفاع عن مبادئهم وعن علماء الأشعرية، ومع تسميتهم للأشعرية بأهل السنة!! مما لا يدع مجالاً للشك في كونهم أشعرية.

فيخرجون علينا بكلام تافه، ليقولوا: لا نبدع كل أشعري، ونحن نفرق بين أمثال من تسميهم، ومن سواهم.

فأقول لهم:

أولاً: فما هو ضابطكم في تبديع الأشعري وعدم تبديعه؟ متى يكون عندكم الأشعري مبتدعاً؟ ومتى لا يكون؟ ويا حبذا لو تستدلون على هذا الضابط والتفريق بكلام أئمة السلف، كشيخ الإسلام وأمثاله.

ثانياً: إذا كنتم لا تبدعون ولا تضللون كل أشعري، فلماذا تطلقون القول بتبديعهم وتضليلهم، وإخراجهم من أهل السنة؟ لماذا لا تقولون: بعض الأشعرية من أهل السنة، وبعضهم مبتدعة؟!!

* * * * *

(أيُّ القَوْلَيْنِ أقرَبُ لِلتقوَى)!

احكموا: أي القولين أقرب للتقوى، وأحق بالعدل وأولى، وأدق في ميزان العلم وأحرى، و بتحقيق الألفة والوحدة أدعى!!

وأيهما هو المغالي في تفريق الأمة، وفي تشتيت الصف، وفي ضعف التحرير العلمي:

يقول موفق الدين ابن قدامة السلفي ـ حسب التصنيف المعاصر للسلفية ـ (ت ٦٢٠هـ) عن الأشعرية: (وهذا حال هؤلاء القوم لا محالة: فهم زنادقة بغير شك، فإنه لا شك في أنهم يُظهرون تعظيم المصاحف إيهاما أن فيها القرآن، ويعتقدون في الباطن أنه ليس فيها إلا الورق والمداد... (إلى أن قال:) وحقيقة مذهبهم: أنه ليس في السماء إله، ولا في الأرض قرآن، ولا محمد رسول الله. وليس في أهل البدع كلهم من يتظاهر بخلاف ما يعتقده غيرهم، وغير من أشبههم من الزنادقة...)، إلى آخر كلامه، حيث وصف أبا الحسن الأشعري بأنه غير معروف بدين ولا ورع ولا بشيء من علوم الشريعة البتة! ثم استعجب: (كيف تصور في عقولهم أن الله لا يوفق لمعرفة الحق إلا عدوه! ولا يجعل الهدى إلا من ليس له في علم الإسلام نصيب، ولا في الدين حظ). من كتاب: (حكاية المناظرة في القرآن) لابن قدامة، تحقيق: عبدالله بن يوسف الجديع (٥٠ – ٥٢).

في حين يقول العز ابن عبد السلام الأشعري (ت٦٦٠هـ) في قواعد الأحكام الكبرى: (وقد رجع الأشعري رحمه الله عند موته عن تكفير أهل القبلة؛ لأن الجهل بالصفات ليس جهلاً بالموصوفات، وقد اختلفت العبارات، والمشار إليه واحد... (إلى أن قال العز:) فإن قيل: يلزم من الاختلاف في كونه سبحانه في جهة أن يكون حادثاً؟

قلنا؛ لازم المذهب ليس بمذهب؛ لأن المجسمة جازمون بأنه في جهة، وجازمون بأنه قديم أزلي ليس بمحدث، فلا يجوز أن يُنسب إلى مذهب من يصرح بخلافه، وإن كان لازماً من قوله).

فهو يصرح بعدم كفر من يسميهم هو نفسه بالمجسمة؛ لأنهم لا يلتزمون بلازم التجسيم الكفري الذي لا يُعذر فيه بالجهل، وهو اعتقاد حدوث الخالق عز وجل.

فأي التقريرين أقرب إلى الإنصاف!! وأيهما الذي يحمل قابلية للتعايش!!

وأي الجماعات الإسلامية المعاصرة التي تقترب من التقرير الأول؟ وأيها التي تقترب من التقرير الثاني؟ أم الكل قريب من الأول؟! أم الكل قريب من الثاني؟! أم المعاصرون بكل مذاهبهم وطوائفهم خير منهما؟! أم أسوأ منهما؟! أم فيها (الأخير) وفيها (الأسوأ) وفيها المقارب المماثل؟!

أعانكم الله على حل هذا اللغز العويص!!

* * * * *

(سياجُ أهلِ السُّنَّةِ والجَمَاعَة)

أذكر مرة أني طالبت في مقال بأن لا نضيق الداخلين في أهل السنة والجماعة على جماعتنا (ربعنا)، وتمنيت أن نسمح للأشاعرة والماتريدية بالدخول معنا! لأنه عيب أن يجلسوا برًّا (في البر) خارج سياج أهل السنة، وفيهم كثير من علماء الإسلام، إن لم يكونوا أكثرهم!! (وهم جمهور علماء المسلمين، لكني لم أرد اعتبارهم إلا كثيراً فقط).

فانبرى لي عدد من فرسان السنة وأسودها (كما يتوهمون أنفسهم)، لينكروا ذلك الرجاء والاسترحام علي: وأنه لم يسبقني أحد إلى ذلك!!

فسكت حينها؛ لأن مفاتيح السنة بيدهم، وخشيت أن يخرجوني منها.

لكني تساءلت، وأول من بنى هذا السياج (سياج أهل السنة والجماعة)، من سبقه إليه؟!

ولماذا لا يكون أضيق أو أوسع؟!

وهل أول من بناه أدرك الأشعرية والماتريدية فنص على إخراجهم؟!

وهل إذا كان قد أدركهم فأخرجهم يكون غير مسؤول عما يفعل وهم يُسألون؟!

أسألة كثيرة..

لا تستحق الإجابة، لكنها تستحق أن تكون ساعة منبه تنبه الغافلين. ولا أريد بهذا التلطف أن أكون من أسود السنة؛ لأني لو كنت من أسودها، لقلت: إن هذه الأسئلة ونحوها صفعة توقظ الغاطين في نوم الجهل المركب!

* * * * *

(فَوَائد مِنْ كَلام الإمَامِ القيرواني)

يقول الإمام المالكي أبو محمد ابن أبي زيد القيرواني (ت ٣٨٦هـ)، في الرد والإنكار على من كفَّر أبا الحسن الأشعري: (فلو ذكرت أمراً يجب تكفير قائله عند أهل السنة، كان لك ذلك؛ لأنا لا نعتقد أن نقلد في معنى التوحيد والاعتقادات الأشعريَّ خاصة، ولكن لا يحل لنا أن نكفره أو نبدعه إلا بأمر لا شك فيه عند العلماء.

وإذا رأينا من فروع أقاويله شيئاً انفرد به تركناه، ولا نهجم بالتضليل والتبديع بما فيه الريب. وكلٌّ مسؤولٌ عن قوله).

فيه فوائد:

الأولى: أن التكفير والتبديع لا يكون في الظنيات، وإنما يكون في اليقينيات: (إلا بأمر لا شك فيه عند العلماء)، (ولا نهجم بالتضليل والتبديع بما فيه الريب).

الثانية: التكفير والتبديع بالظنون لا يجوز: (لا يحل لنا).

الثالثة: القول الذي لا يجوز، هو الخلاف غير المعتبر. ولذلك قلنا وما زلنا نقول: مسائل التبديع والتكفير ليست من مسائل الخلاف المعتبر. فإما أن يكون المكفِّر والمبدِّع مصيباً، ومخالفه

قوله خلافاً غير معتبر. وإما أن عدم التبديع وعدم التكفير هو الصواب، ومخالفه قوله هو القول غير المعتبر.

وكلام الإمام ابن أبي زيد هذا هو أحد أقوال الأئمة الدالة على ذلك.

الرابعة: خطورة التبديع والتكفير، وبطلان إدخالها في مسائل الخلاف المعتبر، ولا بأي حجة. ووقوع خلاف منقول بين بعض السلف في بعض مسائل التكفير، لا يجعلها من مسائل الخلاف السائغ.

فقد اختلف السلف في عدد من مسائل العلم وكان أحد الأقوال فيها غير سائغ ولا معتبر، كالخلاف في ربا الفضل، وفي بعض القراءات المتواترة.

الخامسة: أن تفاريع العقيدة حتى لو كانت خطأ، لا تجيز التكفير والتبديع؛ لأنها تفاريع ليست أصولاً: (وإذا رأينا من فروع أقاويله شيئاً انفرد به تركناه، ولا نهجم بالتضليل والتبديع بما فيه الريب).

* * * * *

(الإمامُ البيهقيُّ موافقٌ للأشعريةِ في أهمِّ أبوابِ العَقِيدَة)

من يستطيع أن يتهم البيهقي بأنه لا يعظم الأدلة الشرعية؟!

من يستطيع أن ينكر معروفه الجليل على السنة وأهلها في تصنيف السنة والآثار؟!

هذا والبيهقي من أئمة الأشعرية، وبلا منازع:

- فهو منهم تتلمذاً لكبار أئمتها: كابن فورك، والإسفراييني، وأبي منصور البغدادي.
- وهو منهم بدليل ثنائه على أئمة الأشعرية، وثنائه على معتقداتهم، ومتابعته لهم في الاستدلال العقلي (علم الكلام) ومدحهم عليه.
- وهو منهم في مقالاته أيضاً:

فهو موافق للأشعرية في أهم ثلاثة أبواب عقدية تُـنسب للأشعرية:

١ـ فهو في باب الأسماء والصفات: بين تأويل لها أو تفويض للمعنى، وهذا هو قول الأشعرية.

٢ـ وفي باب القدر (وله فيه مصنف خاص): قائل بإثبات الفعل للعبد، سالباً التأثير عن فعله؛ إلا بتقدير الله، وهذا هو الكسب، وقد صرح البيهقي به، وهو الذي اشتهر به الأشعرية في باب القدر. ثم يصرح البيهقي في كتاب (القدر) له بما ظاهره الجبر أيضاً، أو فُهم منه الجبر، كما فُهم من غيره.

٣ـ وهو يقر في مقدمة (شعب الإيمان) بأن الإيمان هو التصديق، وأنه اعتقاد وقول فقط، وأن الأعمال شرط كمال فحسب، وحتى الصلاة لا يكفر بتركها؛ إلا من تركها جحودا. فهو مرجئ إرجاء الفقهاء، حسب التقسيم الشهير.

فلا شك إذن أن البيهقي أشعري!

فهل البيهقي من أهل السنة؟!

والله إن هذا السؤال وحده لعيب كبير، وكارثة علمية وأخلاقية! بل الواجب أن نسأل من يشك في كون البيهقي من أهل السنة: هل أنت (بشكك هذا) من أهل السنة؟! ومن تكون أنت، وبماذا استحققت حتى تسأل هذا السؤال؟

لقد جعل علماء السنة من علامات أهل السنة: أنهم المعروفون بالعناية بالسنة تعلماً وتعليماً وجمعاً وتأليفاً، فمن أكثر من البيهقي في ذلك، يا إنصاف؟! ومن فاق البيهقي ممن جاء بعده عناية بالسنة، يا عدل؟!

والسؤال موجه للإنصاف والعدل فقط!

وفي هذا السياق: يأبى بعضنا إلا أن يدعي أن مرجئة الفقهاء مبتدعة، وأن خلافهم حقيقي ليس لفظياً! يقول بعضنا هذا القول: وأجل كتاب يتعلم هو وشيوخه وشيوخهم منه شعب الإيمان هو كتاب (الجامع لشعب الإيمان) للبيهقي! ويتهمون هؤلاء المرجئة بأنهم يهونون من قيمة العمل في الإيمان، وينسون أن أجل مصدر يستفيدون منه تعظيم العمل هو كتاب هذا المرجئ المدعو بالبيهقي!!

أرأيتم كيف يقودنا فهمنا الخاطئ والضيق لمعنى أهل السنة، وكيف يقودنا سوء ظننا بمن يخالفنا في فروع العقائد، إلى فضائح أخلاقية، قبل أن تكون جهالات علمية.

* * * * *

(الأشعريةُ لم يبنوا مَذهَبَهُمْ عَلَى أُصُول مُبتَدعة)

في الدراسة السلفية عن منهج الحافظ ابن حجر في العقيدة، والمطبوعة في ثلاثة مجلدات، للباحث محمد إسحاق كندو، والتي بعنوان (منهج الحافظ ابن حجر العسقلاني في العقيدة من خلال فتح الباري)، طبع مكتبة الرشد بالرياض: يذهب الباحث إلى أن الحافظ ابن حجر وافق الأشعرية فيما يلي:

- القول بأن نصوص الصفات من المتشابه.

- القول بأن نصوص الصفات من المجاز.

- تجويز التأويل والتفويض في نصوص الصفات، والتفويض الذي يعنيه ابن حجر هو تفويض المعنى الخلفي، مخالفا في ذلك أهل الحديث. بل الحافظ يرجح هذا التفويض على التأويل.

- أنه جعل الصفات الفعلية غير قائمة به سبحانه، وإنما يستحقها فيما لا يزال، دون الأزل، مخالفا في ذلك أهل السنة.

- أن قول ابن حجر في صفة الكلام هو قول الأشعرية، لا قول أهل الحديث، رغم ذكره لمقالة أهل الحديث، لكنه عدل عنها، واختار قول الأشعرية. (واخترت هذه الصفة لما لها من رمزية عقدية في تحديد مذهب القائل بها).

- في باب الإيمان وافق الأشعرية عندما جعل العمل شرط كمال فقط، فهو مرجئ كالأشعرية.

- في باب القدر: نسب مقالات الأشعرية إلى أهل السنة.

- وهو يرى رأي الأشعرية في التحسين والتقبيح العقليين، في نفيهما.

- في أكثر من مسألة ينسب كلام الأشعرية إلى أهل السنة، وقد يكون مخالفاً لأهل السنة.

وبناء على هذه الدراسة السلفية المتخصصة: يكون ابن حجر أشعرياً في باب الأسماء والصفات، وفي باب الإيمان، وفي باب القدر. وفوق ذلك: يسمي الأشعرية بأهل السنة.

فماذا بقي لنعد ابن حجر من الأشعرية؟!

وبالمناسبة: فالباحث يرى أن ابن حجر وافق الأشعرية اجتهاداً، لا تقليداً، بل اجتهاداً واتباعاً للدليل الذي يبدو له، فلم يوافقهم جهلاً بمذهب السلف، ولا لخفاء أدلتهم عليه. وهذا مما نص عليه الباحث في نتائج دراسته (رقم ٩).

فإن كان ابن حجر من الأشعرية بذلك، فهل كان أشعرياً وهو ممن يقدمون العقل على النقل، ويستخفون بالنقل؟! وهو الذي ملأ الدنيا عناية بالسنة والآثار!!

وإن لم يكن أشعرياً بذلك، فهذا يعني أن الخلل المنسوب إلى الأشعرية في باب الصفات وباب الإيمان وباب القدر قد يقع كله حتى ممن يعظم النقل، وممن ليست أصوله في الاستدلال أصولاً مبتدعة.

ويبطل بذلك إطلاق القول بأن الأشعرية ما ذهبوا إلى تلك المقالات إلا بناء على أصول مبتدعة، منها تقديم العقل على النقل!

* * * * *

(الإِمَامَانِ: النوويُّ وأبو نعيم الأصبهانيُّ، يَذكُرَانِ أنَّ الأشعريةَ مِنْ أهل السُّنَّة)

عندما نقول عن أئمة امتلأت الدنيا بجهودهم وجهادهم ومؤلفاتهم في نصرة الإسلام، وفي تعظيم السنة، وفي اتباع السلف: (إنهم أشعرية)، يعارض بعض الباحثين ذلك؛ لعلمهم أن كونهم أشعرية لا يجتمع فيه فضلهم وبذلهم للسنة وتعظيمهم للأثر وللمنهج السلفي مع ما ينسبه هؤلاء الباحثون إلى الأشعرية من ضلال البدعة ومن زيغ أهل الأهواء ومن خروجهم عن دائرة أهل السنة. ولذلك يلتفون على الاستدلال لأشعريتهم بادعاء أنهم ليسوا أشعرية، وإنما وافقوا

الأشعرية في بعض المسائل فقط، ولم يوافقوهم في أصول الاستدلال والاستنباط المبتدعة، كما يقولون.

ومع ما في هذا الاعتراض من أخطاء عديدة، فإني سأكتفي هنا بإمامين:

الإمام النووي (ت٦٧٦هـ)، يقول هذا الإمام عن أبي إسحاق الإسفراييني: (وكان الأستاذ أحد الثلاثة الذين اجتمعوا في عصر واحد على نصر مذهب الحديث والسنة في المسائل الكلامية القائمين بنصرة مذهب الشيخ أبي الحسن الأشعري وهم الأستاذ أبو إسحاق الإسفراييني والقاضي أبو بكر الباقلاني والإمام أبو بكر بن فورك).

تنبه لقول الإمام النووي عن ثلاثة هم أكبر أئمة الأشعرية في زمنهم، وهم الباقلاني وابن فورك والإسفراييني، بأنهم اجتمعوا: (على نصر مذهب الحديث والسنة في المسائل الكلامية القائمين بنصرة مذهب الشيخ أبي الحسن الأشعري).

فهذا نص لا يحتمل التشكيك في أن النووي يرى أن مذهب الأشعرية هو مذهب أهل السنة والحديث.

وهب أن النووي يخالف مذهب الأشعري، فلا شك أنه بهذا النص يرى أن الأشعرية من أهل السنة، وأنه يرى بأن هؤلاء الأئمة من رموز الأشعرية هم من أئمة أهل السنة.

وهذا القدر هو ما نريد الوصول إليه.

والإمام الثاني، وهو متقدم على النووي، هو: أبو نعيم الأصبهاني (ت٤٣٠هـ) صاحب المؤلفات الكثيرة في نصرة السنة ورعاية الحديث، يقول الإمام أبو نعيم عن أحد علماء الشافعية، وهو محمد بن القاسم بن أحمد بن فانشاه الأصبهاني (ت٣٨١هـ): (متكلم على مذهب أهل السنة، ينتحل مذهب أبي الحسن الأشعري).

فهب أن أبا نعيم يخالف مذهب الأشعري، فلا شك أنه بهذا النص يرى أن الأشعرية من أهل السنة أيضاً، وهذا القدر هو ما نريد الوصول إليه أيضاً.

* * * * *

(مَقُولةٌ لأحدِ الأشعَرِيَّةِ، فِيهَا تَعظِيمٌ لِلنَّقْلِ)

(إذا جالت فرسان الأحاديث في ميادين الكفاح، طارت رؤوس المقاييس في مهاب الرياح).

هذا ليس كلام ابن قيم الجوزية، ولا كلام شيخ الإسلام ابن تيمية، وإنما هو كلام رأس من رؤوس المتكلمين، وهو أبو الحسن الطبري الشهير بإلكيا الهراسي الأشعري (ت٥٠٤هـ).

فهل من يستخف بالدلالة العقلية في مقابل الأحاديث المروية يمكن أن يكون لا يعظم النقل؟! إنها عبارة لا تخرج إلا من قلب غمرته نشوة الانتصار بالسنة وفرحة القوة بالوحي!!

فاتقوا الله في علماء المسلمين!!

* * * * *

(مقولةٌ للإمامِ الجوينيِّ أحدِ أئمةِ الأشاعرة، فيها الحرصُ على مذهَبِ السَّلَفِ)

(إن الذي يحرص الإمام عليه: جمع عامة الخلق على مذاهب السلف السابقين، قبل أن نبغت الأهواء، وزاغت الآراء.

وكانوا رضي الله عنهم ينهون عن التعرض للغوامض، والتعمق في المشكلات، والإمعان في ملابسة المعضلات، والاعتناء بجمع الشبهات، وتكلف الأجوبة عما لم يقع من السؤالات.

ويرون صرف العناية إلى الاستحثاث على البر والتقوى، وكف الأذى، والقيام بالطاعة حسب الاستطاعة.

وما كانوا ينكفون رضي الله عنهم عما تعرض له المتأخرون عن عي وحصر وتبلد في القرائح، هيهات! قد كانوا أذكى الخلائق أذهاناً، وأرجحهم بياناً.

ولكنهم استيقنوا أن اقتحام الشبهات داعية الغوايات وسبب الضلالات، فكانوا يحاذرون في حق عامة المسلمين ما هم الآن به مبتلون، وإليه مدفوعون. فإن أمكن حمل العوام على ذلك فهو الأسلم.

ولما قال رسول الله صلَّى اللهُ عَلَيه وسَلَّم: (ستفترق أمتي ثلاثاً وسبعين فرقة الناجي منها واحدة)، فاستوصفه الحاضرون: الفرقة الناجية؟ فقال: (هم الذين كانوا على ما أنا عليه وأصحابي).

ونحن على قطع واضطرار من عقولنا: نعلم أنهم ما كانوا يرون الخوض في الدقائق ومضايق الحقائق، ولا كانوا يدعون إلى التسبب إليها، بل كانوا يشتدون على من يفتح الخوض فيها.

والذي يحقق ذلك أن أساليب العقول لا يستقل بها إلا الفذ الفرد المرموق، الذي تثنى عليه الخناصر، ويشير إليه الأصاغر والأكابر، ثم هو على أغرار وأخطار، إن لم يعصمه الله، فكيف يسلم من مهاوي الأفكار الغر الغبي والحصر العيي؟! وكيف الظن بالعوام إذا اشتبكوا في أحاييل الشبهات، وارتبكوا في ورطات الجهالات.

فليجعل الإمام ما وصفناه الآن أكبر همه، فهو محسمة للفتن، ومدعاة إلى استداد العوام على ممر الزمن.

فإن انبثت في البرية غوائل البدع، واحتوت على الشبهات أحناء الصدور، ونشر دعاة الضلالة أعلام الشرور، فلو تُركوا وقد أخذت منهم الشبهات مآخذها، لضلوا وارتكسوا، وزلوا وانتكسوا.

فالوجه والحالة هذه: أن يبث فيهم دعاة الحق، ويتقدم إلى المستقلين بالحقائق، حتى يسعوا في إزاحة الشبهات بالحجج والبينات، ويتناهوا في بلوغ قصارى الغايات، وإيضاح الدلالات وارتياد أوقع العبارات، ويدرأ أصحاب الضلالات. فيجتمع: انحسام كلام الزائغين، وظهور دعوة الموحدين، وإيضاح مسالك الحق المبين).

هل تصدقون أن هذا الكلام السلفي الصرف يخرج من رأس الأشعرية في زمنه: أبي المعالي إمام الحرمين الجويني (ت٤٧٨هـ).

لو نسبته لشيخ الإسلام ابن تيمية، لما وجدتم فيه ما يخالف تقريراته، في تعظيم السلف والحرص على هديهم.

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

(مِنْ تعظيمِهم للنَّقْلِ: بيَانُهُم أنه لا اجتهادَ في مورد النَّصِّ)

عندما يقرر الأصوليون من المتكلمين أن لا اجتهاد في مورد النص، فهذا يعني تقديم النقل على العقل، ووجوب تسليم العقل لدلالة النص دون معارضته بدلالة عقلية.

سيقال بسطحية بالغة: هذا في الفقه، لا في العقائد!

فسنقول: إذا كانت دلالة العقل يقينية عندهم، وإذا كانت دلالة النص ظنية عندهم أيضاً، ولذلك قدموا العقل على النقل، وإذا كان الفقه عندهم غالبه ظنيات (وقد ناقشهم شيخ الإسلام في ذلك في بداية كتاب الاستقامة)، فكان يجب أن يكون تقديم العقل على النقل في الفقه أكثر منه في غيره، فما بالهم فعلوا عكس ذلك؟!

ما بالهم قدموا النقل على العقل في الفروع، بتأخير النظر في العلل عن منزلة دلالة النص؟!

ولا ننسى أن الحاصل هو أننا ننسب إليهم إطلاق القول بأن دلالة العقل يقينية وأن دلالة النص ظنية!! وهنا قدموا دلالة النص على دلالة العقل، فهل قدموا الظن على اليقين؟! أم كانوا لا يرون العقل هنا يقينياً، وقدموا دلالة النص عليه؟! أم ماذا حصل؟

هذا أيضاً تناقض!! جواب سهل، لكنه لن يكون سوى تحكم ومصادرة لا يقنع الإنصاف!

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

(تقريرُ الأشعريةِ لبعض الأدلةِ العقلية، لا يعني تقدِيمَهُم العقلَ على النَّقْلِ)

تخيل نفسك قبل نشوء الفرق، وأنت رجل من العرب، وسمعت قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ الشورى: ١١، وقوله عز وجل: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيّاً﴾ مريم: ٦٥، وقوله سبحانه: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ﴾ الإخلاص: ٤، ونحوها من نصوص التنزيه. هل يمكن أن تفهمها (خطأً) بأنها تدل على تفويض الكيف والمعنى؟

هل يمكن أن تخرج منها بأن صفات الباري عز وجل تُمر كما جاءت، بلا تفسير، ولا معنى، كما قال بعض السلف؟! وكما تجيزه غالب الأشعرية في نصوص الصفات.

تذكر أني قلت: (هل يمكن أن تفهمها خطأً)، لأني لا أريد تصويب ولا تخطيء هذا التفويض في هذا السياق.

ولست الآن في مجال تقرير صواب ذلك الفهم أو خطئه، وإنما في مجال تقرير أن نصوص التنزيه تحتمل هذا التفويض الخلفي (كما يلقبه السلفيون)، ولو بدلالة مرجوحة، وأن هذه التصوص الشرعية قد توصل إلى هذا التفويض بالنظر إليها وحدها، دون دليل الحدوث العقلي ودون غيره من الأدلة العقلية.

إن كان هذا ممكناً، لماذا لا يكون هذا هو ما وقع للأشعرية؟! لماذا لا يكون دليل الحدوث ناشئاً عن أنهم وجدوه دليلاً عقلياً صحيحاً مؤيداً بنصوص التنزيه، فلا يكون في اعتمادهم له تقديماً منهم للعقل على النقل، الذي يصرح عامتهم بنقيضه في أصول علمهم وتقريراته الكثيرة.

ولا يصح في هذا المجال الاحتجاج بعبارة الرازي وحده التي يخالفه فيها صراحة كثير من محققي الأشعرية قبله وبعده. والتي قيدها هو نفسه، والتي تحتاج جمعها ببقية تقريراته.

الخلاصة: الاعتماد على تقرير الأشعرية لبعض الأدلة العقلية لادعاء تقديمهم العقل على النقل غير صحيح؛ لأنهم قد يكونون ما قرروها إلا لكونها أدلة مؤيدة بالشرع عندهم.

* * * * *

(عَلَينَا أنْ لا نَنسَى مَا قرَّرَه الأشَاعِرَةُ والماتريديةُ في كُتُبِ الأُصُول)

عندما ننتقد المتكلمين المؤلفين في أصول الفقه (من أشعرية وماتريدية) بأنهم أدخلوا مباحث علم الكلام في أصول الفقه، وأنهم صبغوا أصول الفقه بعقائدهم، أرجو أن لا ننسى ذلك عندما نقرأ لهم بعد ذلك في كتب الأصول ما يلي:

١ـ تحديد مصادر الشريعة الأربعة المتفق عليها: الكتاب، والسنة، والإجماع، والقياس.

٢ـ أن إجماع الصحابة والسلف حُجَّة، وأن منه اليقيني ومنه الظني.

٣ـ أن أقوال الصحابة حُجَّة عند جمهورهم، وأنه لا يجوز الخروج عن مجموع أقوالهم إذا اختلفوا.

إلى هذا الحد يبلغ تعظيمهم لكلام الصحابة، أكثر من بعض السلفية المعاصرين الذي لا يجعلون أقوال الصحابة حجة!!

٤ـ أنه لا اجتهاد في مورد النص، ولا قياس مع ورود الأصل في الوحيين من الكتاب والسنة. أي: لا دخل للعقل في معارضة النص.

فهذه دلائل تسنن، وقواعد تعظيم للنقل، وأصول اعتماد على فقه السلف وفهمهم، وفيها بيان مناهجهم لفهم نصوص الشرع مطلقاً.

وأرجو أن لا نأتي هنا ونزعم تناقضهم من جديد، مع دعوي تقديمهم العقل على النقل!!

أو أن نزعم أن هذا في الفقه لا في علم الكلام، وننسى أننا كنا قد انتقدنا المتكلمين المؤلفين في أصول الفقه بأنهم أدخلوا مباحث علم الكلام في أصول الفقه، وأنهم صبغوا أصول الفقه بعقائدهم.

* * * * *

(تَبجِيلُ الإمَامِ الدَّارقطنيِّ لإمَامِ الأشعَرِيَّةِ في زَمَنِهِ البَاقلانيِّ)

كان الإمام أبو ذر الهروي (٤٣٤هـ) راوي صحيح البخاري من أئمة الأشعرية، وهو الذي نشر الأشعرية في الحجاز، بل كان أحد أكثر من أعان على نشرها في المغرب والأندلس، فقد سكن مكة والحجاز، فكان الحجاج يتلقون عنه العلم والرواية والمعتقد الأشعري، وممن تتلمذ عليه في ذلك الإمام المالكي أبو الوليد الباجي (ت٤٩٤هـ).

وقد سأله مرة: عن سبب تمذهبه للأشعري، فأخبره بأنه كان مرة ماشياً مع شيخه إمام السنة أبي الحسن الدارقطني (ت٣٨٥هـ)، فلقيهما إمام الأشعرية في زمنه أبو بكر الباقلاني (ت٤٠٣هـ)، قال أبو ذر: (فالتزمه الشّيخ أبو الحسن الدارقطني، وقبل وجهه وعينيه، فلمّا فارقناه قلت: من هذا؟ فقال: هذا إمام المسلمين والذَّاب عن الدِّين القاضي أبو بكر محمد بن الطَّيِّب [وقال في رواية أخرى: هذا سيف السُّنَّة أبو بكر الأشعري]. قال أبو ذَر: فمن ذلك الوقت تكرَّرت عليه).

يذكر بعض الباحثين المعاصرين من السلفية هذا الحدث نموذجاً من نماذج خطورة الثناء على أهل البدع، وكيف أن ثناء الدارقطني على الباقلاني كان هو الذي جعل أبا ذر الهروي يتبع الأشعرية وينشرها في أقطار الأرض!!

وهم بذلك صاروا أغير على الدين والسنة من إمام السنة في زمنه أبي الحسن الدارقطني! وأدرى بواجب التعامل مع أهل البدع! وأحكم من أئمة السنة في مقاومة الأفكار المنحرفة!! فطريقة إمام السنة ليست أسلم ولا أحكم، وطريقتهم هي الأسلم والأحكم!!!

ولكن انظر كيف فسر الإمام الذهبي هذا الموقف، حيث قال عن الباقلاني: (هو الذي كان ببغداد يناظر عن السنة وطريقة الحديث بالجدل والبرهان، وبالحضرة رؤوس المعتزلة والرافضة والقدرية وألوان البدع، ولهم دولة وظهور بالدولة البويهية، وكان يرد على الكرامية، وينصر الحنابلة عليهم، وبينه وبين أهل الحديث عامر، وإن كانوا قد يختلفون في مسائل دقيقة، فلهذا عامله الدارقطني بالاحترام).

فعلى رأي الذهبي: أن اختلاف الدارقطني مع الباقلاني (المؤسس الثاني للأشعرية وصاحب الآراء الجريئة في صفة الكلام وغيرها) كان اختلافاً في الدقائق التي لا توجب عدم تعظيمه ولا تستلزم إسقاطه عن منزلة اتباع السنة.

لكن بعض السلفية المعاصرة تزعم أنها تعرف عن الباقلاني ما لا يعرفه الدارقطني عنه، كما زعموا العلم بواجب التعامل مع أهل البدع أكثر مما عرفه الدارقطني!!

* * * * *

(لَيسَ في عَقِيدَةِ الأشعَرِيِّ والمَاتريديِّ مَا يُخَالِفُ الأئِمَةَ الأربعة)

يتعجب كثير من السلفيين من بعض العلماء إذا ما انتسب في الفقه لأحد الفقهاء الأربعة وفي المعتقد إلى غيرهم كالأشعري أو الماتريدي، وفي السلوك إلى أحد متزهدة الصوفية.

ويتندرون بقولهم:

في عقد الأشعري وفقه مالكِ ... وفي طريقة الجنيد السالكِ

ويجعلون موضع العجب هو: لماذا لم يرضوا بعقيدة أئمة الفقه، كما رضوا بفقههم؟! وهم أجل وأعلم، بلا خلاف!! ولماذا لم يسلكوا طريق هؤلاء الفقهاء في العبادة والتزهد والأخلاق، كما تعلموا منهم فقه العبادات والمعاملات؟!

وهذا خطأ في موطن الاستعجاب، وخلل في تصور مقالات المخالفين، ما يزال يتكرر!

فهؤلاء عندما ينتسبون للأشعري أو الماتريدي في باب الاعتقاد، مع انتسابهم لأحد الفقهاء الأربعة في الفقه، لا يرون في عقيدة الأشعري والماتريدي ما يخالف أبا حنيفة أو مالكاً أو الشافعي، وإنما يرون في الأشعري والماتريدي خير متابعين للسلف في رأيهم، لكنهما شرحا معتقد السلف، وبسطا له الأدلة، وردَّا على الشُّبَه.

ولم يكن الانتساب إليهما ناتجاً عن اعتقاد مخالفتهما لأئمة الفقه، ولا لانفرادهما بمعتقد مبتدع، كما يظنه بعض الذامين لهم.

فالانتساب إلى الأشعري والماتريدي عند المنتسبين إليهما في المعتقد، كالانتساب لأئمة الفقه في الفقه، سواء بسواء.

فلو قيل للحنبلي: كيف تعتقد تفضيل علم السلف على الخلف وتقديم فقه الصحابة على أتباع أتباع التابعين، ثم تنتسب لابن حنبل؟!! فإن كنت سلفياً حقاً، فانتسب للسلف ولا تنتسب للحنبلية. فسوف يقول: إنما انتسبت لأحمد وأخذت فقهه خاصة لأنه عندي أفضل وأعلم من قرب لي فقه السلف وخرج عليه وفصل القول فيه.

وكذلك الكلام في الانتساب للجنيد وغيره بالنسبة لمتشرعة الصوفية (لا أهل الخرافة من المتسبين للتصوف): فالمتسبون إليه ولغيره من العباد والزهاد إنما ينتسبون لطريقتهم في التزهد، ولا يرون في طريقتهم ما يخالف طريق السلف؛ إلا أنهم بينوا ودققوا.

فإذا أراد شخص أن يستنكر هذه الانتسابات، فليحدد وجه الاستنكار، بشيء يستحق النقاش:

- من مثل نفي اتحاد عقيد فلان مع عقيدة السلف، أو طريقته في التزهد بطريقة السلف؛ بالأدلة والبراهين.

- ومن مثل الاعتراض على أصل الانتساب، ليشمل كل انتساب يوجب التفرق والتحزب، دون الانتساب الذي لا يوجب ذلك.

أما أن نستمر في إنكار الانتساب للأشعري، وتصوير أن الأشعرية مقرون باختلاف معتقده عن معتقد الشافعي، ووصمهم بالتناقض في ذلك، كما حصل ويحصل؛ فهذا خلل كبير، وتصور خاطئ، ولا يعين على الحوار الصحيح.

وهذا يتكرر في مسائل عديدة، بل يتجاوز القول فيها التصور الخاطئ عن غيرنا إلى نسبة لوازم إليهم، يصرحون بأنهم لا يلتزمون بها.

* * * * *

(لُحومُ العُلَمَاءِ مَسمُومَةٌ، أَمْ لُحومُ عُلَمَائِنَا فَقَط هِيَ المَسمُومَة)؟!

تشتهر عبارة (لحوم العلماء مسمومة)، ويعرف طلبة العلم أنها اشتهرت من خلال جملة أطلقها الإمام أبو القاسم ابن عساكر، وأنه قال فيها: (لحوم العلماء مسمومة، وعادة الله في هتك أستار منتقصيهم معلومة). لكنهم كأنهم يغفلون عن أن الإمام ابن عساكر إنما قالها في (تبيين كذب المفتري على أبي الحسن الأشعري)، دفاعا عن الأشعرية إماماً ومذهباً وأتباعاً!

ثم إن هؤلاء الطلبة أول من يلغون في لحمه هو لحم قائلها أبي القاسم ابن عساكر، عندما يعدونه مبتدعاً ضالاً زائغاً عن السنة؛ لأنه أشعري!!

وثاني من ينتقصونه: هم من قيلت فيهم هذه العبارة، وهم أئمة الأشعرية.

فهلا إذ استحلوا لحوم الأشعرية تركوا الاستشهاد بالكلمة التي حرمتها!!

وهلا إذ انتقصوا الأشعرية بإخراجهم من أهل السنة استحضروا أنهم هم من قيل فيهم: وعادة الله في هتك أستار منتقصيهم معلومة!!

فكأن لسان حالهم يقول: ما عبارة ابن عساكر هذه إلا كحال إبليس مع أبي هريرة:(صدقك وهو كذوب)!!

ولذلك فلسان حالهم يتمم مقالته بقوله: لحوم علمائنا فقط هي المسممة، وأما لحوم علماء الأمة من الأشعرية فهي من اللحم الطيب الحلال!!

وعادة الله لا تهتك إلا أستار من انتقص علماءنا فقط، أما علماء الأشعرية فعادة الله في الستر على منتقصيهم معلومة!!

رحم الله الأدب والعلم والعقل والإنصاف!!

* * * * *

(بَينَ السَّلَفِ والسَّلَفِيَّة)

السلفية المعاصرة: ليست هي السلف الصالح (الصحابة والتابعون وتابعوهم).

هل هذه المعلومة شيء جديد؟! أو هل نحتاج أدلةً عليها؟! هل الحواسُّ وسنوات التاريخ وبديهة العقل مما نحتاج معها للتذكير بهذه الحقيقة؟! فلماذا إذن نغفل عنها؟! بل لماذا نديم الغفلة عنها؟!

لأن استحضار هذه الحقيقة الغائبة يلزمنا باستحضار حقيقة أخرى، وهي أن بيننا وبين السلف الصالح من الفروق الكبيرة بمقدار الفروق الكبيرة بيننا وبينهم في الفضائل العلمية والإيمانية، وهي فروق يقر بها السلفيون أنفسهم نظرياً؛ لأن النقل والعقل والواقع يدل عليها، فلا شك عند عاقل أننا لا نقترب من فضل جيل أتباع التابعين، فضلاً عن التابعين، فضلاً عن الصحابة!

هذا أمر واضح جلي يوجب على السلفية المعاصرة أن تتواضع كثيراً، وأن تعلم أن بينها وبين السلف الصالح بوناً شاسعاً، يمنعها من التعالي عن النقد، ومن أن تعتبر مجرد نقدها نقداً للدين والمنهج الحق.

كررت هذا الكلام مرات، وكلما انتقدتهم، يكررون الاتهامات المبنية على التعالي والغرور، وعلى ادعاء أن منهجهم يتعالى عن النقد؛ وكأن منهجهم هذا شيء آخر، لا علاقة له بهم، وعن فهمهم، وكأنه يخرج عن قدراتهم العلمية والإيمانية في فهم الدين أصوله وفروعه، حتى تكون تصوراتهم عنه غير متأثرة بنقص علمهم وإيمانهم النقص الكبير عن السلف الصالح!!

لقد أوشكوا أن يجعلوا منهجهم هذا في تنزيه عن الخطأ، والذي هو نتاج فهمهم لمنهج السلف الصالح، لا أكثر من ذلك، وكأنه مصحف فاطمة المفقود، الذي يزعمه غلاة الشيعة!!

فلا هو القرآن، ولا السنة، ولا طريقة التعامل معهما التي دونها العلماء في أصول الفقه!! ومنهجهم هذا مع كونه ليس هو الوحي ولا منهج التعامل مع الوحي منهج مبرأ من الخطأ، لا يجوز نقده!! فما هو هذا المنهج إذن؟! إلا أن يكون وحياً نزل بعد الوحي!!

ولو أنهم اكتفوا بالمنهج اليقيني الذي كان عليه السلف، لما وصلوا إلى هذا التعالي عن نقد أصول طريقتهم وفروعها، يقينيتها وظنياتها!! لكنهم جعلوا الجميع منهجاً واحداً لا يقبل النقد، وخلطوا ظنيه بيقينه، وادعوا له العصمة، حتى أصبح تقريرهم هذا يتناقض مع تلك البدهية التي افتتحنا بها: السلفية المعاصرة: ليست هي السلف الصالح (الصحابة والتابعون وتابعوهم).

* * * * *

(البِدعَةُ) و(المُبتَدِعُ).. بَيْنَ اتِّحَادِ معيارِ الإطلاقِ واختِلافِهِ

مع أنه قد وقع اختلافٌ في تعريف البدعة المذمومة شرعاً: (كل بدعة ضلالة)، والتي جاء التبرؤ من صاحبها: (من رغب عن سنتي فليس مني)؛ إلا أنه اختلافٌ ـ إذا أراد صاحبُ التعريف هذه البدعةَ المستشنعةَ في الشرع ـ لا يتجاوز الاختلافَ في الألفاظ لا في المعاني، ولا يتعدَّى الاختلافَ في التعبير عن تعريفها، دون الاختلاف في حقيقتها.

وخلاصة القول في التعبير عن هذه الحقيقة المتفق عليها: هو أن هذه البدعة لا تخرج عن أن تكون: كل أمرٍ يُنسب إلى الشرع، يُقطَعُ بعدم صحةِ نِسْبَـتِـهِ إليه.

وعلى هذا التعريف يتبين أن تبديع المقالات: لا بد فيه من أمرين:

(١) أن تكون تلك المقالة مما للشرع فيها مقال، أو أن لا تكون كذلك، فتكون من المسكوت عنه (كقضايا العلوم الكونية التي لم يتعرض لها الشرع نفياً أو إثباتاً)، لكنها تُنسب من بعضهم إلى الشرع.

(٢) أن يكون مقطوعاً بعدم صحة نسبتها إلى الشرع.

ـ فما لم يكن من شرعنا (أي: لم يتعرض له الشرع نفياً أو إثباتاً)، ولا نُسب من قائله إلى الشرع؛ لا يكون بدعةً شرعية أبداً؛ حتى لو كان باطلاً في نفسه.

ـ وما ظننا عدم صحة نسبته إلى الشرع (ولم نقطع بذلك)؛ لا يكون بدعة، كعامة اختلاف الفقهاء؛ إلا النادر، من معدود زلاتهم المقطوع ببطلانها.

هذا هو معيار (البدعة) المذمومة المستنكرة في الشرع، وهو معيار لا يتغير باختلاف الأزمان، ولا يتبدل مهما تباينت الأحوال.

وإن كنت أعتذر عن عدم بسط الاستدلال لهذا التعريف والضابط؛ استغناء بإشارات دقيقة وردت في كلامي السابق، واكتفاء بالتأصيل العلمي الذي أرجوه لدى القارئ الذي أُوجِّهُ له مثل هذا المقال!

ولأن منازعة بعضهم في هذا التعريف أو في غيره، ممن كُتب المقال في تصحيح تصوراتهم عن البدعة والمبتدع، هو وحده مما سيفتح عليهم (لو تنبهوا) جبهة جديدة من الاعتراضات عليهم، وعلى ممارساتهم في التبديع التي جاء هذا المقال ليناقشها!

وهنا يحق لنا أن نسأل:

هذا الثبات في ضابط (البدعة)، وهو الثبات المبني على وضوح الضابط ودقته وقوة مأخذه ودليله من أدلة الشرع، هل هو متوفِّرٌ في وصف (المبتدع) أيضاً؟ أو قريبٌ منه؟

والحقيقة أن الجواب عن ذلك هو موضوع بقية المقال:

وقبل الكلام عن ضابط تبديع الأشخاص ووصفهم بوصف (المبتدع) يجب أن نستحضر:

أولاً: أنه لا يُوصف كل من وقع في بدعة بأنه (مبتدع)، ولم يقل بهذا أحدٌ يُعتدُّ به؛ مع أنه يصح لغةً أن يُقال عن كل من وقع في أي بدعة بأنه مبتدع!

لكن العلماء ألْغَوْا هذه الدلالة اللغوية؛ لأن التزامها (وإن كان صحيحاً لغةً، ومنضبطاً في الاطراد)؛ إلا أن نتيجته هي أنه لن ينجو من وصف (المبتدع) أحدٌ، ولا الـمُبدِّعُ نفسُه؛ فلا يكاد يخلو عالمٌ من زلةٍ مقطوعٍ بعدم صحة نسبتها إلى الشرع.

وهذا الخروج المحمودُ والواجبُ عن الاستعمالِ اللغويِّ المطّردِ لإطلاق وصف (المبتدع)، وهو خروجٌ إجماعي متفقٌ عليه (كما سبق)؛ هو أول سببٍ جعل هذا الوصف اجتهادياً؛ لأنه خرج عن ضابط اللغة المنضبط، إلى ضابط عرفي آخر.

ثانياً: أنه لا يوجد في الشرع نص واحد ينص على: (المبتدع)، من هو؟ فلا توجد آية أو سنة تذكر (المبتدع) بهذا الاسم الخاص وبمعناه الخاص الوارد في كُتب العقائد، ولا وَرَدَ في الكتاب والسنة ذكرٌ لصفات (المبتدع) التي تُبيِّنُ شرائط تسمية الأشخاص المعيَّنين به.

فالقرآن الكريم لم يذكر (المبتدع) أصلاً بهذا الوصف، وأما السنة فورد في بعض الروايات ذِكْرُها (صاحب البدعة) أي (المبتدع). ومن ذلك هذه الروايات، والتي هي أحسن ما في الباب (وليس فيها حسن، كما يأتي):

- حديث: (أَبَى الله أَنْ يَقْبَلَ عَمَلَ صَاحِبِ بِدْعَةٍ، حتى يَدَعَ بِدْعَتَهُ).

- وحديث: (حلَّت شفاعتي لأمتي، إلا صاحب بدعة).

- وحديث: (إن اللهَ احتجر [وفي رواية: احتجز، وفي رواية: احتجب] التوبةَ عن كل صاحب البدعة).

- وحديث: (أن رسول الله صلَّى اللهُ عَلَيه وسَلَّم قال لعائشة رضي الله عنها: يا عائشة، ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُم وَكانُوا شِيَعاً﴾، هم أصحاب الأهواء والبدع. يا عائشة. إن لكل صاحب ذنب توبة؛ إلا أصحاب البدع، ليست لهم توبة؛ فهم مني براء، وأنا منهم بريء).

- وحديث: (من وقَّر صاحب بدعة، فقد أعان على هدم الإسلام).

وكلها أحاديث ضعيفة مناكير، وإن خُولف في بعضها بالتصحيح!

ومع ذلك فلو كانت كلها صحيحة (كما ذهب بعض العلماء خطأً منهم إلى تصحيح بعضها) فليس منها حديثٌ واحدٌ يذكر شروط وصف الراوي بالابتداع، فلا دليل فيها على ضابط الوصف.

حتى حديث عائشة رضي الله عنها السابق: (﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُم وَكانُوا شِيَعاً﴾، هم أصحاب الأهواء والبدع) لا يذكر هذا الحديثُ ضابطاً للتبديع أصلاً، ولذلك فلا يستعمله أحد في التبديع قط؛ إلا بعد أن يكون قد بدَّع وانتهى من التبديع قبل استعماله!

أي لن يمكنه التبديع به إلا بعد أن يكون قد حدَّدَ المبتدعَ من السني، والجماعةَ من المفارق لها، ثم ـ بعد ذلك ـ وَصَفَ المبتدعَ بأنه مفارقٌ للجماعة.

مما يعني أن تبديع الأشخاص أمرٌ اجتهادي بامتياز! إذْ أيُّ أمرٍ أولى بالاجتهاد من أمرٍ لا يأتي له في الشرع ذِكرٌ البتة!!

ثالثاً: وحتى يزداد يقيننا في كون وصف (المبتدع) أمرا اجتهادياً بامتياز، لم يقتصر دليل اجتهاديته على كون الشرع لم يذكر ضابطه في شيء من نصوص الوحي، بل علينا أن نَتذكَّرَ هذه الحقيقة أيضاً:

وهو أن وَصْفَ الابتداع وصفٌ خارجٌ عن الأوصاف الشرعية الأربعة (التي وردت في الشرع)، والتي عليها مدار الأحكام في الدنيا.. وفي الآخرة، وهي:

(١) المؤمن: (وهو العدل: من غلبت حسناته سيئاته).

(٢) المسلم الفاسق: (وهو من غلبت سيئاته حسناته).

(٣) المنافق: من أظهر الإسلام وأبطن الكفر.

(٤) الكافر: من أظهر الكفر علانية.

و(المبتدع) قد يكون مؤمناً (إذا كان متأولاً)، وقد يكون فاسقاً (إذا كان معانداً، أو فاسقاً بمعصية غير البدعة مما يُفسق به المسلم: مبتدعاً كان أو غير مبتدع)، وقد يكون منافقاً، وقد يكون كافراً، (كالمرتد: إذا ارتد كما قد يرتد السني، وإذا كانت بدعته لا تقبل إعذاراً بجهل أو تأول وتوجب التكفير: كالنصيري واليزيدي المعتقد بالعقائد الشركية الناقضة لصريح دلالة الشهادتين)، كما بينت ذلك في كتابي (التعامل مع المبتدع: بين ردِّ بدعته، ومراعاة حقوق إسلامه).

فإذا خرج المبتدع (حتى إن اتفقنا على استحقاق المعيَّنِ الوصفَ به) عن أن يكون معدوداً بمجرد وصفه هذا في (المؤمنين)، وفي المسلمين (الفساق)، وفي (المنافقين)، وفي (الكافرين)، ولم يكن قسماً خامساً منهم (منزلة بين المنزلتين)!!، بل إنه قد يكون أي واحد من هؤلاء (كما سبق)، فهذا يعني أن هذا الوصف ليس حكماً مؤثراً بذاته في الأحكام (أحكام الدنيا وأحكام الآخرة)، وإلا لما خرج عن هذه الأوصاف الشرعية جميعها.

وأما تسمية بعض العلماء للمبتدعة بـ(فساق التأويل)، فهو نفسه كوصف (المبتدع) نفسه، لا يختلف عنه. فهو وصفٌ يُـخرج المبتدع بتأويله عن أن يكون بمطلق بدعته فاسقاً؛ ولذلك قيدوه بقولهم (فساق التأويل)، ولم يُطلقوا القول بتفسيقه.

وأما من أطلق القول بـ(التفسيق) على المبتدعة، دون مراعاة التأوُّل وعدمه، فقد أخطأ، عالـماً كان أو جاهلاً، وخالف الشرع (نقلَه وعقلَه)، وخالف أيضاً جمهور أهل العلم (بل هو عندي خلاف لإجماعهم: رغم دعاوى الخلاف المحكية بغير تحرير)؛ فليس لمن أطلق القول بتفسيق المبتدعة المتأولين حظٌّ من اجتهادٍ أو من تقليدٍ معتبرٍ!!

رابعاً: ومما يدل أيضاً على مقدار اجتهادية هذا الوصف (المبتدع) سوى البرهانين السابقين: اختلاف العلماء في ضابطه الاختلاف الكبير، وتباين آرائهم فيه التباين الواضح، والذي يصل في بعض مقالاته حدَّ الاضطراب والتهاتر، أو الضعف والتهافت!! فهو اختلافٌ كبير (لا أي اختلاف)، يدل على خفاء ودقة، أو على جواز تعدُّدِ معياره وعلى صحةِ اختلاف ضابطه!

و(الخفاءُ والدقة) و(جوازُ تَعدُّدِ المعيار) كلاهما سببان كافيان لاعتبار الأمر اجتهادياً بامتياز.

وباعتبار السلفية المعاصرة هم من أكثر المهتمين بشأن البدعة والمبتدعة، حيث نَصّبوا أنفسهم حراساً للسنة، ووضعوا على أنفسهم سياجاً يحصرون أهل السنة فيه (وإن كان داخل هذا السياج أسوجةٌ أخرى، يُخرجُ بها بعضُهم بعضَهم من السنة): فإن آخر ما تمخّضَ عنه الاجتهادُ الحديثُ لهم في بيان من يستحق التبديع، بعد تقريرهم أن وقوع مطلق البدعة من شخص لا يوجب وحده تبديعه (وهذا مما يوافقهم عليه غيرهم)؛ هو أن وصف (المبتدع) لا يستحقه إلا من وُجد فيه أحد أمرين:

(١) من خالف في مصادر التلقي الشرعية التي أجمع السلف عليها زيادة أو نقصاً، وهي: الكتاب والسنة والإجماع والقياس.

(٢) من خالف في المنهجية الإجماعية للتعامل مع هذه المصادر: كمن قدّم القياس على النص، والعقل على النقل.

ولهم في ذلك اختلافات، فمنهم: من يضيف إلى هذين الأمرين أمراً ثالثاً، أو رابعاً أيضاً، أو يجعلها أو أحدهما هو الضابط الصحيح وحده، أو وحدهما:

(٣) من ارتكب بدعة مشهورة في الابتداع، لها صفةٌ رمزيةٌ في الدلالة على التمحض في البدعة، كما يقولون! ويضربون على ذلك مثلا بقولهم: كـ(بدعة المولد) عند الصوفية، وكـ(بدعة القول بخلق القرآن) عند أهل الكلام.

وقد يُشْبِهُ (عند بعضهم) هذا الضابطُ الضابطَ الآتي، وقد يختلف عنه (عند آخرين):

(٤) من اتبع بدعة مشتهرة عند أهل العلم بالسنة بمخالفتها للكتاب والسنة: كبدعة الخروج، والروافض، والقدرية، والمرجئة.

وهذا الضابط الأخير هو في الحقيقة من أضعف الضوابط؛ لأنه ليس ضابطاً أصلاً! حيث إنه لا يُبيّنُ الضابطَ الذي بنى عليه السلفُ وصفَهم للشخص بكونه مبتدعاً، ولذلك فإنه لن يُمْكِـنَـنا تطبيقُه على ما يستجدُّ من البدع وما يُستحدَث من الأهواء في العصور التي جاءت بعد السلف الصالح؛ ولأنه ضابطٌ يلزم منه الدَّور؛ فإننا إن قلنا: ما الذي جعل السلف يخصون مرتكب هذه البدع خاصة دون غيرها بوصف (المبتدع)؟ سيكون الجواب بهذا الضابط: لأن السلف خصوا مرتكب هذه البدع دون غيرها بوصف (المبتدع)! فضلا عن المنازعة القديمة في بعض تلك المقالات، كإرجاء الفقهاء (كما يسمونه): هو يُعدُّ من البدع؟ أم يُعد مذهباً من مذاهب السلف في بيان حقيقة الإيمان؟

ولست الآن في مجال نقاش هذه التقريرات؛ إلا بقدر إثبات كونها مجردَ اجتهاداتٍ ظنيةٍ، يجب أن نلحظ مأخذَ الاجتهاد فيها، لكي يكون اختيارنا منها مبنيا على فقهٍ صحيحٍ للمسألةِ موضوعِ الاجتهادِ. وإلا فأين هو النص الذي يذكر هذه الأمور الأربعة أو أحدها (مما سبق آنفاً)؟! أين هو النص الذي يقول لهم (بوجه من وجوه الدلالة الصحيحة: الظاهرة أو الخفية): هذا هو الذي يستحق وصف (المبتدع) دون غيره من مطلقِ مرتكب البدعة؟! إذ لا يخفى أنه لا وجود البتةَ لنصٍّ في القرآن أو في صحيح السنة أو في المختلف في تصحيحه منها أو في آثار السلف الصالح من الصحابة والتابعين وأتباعهم، ما يذكر أحد هذه الضوابط أو غيرها!

كل هذا مما يقطع بكون هذا الوصف (المبتدع) ليس مصطلحاً شرعياً ـ وارداً في الشرع ـ (بخلاف البدعة؛ فالبدعة لفظ له دلالة شرعية)، ولا يتضمن وصفُ (المبتدع) بذاته حكماً شرعياً مطلقاً بإيمانٍ أو فسقٍ أو نفاقٍ أو كفرٍ، ولا مصطلحاً علمياً متَّفقاً على دلالته وعلى المستحِقِّ لوصفه.

وكل هذا كان يجب أن:

(١) يُخفف (في أقل تقدير) من كثرة استعماله، بضوابط (نحن وضعناها، لا الشرع) وبغير ضوابط (مع كثرة الاختلاف وضبابية الرؤية)، كما نشاهده اليوم، وكما في ركام الصراع الطائفي الموجود في كثير من تاريخنا العقائدي؛ لأن أمراً بهذا القدر من الإغراق في الظنية والاجتهاد ومن الخفاء الداعي لشدة الاختلاف فيه، لا يستحق كل تلك الحفاوة والاستهتار باستعماله.

(٢) نسأل أنفسنا: ما سبب تصحيح هذا الضابط أو ذاك؟ ما دام هذا اللفظ (المبتدع) لم يضع الشرع له الضوابط التي ندّعيها أصلاً!!

والجواب سيكون في مثل هذه الحالة التي لا ترجع إلى نص الشرع سيكون جوابا واحداً؛ إن أردناه جواباً صحيحاً: وهو أن ضابط وصف (المبتدع) هو المصلحة! والمصلحة وحدها، دونما سواها!!

وبغير هذا الجواب سيكون أي جواب غيره كذباً على الشرع: بنسبة ما لم يأت فيه إليه، أو تَـحَـيُّـراً وتخبُّطاً في الجواب: يدل على جهلٍ وهوى مُسْتَـحْكِمَينِ!

فإن سألتَ لكي تفهم معنى هذا التقرير:

ما هي هذه المصلحة التي جاء وصف (المبتدع) لتحصيلها؟

فسأقول: لا شك أن مصلحة هذا الإطلاق تحوم حول أمرين اثنين:

الأول: حماية الناس من الاغترار بذلك المذهب الباطل، من خلال التنفير من دعاته ومعتقديه، بوصفهم بوصف الابتداع (مبتدعة، أو أصحاب بدع، أو أهل الأهواء).

الثاني: عقوبة لصاحب البدعة من خلال التشهير باعتناقه لتلك المقالة الباطلة من خلال هذا الانتقاص لقدره بهذا الوصف؛ إذْ لعل هذه العقوبة تعيده إلى رُشده، وتدعوه إلى مراجعة رأيه وتغيير مقالته.

فإن قلنا بعد هذا التقرير: إن وصف (المبتدع) وصفٌ مصلحيٌّ، أي: إنما يُطلَـقُ لتحصيل مصلحة، ولا يُطلق إلا عندما يكون سبباً لتحصيل منفعة؛ فيجب أن نعلم بأن المصلحة من طبيعتها أن تختلف وسائل تحصيلها باختلاف الأحوال، مما يجعل هذا الوصف وصفاً تختلف صحةُ استعماله باختلاف الأحوال والأزمان، ولا يكون له معيار ثابت في كل عصر وظرف؛ فقد يصح ضابطٌ له في حال وزمان، ولا يصح في حالٍ وزمانٍ مختلفين.

وبالنظر إلى المصلحتين السابقتين: فلا شك أنهما قد تتحققان في زمننا بالضابطين السابقين اللذين تمخَّضَ عنهما تقريرُ السلفية المعاصرة لمن يستحق وصف (المبتدع) وهما: مخالفته في مصادر التلقي، وفي المنهجية الإجماعية للتعامل مع هذه المصادر، وقد لا تتحقَّق المصلحة بهما في زمنٍ آخر أو في ظرفٍ آخر وبلدٍ آخر.

وإلى ذلك قد تشير عبارة شيخ الإسلام ابن تيمية عندما قال عن الأشعرية: «وإن كان في كلامهم من الأدلة الصحيحة وموافقة السنة ما لا يوجد في كلام عامة الطوائف؛ فإنهم أقرب طوائف أهل الكلام إلى السنة والجماعة والحديث، وهم يُعدُّون من أهل السنة والجماعة، عند النظر إلى مثل المعتزلة والرافضة وغيرهم، بل هم أهل السنة والجماعة في البلاد التي يكون أهل البدع فيها هم المعتزلة والرافضة ونحوهم». [بيان تلبيس الجهمية: ٣/ ٥٣٨].

وقدمت كلامَ شيخ الإسلام بأنه (قد يشير...)، مع قوة دلالته على ذلك؛ لأنه لا يُـحتج بكلامه ولا بكلام غيره من أهل العلم، وإنما يُستوضَحُ بكلام أهل العلم ما يَـخفى علينا من العلم، أو يُستأنس به، ثم تُكشف به حُجبُ التعصب أيضاً!

وكنت في سبيل تقريب هذا التقرير إلى عقول السامعين أقول لهم:

ـ أخبر النبي صلَّى اللهُ عَلَيه وسَلَّم أنه: (يَدْرُسُ الْإِسْلَامُ، كما يَدْرُسُ وَشْيُ الثَّوْبِ، حتى لَا يُدْرَى ما صِيَامٌ ولا صَلَاةٌ ولا نُسُكٌ ولا صَدَقَةٌ، وَلَيُسْرَى على كِتَابِ الله عز وجل في لَيْلَةٍ، فلا يَبْقَى

في الأرض منه آيَةٌ. وَتَبْقَى طَوَائِفُ من الناس: الشَّيْخُ الْكَبِيرُ، وَالْعَجُوزُ، يَقُولُونَ: أَدْرَكْنَا آبَاءَنَا على هذه الْكَلِمَةِ: (لَا إِلَهَ إلا الله)، فَنَحْنُ نَقُولُهَا).

وفي بقية الحديث: أن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه ـ وهو راوي الحديث ـ أخبر أن هؤلاء ينجون من النار بتلك الشهادة، رغم جهلهم المطبق بمباني الدين العظام وبأحكامه جملةً وتفصيلاً.

مما يعني أن هؤلاء ما زالوا مسلمين، رغم هذا الجهل المطبق، والبعد الكبير عن العلم بأركان الدين وأحكامه!

ـ فلو افترضنا أنه وُجد في ذلك الزمان شيعة إمامية (روافض)، وهم يشهدون الشهادتين، ويصلون ويزكون ويصومون ويحجون، ويعلمون من أحكام الدين: ما وافقوا فيه أهل السنة من الأحكام، وما خالفوهم فيه.

فأي الطائفتين ستكون أولى بوصف (أهل السنة)؟ وأيهما الأولى بوصف (المبتدعة)؟

ولا شك أن هذا المثال لم يكن ضربه لاحتمال وقوعه، ولكنه ضُرب لنفهم من خلال تصوُّرِه معنى أن المعيار المصلحي لوصف (المبتدع) معيار يجب أن يختلف باختلاف الأحوال.. فقط.

فإن كان معيار وصف الأشخاص والجماعات بالابتداع وصف مصلحي (كعقوبة المبتدع سواء)، وهو لذلك يختلف باختلاف الأحوال المؤثرة في تقدير المصلحة والمفسدة؛ أفلا يجب علينا أن نراعي اختلاف حال المسلمين اليوم عما كانوا عليه في زمن السلف الصالح:

من جهة ظهور العلم بالدين وقلة الجهل في زمنهم، وقوة السنة وأهلها، وقيام الحجة على عامة الناس بوجود فقهاء الصحابة والتابعين وتابعيهم والأئمة المتبوعين، وقوة المسلمين وانتصارهم وضعف عدوهم وانهزامه..

وغير ذلك من الفروق الشاسعة بين زمننا وزمن سلفنا الصالح؟

أفلا يجب أن تكون هذه الفروق سبباً لتغير وسائل تحقيق مصلحة الدين، ومن بينها وصفُ الأشخاص والجماعات بالابتداع؟

هو سؤال أطرحه، لكي يتأمله كل من كانت غيرته على الدين والأُمة الإسلامية غيرةً حقيقية، وليست غيرته تعصباً لجماعة وطائفة على حساب الدين والأمة!

* * * * *

سأل بعض طلبة العلم عن تعريفي لـ(البدعة)، المذكور في مقالي السابق (البدعة والمبتدع) وعن دليله ومأخذه:

والجواب:

التعريف الذي ذكرته هو: كل أمر نُسب إلى الشرع، يُقطع بعدم صحة نسبته إليه.

و(البدعة) في اللغة هي الأمر المستحدث، وهي كذلك في الشريعة، فلم يخرج اللفظ عن دلالته اللغوية؛ إلا أن اللغة نفسها توجب مراعاة سياقات الإطلاق، فاللغة تجيز لك أن تقول عما تستنكره من نظريات العلم أو الفن إنه بدعة علمية أو فنية، ولست في حاجة إلى الاستدلال لصحة هذا الإطلاق.

ولن يُقال عن إطلاقك هذا إنه إطلاق غير لغوي، لمجرد أنك لم تُسبق إلى هذا التركيب، ما دام على نسق أساليب اللغة.

وقد جاء ذكر (البدعة) في الشرع بما يدل على أنها:

ـ الأمر المستحدث في الشريعة.

ـ والمقطوع بعدم صحة نسبته إليها.

وهما قيدان يوجبهما السياق اللغوي لمجيء هذا اللفظ في نصوص الشرع التي ورد فيها:

فمثلا: قوله صلَّى اللهُ عَلَيه وسَلَّم: (من أحْدَثَ في أمْرِنَا هذا ما ليس منه فهُوَ ردٌّ)، يدل على أمرين:

١ـ أن الاستحداث المذموم مطلقاً هو ما كان في الدين، لا ما كان في غير الدين، بدليل قوله صلَّى اللهُ عَلَيه وسَلَّم: (في أمرنا هذا).

٢ـ وأن هذا المستحدث يجب رده على مستحدِثه، ويجب عدم إقراره عليه وعدم السكوت عن هذا المحدَث، بدليل قوله صلَّى اللهُ عَلَيه وسَلَّم: (فهو رد).

وقوله قوله صلَّى اللهُ عَلَيه وسَلَّم في خطبته: (أمَّا بَعدُ: فإن خَيرَ الحديث كِتابُ الله، وَخَيرُ الهُدَى هُدى مُحَمَّدٍ صلَّى اللهُ عَلَيه وسَلَّم، وشَرّ الأُمُورِ مُحدَثَاتُهَا، وكُلّ محدثة بدعة، وكل بِدعَةٍ ضلَالَةٌ): صريح في كون البدعة: مستحدثا مذموما في الدين:

فذكره صلَّى اللهُ عَلَيه وسَلَّم لمصدري الخيرية والهدى (الكتاب والسنة)، ثم ذكره للمحدثات، يدل على أن المحدثات هي ما خرج عن الكتاب والسنة.

وتنصيصه صلَّى اللهُ عَلَيه وسَلَّم على أن (شر الأمور) هي هذه المحدثات، قد دل على ذمها الذم الشديد.

وكان هذا الوصف (شر الأمور) وصفاً كافياً في الدلالة على الذم؛ فلماذا أضاف صلَّى اللهُ عَلَيه وسَلَّم قوله: (وكل محدثة بدعة)؟ هذا يدل على أن لفظة (البدعة) لها دلالة لغوية تؤهلها لتكون اسماً لشر الأمور (المحدثات).

إذ لو كانت لفظة البدعة لا تعني (فيما تعنيه) الدلالة على الذم، ولو كانت تساوي ـ فقط ـ لفظ (الجديد) أو (المستحدث) مطلقاً، لكان قوله صلَّى اللهُ عَلَيه وسَلَّم: (وكل محدثة بدعة) أسلوباً يُنزَّه عن مثله كلام أدنى الفصحاء منزلة، فكأنه بهذا الافتراض قد قال: كل محدثة محدثة، أو قال: كل مستجد مستجد!! وهذا كلام فارغ، يتنزه عنه العقلاء. لكنه صلَّى اللهُ عَلَيه وسَلَّم أراد أن يضيف مزيد تنفير من البدع في الدين، فقال: (وكل محدثة بدعة)، فكأنه قال: وكل محدثة محدثة مذمومة، وهي (البدعة).

ولا يلزم من ذلك أن تكون (البدعة) مطلقاً لا ترد في اللغة إلا في معرض الذم، فهي ككثير من الألفاظ التي قد ترد للمدح والذم، لكنها في المدح أو في الذم أكثر. وقد نص ابن الأثير: أن البدعة تستعمل في الذم أكثر.

وهذا كلفظ (الصِّيت) بكسر الصاد: فهو غالباً يُطلق على السمعة الحسنة والذكر الجميل، وإن كان يُطلق أيضاً على الذكر حسناً كان أو قبيحاً. ومن شدة غلبته في الذكر الحسن، أطلق بعض أئمة اللغة أنه لا يُقال إلا في الذكر الحسن.

وكقولهم: (لا أبا لك): فهو أكثر ما يُذكر في المدح: أي لا كافي لك غير نفسك. وقد يُذكر في معرض الذم، كما يقال: (لا أم لك).

وكـ(الظن) والذي قد يأتي بمعنى الشك أو ما دون اليقين، وقد يأتي بمعنى اليقين، لكنه في الشك وما دون اليقين أكثر، كما بين ذلك ابن الأنباري في الأضداد.

وقد لا تجد هذه الأغلبية منصوصاً عليها، لكن يدركها من له أدنى معرفة بكلام العرب!

وهذا كلفظ (الشذوذ)، والذي هو اللغة: الانفراد، لكنه أغلب ما يرد في سياق الانفراد المذموم خاصة.

وبهذا تبيَّن أن السنة قد بينت أن (البدعة) الموصوفة بكونها (شر الأمور) وبـ(الضلالة) والمردودة على صاحبها: هي البدعة في الدين.

وقد دلت السنة أيضاً أن الاجتهاد المعتبر غير مذموم صاحبه، بل هو ممدوح مأجور، حتى لو أخطأ:

وذلك في قوله صلَّى اللهُ عَلَيه وسَلَّم: (إذا حكَمَ الحَاكِمُ فَاجتَهَدَ، ثمَّ أصَابَ: فلَهُ أَجرَانِ. وإذا حكَمَ، فَاجتَهَدَ، ثمَّ أَخطَأَ: فلَهُ أجْرٌ).

ودلت السنة على إقرار المجتهدين اجتهاداً معتبراً، ولو أخطؤوا. كما في حديث: (لا يُصَلّيَنَّ أَحَدٌ الْعصْرَ إلا في بَني قُرَيْظَةَ. فأَدْرَكَ بعْضُهُمْ الْعصْرَ في الطَّرِيقِ، فقال بعْضُهُمْ: لا نُصَلّي حتى نَأْتيَهَا، وقال بعْضُهُمْ: بلْ نُصَلِّي، لم يُرِدْ منَّا ذلك. فَذُكِرَ ذلك للنَّبِيِّ صلَّى اللهُ عَلَيه وسَلَّم، فلم يُعَنِّفْ وَاحداً منهم).

ووقع الإجماع اليقيني بين الصحابة والتابعين والأئمة المتبوعين أنه لا إنكار في الاجتهاد المعتبر.

فدلَّ ذلك على أن الخطأ المظنون المعتبر لا يمكن أن يكون هو (شر الأمور) و(الضلالة) والمردود على صاحبه؛ لأن خروجه عن الدين غير متيقّن، وهو مظنون الخروج عند من يخالفه، مظنون الدخول في الدين عند من يقول به.

وهذا ما جعل الإنكار بوصف أمر بكونه (بدعة) يجب أن يكون من خصائص الأمر المقطوع بعدم صحة نسبته إلى الشرع.

وبذلك يتبين مأخذ الشرطين المذكورين في إطلاق لفظ البدعة.

أما من زعم صحة إطلاق لفظ (البدعة) على الاختلاف المعتبر: فهو إما

ـ أنه ممن يجيز الإنكار في مسائل الاختلاف المعتبر، وهذا من الجهل بمحل، ومن مخالفة الدليل القطعي: ما يُغني عن مناقشة كلامه.

ـ وإما أنه يقصد أن لفظ (البدعة) لا يلزم منه الذم والإنكار، وهو بذلك قد خالف الإطلاق الوارد في الشرع، والموافق لغالب الاستعمال اللغوي: من استعمال لفظ البدعة للذم خاصة والإنكار (كما سبق). كما أنه قد خالف العرف الجاري منذ أجيال السلف، كما في كتاب (البدع والنهي عنها) لابن وضاح (٢٨٩هـ).

ومع ذلك فخلاف هذا لفظي، فهو يطلق البدعة على ما يُعتبر وما لا يُعتبر، لكن يجب عليه عند إطلاقها على الخلاف المعتبر (وفق اصطلاحه الخاص هذا) أن يصرح بكونه لا ينكر تلك المقالة، وهي عنده مقالة تحتمل الصواب، وإن كان يرجح خطأها!!

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

(سَدُّ الذَّرَائِعِ حَالَةٌ استثنائيَّةٌ)

سد الذرائع بتحريم ما أباح الله لكونه أصبح سبباً للوقوع في المحرم حق، لكن يجب أن يكون هذا التبديل للحكم حالة استثنائية، لا أن يكون هو الحالة الطبيعية.

ولذلك كما صح للفقيه تحريم ما أباح الله سداً للذريعة، فيجب عليه أن يبين للناس كيف يعود ذلك الحكم إلى أصله من الإباحة، بل عليه أن يسعى للعودة إلى الوضع الطبيعي الذي يكون فيه المباح مباحاً، ولا يفرح بالحالة الاستثنائية التي حرمت ما أباح الله، وضيقت فسحة الشرع.

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

(صُورَةٌ أخرَى لِسَدِّ الذَّرَائِعِ)

يستغل الليبراليون تشديدَ بعض المفتين القائم منهم على تحريم المباح سداً للذريعة في تأليب الناس ضد المشايخ، بل يستغلون ذلك في تبغيض أحكام الدين إلى الناس.

فلماذا لا يسمح بعضنا لنفسه في احتمال قبول اجتهاد من يسعى إلى سد ذريعة الردة وكراهية الشريعة بإباحة الحلال؟!

أيجوز سد ذريعة المعصية بتحريم الحلال، ولا يجوز سد ذريعة الكفر بإرجاع الإباحة إلى أصلها، وذلك بإباحة المباح!

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

(ذَرَائِعِ إلى الشِّرك)

ما يوصف بأنه ذرائع إلى الشرك ليست هي الشرك نفسه، ومجرد كونها (في الاجتهاد الظني لبعض العلماء) ذرائعَ شركية، لا يخرجها عن كونها مسائل فرعية ظنية؛ مادام مستندها ظنياً.

ولذلك فلا نستغرب سواغ الاختلاف في كثير من تلك المسائل التي وصفت عند بعض العلماء بكونها ذرائع شركية؛ لأن كثيراً منها مسائل فرعية، وليست من أصول العقائد، وإدخالها في كتب التوحيد والعقائد، مع عدم التنبيه على فرعيتها، جر إلى تضخم حجمها فوق ما تستحق،

وأخل بمرتبتها ضمن مراتب الخلاف: من كون الخلاف فيها معتبراً، إلى توهم أن الخلاف فيها غير معتبر، بل بلغ الأمر إلى درجة تكفير المخالف في بعضها، أو تبديعه في أقل الأحوال!!

وهذه الخطايا ناتجة عن اجتماع وجوه ثلاثة من الخلل العلمي:

- من ذكرها ضمن كتب التوحيد والعقائد.
- ومن ضعف التحرير وقلة الفقه في النصوص.
- ومن عدم وضوح منزلتها ضمن منازل الخلاف: هل هو خلاف معتبر أو غير معتبر، لغياب معايير التمييز بين هذين النوعين من الاختلاف.

ومن أمثلة هذه المسائل: حكم شد الرحل لغير المساجد الثلاثة، وإلى زيارة قبر النبي صلَّى اللهُ عَلَيه وسَلَّم خاصة. فهي مسألة فرعية، لا علاقة لها بالشرك وعدمه، ومبناها على فهم النص الظني الدلالة فقط.

وخلطها ببدع القبورية خطأ، لأن من أجازها من العلماء لا يجيز إلا الزيارة المشروعة للقبور.

* * * * *

(الكَعبَةُ نُصَلِّي إليها ونُقَبِّلُ حَجَرَها ولا تَقُودُ إلى الشِّرك)

يقول أحدهم: اهدموا الكعبة، فهي أعظم ذرائع الشرك!! أو اهدموا تفكيركم الذي أباح لنفسه أن يهدم كل شيء بحجة سد ذرائع الشرك.

فالكعبة نصلي إليها، نسجد ونركع شطرها، ونطوف بها، ونتمسح بركنيها، ونقبل حجرها المبارك، ونلتزم ببابها، ونكسوها بأثمن كسوة، ونطيبها بأطيب الطيب، ونعظمها. ونُفدّيها، وهي حجر، لا يضر ولا ينفع!

فإما أن هذه أعظم ذرائع الشرك حسب فهمكم، ويجب عليكم الاستدراك على الشرع، فتهدموها سداً لذريعة الشرك. وإما أن فهمكم لذرائع الشرك هو الذي يجب أن يُهدم، قبل أن تهدموا الكعبة، ولولا ذلك لم يشرع الله تعالى لنا تلك الشعائر تجاه الكعبة.

فقلت له: لا يحتاجون لهذا الاقتراح، بل كان عليك أن لا تفتح لهم ذريعة هدم الكعبة، بل كان عليك أن تسد عليهم ذريعة الغلو في سد ذريعة الشرك!

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

(لِـمَاذَا لَمْ يَهتمُّوا بِسَدِّ ذَرِيعةِ الجَفَاء فِي محبَّتِه صلَّى اللهُ عَلَيه وسَلَّم)!

كأن الذرائع التي يجب سدها تقتصر فقط في باب المعتقد على الشهادة الأولى من الشهادتين: (شهادة أن لا إله إلا الله)، وأما الشهادة الثانية: (أن محمداً رسول الله) فلا تستحق سد ذرائع نقصانها أو انتقاضها!!

ألا يُخشى أن تنقص محبة النبي صلَّى اللهُ عَلَيه وسَلَّم عن القدر الواجب، وهو القائل صلَّى اللهُ عَلَيه وسَلَّم: (لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ).

فلماذا لم يهتموا ببناء سدود ذرائع الجفاء في محبته صلَّى اللهُ عَلَيه وسَلَّم؟! وذرائع التقصير فيها كما تستحقه من الاهتمام؟!

بل لماذا يظنون أن سد ذرائع الخلل في التوحيد لا يكون إلا بخلل في حقِّ مَنْ به قد عرفنا التوحيد؟!

لست أتهم مسلماً ببغض رسول الله صلَّى اللهُ عَلَيه وسَلَّم، لا والله! فهذا لا يمكن أن يكون من مسلم تجاه مسلم!!

ولست أصف هؤلاء بنقص محبتهم هم في أنفسهم لرسول الله صلَّى اللهُ عَلَيه وسَلَّم، فالله أعلم بما في نفوسهم، والظن بأهل الفضل منهم سلامتهم من هذا النقصان وبُعدهم عنه.

ولكني أتساءل: لماذا تكون مشاريع سد ذرائع الشرك في كثير من الإحيان يقوم بناؤها على هدم سدود ذرائع التقصير في حق رسول الله صلَّى اللهُ عَلَيه وسَلَّم؟! فيقوم السد على هدم سد آخر، وكان يمكن أن يجتمعا، كما اجتمعا على مر العصور.

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

(حَدِيثٌ يَرُدُّ عَلَى غُلاةِ سَدِّ ذَرَائِعِ الشِّرك)

قال رسول الله صلَّى اللهُ عَلَيه وسَلَّم: (ثَلاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ بِهِنَّ حَلاوَةَ الإِيمَانِ: مَنْ كَانَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَمَنْ أَحَبَّ عَبداً لَا يُحِبُّهُ إِلا لله، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ بعد إذ أنقذه الله، كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ).

اعرضوا قوله صلَّى اللهُ عَلَيه وسَلَّم في هذا الحديث (مَنْ كَانَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا) على مقالة غلاة سد ذرائع الشرك وأصولهم فيها، لوجب إذن على هذه الأصول أن يقول صلَّى اللهُ عَلَيه وسَلَّم: من كان الله ثم رسوله أحب إليه مما سوى الله ثم رسوله! لأن العطف بالواو يقتضي المساواة، وحب الله تعالى (ولا شك) فوق حب رسوله صلَّى اللهُ عَلَيه وسَلَّم.

فلو لم يكن هذا الكلام حديثاً نبوياً متفقاً عليه لأنكروه!

أما وهم لا ينكرونه؛ لأنه حديث نبوي، وحديث متفق على صحته: فعليهم أن يوجهوه بما يخفف من غلوهم في دعوى سد ذرائع الشرك، بأن يتبينوا متى يكون العطف بالواو بين الله ورسوله منهياً عنه نهي كراهة أو تحريم، ومتى لا يكون منهياً عنه.

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

(لَضَرَبُوا إِلَيْهِ أَكْبَادَ الإِبِلِ)

ثبت عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أنه قال: (لَأَنْ أُصَلِّيَ فِي مَسْجِدِ قُبَاءٍ رَكْعَتَيْنِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ آتِيَ بَيْتَ الْمَقْدِسِ مَرَّتَيْنِ، لَوْ يَعْلَمُونَ مَا فِي قُبَاءٍ لَضَرَبُوا إِلَيْهِ أَكْبَادَ الإِبِلِ)

وثبت عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه من وجوه يصحح بعضها بعضاً، أنه قال عن مسجد قباء: (لَوْ كَانَ هَذَا الْمَسْجِدُ بِأُفُقٍ مِنَ الآفَاقِ لَضَرَبْنَا إِلَيْهِ آبَاطَ الإِبِلِ).

وهذان الأثران يدلان على جواز شد الرحل (السفر) إلى مسجد غير المساجد الثلاثة.

فإن قيل: إن مسجد قباء يدخل في حكم شد الرحل إلى المسجد النبوي لأنه في حرم المدينة.

قيل: فالقبر أولى، فهو في المسجد النبوي، لا في حرمها فقط!

فإن قيل: قولهما مرجوح.

نقول: كونه مرجوحاً عندك، لا يلزم منه أن لا يكون راجحاً عند غيرك؛ إلا إن كان خلاف هذين الإمامين (السلفيين)!! خلافاً غير معتبر عندك! أو إذا كان قولهما قولا مبتدعاً؟! أو إذا كانا بهذا القول قد خالفا نصاً قطعياً معلوماً من الدين بالضرورة؟!

فإن لم يكن شيء من ذلك، فيجب أن نبحث عن سبب تضخم هذه المسألة عندنا، ولماذا صادرنا فيها آراء أكثر أهل العلم، ولماذا جعلناها حداً من حدودنا التي ابتدعناها للتفريق بين السني والبدعي.

رضي الله عن الفاروق عمر وعن خال النبي صلَّى اللهُ عَلَيه وسَلَّم سعد بن أبي وقاص، ماذا كنا سنقول عنهما لو كانا في زماننا.

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

(هُنَاكَ فَرقٌ بَينَ الطَّائِفَةِ المَنصُورَةِ والطَّائِفَةِ المَعصُومَة)!

لو ارتضينا وصف طائفة ضيقة دون بقية طوائف أهل السنة بأنها هي الطائفة المنصورة أو الناجية، فهذا لن يعني أنها ستكون الطائفة المعصومة، لا بأفرادها ولا بمجموعها. وهناك فرق كبير بين (الطائفة المنصورة والناجية) و(الطائفة المعصومة)!!

واعتقاد طائفة ما أنها مكتفية ذاتياً في مجال العلم والعمل، هو منها اعتقاد عصمة بامتياز، وهو غرورٌ طاغٍ، سيجعلها غارقة في الخطايا وهي تظن طهرويتها منها!

وقد يدعي بعضهم لطائفته أنها معصومة بالمجموع في باب معين من أبواب العلم (كالمعتقد)، فلا يخرج الحق عن مجموع أقوال أهلها. فنقول له:

ما دليل تلك العصمة الخاصة؟

إن قال دلَّ على ذلك الدليل الشرعي، رد عليه عدم وجوده، فلا وجود لدليل ينص على اسم طائفته وعصمتها.

ورد عليه أيضاً أن هذا يلزمه بادعاء أن إجماع طائفته خاصة حجة دون بقية الأمة، وهو قول باطل لم يقل به أحد.

وأما إن قال: دل على تلك العصمة للمجموع واقع حال الطائفة، قلنا:

ـ سلمنا أنهم كذلك فيما مضى، فما الذي يضمن لك حصوله في الحاضر والمستقبل، ما داموا غير معصومين.

ـ كيف عرفت عدم خروج الحق عنهم؟ هل كان ذلك إلا من خلال ترجيحك الخاص للصواب والراجح؟! أليست هذه مصادرة؟! إذ يحق لمن خالفك أن يدعي خروج الحق عن مجموع أقوالهم.

ـ يمكن أن يقول قائل: لا تخلو عامة الطوائف التي يكثر أتباعها من أن لا يخرج الحق عن مجموع علمائها، ولا اختصاص في ذلك لطائفة بعينها.

ـ لا يفيد أن يوجد من يقول بحق في طائفة، إذا كان قوله مهجوراً من تلك الطائفة نفسها، وربما ردوا عليه واطرحوه. فيبقى أن القول الذي يكون أشهر في الطائفة وأكثر شيوعاً هو القول الذي يصح أن ينسب إلى تلك الطائفة.

* * * * *

المَشَاعِرُ الإنسَانِيَّةُ لا يُمكِنُ أن لا تَكُونَ شَرعِيَّةً

ليس من السهل أن تميت شعورك الفطري الإنساني في وقت أو في حادثة، ثم تجده في وقت آخر أو حادثة أخرى، فإماتة مثل هذا الشعور هي في حقيقتها إماتة للضمير، وإذا مات الضمير لا يحييه إلا النفخ في الصور: شدةً وقوةَ بأسٍ تعيدان الأرواح للقبور!

لذلك لا تسمح لأي فكرة ولا لأي رأي أن يُميت فيك مشاعرك الإنسانية، فموتها في وقتٍ سيكون موتاً لإنسانيتك! وماذا بقي من إنسان خسر إنسانيته؟!

والمشاعر الإنسانية مشاعر دينية؛ لأن ديننا دين الفطرة، والفطرة هي الخلقة الإنسانية السوية. فما وافق الفطرة فهو موافق للدين، وما خالفها فهو مخالف للدين: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ

حَنِيفاً فِطْرَتَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ الروم: ٣٠.

وهذه حقيقة راسخة: أن ما خالف الفطرة لا يمكن أن يكون موافقاً للدين. ولا تقبل منهم أن يساوموك عليها، ولو حشدوا لك عشرات النصوص من القرآن والسنة، يزعمون فيها تَعارُضَ المشاعرِ الإنسانية مع الدين؛ إذ أي فهم للكتاب والسنة يجعلهما يناقضان الفطرة فهو فهمٌ باطل، لا تتردد في إبطاله؛ بشرط أن تتأكد من أنك تفرق تفريقاً واضحاً بين موجبات الفطرة البشرية (من جهة) والرغبات الشخصية والأهواء الذاتية (من جهة أخرى).

فالرغبات والأهواء تتعارض بين البشر، ومنها الموافق للدين ومنها المخالف له، لكن فطرتهم محل اتفاق بين عموم العقلاء من بني آدم، ولا يمكن أن تخالف فطرتُهم الدينَ.

فعندما يقررون لك أن معتقد (الولاء والبراء) يوجب عليك أن تبغض كل الكفار، هكذا بهذا الإطلاق، سيحشرون لك نصوصاً كثيرة، توهمك بصحة كلامهم؛ كقوله تعالى ﴿لا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ المجادلة: ٢٢، وكقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ﴾ الممتحنة: ١، وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾ المائدة: ٥١.

لا تقبل هذا التقرير منهم، رغم حشدهم الكبير له من النصوص؛ لأن حب الإنسان لوالديه وولده وزوجه فطرة كريمة رُكِّب البشر عليها، وليست مجرد رغبات شخصية قطعاً ولا أهواء ذاتية يقيناً. وما دامت كذلك، فلا يمكن أن تكون مفطوراً على حب والديك وولدك وزوجك، ثم يُحرِّم الشرعُ عليك هذه المحبة!

فلا تتردد في إبطال دعاواهم، ولا تشك في غلطها لحظة واحدة. ثم ابحث (بعد ذلك) عن الفهم الصحيح لتلك النصوص التي لا يمكن أن تعارض الفطرة؛ لأنها نصوصُ دينِ الفطرة.

والفهم الصحيح لتلك النصوص هي أنها إنما تُحرِّم محبة الكفار لكفرهم أو فسقهم، أما محبة كافر لكونه والداً أو ولداً أو زوجاً كتابية، أو لكونه قد أحسن إليك، أو لصفاته الحسنة وأخلاقه الكريمة، فهذا لا يمكن أن تتناوله الشريعة بالمنع؛ لأن الفطر السوية تجتمع عليه.

ويدل على ذلك من النصوص أيضاً: قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ القصص: ٥٦، فأثبت الله تعالى لنبيه صلَّى اللهُ عَلَيه وسَلَّم حُبَّ عمِّه الذي مات على الكفر (أبي طالب)، ولا عاب تعالى عليه هذا الحب؛ لأنه عمه؛ ولأنه كان محسناً إليه مناصراً له.

ويدل على ذلك من الأحكام اليقينية أيضاً: جواز الزواج من المرأة الكتابية، ولا يمكن أن تتزوج ممن تبغض، وإن أبغضت دينها. فالمتزوج بالكتابية يحبها (لجمالها، أو طبائعها، أو غير ذلك)، ويُبغض فيها (في الوقت نفسه) دينها.

هذان النقلان الشرعيان يؤكدان لك خلل الفهم المصادم للفطرة، المنسوب للنصوص، وبنصوص أيضاً؛ سوى مخالفته المتيقَّنة للفطرة المتيقنة!



هَلْ يُمكِنُ أنْ يَأتِيَ نَصٌّ بِخِلافِ القِيَاس؟

عندما يقول أحد عما يثبته النص عنده: إنه يأخذ به مع كونه مخالفاً للقياس، تعظيماً للنص، قد يكون لقوله هذا معنى غير صحيح، وقد يكون صحيحاً.

- فيكون هذا الإطلاق غير صحيح: إذا قصد من قاله أن النص خالف القياس الصحيح، فهذا يستحيل؛ لأن القياس الصحيح دليل شرعي، والأدلة الشرعية لا تتناقض؛ ولأن صحة الاستدلال بالقياس مبنية أصلاً على كون الأحكام الشرعية معللة (بعلة التعبد في العبادات، وعلة جلب المصالح ودرء المفاسد فيما سواها)، فإن فرضنا وجود علة مصلحية لم يراعها الشارع فقد نسفنا أصل القياس، بل نسفنا ما نمتدح به الشريعة من كونها صالحة ومصلحة لكل زمان ومكان، ومن كونها جاءت لجلب المصالح وتكثيرها ودرء المفاسد أو تقليلها، بأن جعلناها بخلاف ذلك، وذلك في بعض أحكامها التي جوَّزنا فيها مخالفة قياس علة المصلحة ودرء المفسدة.

وكثيراً ما تتكرر هذه العبارة (هذا الخبر بخلاف القياس) عند الفقهاء والأصوليين، في سياق تقديم بعض الأخبار على القياس، كما يقال. فيُظن من ذلك أن القياس قد يعارض النصوص الشرعية، ولذلك أحببت التنبيه على خطأ هذا التصور.

ـ وتكون هذه العبارة صحيحة: إذا قُصد بها القياس غير الصحيح، وهو يشمل صورتين:

الأولى: ما يظنه الناظر بادي الرأي قياساً صحيحاً، ولكن بعد التمعن يتبين له الفارق المانع من صحة القياس.

فيكون قول الفقيه: أخذنا بالخبر المخالف للقياس، معناه: أخذنا بالخبر الذي ربما لولا وروده لأخطأنا القياس!

الثانية: إطلاق القياس وإرادة توهم القياس، فيما لا يصح فيه القياس أصلاً.

وهذا كقول الحنفية في نقض الوضوء من القهقة في الصلاة، عندما قالوا: إنه خلاف القياس، وأنهم إنما أخذوا به لأن الأثر عندهم مقدم على القياس.

فمرادهم توهم القياس، لا القياس الحقيقي؛ لأن نواقض الوضوء تعبدية، لا علاقة لها بمعنى عقلي ولا مصلحي، حتى يُقاس عليها. وبالاتفاق فإن التعبدات لا قياس علة فيها، أي لا يصح فيها قياس التعليل أصلاً؛ لأن علتها هي الجهل بالعلة (التعبد والخضوع لله تعالى).

فمراد الحنفية بمخالفة هذا الحكم للقياس: أن من توهم السبب علة، فسيجد أن أسباب نقض الوضوء مخالفة كل المخالفة للقهقهة في الصلاة، ولا تشابه بينها وبينها. فيظن أنها مخالفة للقياس، وهي لا تخالف القياس، ولكنها تخالف نمط أسباب نقض الوضوء الأخرى.

قد يقول قائل: لكن توافق الشريعة واتساقها يظهر حتى في الأسباب، كما هو واقع في العلل؟

فنقول: نعم، لكن خلافها لا يُسمى قياس علة، وخلافها بالنص لا يمكن الاعتراض عليه؛ لأن النص هو الذي يبين الأسباب.

ملحوظة:

أقصد بالعلة: ما تظهر بالعقل مناسبة الحكم له. كالإسكار في تحريم الخمر.

وبالسبب: ما لا تظهر بالعقل مناسبته للحكم، ولكن أقامه الشرع سبباً للحكم. كزوال الشمس سبباً لدخول وقت صلاة الظهر، دون تعامدها في كبد السماء.

ومن وجدناه من الفقهاء يقول: إن نصاً قد خالف القياس، ووجدناه قصد أن النص أثبت ما يخالف القياس الصحيح؛ فيجب الاحتراس من فقه هذا الفقيه في هذا الجانب، لأنه سيكون فيه ظاهرية وسطحية في فهم النصوص، بقدر غموض علل الأحكام عنده؛ لأنه أظهر لنا خطأ في التصور ينقص من قوته الفقهية في التعامل مع النص وفي استنباط هدايته، من حيث إنه كان يتصور أن الأحكام غير التعبدية قد تأتي بها لا يحقق مصلحة ولا يدرأ مفسدة.

* * * * *

(القَوَاعِدُ الفِقْهِيَّةُ اليَقِينِيَّةُ لا يُعَارِضُهَا الخِطَابُ الشَّرعِيُّ)

القواعد الفقهية اليقينية لا يمكن أن يعارضها الخطاب الشرعي في الكتاب والسنة معارضة حقيقية؛ لأن الخطاب الشرعي إن كان يقينياً (في الثبوت والدلالة) فلا يمكن أن يعارض تلك القواعد؛ لأن اليقينيات لا تتعارض.

وإن كان الخطاب الشرعي ظنياً (في الثبوت أو الدلالة)، فيجب أن يُفحص ثبوته، أو أن يُعاد النظر في دلالته؛ لأن اليقين مقدم على الظن.

فمثلاً: قاعدة (دفع أعظم المفسدتين بأخفهما، إذا لم يمكن دفع المفسدة العظمى إلا بالأخف) قاعدة يقينية، قطعت بها أدلة الشرع اليقينية: نقليها وعقليها؛ فلا يمكن أن يعارض هذه القاعدة خطاب شرعي.

فإن وجدت آية توهمت فيها المعارضة، فلا بد أن تعيد النظر في فهمك لها لتزيل التعارض المتوهم. وإن وجدت حديثاً يعارض القاعدة، فأعد النظر في ثبوته وفي فهمه، حتى تزيل التعارض.

فمثل هذه القواعد اليقينية تُحاكم آحاد النصوص إليها: ثبوتاً (إن كانت سنةً ظنيةَ الثبوت) ودلالةً (إن كانت قرآناً أو سنة ثابتة).

وما أكثر ما يُغفل عن ذلك، فتُفهم النصوص بما يعارض تلك القواعد، فنجعل ديننا بذلك نهباً للتناقضات، ونسيء إلى جمال اطراده وعقلانية أحكامه وفطرية مناهجه.

* * * * *

(بَينَ الأُصُولِيِّينَ والمُحَدِّثِينَ)

تعددت الدراسات التي تعقد موازنةً بين (الأصوليين) و(المحدِّثين)، هكذا بهذا الإطلاق!

وأول نقد يُوجه لهذا الإطلاق هو أنه كثيراً ما يتجاهل اختلاف تقريرات الأصوليين، فيسوق رأي الأكثرين (في أحسن أحواله)، وكأنه رأي جميعهم.

وثاني نقد: لو سألت أصحاب هذه الدراسات: من تقصدون بـ(الأصوليين)؟ هل يدخل مع هؤلاء أئمة المذاهب المؤسسين: كمالك والشافعي وأحمد، وكالأوزاعي والثوري والليث بن سعد وإسحاق بن راهويه؟

لا شك أن هؤلاء هم أصل الأصول، وما كُتبت كتب الأصول إلا لتقرير أصول بعض هؤلاء الأئمة.

فإن ادعوا أنهم قصدوا هؤلاء، فعليهم أن يدركوا أن هؤلاء الأئمة كانوا في عصورهم هم أئمة الفقه وهم أئمة الحديث أيضاً، ولذلك لا يصح أن ننسب إليهم خلاف رأي المحدثين! كيف وهم المحدثون؟!

وثالث نقد: أن كثيراً من المصنفين في علوم الحديث من المتأخرين هم أصوليون وفقهاء أيضاً: بدأ بالخطيب البغدادي (صاحب الفقيه والمتفقه)، والبيهقي (صاحب المدخل إلى السنن وغيره من التقريرات الأصولية)، إلى ابن الصلاح (المحدث والأصولي)، إلى الإمام النووي.. وأمثالهم. فكيف ننسب مثلاً للمحدثين رأياً قرره الإمام النووي يخالفه الأصوليون الذين منهم الإمام النووي أيضاً!

ورابع نقد: كيف نتصور أن الأصوليين كان لهم منهجهم الخاص المعتبر في نقد السنة، والذي يخالفون فيه المحدثين، مع أن كثيراً من أئمة الأصول يذكرون في شروط المجتهد، عند ذكرهم لشرط العلم بالسنة: أنه يكفي في علمه بالسنة أن يعتمد جهود نقاد السنة، وبعض الأصوليين ينصون على مثل البخاري ومسلم.

ألا يدل ذلك على اعتمادهم التام لمنهج المحدثين النقدي؟!

كيف نتصور أيضاً أن الأصوليين كان لهم منهجهم الخاص المعتبر في نقد السنة، والذي يخالفون فيه المحدثين، مع اعتبار أكثر المتكلمين من الأصوليين أن ما صححه الشيخان ليس فقط صحيحاً، بل هو مما يفيد اليقين النظري؟!

لا يجتمع هذا الحكم من الأصوليين ودعوى خلافهم للمحدثين في قواعد نقد السنة!

أقل ما توجبه هذه النقدات: هو أن يقيد أصحاب تلك الدراسات إطلاقاتهم بما يبين من يقصدون بالأصوليين وبالمحدثين!

وأكثر ما تدل عليه هذه النقدات: أن عموم هذه الدراسات (مهما كانت متميزة في فهم الأقوال المحكية وفي سعة الاطلاع) لم تخرج عن نمط الدراسات التقليدية النمطية، التي لا تدقق فيما وراء هذه الأنماط الجاهزة للتفكير.

* * * * *

(إحدَاثُ قَوْلٍ جَدِيدٍ يُخَالِفُ أقوالَ السَّابِقِينَ)

منعُ إحداث قول جديد يباين أقوال السابقين إنما هو مبني على حجية ما أسموه بـ(الإجماع المُرَكَّب): وقد تحدثت عنه في كتابي (اختلاف المفتين)، وقررت حجيته بشروط، وحجيته هي مذهب الأئمة الأربعة والمعتزلة معهم، وقد بينت النقول القاطعة بذلك عنهم في كتابي المذكور.

وضابطه عندي هو التالي: غلبة الظن (أو القطع) بعدم خروج اجتهاد أهل الاجتهاد عن الأقوال التي بلغتنا عنهم، مما يوجب أن يكون اعتقادُ احتمال خروج الصواب عن مجموع أقوالهم التي بلغتنا حكماً بضياع الدين (في زمن من الأزمان السابقة) وتضليلاً للأمة.

وشرط تحقق هذا الإجماع عندي أمران، بغيرهما لا يصح ادعاؤه:

أ ـ أن يكون في أمر تعم به البلوى، حيث إن ما لا تعم به البلوى ولا تعظم أهميته، لا تتوافر الدواعي عادةً على نقله.

ب ـ ويمر عليه زمن يوجب بمقتضى العادة أن يَـحفظ لنا اجتهادَ المجتهدين حوله، وهو زمن يختلف باختلاف أهمية المسألة المحكي فيها الاختلاف.

ولا أظن مسلماً يخالف: أنه لو ادعى أحدٌ اكتشافَ ناقضٍ للوضوء لم يذكره أحد من العلماء، رغم عموم البلوى الشديد في نواقض الوضوء، ورغم مرور هذه القرون المتطاولة على الأمة، ورغم توافر كل دواعي ذكر هذا الناقض لو كان كذلك ولو في القليل من المصادر

والاجتهادات الفقهية السابقة؛ لكان ادعاؤه هذا باطلاً، حتى لو احتمل النص كلامه احتمالاً ظنياً. وسيكون بطلان قوله مستنداً إلى أقوى حجج الإبطال: ألا وهو هذا الإجماع المركَّب.

أما نسبية ادعاء عموم البلوى، وعدم انضباط الزمن (كما أسمعه كثيراً) فهو خطأ في الفكر: لأن وجود ما لا يُختلف في كونه تعم به البلوى (كنواقض الوضوء) لا يلغيه وجود ما يُـختلَف فيه. كما أن وجود الوضوح الذي لا خفاء فيه واليقين الذي لا شك فيه لا يلغيه وجود ما يُـختلَف فيه منهما.

وأما عدم انضباط الزمن: فمثله؛ فلا شك أن هناك زمناً لا نشك معه باستبعاد أو باستحالة وجود خلاف ولا يُنقل، كما في مثال ناقض الوضوء، رغم تعاقب أربعة عشر قرناً على عدم الذكر، فيفيد مرورُ هذا الزمن بمقتضى العادة (والعادة التي لا تتخلَّف من مصادر المعرفة) إما غلبةَ ظنٍّ أو يقيناً بعدم وقوع الاختلاف.

وقد يقع الاختلاف في بعض الأزمنة مع بعض المسائل، فلا يكون استحقاق الاختلاف في بعض الصور والمسائل مبيحاً الاختلاف فيما لا يحق فيه الاختلاف. فالزمن ينضبط مرات، ونتفق على صحة دلالته مرات، ونختلف في بعض الصور، فلا يكون الاختلاف مانعاً من بناء التقرير على ما نتفق عليه.

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

(تَخرِيجُ الأحكَامِ عَلَى القَوَاعِدِ الأُصُوليَّة الكُلِّية)

يقول الإمام القرافي (ت٦٨٤هـ): (تخريج الأحكام على القواعد الأصولية الكلية، أولى من إضافتها إلى المناسبات الجزئية، وهو دأب فحول العلماء، دون ضعفة الفقهاء).

راجعوا أكثر البحوث المعاصرة لفقه المعاملات المالية، وغيرها، لتعلموا هل كتبها: فحول العلماء، أم ضعفة الفقهاء!

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

(الجُرأةُ عَلَى إبطَالِ الاحتِجَاجِ بالإجمَاعِ)

ما جرَّأ الناس وكثيراً من الباحثين المعاصرين على إبطال الاحتجاج بالإجماع شيءٌ مثل أمرين:

الأول: دعاوى الإجماع الباطلة، ومزاعم انعقاده بلا دليل صحيح.

والثاني: الاستدلال المتهافت لحجية الإجماع، والذي لا يدل على حجيته، ويتيح الاختلاف في صحة الاستدلال بها؛ بسبب ضعف دلالتها، أو بسبب ضعف ثبوتها!!

وللأسف ما زالت دعاوى الإجماع الباطلة تتكرر، من مثل دعوى الإجماع على تحريم تمثيل الصحابة.

فلا أدري هل يعرف مدعي هذا الإجماع على تحريم تمثيل الصحابة ما هو الإجماع؟! فإني إن أحسنت الظن سأقول: إنه لا يعرف ما هو الإجماع!!

فإن مجرد ادعاء الإجماع على شيء معاصر كهذا الأمر يدل:

إما على جهل بحقيقة الإجماع الذي لا يجيز الاختلاف.

أو يدل على بغي في الاختلاف، وعلى محاولة مصادرة الاجتهاد بغير وجه حق.

ويعرف ذلك من له أدنى معرفة بالإجماع الذي يتحدث عنه العلماء!

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

(دَعَاوَى الإجمَاع)

مما يبين مقدار ركام الأخطاء في تراثنا: كثرة ادعاء الإجماع فيما لا إجماع فيه، وكثرة ادعاء الخلاف فيما يصح فيه الإجماع!

وقد رجعت (كمثال لذلك) إلى كتاب: إجماعات الأصوليين: للدكتور مصطفى بو عقل، وهي في الأصل رسالة أكاديمية مقدمة في جامعة الجزائر.

واخترت إجماعات الأصوليين لعدة اعتبارات تجعلها أولى الإجماعات بالصحة، أو أولى مواطن عدم حكاية الاختلاف الذي لا يصح.

فكانت النتيجة دليلاً قاطعاً على هول ركام الأخطاء في تراثنا، في مسألة كبرى، كادعاء الإجماع أو ادعاء الاختلاف الناقض للإجماع المحكي!!

فعدد الإجماعات التي ذكرها الباحث: ٢١٢.

وعدد ما حكى فيه الاختلاف؛ ١٤٧.

وعدد ما رجح هو صحة الإجماع فيه (كما في خاتمة بحثه): ١٢٥.

هذه هي نسبة الخطأ في باب دعاوى الإجماع في تقرير قواعد الأصول، والتي أولى ما يقال فيها: إنها أولى فنون العلم بعدم وقوع هذا الخلل فيها! فكيف فيما سواها؟!!

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

(هَلْ قَوْلُ الْجُمْهُورِ هو مَصدَرٌ للتَّشْرِيعِ)!

أعجب ممن يجتهد لمنع الاجتهاد، وأعجب ممن يبتدع مصدراً جديداً للتشريع (وهو حجية قول الجمهور) لأجل نصرة مسألة خلافية يسوغ فيها الاختلاف.

كأننا خلصنا من الاحتجاج لحجية الإجماع (وخاصة الظني)، لكي ننتقل لاختراع مصدر جديد من مصادر التشريع: وهو قول الجمهور!!

هذا كله من أجل تحريم تمثيل الصحابة!!

فإذا كنا كلما أردنا التشنيع على خلاف معتبر أضفنا مصدراً جديداً للتشريع وقواعد جديدة للأصول، كم ستبلغ مصادر التشريع عندنا؟! وكم سنملأ أصول الفقه بجهالات القواعد المخترعة؟!

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

(كَيفَ نُرجِعُ الاختِلافَاتِ المحكيةَ إلى قولٍ وَاحِدٍ)؟

سأل أحد الفضلاء: كيف نستطيع أن نُرجع الاختلافات المحكية إلى قول واحد؟ ومتى يصح فيها ذلك؟

فأجبته:

تحرير كون الاختلاف مرجعه إلى قول واحد يتم بخطوتين كبيرتين:

الخطوة الأولى: تثبيت محكمات الباب وقطعياته، فبغير ذلك سيكون إرجاع المقالات إلى قول واحد ضرباً من التقول والتعسف غالباً، كما أنه يجب أن ترجع الأقوالُ إلى محكمات بابها وقطعياته.

إذ إن غالب هذا النوع من الاختلاف (الاختلاف المتوهَّم): إنما يكون في القطعيات التي لا يصح فيها الاختلاف أصلاً (وهو أولى أنواعه بالتحرير، وألصقه بكل اختلاف خطير).

وبذلك ستكون أول خطوة لتحرير ذلك: هي تثبيت محكمات الباب وقطعياته، لكي نميز بقطعية صوابيتها وحقانيتها المقالاتِ الأخرى المقطوع ببطلانها.

وتمييز المحكم من غيره يسير لمن يسره الله تعالى له، وهو لب العلم وأصله، وهو الفرقان، وأحسبه هو (الحكمة) التي من أوتيها فقد أوتي خيراً كثيراً.

ويتم هذا التمييز بإرجاع القول إلى أصوله: فأيما قول رجع إلى أصل (والأصل لا بد من يقينيته) وكان تَوصُّله إليه بمقدمات يقينية؛ فهو المحكم.

الخطوة الثانية: محاولة معرفة سبب توهم الاختلاف؛ لأن معرفة سبب ذلك التوهم تزيد اليقين يقيناً أو أوصلت إليه ودلت عليه.

وهذه الأحوال لا تخرج عن ثلاث صور:

١ـ أن يكون الاختلاف لفظياً، وتوهمه الناقلون حقيقياً. وضابطه: إمكان الجمع: بإرجاع القول المخالف إلى القول المحكم. ويبين ذلك أمور:

أ ـ أن يكون وقع خطأ في فهم المقالة المخالفة، أو في نسبتها.

ب ـ وجود لفظ أصرح منه لا يخالف المحكم (قد يكون هذا القول من صاحب القول المخالف نفسه، أو من تلامذته وأعرف الناس بمقالاته وألزمهم لها).

ج ـ شيوع عمل تطبيقي لصاحب القول لا يوافق قوله النظري المخالِف.

د ـ تصريح صاحب القول بعدم التزامه بلوازمه (وهذا أضعفها).

٢ـ أن يكون الاختلاف حقيقياً، ولكن صاحب الاختلاف مضطرب القول في مسألته: فله مقالة أو عمل مبني على القول المحكم الصحيح، وله أيضا مقالة أخرى أو عمل آخر يناقضه مناقضة حقيقية لا تحتمل الجمع.

فيكون هذا اضطراباً، والمضطرب في المذهب، لا يُنسب إليه مذهب؛ إذ أي مذاهبه التي اضطرب فيها هو الذي يمكن أن يُنسب إليه؟ ولأن اضطرابه فيه يدل على عدم اكتمال أسباب إصابة الحق، وعن قصوره عن اعتبار قوله ضمن مقالات الاجتهاد المعتبر.

٣ـ أن يكون الخلاف حقيقياً، ووقع من قائله بغير اضطراب منه فيه: فما دام يخالف محكماً، فهو قول ساقط، مهما علت منزلة قائله في العلماء. فالعلم هو الذي به تشرف العالم، فلا يكون المتشرِّف فوق منزلة الذي شرَّفه.

ففي هذه الحالة يكون الخطأ: لا في حكاية الاختلاف، فالاختلاف واقع وحقيقي؛ لكن الخطأ وقع في سياق المقالة الساقطة غير المعتبرة سياقَ القول القائم المعتبر.

هذه أهم معالم الطريقة.

وفي مقالتي التي بعنوان: (ضوابط فهم كلام أهل العلم) معالم عديدة تعين على سلوك هذا السبيل، وهي مقالة مطبوعة في كتابي: (إضاءات بحثية)، وكتابي: (الانتفاع بمناقشة كتاب الاتصال والانقطاع).

* * * * *

(لِتَحقِيقِ المَصَالِحِ وتَكثِيرِها)

عندما يقرر علماء الإسلام أن الإسلام جاء ليحقق السعادة للعباد في الدنيا والفوز في الآخرة، وأن أحكامه كلها جاءت لتحقيق المصالح وتكثيرها ودرء المفاسد أو تخفيفها، فهم يقصدون بذلك المصالح العامة، لا المصلحة الخاصة.

فمِنَ التفلُّت: جعل المصلحة الخاصة هي القائد إلى التحليل، ولو خالفت نصاً. فتفويت المصلحة الخاصة، لتحصيل المصلحة العامة، هو عين الحكمة والمصلحة.

ومِنَ التشدُّد: عدم مراعاة الحاجة العامة والتي تكون في منزلة الضرورة الخاصة، والتي تختل بعدم مراعاتها مصالح عموم الناس. فإهمال ذلك يفسد على الناس معايشهم، باسم الدين، وهو خطر على الدنيا والدين.

وكما كان الأول تفلتاً ليس من الدين، فإن الثاني تشدُّدٌ ليس من الدين.

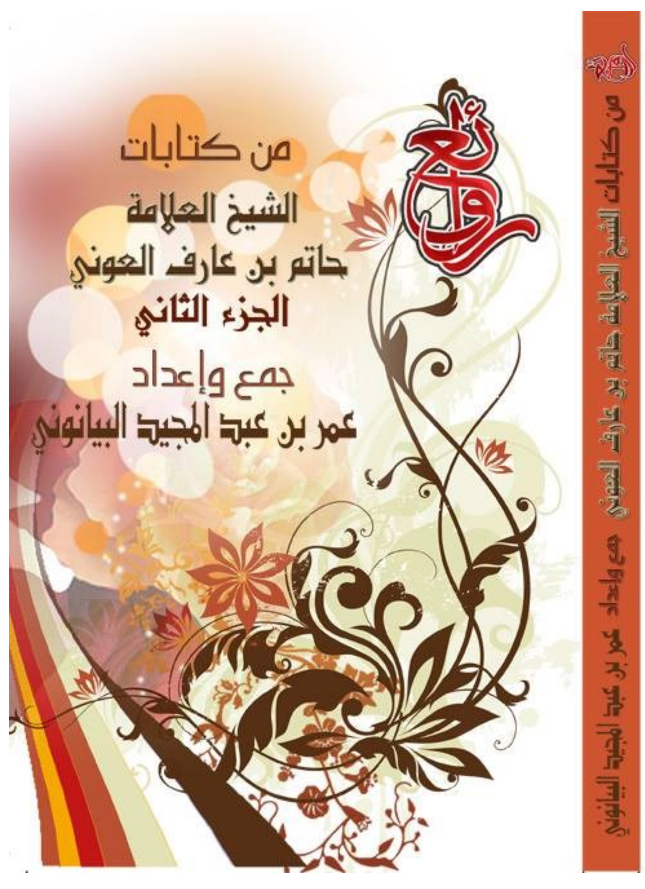




هذا والله تعالى أعلم

وصلّى الله وسلّم وبارك على عبده ونبيّه سيّدنا محمّد
وعلى آله وأصحابه أجمعين، والحمد لله ربّ العالمين.

فهرس المحتويات


روائع
من كتابات
الشيخ العلامة
حاتم بن عارف العوني
الجزء الثاني
جمع وإعداد
عمر بن عبد المجيد البيانوني
من كتابات الشيخ العلامة حاتم بن عارف العوني جمع وإعداد عمر بن عبد المجيد البيانوني

